وزارة التعليـــم العالـــي والبحـــث العلمـي
جـامعـــة العربـي بن مهيـــدي
- أم البواقي -

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

تمثلات الهوية والالتزام في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، رواية بعيدا عن المدينة لآسيا جبار، ورواية الحريق لمحمد ذيب أنموذجا

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب والعربي، تخصص "آداب عالمية"

إعداد الطالب:
بن عبد السلام بوبكر

إشراف:
أ. د. خشاب جلال

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	الاسم ولقب الأستاذ	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
01	دكدوك بلقاسم	أستاذ	أم البواقي	رئيسا
02	خشاب جلال	أستاذ	سوق اهراس	مشرفا ومقررا
03	حنون عبد المجيد	أستاذ	عنابة	عضوا مناقشا
04	عليوي سامية	أستاذ	عنابة	عضوا مناقشا
05	طاوطاو رزيقة	أستاذ	أم البواقي	عضوا مناقشا
06	بوحلايس سولاف	أستاذ محاضر"أ"	أم البواقي	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2021-2022

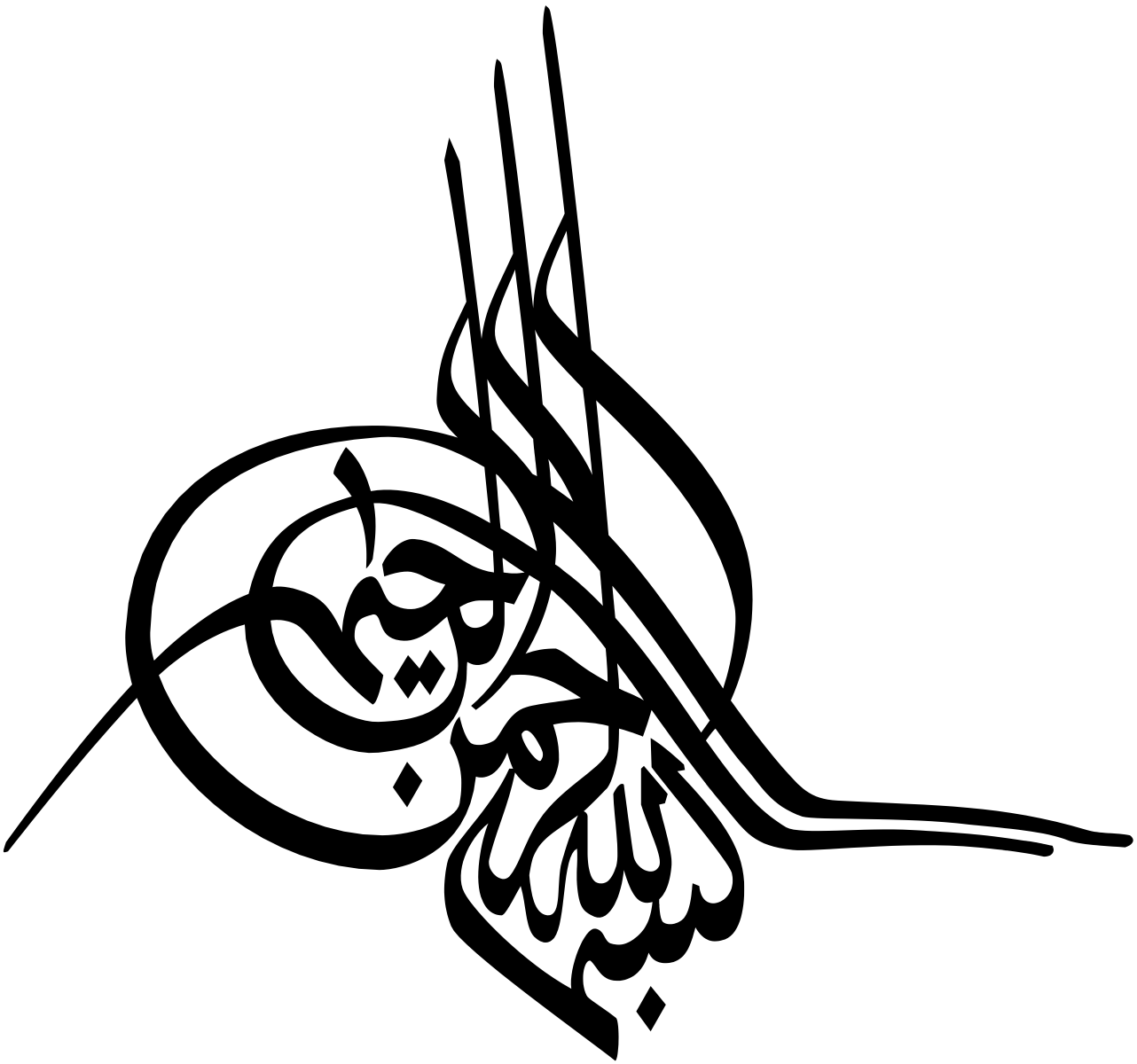
بسم الله الرحمن الرحيم

عرفان وشكر

الحمد لله الذي وفقنا إلى أن بلغ هذا البنيان تمامه، الحمد لله أولا، الحمد لله ثانيا، الحمد لله أبدا.

- الشكر موصول إلى أستاذي الفاضل **الأستاذ الدكتور خشاب جلال**، أستاذي في مرحلة الليسانس والمشرف على بحث الدكتوراه هذا، والذي كان لي بمثابة الأخ الناصح والصديق الموجه، قبل أن يكون المشرف المميز، فله مني الشكر كل الشكر.
- الشكر موصول أيضا إلى أعضاء لجنة المناقشة الموقرة كل باسمه.
- الشكر موصول أخيرا إلى كل من ساهم في إنجاز هذا البحث من قريب أو من بعيد.

مقدّمة

ولد الأدب الجزائري الحديث من رحم المعاناة التي كان يقاسيها الشعب الجزائري، في ظل السيطرة الاستدمارية، التي لم تكن لتسمح للأهالي من أن يتبوؤوا مجالات الكتابة الأدبية، خوفا من أن يسعوا إلى توظيفها، في مراحل لاحقة، في بث الوعي وإيقاظ النفوس وشحذ الهمم، من أجل تحقيق الحرية والانعتاق.

وبالرغم من سياسة التجهيل والتضييق التي فرضتها السلطات الاستدمارية، استطاعت نخبة من الجزائريين فك الحصار المفروض عليها، والنفاذ عبر مسامات جدار الفصل، الذي فرض عليها، إلى عالم الكتابة والإبداع الأدبي، حتى وإن كان بلغة هذا المستدمر نفسه، فغدت أداة فعالة، وسلاحا فتاكا، وظفته هذه النخبة في فعلها المقاوم لقوى الاستدمار، كاشفة زيف دعواه، ومفككة خطاباته وفاضحة سلوكياته البربرية، لقد كانت الكتابة الأدبية عند هاته النخبة، استجابة لنداء الحضور، والإعلان عن الذات، ومصدرا لانبثاق النور من ظلمة الفقد والغياب.

لقد أثار الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ولا يزال، نقاشا حادا بين الأدباء والمثقفين الجزائريين، بل وحتى داخل الدوائر الأدبية المتروبوليتانية، التي لاتزال تشعر بالوصاية على كل ما يكتب وينشر في الجزائر، فاختلفت حوله الآراء وتنوعت، لا بل وتناقضت أحيانا، فمن هؤلاء الأدباء من عده أدبا جزائريا خالصا مستندا إلى الروح التي كتب بها، ومنهم من أخرجه من هذه الدائرة الوطنية، مصنفا إياه ضمن الآداب الفرنسية، معتمدا في ذلك على رأي المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن في تصنيف الآداب، وطرف ثالث اعتبره أدبا هجينا، روحه جزائرية وجسده فرنسي ولكل مبرره.

تستوجب الدراسة في مثل هذه الأحوال اتحاذ مواقف متزنة وهادئة بهدف تحليل أسباب هذا التضارب في المواقف، بغرض التأسيس لقراءة علمية وموضوعية متحررة من كل الأحكام المسبقة، عملا بقاعدة اليقين، القاعدة الأولى التي وضعها " روني ديكارت " René Descartes في منهجه العلمي، الذي جاء على أنقاض المنهج الأرسطي الكثير التعقيد في نظره.

إن التعامل مع الأعمال الأدبية التاريخية بأذهان خالية من الأحكام المسبقة، يتيح لنا تحديد النظرة لهذه الأعمال من خلال مقاربتها من زاويا جديدة، تتماهى مع التطورات والمستجدات على المستوى الفكري والفني، فالوعي بهذه الإشكالية وترهين التعامل معها، سيشكل إضافة حقيقية وسيفتح آفاقا جديدة للبحث.

1 – الإطار الإشكالي للدراسة :

لقد توخينا في هذه الدراسة أن نزيل الغبار ونميط اللثام عن كتابات هذه النخبة خاصة الواقعة منها بعد الحرب العالمية الثانية، وكذلك الكتابات الواقعة زمنيا بين الحربين العالميتين، وكذا تلك المكتوبة في تسعينيات القرن الماضي، محاولين الإجابة، من خلال هذا البحث الذي وسمناه بـ : الهوية والالتزام في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية : رواية "بعيدا عن المدينة" لآسيا جبار ورواية " الحريق" لمحمد ذيب أنموذجا، عن جملة من التساؤلات التي شكلت جوهر هذا البحث من قبيل :

1– إلى أي مدى استطاع الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية تمثل الهوية الوطنية والإنتماء القومي ؟

2– وهل يمكن اعتبار الكتابة بلغة الآخر المستدمر خطيئة تستوجب التوبة ؟

3– وكيف تعاطى النقاد والأدباء مع الأدب ؟ هل لقي القبول وحظي بالمصداقية ؟ أم نظر إليه بخيفة وتوجس ؟

4– ثم ماذا عن الأدب الذي كتب ما بين الحربين العالميتين، والذي لطالما نعته بعض النقاد" بالأدب الاندماجي " La littérature assimilationniste، هل عبر فعلا على الهوية الجزائرية والتزم بالقضايا الوطنية ؟

5– وأخيرا، إلى أي مدى كانت آسيا جبار مؤهلة لخوض غمار مواجهة ثلاثية الأبعاد : دينية وتاريخية وسياسية ؟

2 – الإطار المنهجي للدراسة :

ومن أجل بلوغ هذه المرامات، كان لا بد من تحري الأدوات المنهجية الملائمة، التي من شأنها تيسير عملية الفحص والتحليل، وصولا إلى النتائج المرجوة، وقد وقع اختيارنا على اعتماد منهجين : المنهج التاريخي من أجل تتبع تيمة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية من الناحية التاريخية، غوصا في أعماق تاريخ الأدب الجزائري عموما، وتنقيبا وبحثا في أغواره، وصولا إلى الحقبة الاستدمارية التي شهدت ميلاد هذا الأدب وحتى يومنا هذا، والمنهج الوصفي باعتباره أكثر المناهج ملاءمة لدراسة الوقائع الاجتماعية من أجل تحقيق الفهم الصحيح لها، مستعينين بآلية التحليل من أجل فك شفرات النصوص وكشف خصائصها وكذا العلاقات التي تربط بين مختلف مكوناتها، وصولا إلى معرفة مميزاتها الأدبية والجمالية.

3 – الإطار المعماري للدراسة :

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يتم توزيع مادته العلمية على بابين وخمسة فصول، الباب الأول: باب نظري وسمناه بالإطار المفاهيمي كأساس عليه تتكئ هذه الدراسة، ويتضمن ثلاثة فصول، جاءت على الشكل التالي:

فصل أول وسمناه ب : الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية : مقاربة تاريخية ونقدية ، تطرقنا فيه للظروف والحيثيات والسياقات التي ظهر فيها هذا الأدب إلى الوجود، وقد تناولنا فيه بالدراسة والتحليل والفحص العناصر التالية :

1- تيار الأدباء الرحالة. Les écrivains voyageurs

2- أدب فرنسيي الجزائر. La littérature des Français d'Algérie

3- التيار المتجزئر. Le courant Algérianiste

4- التيار المتوسطي. Le courant Méditerranéiste

5- جيل ما بين الحربين. La géneration de l'entre deux guerres

6- جيل خمسينيات القرن الماضي. La génération des années cinquantes

7- المشروع الروائي لما قبل الثورة. Le projet romanèsque d'avant la révolution

8- المشروع الروائي الثوري أو أدب المقاومة. Le projet romanèsque révolutionnaire ou la littérature de la résistance

9- الجيل الجسر. La génération intermédiaire ou la génération pont

10- الأدب الإستعجالي. La littérature de l'urgence

11- جيل الألفية الثالثة. La génération du troixième millinaire

وذيلناه بجداول وأعمدة بيانية توضيحية.

أما الفصل الثاني فقد خصصناه لدراسة تيمة الهوية، جاء تحت عنوان : في فلسفة الهوية، وقد ضمناه ثلاثة مباحث ، قاربنا تيمة الهوية في المبحث الأول من زوايا أربع:

1- مقاربة فلسفية فكرية

2- مقاربة أنثروبولوجية ثقافية

3- مقاربة سيكولوجية سوسيولوجية .

4- مقاربة جندرية أنثوية.

وتناولنا في المبحث الثاني إشكالية اللغة والهوية من خلال البحث في المسائل ذات الصلة التالية :

1- اللغة تكريس لمفهوم الهوية .

2- اللغة رمز للانتماء

3- إشكالية التعدد اللغوي

4- اللغة الفرنسية في الجزائر غنيمة حرب أم استلاب هواية ؟

فيما عنونا المبحث الثالث بـ : البعد الهوياتي المتعدد وقهر العولمة، أشرنا فيه إلى القضايا التالية:

1- العولمة وخطر تشظي الهوية .

2- المثاقفة وطمس الهوية

3- الهوية المتعددة والهوية القاتلة .

4- الحداثة والهوية أو الموقف من التراث .

وجاء الفصل الثالث الذي خصصناه لموضوع الالتزام في الأدب تحت مسمى الالتزام والأدب: أي تعالق؟ لنختتم به الإطار المفاهيمي لبحثنا هذا، وقد عرجنا فيه إلى المسائل المفاهيمية التالية :

1- أركيولوجيا الالتزام الأدبي.

2- الواقعية الاشتراكية منظرا للالتزام.

3- الوجودية محضنا للالتزام.

4- الالتزام بين الواقعية الاشتراكية والوجودية.

5- الثورة الجزائرية محكا للالتزام.

6- الالتزام من وجهة نظر إسلامية

أما الباب الثاني، فباب تطبيقي، انبني على فصلين : فصل أول تمحور حول الهوية في رواية " بعيدا عن المدينة " لآسيا جبار، وفصل ثان، فيه ذكر لأهم تجليات ظاهرة الالتزام الأدبي في رواية الحريق لمحمد ذيب .

وقد ذيلناهذا البحث بخاتمة حاولنا أن نحوصل فيها أهم النتائج والخالصات التي توصلنا إليها في مشوارنا البحثي هذا، مثبتين في الأخير قائمة بأسماء المصادر والمراجع التي استعنا بها، وعدنا إليها في إنجاز هذه الدراسة المتواضعة .

4 – مبررات الدراسة :

4 – 1 المبرر الموضوعي :

لعب الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية دورا محوريا في الدفاع عن هوية الشعب الجزائري وانتمائه القومي، وفي صون دينه وكرامته، موظفا لغة المستدمر نفسه، ومتخذا منها أداة فعالة في نضاله من أجل قضيته، لكن وبالرغم من هذا الدور التوعوي – الذي كان من ثماره بث روح الحماسة والتمرد والثورة في صفوف الجماهير، وصولا إلى إعلان الثورة المسلحة ضد المستدمر، وانتهاء بنيل الحرية – إلا أن هذا الأدب لم ينل حقه من الدراسة والفحص والتحليل طوال هذا السنوات التي أعقبت الاستقلال، خاصة في الدوائر الأدبية والنقدية المعربة، التي ينظر الكثير من رموزها لهذا الأدب بعين الريبة والشك والتوجس، ولعل إشكالية ترجمة هذا الأدب إلى اللغة العربية تؤكد هذا التوجه، وهذا ما دعانا إلى إيلاء الاهتمام الكافي لهذه المسألة، والسعي إلى تجسير الهوة التي تفصل بين الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية والمتلقي المعرب.
وقد وقع اختيارنا على مدونتين هما : رواية " بعيدا عن المدينة " Loin de Médine، التي لم تترجم بعد إلى اللغة العربية في حدود علمنا، كالكثير من أعمال صاحبتها، وسعينا لمقاربتها من زاوية الهوية، إضافة إلى رواية " الحريق " لمحمد ذيب، التي اجتهدنا في مقاربتها من زاوية الالتزام الأدبي، وقد كان اختيارنا هذا اختيارا واعيا ومدركا ومبصرا، على اعتبار أن تخصصنا في الآداب العالمية اقتضى منا الحرص على تناول مدونات لأدباء رشحوا للولوج للعالمية، فقد رشحت " آسيا جبار" لجائزة نوبل للآداب في بداية الألفية الثالثة كما رشح " محمد ذيب " للجائزة نفسها سنة 2009.

4– 2 المبرر الذاتي :

أما فيما يتعلق بالمبرر الذاتي لاختيارنا لهذه التيمة، فهو طبيعة تكويننا العلمي، كوننا كنا ضمن آخر الدفعات في المدرسة الجزائرية التي تلقت تكوينها العلمي والتقني باللغة الفرنسية (الهيدروجيولوجيا

Hydrogéologie)، وهو الشيء – منضافا الى ميولاتنا اللغوية الشخصية – الذي حفزنا على تناول مثل هذه الموضوعات.

5 – أهمية الدراسة :

إنه لمن نفل القول، الزعم بأن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية لم يحظ بالاهتمام الكافي والعناية المرتجاة من قبل الباحثين والدارسين والمهتمين بهذا الشأن، وبخاصة عند النخب المعربة، ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة.

لقد استلهم الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية الوقائع المريرة التي عاشها الشعب الجزائري أكثر من استلهامه للوقائع السعيدة على ندرتها، ونجح إلى حد كبير في إعادة صياغتها وتقديمها للجمهور في زي جديد، موظفا عملية التخييل للتأثير على المتلقي، فأصبح هذا الأخير أكثر وعيا بالواقع الذي يحياه.

لقد نجح الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في نشر الأفكار الثورية والقيم الوطنية، وفي انبثاق وعي جمعي أسس فيما بعد لثورة شعبية شاملة.

كما اجتهدنا من خلال هذه الدراسة في تبيان أن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ورواية "الحريق" تحديدا، كانت دعوة ضمنية للشعب الجزائري للثورة على الظلم والقهر والاستبداد الذي كان يعيشه، وإيذانا بميلاد فجر جديد عنوانه الكرامة والحرية والسيادة، وسعينا من جهة ثانية لإبراز مسألة غاية في الأهمية وهي أن تكتب المرأة عن المرأة، وأن لا يكتب عنها بالوكالة، فكانت رواية " بعيدا عن المدينة " Loin de la Médine للروائية آسيا جبار أنموذجا جادا، وحالة نادرة للكتابة الأنثوية عن الدور الذي لعبته المرأة المسلمة في صدر الإسلام الأول، فكانت محاولة جريئة في تدوير الزوايا، وتجديد الرؤى، وبعث الاجتهاد من جديد، وتكريس هوية المرأة المسلمة، من خلال إعادة قراءة تاريخها الذي كتبه الرجال، لكن من منظور أنثوي صرف، ومن ثم إعادة كتابة هذا التاريخ بحس أنثوي.

6 – أهداف الدراسة :

لقد حاولنا من خلال هذه الدراسة تحقيق جملة من الأهداف التي نراها من الأهمية بمكان :

1 – العمل على إعادة الاعتبار لهذا الأدب من خلال توجيه المتلقي إلى إيلاء الاهتمام اللازم والعناية الكافية لهذا النوع من الأدب، اعتبارا واعترافا بالدور المهم والخطير الذي لعبه قبل الثورة التحريرية وأثناءها وغداة الاستقلال.

2- السعي للتعريف بهذا الأدب (رواية وقصة وشعرا وقطع مسرحية...) وبرموزه، وذلك بالتنبيه لفتح تخصصات إضافية في مؤسسات التكوين العالى تعنى بهذا الأدب، وعقد المتلقيات والندوات واقتراح مشاريع علمية في هذه التيمة، وكذا السعي والاجتهاد في ترجمة هذا الأدب إلى العربية، وأن لا تبقى هذه المهمة محصورة في الشوام، وهم مشكورون على صنيعهم.

3- المساهمة في رأب الصدع وتجسير الهوة وكسر الحواجز التي تشكلت عبر الزمن بين التيارين : المعرب والفرانكفوني، والتي لطالما غذتها وزادت في حدتها الأحكام المسبقة للطرفين تجاه بعضهما البعض.

4- تروم هذه الدراسة أيضا، ولو بطريقة ضمنية غير معلنة، تنبيه المنتمين إلى أقسام اللغة والأدب العربي في الوسط الجامعي، إلى أهمية توجيه الطلبة لتناول ابداعات هذا الأدب كمدونات لمشاريعهم البحثية، وهي مهمة ملقاة على عاتق المشتغلين بمجال اللغة والأدب، ومزدوجي اللغة منهم تحديدا.

7 - الدراسات السابقة :

تكاد تكون الدراسات التي سبق وأن تناولت هذا الموضوع بالدراسة والتحليل، محصورة فيما كتبه مجموعة من النقاد الفرنسيين، وثلة من الجزائريين، ويأتي على رأس هؤلاء عراب هذه التيمة بامتياز، الباحث والناقد الفرنسي " جون ديجو Jean Déjeux " الذي خص هذا الأدب بمجموعة من الدراسات القيمة، أضحت مرجعا مهما لكل مريد لهذا الأدب، ومن أهم هذه الدراسات :

1- La littérature Algérienne contemporaine.

2- Situation de la littérature Maghrébine de langue Française.

3- Littérature Maghrébine de langue Française.

4- Dictionnaire des auteurs Maghrébins de langue Française.

5- La littérature féminine de langue Française au Maghreb.

و" شارل بون " Charles Bonn في الدراستين الموسومتين ب :

1- Le roman Algérien de langue Française.

2- Psychanalyse et textes littéraires au Maghreb.

و" جاكلين آرنو " Jacqueline Arnaud في مؤلفها :

1- La littérature Maghrébine de langue Française.

ومن الباحثين الجزائريين القلائل الذين تناولوا هذا الموضوع، أذكر من بينهم :

1 – أحمد منور في طائفة من مؤلفاته (الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة بالفرنسية، ملامح أدبية : دراسات في الرواية الجزائرية...).

2 – أحمد لناصري في مؤلفه العلم :

- La littérature Algérienne de l'entre deux guerres, genèse et fonctionnement.

3 – فوزية بن جليد في بحثها الموسوم ب :

- Le roman Algérien de langue Française.

4 – أمين الزاوي في رسالة المجستير التي ناقشها في جامعة دمشق بسوريا سنة 1984 و الموسومة ب : الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.

ويبقى من العسير الإحاطة بكل الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، وحسبنا أننا قد ذكرنا أهمها في هذا المقام .

8 – صعوبات البحث :

من الطبيعي أن تعترض طريق الباحث صعوبات تحول دون إنجاز بحثه بالصورة التي يرغب فيها، ومن الطبيعي أيضا أن يجتهد هذا الباحث في تذليل هذه الصعوبات وتجاوزها، وذلك جزء لا يتجزأ من العملية البحثية، وبالتالي فلا حاجة للتركيز عليها، فإن كان و لا بد من ذكر أهمها، فإنا نرى أن مسألة الانقطاع عن البحث لفترات زمنية معينة، هو أكبر عائق اعترض مسيرتنا البحثية هذه، فكل عودة بعد انقطاع، ترانا وكأننا نبدأ البحث من جديد،

لا يفوتنا في هذا المقام أن نتقدم بالشكر الجزيل والامتنان الكبير للسيدة " كلار ريفار " Claire Riffard مسؤولة فريق Manuscrits Francophone في معهد Institut des Item – Cnrs – Paris (textes et manuscrits Francophones) على ما شملتنا به من رعاية وما قدمته لنا من عون ومساعدة أثناء إجراءنا لتربص في هذا الصرح العلمي، في شتاء 2019، كما لا يفوتنا أيضا أن نشكر الباحث والآكاديمي الفرنسي " آرفي سونسون " Hervé Sonson، المتخصص في أعمال " محمد ذيب " على ما غمرنا به من كرم، وما أسداه لنا من توجيهات قيمة، ذات صلة بجوهر بحثنا، أثناء اللقاء الذي جمعنا به، والسيدة آمال شواطي رئيسة " نادي أصدقاء آسيا جبار " Cercle des amis d'Assia Djebar

على المقابلة التي حظينا بها معها عقب اللقاء الأدبي حول مؤلفها " ترجمة أعمال آسيا جبار" بالمركز الثقافي الجزائري بباريس في 2019/3/7.

لم يبق لنا في الأخير إلا أن نتوجه بالشكر الجزيل والتقدير الكبير للأستاذ الدكتور " **خشاب جلال**"، المشرف على هذا البحث، لما خصنا به من مشمول الرعاية والاهتمام، من خلال توجيهاته القيمة ونصائحه السديدة، وما أمدنا به من مراجع مهمة ومطبوعات ثرية، أغنت مكتبة بحثنا هذا، كما نشكر له حرصه الشديد على أن نتم بحثنا هذا في الآجال المحددة، وأن لا ننقطع عنه، وبتوفيق من المولى عز وجل كان الأمر كذلك، فله منا كل عبارات الشكر والامتنان، فضلا عما أفاض به علينا من علمه ونصحه وتواضعه، الشيء الذي سدد خطى هذه الرسالة فجعلها تدرك غايتها، والله نسأل في الأخير السداد والتوفيق.

بن عبد السلام بوبكر

سدراتة في: 2021/06/06

البـــاب الأول

الفصـــل الأول

الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية :

مقاربة تاريخية ونقـــديـــــة

1- مقاربة تاريخية و نقدية (الأدباء الرحالة، أدب فرنسيي الجزائر، التيار المتجزئر، التيار المتوسطي)

2- الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية (جيل ما بين الحربين، جيل خمسينيات القرن الماضي، المشروع الروائي لما قبل الثورة، المشروع الروائي الثوري أو أدب المقاومة، جيل ستينيات القرن العشرين أو الجيل الجسر، الأدب الاستعجالي، جيل الألفية الثالثة، جداول وأعمدة بيانية توضيحية)

الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

مقاربة تاريخية ونقدية.

تعود بداية التجربة الأدبية في الشمال الافريقي عموما، وفي الجزائر تحديدا بحسب الكثير من الباحثين والأكاديميين إلى العهد الروماني، إذ يعتبر هؤلاء أن الرواية الموسومة ب : "الحمار الذهبي" Asinus Auréus" ل :" لوسيوس ابوليوس[1] "Lucius Apuleuis أو Apulée، والمكنى ب: " أفولاي" في اللغة البربرية، هي باكورة الأعمال الروائية في الشمال الإفريقي، لا بل وفي تاريخ البشرية قاطبة.

تأثر هذا العمل، كأي إبداع أدبي، بإبداعات الأمة اليونانية من قبل، يقول "محمد غنيمي هلال" تعليقا على ذلك :"... تأثرت القصة اللاتينية بالقصة اليونانية، وأشهر قصة يمثل بها لذلك التأثر هي قصة "المسخ" أو "الحمار الذهبي"، ألفها "ابوليوس" Apuleuis في النصف الثاني بعد الميلاد، ولها أصل يوناني مجهول ..."[2]

إذا كان محمد غنيمي هلال يقول بالأصل المجهول لهذه الرواية، وهو الموقف نفسه تقريبا الذي عبر عنه"حميد لحميداني"، فإن "علي شلش" و"محمد شفيق" يذهبان إلى القول بأفريقية الرواية وأبوليوس، الذي يعده هذا الأخير بالإضافة الى المسرحي " ترنتيوس[3] " Terentius من المرجعيات الأولى للأدب

---

[1] – لوسيوس أبوليوس Lucius Apoleuis : (125م – 180م) فيلسوف و مسرحي و شاعر غنائي و ملحمي و خطيب أمازيغي نوميدي روماني من أهم أعماله : نظرية أفلاطون ، شيطان سقراط، و الحمار الذهبي .

[2] – محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر،2001، ص 165 .

[3] – بوبليوس ترينتوس : Publius Tertinius أو "آفر" Afer (190ق م – 150ق م) كاتب و مسرحي قرطاجي روماني، وصلنا من أعماله ست مسرحيات1 – فتاة أندروس، 2 – الحماة، 3 – المعذب نفسه ، 4 – الخصي ، 5 – فورهبو، 6 – الأخوان.

الذي كتبه أدباء ومفكرو شمال إفريقيا، يقول علي شلش "... لقد اكتشفت في بحثي عن جذور الدراما الإفريقية أن ثمة كاتبا معروفا في التراث المسرحي الأوروبي في العصر الروماني هو "ترنتيوس" أو "تيرانس"، قد جاء من أصل إفريقي وأنه كان عبدا أعتقه سيده، في ما بعد وضع عليه لقب أسرته و لكنه احتفظ له بكنية الإفريقي Afer، وقد كتب تيرانس جميع أعماله المسرحية باللغة اللاتينية ..."[1]

وقد كان لأعمال "تيرانس" Térence كبير الأثر في الآداب الأوروبية اللاحقة التي أعقبت النهضة في القرن الرابع عشر (14) ميلادي، خاصة ما تعلق منها بالجانب الدرامي.

لقد كان "ترانتيوس" الشمال الإفريقي مسرحيا لا يشق له غبار، وعلامة فارقة في التاريخ المسرحي العالمي بما يمثله من مرجعية ورمزية ومصدر للإلهام.

أما المؤرخ الفرنسي "شارل آندري جوليان"Charle André Julien، صاحب مؤلف تاريخ شمال إفريقيا، فقد عد هو الآخر "أبوليوس"أديبا افريقيا بقوله :"... كان أبوليوس المولود حوالي 125م من أشهر الكتاب الأفارقة ..."' وقد ذكر مبارك بن محمد الميلي في كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث "أبوليوس" معتبرا إياه من عظماء البربر في الشمال الإفريقي، ومن أشهر علمائهم، يقول "... ومنهم أبوليوس، قال بيروني : هو من أكمل الرجال وأعظمهم فائدة في عصره، وأحسن وصف له وأصدقه أن تقول : هو رجل مخترع مؤسس لمبادئ كثيرة ..."[2]

يرى "جون ديجو"Jean Déjeux أن هؤلاء العمالقة الذين خلدوا اسماءهم في تاريخ الآداب العالمية، كتبوا باللاتينية لغة لغزاة، لكنهم عبروا عن مجتمعاتهم وأوطانهم وهوياتهم، لما تحمله من معتقدات وفكر

[1] – علي شلش، الأدب الإفريقي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1993، ص 22.

[2] – مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 306.

وثقافة وعادات وتقاليد، فكان التثاقف والانفتاح على الآخر، والاسهام من ثم في بناء صرح الحضارة الإنسانية : " ... بدء من هذه القرون المتأخرة، لم يكن المغرب الكبير مستهلكا للعلوم فقط، لقد استمر في القرون اللاحقة في انفتاحه على الآخر، فمن الشرق انطلقت اللغة والحضارة العربية الإسلامية بإتجاه شبه الجزيرة الإيبيرية، محملة بفلسفة القدامى التي أضاءت سماء عصر الظلمات الأوروبي ..."[1]

" De ces siècles reculés, le Maghreb ne faisait pas que recevoir. Dans les siècles suivants, il restera aussi ouvert : d'orient la langue, la civilisation arabo-musulmane passèrent en Espagne par le Maghreb, cheminant à travers celui – ci la philosophie des anciens, allait en effet illuminer le moyen Age européen ... "[2]

لقد حاول "أبوليوس" من خلال رواية الحمار الذهبي إضفاء صبغة عجائبية عليها، إحقاقا للمتعة واستشعارا للذة، بناء على ما تمنحه هذه العجائبية من فرادة وخصوصية للعمل الروائي، وقد اقتفى هذا الأثر من بعده العديد من المبدعين، من الغرب كما من الشرق، محاولين إيصال أعمالهم لأكبر عدد من المتلقين بعدما أصبحوا مسكونين بهاجس العالمية أكثر من أي وقت مضى، ك : "ألفونس دودي، Alfonse Daudet"غي دوموبسان" Guy de Maupassant، و "كافكا" Kafka.

برزت في هذه المرحلة المفصلية من تاريخ شمال إفريقيا، أسماء كثيرة خلدت ذكرها بما أنتجته من أعمال لا تزال الألسن ترددها ليوم الناس هذا ، وقد حاول الباحث والناقد والمؤرخ للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية "جون ديجو" التعرض لهؤلاء بقوله : "... برزت أسماء كثيرة، " أبوليوس المادوري " (مداوروش)

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, La littérature Algérienne Contemporaine,2eme édition, presse Universitaire de France, Paris, 1979, p : 05.

صاحب رواية الحمار الذهبي، المثيرة والعجائبية " تارتوليان[1] " المولود بقرطاج، الذي دوى دفاعه الشرس عن المسيحية الأسماع، " منيسيوس فليكس[2] "ذي الأصل التبسي وصاحب المحاورات الشهيرة ب : أوكتافيوس (...)، كما ظهر في القرن السادس " أوبتات[3] " الميلي، و بشكل خاص ظهر العظيم " أوغستين " المولود بسوق أهراس سنة 354م المتوفى بعنابة سنة 430م ..."[4]

"... Des noms sont réputés, Apulée de Madaure (M'daourouch) écrivant un roman truculent fantastique " l'âne d'or ", Tertullien né à Carthage mais dont la vigoureuse apologétique résonnait au loin, Minicius Félix originaire de Thélèpe (Tebessa) auteur du célèbre dialogue de l'Octavius ... Au 6e siècle surgissent Optat de Milève (Mila), et surtout le Grand Augustin né à Thagaste (SoukAhras) en 354, mort à Hippone (Annaba) en 430.[5]..."

ولعل أحسن من مثل هذه الأجيال هو " أوغستين هيبون Augustin d'Hippone" الشخصية المرتبطة بأرضها و ذات النزعة الإنسانية العالمية، و المنظرة للفكر الغربي و التاريخ المسيحي .

[1] – تارتوليان : Florence Tertullianus (160-150 م -> 220 م) كاتب لاتيني ذو أصول بربرية، تحول الى المسيحية و أصبح عالم لاهوت، تعزى شهرته لكونه أول من استعمل كلمة ثالوث Trinétas .

[2] – مينيسيويدس فليكس :Minicius Felix كاتب عاش في القرن 2م في تبسة ثم انتقل الى روما ، يعد أحد آباء الكنيسة.

[3]– اوبتات Optatus Milèvétanus ، أسقف ميلة، توفي قبل سنة 397 ، له "مؤلف ضد الدوناتيين" Traité contre les donatistes .

[4] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[5] – Jean Déjeux, La littérature Algérienne Contemporaine, opcit, p : 04.

لقد كان للتوجهات الفكرية ل "أوغستين هيبون" أثرها الجلي في مسار المعرفة الإنسانية من خلال زعزعتها لأركان الفكر القومي الضيق، وخلخلة الإرتباطات العرقية المقيتة، وإرساء بدلا من ذلك فكرة التواصل بين البشر فيما بين ضفتي المتوسط بشكل خاص، كما وكان لفكر "القديس أوغستين" الذي تقام حوله دراسات وأبحاث لا حصر لها، تأثير جلي في توجهات زعامات فكرية مسيحية لعل أبرزها "مارتن لوثر"[1] Martin Luther، و "جون كالفن"[2] Jean Calvin الذين أسسا للتيار الإصلاحي، الشئ الذي هز كيان الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، ممهدا لظهور المذهب البروتستانتي في أوروبا .

عرف بعد ذلك الأدب الجزائري مراحل كثيرة، ومر بمحطات عديدة خاصة بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، فمن الدولة الرستمية التي فيها "... ظهر أول جيل من الأدباء الجزائريين الحقيقيين ..."[3] إلى دولة الأغالبة التي انحصر اهتمام الأدباء فيها على التأليف في المجال الديني البحت، كالفقه والتفسير وعلوم القرآن، وفي هذا المعنى يقول محمد الطمار في مؤلفه تاريخ الأدب الجزائري أنه "... من العبث أن نبحث عن الدراسات الأدبية البحتة في النصف الأول من القرن الثاني، فالأدباء كانوا فقهاء أكثر منهم كتابا وشعراء، فإنهم يهتمون بالمعنى ولا يحتفلون بالجمال الفني ..."[4]

وهو نفس ما ذهب إليه " جان ديجو " :"... أضحى الأدب في هذه الفترة يعني بالأساس التفاسير القرآنية والمؤلفات القانونية و اللاهوتية وعلوم النحو ..."[5]

---

[1] – مارتن لوثر Martin Lather: (1483 – 1546)، هو قسيس و راهب ألماني، و هو أول من أطلق عملية الإصلاح الديني، مؤسسا بذلك للمذهب البروتستانتي.

[2] – جون كالفنJean Calvin: (1509 – 1564)، مصلح ديني و لاهوتي فرنسي، مؤسس المذهب الكالفيني المنتشر في سويسرا و فرنسا.

[3] – محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981، ص 30 .

[4] – محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، المرجع السابق، ص 45 .

[5] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"… En outre, on entendait à cette époque – là par littérature, principalement des commentaires coraniques, des traités de droit et de théologie, des grammaires …"[1]

تلت ذلك المرحلة الفاطمية، التي ازدهر فيها الأدب وسما شأنه، بسبب ما مثله ذاك الصراع الفكري بين الشيعة والسنة من عامل إغناء وإنماء للإبداعات الأدبية والفكرية، وقد كان هذا ديدنه فيما تتابع من الحقبات التاريخية التي شهدتها بلاد المغرب أثناء الحكم الاسلامي لها، من صنهاجية وحمادية وحفصية وموحدية و مرينية، وصولا إلى فترة الحكم العثماني التي شهدت التحرشات الإسبانية بالجزائر من الخارج من جهة، و من جهة أخرى تطاحن الملوك و الأمراء على السلطة في الداخل "… فكثرت المحن وتألمت الجزائر، والأدب هو الآخر أخذ الضعف يدب في مسار مفاصله، وقل رجاله، ولم تبق منه الحركة الفكرية التي طالما ازدهرت قبل هذه الفترة، إلا ذلك البصيص النافذ من بيوتات عرفت بالعلم من قديم …"[2]

كما اقتصرت الأجواء الأدبية والفكرية في الجزائر على مستوى البلاط الملكي، ولم تعد كما كانت في سابق عهدها كما كان الحال مع الفاطميين و الحماديين و الحفصيين و الموحدين، بالرغم من أن بعض الأكاديميين ومؤرخي الأدب يقفزون على هذه المراحل التاريخية المفصلية للحركة الأدبية و الفكرية في الجزائر، ويعتبرونها صحراء قاحلة بلا فكر ولا أدب، فلم تعد هناك الابداعات النثرية الحقيقية، و لا المنظومات الشعرية الأنيقة و لا المناظرات الفكرية العميقة، فتراجع دور الأدب الفاعل في الحياة الثقافية و الاجتماعية و السياسية، في ما يذهب جان ديجو مذهبا آخرا بقوله : "… يظهر هذا التجوال عبر الزمن أن ما يطلق عليه بالعصور المظلمة لم تكن كذلك كما أريد لها. لم تكن الجزائر في هذه الفترة التاريخية الغابرة عاقرا من الناحية الأدبية، لقد كان علماؤها و شعراؤها و علماء دينها و المشتغلين بالقانون فيها،

[1]. Jean Déjeux, La littérature Algérienne Contemporaine, opcit , p : 05 –

[2] – محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، المرجع السابق، ص 280 .

المتواصلين مع الشرق و مع الأندلس، المتنقلين بين أطراف المغرب العربي البربري، الشهود الأحياء لعظمة الحواضر كتلمسان و الجزائر وبجاية و قسنطينة و مسيله و منطقه المزاب بعد أفول نجمي تيهرت و سدراتة ..."[1]

"... Ce simple tour d'horizon montre que les siècles dits "obscurs" ne l'ont pas été autant quand veut bien le dire. L'Algérie de ces époques anciennes ne fait pas figure de parent pauvre. Ses savants et ses poètes, ses juristes et ses théologiens en contact avec l'orient et avec l'Andalousie, circulent d'un bout à l'autre du Maghreb arabo-berbère, étaient les témoins vivants de la gloire des cités telles que : Tlemcen, Alger, Béjaia, Constantine, M'Sila celles des communautésibadites du M'Zab après la disparition de Tahert et Sédrata ..."[2]

وهو رأي فيه من الموضوعية و الحقيقة التاريخية ما يجعله يتقاطع مع الكثير مما كتبه المتخصصون في هذا المجال المعرفي.

1 - الأدباء الرحالة : Les écrivains voyageurs

إتجه الكثير من الكتاب إلى هذا الفن الأدبي الانطباعي، أدب الرحلة، الذي اعتمد أساسا على الوصف والحوار واستخدامه للأسلوب القصصي، فكان له دور بارز في معرفه الآخر والانفتاح عليه، وهذا بغض النظر عن طبيعة الرحلة أكانت "... رحله جغرافية، رحله خيالية، أو رحلة ما بين اللغات والثقافات،

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Jean Déjeux, La littérature Algérienne Contemporaine, opcit, p: 09.

كل هذه الرحلات تضع الأنا في مقابل الآخر، وتعد تمثلا لمختلف أوقات الالتقاء بين افريقيا و اوروبا والأمريكيتين ..."[1]

"... Voyage géographique, voyage imaginaire, voyage entre les langues et les cultures, Ils mettent tous en rapport le même avec un autre et se veulent une représentation de différents moments de mise en contact entre l'Afrique, l'Europe et les Amériques ..."[2]

وقد ساهم الاستشراق الذي رأى النور في القرن السابع عشر ميلادي بشكل كبير في تجسير الهوة التي كانت تفصل الشرق عن الغرب، من خلال مجهودات المستشرقين في جمع المخطوطات وترتيبها وتحقيقها، سعيا منهم لمعرفة عميقة لبلاد الشرق، لغايات البعض منها علمي ثقافي والبعض الآخر سياسي أيديولوجي، تقول سكينة مساعدي :"... الم تكن الغرائبية الاستشراقية في نهاية القرن التاسع عشر تمثل بعدا ثقافيا وآلة سياسية غربية موجهة بالأساس لتبرير التوسع الاستعماري ..."[3]

"... L'exotisme orientaliste ne représentait-il pas d'ailleurs à la fin du 14è siècle une dimension culturelle et une entreprise politique occidentale destinée à justifier l'expansion coloniale ..."[4]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Elisabeth Mudimbé – Boyi , Essais sur les cultures en contacts, Afrique, Amérique, Europe, Khartala, Paris, 2006, p : 243.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Sakina Messadi , les romancières coloniales et la femme colonisée, entreprise nationale du livre, Algérie, 1989, p : 13.

ويؤكد هذه الفكرة أيضا الناقد الأمريكي ذو الأصول الفلسطينية" إدوارد سعيد " في مؤلفه " الاستشراق" قائلا : "... وقد ساهم الاستشراق في تكريس هذه النظرة الاستعلائية من حيث اعتبارها أسلوب غربي للهيمنة على الشرق و مقدراته، وإعادة هيكلته والسيطرة عليه، فلقد تزامنت فترة التقدم الهائل في مؤسسات الاستشراق ومضمونه، تزامنا دقيقا مع فترة التوسع الأوروبي الذي لا نظير له ..."[1]

و في هذا السياق نفسه، يؤكد " أوجين دوما" Eugène Daumas، أنه في ظل الهيمنة الفرنسية على الجزائر عموما و بلاد القبائل بشكل خاص، ستنعم هذه الأخيرة بالأمن والرخاء المادي : "... وتحت سيطرتنا الذكية كما سبق الإشارة الى ذلك، ستحصل منطقة القبائل – وهذه قناعتنا العميقة – على أعلى درجات الرخاء و سيساهم أعواننا و أموالنا في إبراز التنمية المحلية من خلال مينائي بجاية و دلس، و إعطاء دفعة لتبادلات ضخمه لمنتجاتنا الوطنية ...[2]

"... Sous notre domination habilement exercée comme il vient d'être dit, la kabylie attendrait, c'est notre conviction intime, un haut degré de prospérité. La richesse intérieure , se développant par le concours d'agents et de capitaux français, viendrait affluer largement aux deux port de bougie et de Dellys, et offrir des échanges considérables à nos produit nationaux ..."[3]

وقد نتج عن هذا الإحتكاك بروز نمط أدبي جديد عرف "بالأدب الغرائبي" La Littérature Exotique، قام أساسا على الوصف العابر للمظاهر الغريبة التي رأها كتاب مرموقون أمثال "هونوري دوبلزاك" Honoré de Balzac، "ألفونس دولمارتين"Alphonce de Lamartine و"الأخوة جنكور" Les

[1] – سعيد إدوارد، الاستشراق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 2006، ص:98 .

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Eugène Daumas, meurs et coutumes de l'Algerie, édition ANEP , Algérie , 2012, p :159.

Frères Goncourt(Edmond de G, Jules de G)، و"فيكتور هيجو"Victor Hugo، الذي تصور الشرق من خلال مؤلف "ألف ليلة وليلة" والذي ترجمه الى الفرنسية "أنطوان غالون" Antoine Galland[1]، غير أن هذه الصورة التي تصورها "هيغو" عن الشرق لم تكن لتمت الى الواقع بصلة، إنه شرق لا يوجد إلا في مخيلته هو، أو في بعض النصوص التي صورت الأهلي بأبشع الصور : "... العري، الوحشية، الوثنية، ليس للأهالي أي أدب و لا أي أخلاق، و يمكن بالكاد تصنيفهم ضمن نطاق البشر، (...) و بحسب نظرية التطور، فإن هذه المجتمعات تمثل المرحلة البدائية للتطور البشري... "[2]

"... La nudité, cannibalisme, paganisme, Les indigènes n'ont aucune décence et aucun sens moral, c'est à peine s'ils peuvent être considérés comme des hommes ... ces sociétés sont-selon la théorie évolutionniste une première étape, elles représentent un état antérieur du développement humain ..."[3]

يأتي بعد ذلك القرن التاسع عشر الذي يعده الكثير من الباحثين قرن الرحلات بلا منازع، وهو إضافة إلى ذلك القرن الذي عده البعض الآخر اختبارا لتلك الصور النمطية المقولبة عن الشرق، بواسطة الترحال الفعلي إليه ورؤيته عن كثب، و من أبرز من مثل هذا التوجه :

- "فرانسوا روني دوشاتو بريان"François René de château Briand(1768-1848)، الذي بدأ رحلته نحو القدس بين سنتي 1805-1806 و التي أسماهاItinéraire de Paris à Jérusalem: كان لهذه الرحلة كبير الأثر على الرحلات التي جاءت بعدها.

---

[1] - أنطوان غالون Antoine Galland(1646م - 1715م) مستشرق فرنسي متخصص في المخطوطات و النقود القديمة، هو من ترجم ألف ليلة و ليلة، له عدة مؤلفات من بينها : حكاية الأحدب الصغير ، قصة نور الدين و الفارسية الجميلة، السندباد البحري ...

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Amina Azza Bekkat , regard sur les littératures d'Afrique, OPU, Algérie , 2006, p: 104.

- "ألفونس دو لا مارتين"Alphonse de Lamartine (1790-1869)،الذي بدأ رحلته الى الشرق سنة 1833 حيث زار القدس وكتب "رحلة الى الشرق" voyage en orient

- "جرار دونرفال"Gérard de Nerval (1808-1854)، زار الشرق بين سنتي 1842 - 1843 ووضع كتابا يصف فيه رحلته التي قادته إلى الشرق " رحلة الى الشرق " فبعد حديثه عن سويسرا وألمانيا واليونان يأتي الأهم في هذه الرحلة و هو : "نساء القاهرة"les femmes du Caire ، "الدروز والمارونيون"Druses et Maronites، و"ليالي رمضان"les Nuits de Ramadan .[1]

أما "غي دوموبسان"Guy de Manpassant الذي تنسب له ريادة القصة القصيرة في العالم "... فقد وصل الى الجزائر وهو في أوج عطائه الأدبي، تاركا وراءه آثارا قصصية رائعة مثل "إلى الشمس" Au Soleil، و "حلومة " Hallouma الواردة في مجموعته القصصية " المزلاج وحكايات أخرى " le verrou et autres contes grivois..."[2].

وقد سار على هذا الدرب أدباء كثر، لعل ابرزهم "غوستاف فلوبير" Gustave Flaubert و"أليكسندر دوما" Alexandre Dumas و تيوفيل غوتييه Théophile Gautier وغيرهم كثيرون.

تمثل هذه الأعمال في مجملها - إضافة الى أعمال "الفونس دوديه"Alphonse Daudet الروائية والمسرحية الساخرة، ولعل أشهرها : "تارتاران دوتاراسكون"Tartarin de Tarascan و اوجين فرومونتانEugène Fromentin :"صيف في الصحراء"Un été au Sahara، و "عام في الساحل"Une Année au Sahel، و "غوستاف فلوبير"Gustave Flaubert صالمبوSalommbo ومدام بوفاريMadame Bovary ... وغيرهم، رصيدا تاريخيا وأدبيا مهما، لما احتوته من وقائع تاريخية

[1] - عزوز نواصري ، الجزائر في أدب الرحلة الفرنسي ،غي دوموبسان و ايزابيل ايبرهارت، مذكرة مجستير، جامعة خنشلة،2015 ، ص 35 -36 .

[2] - سليمة لوكام ، الأرض و العرق و الدين ، مجلة العربي، داار السياسة ، العدد 5، الكويت، ماي 2012، ص61 .

مصوغة في قوالب أدبية جميلة ، يقول أحمد منور عن هذه النصوص : "... فإن دافعي الى ترجمتها يعود في المقام الأول الى قناعتي بقيمتها الكبيرة بالنسبة لتاريخ الجزائر في فترة الاستعمار، و أعني بالخصوص التاريخ الإجتماعي و الثقافي للجزائر في الفترة المذكورة، فضلا عن اقتناعي بقيمتها الأدبية الرفيعة، من

عرفت الجزائر بعد ذلك غزوا استداريا فرنسيا حمل معه الحقد والكراهية والتسلط فعاش الأهالي "... فترة انكماش ثقافي أشبه بالغيبوبة، شعر فيها الإنسان الجزائري بالغبن والانكسار المادي والمعنوي، وهو ما شمل الكتاب والأدباء الذين هم بطبيعتهم أكثر إحساسا بالمعاناة الوطنية ... تحت الإحتلال النصراني المتعجرف ..."[1]

2 – أدب فرنسيي الجزائر : Littérature des Français d'Algérie

أعقب مرحلة الأدباء الرحالة، مرحلتان أخريان، عرفت الأولى بأدب فرنسيي الجزائر la littérature des français d'Algérie، وسمي أدبها بالأدب المتجزئر L'Algérianisme ، والثانية بمدرسة الجزائر الأدبية اصطلح على أدبها بالأدب المتوسطي Le Méditerranéisme، يقول "جان ديجو" عن هذا التصنيف : "... مر أدب فرنسيي الجزائر بمرحلتين مهمتين : المرحلة المتجزئرة و المرحلة المتوسطية إن صحت هذه التسمية ، تمثل كل واحدة منهما مرحلة تاريخية من الجزائر الفرنسية : تمتد المرحلة الأولى من تسعينيات القرن التاسع عشر حتى سنة 1935 والثانية من سنة 1935 حتى خمسينيات القرن العشرين..."[2]

"... Nous distinguons deux temps forts dans cette littérature des français d'Agérie, celui de l'Algérianisme et celui du méditerranéisme si l'on peut s'exprimer ainsi,

[1] – عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1994 ، ص: 41 .

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

ils correspondent chacun à deux temps historiques de "l'Algérie Française" des années 90 jusque vers 1935, et des années 35 aux années 50 ..."[1]

وفي هذا الشأن يؤكد "غابريال أديزيو" Gabriel Audisio وهو أحد أعلام مدرسة الجزائر الأدبية، على الفرق الكامن بين أدب كتب عن الجزائر من لدن كتاب من الخارج، وأدب آخر، كتب من طرف كتاب ولدوا وعاشوا في الجزائر :" ... إتجه الكتاب الفرنسيون المولودون بالجزائر إبان الإستعمار الفرنسي للجزائر للكتابة المستوحاة من الجزائر نفسها ويصفون أنفسهم بأنهم جزائريون، أدب كتب من الجزائر وليس عن الجزائر من قبل كتاب الخارج كما يؤكد ذلك غبريال أوديزيو ..."[2]

"... Du fait de l'implantation Française, des Français nés dans le pays vont écrire en Algérie une littérature émanant de l'Agérie elle-même, ils se voudront et se qualifieront d'ailleurs d'Algériens, littérature faite par l'Algérie, opposée à celle faite sur l'Algérie par des écrivains du " dehors ", comme le précisera Gabriel Audisio..."[3]

تميزت كتابات الفرنسيين الأوائل الذين ولدوا و ترعرعوا في الجزائر عن كتابات الأدباء الآخرين بكونها كتابات عن الجزائر، لكنها ليست جزائر الجزائريين، إنها جزائر المستدمرين و ليست جزائر الأهالي.

[1] – Jean Déjeux, La littérature Algérienne Contemporaine, opcit, p : 51.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Ibid, p : 12.

3 – التيار المتجزئر : Le courant Algérianiste

برز في تسعينات القرن التاسع عشر بالجزائر، تيار أدبي عرف بإسم "التيار المتجزئر" Le Courant Algérianiste، و قد جاء هذا التيار كرد فعل على مسألتين يقول الباحث أحمد لناصري : "... ظهر التيار المتجزئر كإجابة على مظهرين مختلفين : مظهر أدبي مثلته الغرائبية، و مظهر سوسيوسياسي مثلته الكولونيالية و المستوطنة التي كرست وجودها بالجزائر ..." [1]

"...L'école Algérianiste apparait comme une réponse à un double phénomène : un phénomène littéraire représenté par l'exotisme, et un phénomène sociopolitique qui est celui de la colonisation et de l'installation d'une colonie de peuplement en Algérie..."[2]

تميز هذا التيار بدعوته لفكرة تبشر بمجيء شعب جديد (Un peuple neuf)، ذي هوية خاصة، وهذا الشعب الجديد بحسب المعنى البرتراندي (Sens Bertrandien) يحيل الى المستعمرة الاستيطانية التي بدأت تفرض نفسها سياسيا وادبيا بداية من 1895 حتى 1900 وهو في الوقت نفسه التيمة المركزية التي طبعت أدب المتجزئرين حتى بداية افول نجم هذا التيار في ثلاثينيات القرن ماضي .

ويعد "لويس برتران"Louis Bertrand ملهم هذا التيار المتجزئر، فهو صاحب مقولة افريقيا اللاتينية (L'Afrique latine) جاعلا منها التيمة الرئيسية لمختلف اعماله الأدبية، معتقدا و مدافعا عن وجود تقليد لاتيني افريقي، يعمل اللاتينيون الجدد(Les néo latins) على تكريسه وتثبيته .

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Lanasri Ahmed, conditions sociohistorique et émergence de la littérature Algérienne, Alger, OPU, 1986, p :51.

إن الاعمال الادبية ل "لويس برتران" تكتسي أهمية من الناحية النفسية والاجتماعية وحتى التوثيقية، إنها تصور التعاطي الاقتصادي والسياسي لتلك المرحلة التاريخية، والتحولات الإتنية في المستعمرات التي أصبحت لها كينونة مستقلة وناضجة، لكن و من زاوية أخرى يمكن القول أن أعمال "لويس برتران" لم تكن أعمال أدبية ذات طابع غرائبي فحسب، و إنما محاولة لتبرير الكولونيالية إيديولوجيا و فكريا، و ذلك بإقصاء شعب بأكمله، تاريخا و حضارة من صيرورة الإنسانية قاطبة ، لكنها و لسوء حظه، باءت بالفشل الذريع لأنها كانت ضربا من ضروب المستحيل، تقول جاكلين آرنو عطفا على ذلك : " ... تعد أعمال لويس برتران سنة 1900، دفاع و تجسيد للأطروحات الكولونيالية و لأسطورة إفريقيا اللاتينية المسيحية، إفريقيا المهيأة للالتحام بالغرب بإعتبار ماضيها الروماني المسيحي، لكن هذه الأطروحة تتناسى أو تهمل فترة الإثني عشر قرنا من الأسلمة، لا بل و تعتبرها همجية ..."[1]

" ... L'oeuvre d'un Louis Bertrand vers 1900 est une défense et illustration des thèses coloniales, du mythe de l'Afrique latine et chrétienne, c'est-à-dire d'une Afrique prète à se ressouder à l'occident pour avoir été anciennement romanisée et christianisée. La thèse oublie ou tient pour négligeable les douzes siècles d'islamisation classés époque de barbarie..."[2]

وقد تزعم هذا التيار المتجزئر روبير روندو Robert Randau (واسمه الحقيقي روبير آرنو Robert Arnaud)، والتف من حوله مجموعة من الأدباء من بينهم صديقه "جون بومييه" Jean Pomier

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jacqueline Arnaud, la littérature Algérienne de langue française, tome 1, publisud, France, 1986, p : 28.

و"لويس لوكوك" Louis Lequoq، وقد حاول ثلاثتهم بعث هذا التيار ليعبر عن الخصوصية الجزائرية[1]، كرد فعل على كل أنواع الغرائبية التي ظهرت من قبل .

إن الجزائر التي يتحدث عنها " روبير رندو "هي جزائره هو، و ليست جزائر التاريخ و الجغرافيا والحضارة، إنها جزائر المعمرين بشمسها و بحرها و أوديتها و فيافيها، وليست جزائر الأهليين المظلومين و المضطهدين و المنكل بهم على أرضهم و تحت سمائهم، لقد زج بهذه الجزائر في غياهب النسيان .

يقول المؤرخ و الناشط ضد الكولونيالية ، الفرنسي "آندري جوليان"André Julien: "... إن فرنسا سجينة الأساطير التي خلقتها هي بنفسها، و أخطرها أسطورة الجزائر الفرنسية، فيما الجزائر ليست فرنسا، فلا يكفي ادماج جزء من بلد ما إلى الميتروبول من الناحية القانونية حتى تتغير عادات و دين تسعه أعشار المجتمع ..."[2]

..."La France est prisonnière des mythes qu' elle a créés elle-même dont le plus grave est " l'Algérie c'est la France " or l'Algérie n'est pas la France, il ne suffit pas d'assimiler juridiquement et en partie seulement un pays d'outremer à la métropole, pour que la population, les traditions, la religion des 9/10 des habitants soient changuées pour autant ..."[3]

[1] – تجدر الإشارة هنا الى ان كلمة "جزائري "عند هذا التيار المتجزئر لا تعني الأهلي، بل تعني أوروبيي الجزائر، وهو المعنى الذي أخذته هذه الكلمة حتى اندلاع الثورة.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3]. Charles André Julien, Une pensée anti-coloniale, sindbad, Paris, France, 1979, p :160 –

لقد حاول هذا التيار أن ينماز عن التيار الذي سبقه – التيار الغرائبي – الذي تعاطى مع الأهلي كديكور للزينة ليس إلا ، من خلال دعوته و دفاعه في مختلف أعماله الأدبية و الروائية تحديدا عن فكرة الجزائر اللاتينية : "... ضمن (لويس برتران) أعماله الروائية فكرة إفريقيا اللاتينية و المعاصرة التي لم يقبل أي أحد رؤيتها من قبل ..."[1]

"... il a introduit dans la littérature romanesque l'idée d'une Afrique latine et contemporaine, que personne auparavant ne daignait voir..."[2]

ينبغي الاعتراف – من جهة أخرى – أنه و بالرغم من كل مساوئ هذا التيار، إلا أنه أسهم من حيث لا يشعر في انبعاث الأدب الأهلي، من خلال سماحه للكتاب الأهليين من النشر في دورياته : "... ساعد هذا التيار المتجزئ الذي أسسه " روبير رندو " على بروز العديد من التوجهات الأدبية ، من خلال سماحه للكتاب المسلمين بالنشر لكن ضمن توجه أدبي معين، مسهما – من حيث لا يشعر – في انبعاث الأدب الجزائري المعاصر ..."[3]

..."Le mouvement Algérianiste que Robert Arnaud vient de fonder favorisera l'éclosion de maintes vocations littéraires, en permettant la publication d'auteurs Musulmans bien qu'en les obligeant de s'inscrire dans une certaine littérarité.Ce

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Faouzia Bendjélid, le roman Algérien de langue française, chihab édition, Algérie, 2012, p: 38.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

Lucius Apuleuis mouvement facilitera – à son Insu – la naissance de la littérature Algérienne Contemporaine ..."[1]

وقد ترك زعيم هذا التيار المتجزئر ، أربع روايات تعنى كلها بالجزائر هي : "المعمرون" Les Colons (1907) ، "المتجزئرون" Les Algérianistes(1911)، "قصار البربري" Cassard le Berbère (1920) و "المعلم مارتن : البورجوازي الصغير للجزائر العاصمة"–Le Professeur Martin, petit bourgeois d'Alger(1935).

طفت على الساحة الأدبية في هذه المرحلة كتابات تنظر و تقعد للأدب الكولونيالي من بينها كتابات : "بيار ميل" Pierre Mille، "ماريوس و هاري لوبلان" Marius et Ary leblond ، "أوجين بوجرنيسكل"Eugene Pujarniscle و "رولان لوبال"Roland lebel و غيرهم ...

كما شكلت الكتابات الروائية الكولونيالية النسوية ميدانا ملائما لطرح الكثير من القضايا والإشكالات التي كانت مثارا لإهتمام المجتمع الكولونيالي في تلك الفترة، و لعل أبرزها إشكالية العلاقة الجدلية بين المستعمر و المستعمر، و كذا واقع المرأة المستعمرة ، و بالرغم من ندرة الدراسات التوثيقية خاصة ما تعلق منها بالرواية الكولونيالية النسوية، فبإمكاننا التعرض بشئ من الإسهاب لأهم أعمال و رموز هذا الأدب من خلال الجدول التالي[2] :

[1] –Alain Calmes, le roman colonial en Algérie avant 1914, L'Harmattan, France, 1984, p:150

[2] – : ينظر : Sakina Messadi, les romancières coloniales et la femme colonisée, opcit, p : 09

السنة	اسم الروائية	الرواية
1900	أوكلير هوبرتين Auclert Hubertine	النساء العربيات في الجزائر Femmes arabes d'Algérie
	بومرول جان Pommerol Jean	امرأة عند الصحراويات une femme chez les sahariennes
1908	ماغلي بوانار Magali Boisnard	أخواتنا المسلمات Nos soeurs musulmanes
	ماغلي بوانار Magali Boisnard	في الأوراس المتوحش Dans l'Aures Barbare
1916	ماغلي بوانار Magali Boisnard	إنذار في الصحراء L'Alerte au désert
1919	بوججا ماريا Bugeja Marie	من خلال الجزائر A travers l'Algérie
1921	بوججا ماريا Bugeja Marie	أخواتنا المسلمات Nos soeurs musulmanes
	ماغلي بوانار Magali Boisnard	مهدية أو الأخت سيسيل Maadith ou sœur Cécile
1922	إليسا رايس Elissa Rhais	بنت الباشا La fille du pachas
1923	إليسا رايس Elissa Rhais	زواج حنيفة Le mariage de Hanifa
1923	بوججا ماريا Bugeja Marie	في دفىء الخيمة Dans la tièdur de la tente
1924	إليسا رايس Elissa Rhais	بنت الريف La fille du douar
	سيلاري هنريات Célarie Henriette	شهر في الجزائر وتونس Un mois en Algérie et en Tunisie
1925	سيلاري هنريات Célarie Henriette	أخواتنا المسلمات Nos soeurs musulmanes
1929	إليسا رايس Elissa Rhais	البليدة Blida
1930	إليسا رايس Elissa Rhais	المتحولة La convertie
1930	لوسيان فافر Lucienne Favre	الشرقية L'orientale

إن موضوع المراة المستعمرة كان القيمة الاساسية التي ركزت عليها هؤلاء الكاتبات جل اعمالهن، لكنهن لم يدافعن بشكل واضح عن هذه المرأة المضطهدة بسبب ما تعرضت له من قهر، وانخراطهن – إذا ما استثنينا بعض الشيء هوبرتين أوكلير Hubertine Auclert – في النظرة البرتراندية للجزائر.

4 – التيار المتوسطي : Le courant Méditerranéiste

إنها مرحلة "مدرسة الجزائر" L'école d'Alger بحسب تعبير "غبريال أديزيو"، أو مدرسة شمال افريقيا للأدب بحسب "ألبير كامو" Albert Camus، يقول "جون ديجو" فيما يتصل بتسمية هذه المدرسة : "... سقطت عبارة مدرسة الجزائر من قلم غابرييل أديزيو في إشارة الى اسم هذا الجيل من الكتاب، فيما أعاد كامو التعبير عنها تحت اسم مدرسة شمال إفريقيا للأدب ..."[1]

"...Gabriel Audisio avait laisser tomber de sa plume l'expression école d'Alger pour parler de cette génération d'écrivains, Camus l'avait reprise sous le nom de l'école Nord Africaine des lettres ..."[2]

ظهرت هذه المدرسة في نهاية سنة 1935، حيث التقى مجموعة من الشباب في ناد أدبي أطلق عليه النقاد في ما بعد اسم : مدرسة الجزائر، وقد تحلق هؤلاء الشباب حول "ألبير كامو" Albert Camus و دار النشر "أدموند شارلو" Edmond Charlot مؤسسين بذلك لتوجه أدبي و فكري جديد، أعاد النظر في الخيارات الأدبية و الفكرية السابقة، متجها نحو ما بات يعرف بالعالمية المتوسطية، ويأتي هذا التحول كنتيجه للمتغيرات الاجتماعية التي شهدتها الجزائر في تلك المرحلة، إضافة الى بروز الحركة الوطنية بقوة على الصعيد السياسي : "... يمكن القول في الأخير أن "ألبير كامو" خص قسطا كبيرا من أعماله إلى

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, littérature Maghrebine de langue française, opcit, p : 17/18.

البحر المتوسط، مكرسا نفسه الكاتب الأكثر عطاء بلا منازع، وصاحب الكتابات التي لا تزال موضوعا للدراسات والمساءلات حتى يومنا هذا ..."[1]

"...Notons enfin qu' Albert Camus a consacré une œuvre importante à la Méditerranée, et reste incontestablement l'écrivain le plus prolixe, et dont les écrits ne cessent d'être revisités et interrogés à notre époque même ..."[2].

صاغت هذه المدرسة الأدبية نظرة جديدة عن الجزائر، لقد أضحت فكرة "الجزائر اللاتينية"، التي لطالما نادى بها "لويس برتران" ومن دار في فلكه، من الماضي، ولم تقو على مواجهة الحقيقة التاريخية التي تقر بوجود شعب تم سحقه وتجهيله والسطو على مقدراته، تحت عنوان واه : (La mission civilisatrice)

لقد نادت هذه المدرسة الأدبية و لأول مرة منذ أن وطئت أقدام الاستدمار هذه الأرض الطاهرة، بالحوار والتواصل مع الأهالي، و تعاطفت مع البؤس الذي يعيشونه، وقد كتب في هذا الشأن "ألبير كامو" مقالا مهما عن البؤس الذي يعيشه الأهالي في منطقة القبائل وسمه ب : بؤس في منطقة القبائل.

و ضمن هذا التوجه الجديد الذي نادى به هذا التيار، والذي أراد تجاوز إشكالية الجزأرة الضبقة التي نادى بها التيار السابق (تيار المتجزئرين)، وبتوظيفه لفكرة العالمية المتوسطية، ظهرت العديد من الأسماء كان أبرزها على الإطلاق "ألبير كامو" إضافة إلى أسماء أخرى كبيرة من بينهم : إيمانويل روبلس Emanuel Roblès، غابريال اوديزيو Gabriel Audisio، روني جون كلو René Jean Clot ، جول

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Faouzia Bendjélid, le roman Algérien de langue française, opcit, p: 45.

روا Jules Roy، كلود دو فيرمنفيل Claude de Fréminiville، ماكس بول فوشي Max Pol Fouchet ، جون بليغري Jean Pélégré، آندري روسفلدر André Rosfelder وغيرهم ...

يقول أحمد منور عن هذه المدرسة "... تميزت مدرسة الجزائر هذه من الناحية الأدبية عن سابقاتها، بتحول مركز الإهتمام لدى كتابها من وصف العادات والتقاليد وحياة القرى والأرياف والمدن الداخلية، إلى التركيز على موضوع البحر والشمس والحياة في المدن الساحلية، وكان لألبير كامو بكتاباته الوصفية الأولى ممثلة على الخصوص في كتاب أعراس 1938 ثم بأعماله الروائية والقصصية اللاحقة، ولا سيما الغريب سنة 1942 والطاعون سنة 1947 دور بارز في إرساء أسس هذه المدرسة الأادبية بفضل النماذج الفنية الرائعة التي قدمها من خلال تلك الأعمال ..." [1]

وإن كانت كتاباته السردية هاته موجهة بشكل أساسي للوعي الفرنسي، مستوطنين كانوا أو متروبوليتانيين "... فهذه الأعمال تمثل المستعمرين المستوطنين، وهم يكتبون لجمهور فرنسي يرتبط تاريخه الشخصي ارتباطا لا فكاك منه بهذه الدائرة الجنوبية من فرنسا ..."[2]

وهذا ما جعله يتردد وغير قادر على حسم توجهاته، فكان التيه الهوياتي مصيره، يقول عنه " آلان فيركوندولي Alain Vircondelet : "... صار كامو حائرا وممزقا بين رغبته في العدالة للجزائريين، وانتمائه اللقيط الذي لم يجعل منه لا فرنسيا ولا جزائريا أصيلا ..."[3]

"... Camus est désemparé, déchiré entre son souci de justice entre les Algériens et son appartenance bâtarde qui fait de lui ni un français ni un vrai algérien ..."[4]

[1] – أحمد منور، ازمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الساحل للكتاب ، الجزائر، 2013، ص 144.

[2] – إدوارد سعيد، الثقافة و الإمبريالية ط4، تر : كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت لبنان ، 2014، ص 243.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Alain Vircondelet, Albert Camus fils d'Alger, Fayard, France, 2010, p : 360.

لقد كانت هذه المرحلة التاريخية الحاسمة هي مرحلة الولادة الحقيقية للأدب الأهلي ممثلا خاصة في محمد ذيب، مولود فرعون، كاتب ياسين، مولود معمري و آسيا جبار ... بعد الدعم الذي لقوه من قبل ألبير كامو و إيمانويل روبلس تحديدا، من خلال فتحهم المجال واسعا لهؤلاء، لينشروا أعمالهم وإبداعاتهم الأدبية في المجلات والدوريات التي كانوا يديرونها مثل مجله كتابات متوسطية Méditerranée، مجلة فورج Forge وغيرها من المجلات .

يقول مولود فرعون في رسالة بعث بها إلى إيمانويل روبلس :"... إنهم السباقون "كامو" و "روبلس" ... وغيرهم، الذين بموهبتهم عرفوا كيف يفتحوا لنا أفقا أدبيا ظل موصدا في وجوهنا، لم أكن لاصدق أنه يمكنني أن أضمن عملا روائيا شخصية قبائلية قبل أن أتعرف على الطبيب "ريو" و الشاب "إسماعيل"، إنكم أنتم في البداية من قال لنا : ها نحن من نكون، وقد أجبنا : ها نحن من نكون من جهتنا نحن، وهكذا بدأ بيننا وبينكم الحوار ..."[1]

"...Ce sont les premiers Camus et Roblès qui, par leurs talents ont su nous ouvrir un horizon littéraire qui nous était fermé. Je n'avais jamais cru possible de faire véritablement entrer dans un roman, un vrai bonhomme kabyle, avant d'avoir connu le docteur Rieux et le jeune smail. Vous les premiers, vous nous avez dit : Voilà ce que nous sommes, alors nous, nous avons répondu : Voilà ce que nous sommes de notre côté, ainsi a commencé entre vous et nous le dialogue ..."[2]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2]. – Mouloud Ferraoun, lettres à ses amis, le seuil, Paris, p : 154

إن كتابات أعلام هذه المدرسة الأدبية منها والفلسفية، و إن كانت موجهة بالأساس وبشكل ضمني للوعي الفرنسي و مختزلة الوجود الأهلي، معتبرة إياه مجرد تابع un Subalterne، أو ديكور للزينة ليس إلا، فإنها لم تقو على تجاوز الأهلي، فحاولت الانفتاح عليه موفقة في مواطن ومخفقة في مواطن أخرى .

إن الذين كتبوا في السنوات الأخيرة للفترة الكولونيالية أمثال "البير كامو" لم يقووا على تجاهل الآخر، فعاشوا في صراعات داخلية لأنهم لم يقووا في الوقت نفسه على حسم موقفهم من الكولونيالية، فحاولوا إيجاد الحلول لهذه الإشكالية على الصعيد الأدبي، بعدما عجزوا عن فعل ذلك على صعيد الواقع المعيش، فاختبأوا واحتموا بالقيم الإنسانية، عساها تأخذ بأيديهم الى العالمية.

صحيح أن " كامو " انفتح على الأهالي و تعاطف معهم و تفهم مطالبهم المشروعة، لكن هذا التفهم جاء ضمن إطار الجزائر الفرنسية، إن موقف " كامو هذا جاء على النقيض من موقف زميله " جون بول سارتر " Jean Paul Sartre الذي أيد الثورة بشكل لا لبس فيه، يقول الباحث في الأدب الفرنسي " ريشار لوران اومغبا " Richard Laurent Omgba في مؤلفه La littérature anticolonialiste en France de 1914 à 1960 :

" ... من " كامو "، من " دوغول "، من " مورياك " الذين لا يتصورون مصير المستدمرين خارج دائرة فرنسا والذين يتحدثون عن السيادة المشتركة، الى " سيزار " و" فانون " و" سارتر " الذين يتحدثون عن الثورة والقطيعة مع السيد القديم، إن البون بينهم شاسع بالرغم من أن النية هي نفسها، لكن التزام كل طرف مختلف وكذلك المواقف .."[1]

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

De Camus, Degaulle et Mauriac, qui n'envisagent pas le destin des colonisés en dehors du giron Français, et qui parlent de la co-souvrainté, à Césaire, Fanon et Sartre qui parlent de révolution et de rupture avec l'ancien maitre, il y a un grand fossé bien que l'intention soit la même. L'engagement n'est pas le même et les prises de positions..."[1]

فيما كان موقف إيمانويل روبلس، وهو ثاني رمز من رموز مدرسة الجزائر إلى جانب كامو وصديقه المقرب، أكثر وضوحا و إيجابية، فروايته الشهيرة الموسومة ب "أعالي المدينة" les hauteurs de la ville التي نال عنها جائزة "فيمينا" Fémina المرموقة في فرنسا آنذاك، أعطى فيها البطولة المطلقة لشخصية أهلية أسماها "سماعيل بن لخضر"، مكرسا بذلك توجهه الإنساني الصريح و معلنا بأن على المضطهد أن يثور ضد اضطهاده و أن على الممتهنة كرامته أن ينتفض ، إنها دعوة ضمنية إن لم نقل صريحة للثورة على كل أشكال الظلم و الاضطهاد، إنها دعوة للتحرر من قيود الاستغلال و الاستبعاد، و هذا ما يجعل بعض النقاد يعدون هذه الرواية إرهاصا حقيقيا للثورة التحريرية، يقول روبلس في تصديره لهذه الرواية : "... بعد نشر أعالي المدينة بست سنوات، أخذت صور الحرب تطبع واقع الجزائر، فخرج الآلاف من أمثال سماعيل من دياجي ظلماتهم، مشاعلهم بأيديهم و كلهم عزم و تصميم على استعادة كرامتهم ..."[2]

[1] - Richard Laurent Omgba, La littérature anticolonialiste en France de 1914 à 1960, L'Harmattan, Paris, France, 2004, p : 272.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"… six ans à peine après la publication des hauteurs de la ville , l'Algérie prenait son visage de guerre , par milliers, de smails décidés à conquérir leur dignité ont surgi du font de leurs nuits, la torche au poing …"[1]

بل إن "روبلس" الذي جمعته صداقة حميمة مع الكثير من الأدباء الأهليين، كمحمد ذيب، كاتب ياسين و خاصة مولود فرعون، ذهب بعيدا في توصيفه لحيثيات تلك المرحلة التاريخية عندما حاول تبرير العنف الذي لجأ إليه الشعب الجزائري عند مطالبته بحقوقه، بل و وصل به الأمر الى حد شرعنة هذا العنف في سابقة في تاريخ الأدب الكولونيالي، يقول روبلس :"… لم يعد المستقبل يقدم أي أمل للشباب الجزائري فعقلية النظام الكولونيالي و مختلف بنياته، جعلت هؤلاء يصطدمون بحائط صلب، دون أي إمكانية للولوج لعالم أكثر عدالة، وستكون نتيجة ذلك حتما التوجه نحو العنف …"[2]

"… Aux jeunes Algériens l'avenir n'offrait Aucun espoir, l'esprit comme les structures même du régime colonial, les destinait à buter contre un mur sans la moindre possibilité de percée, d'ouverture sur un monde plus équitable, une découverte de ce genre conduit déjà, a coup sur, à la violence …"[3]

إن هذه الرواية صرخة مدوية لكل مستضعف ومضطهد يرفض التسلط والحقد والكراهية، ويأمل في صبح تبزغ فيه شمس الحرية والكرامة، يتعايش في الجميع دون اعتبار للغة أو لدين أو لعرق، إنها دعوة ضمنية لا بل صريحة للتحرر من قيود الإحتلال يقول فرانز فانون : "… لا يمر التحرر أبدا بشكل سري،

[1] – Emmanuel Roblès, les hauteurs de la ville, 2ème édition, le seuil, Paris, France, 1960, p : 08.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Ibid, p: 08 .

لأنه متعلق بالإنسان، فهو يحدث فيه تغيرات جوهرية محولا إياه من مجرد متفرج سلبي إلى عنصر فاعل ذي دور مهم في مسار التاريخ ..."[1]

"...Les décolonisation ne passe jamais inaperçue, car elle porte sur l'être, elle modifie fondamentalement l'être, elle transforme des spectateurs écrasés d'inessentialité en acteurs privilégiés, saisis de façon quasi grandiose par le faisceau de l'histoire..."[2]

إن الحديث عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسي، حديث ذو شجون، حديث بقدر ما يقدم من إجابات بقدر ما يثير من تساؤلات، إنه حديث التاريخ، وحديث الهوية، وحديث الإلتزام .

إنه حديث الذات عن الذات، حتى وإن كان هذا الحديث بلغة مستعارة Une langue d'emprunt، لم يكن للأدباء الأهليين فيه الخيرة، فإما أن تتعلم هذه اللغة لتعبر وتبدع ضمن توجه فكري وثقافي وأدبي محدد سلفا، وإما أن تكون للجهالة والأمية فيك نصيب، يقول الباحث الأكاديمي أحمد لناصري في هذا المعنى "... يعد الأدب المكتوب بالفرنسية منتجا تاريخيا، و أن الكاتب الجزائري الذي يوظف اللغة الفرنسية لم تكن أمامه خيارات أخرى، فتوظيفه لهذه اللغة لم يكن وليد حرية شخصية وإنما نتيجة لخطيئة تاريخية ..."[3]

"... La littérature de langue française est le résultat de l'histoire, et que l'auteur Algérien qui use de la langue française n'a pas de choix, L'utilisation du français

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Frantz Fanon, les damnés de la terre, édition ANEP, Algérie, 2006, p : 12 .

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

par l'écrivain Algérien n'est pas l'expression d'une liberté individuelle, mais le produit d'un accident de l'histoire ..."[1]

توسع و تمدد الاستدمار العالمي بشكل رهيب في بدايات القرن الماضي تاركا وراءه تبعات خطيرة مست المجتمعات المستدمرة في أعز ما تملك : تاريخها و هويتها لا بل و وجودها برمته، وقد "... كان الاستعمار في الثلاثينيات من القرن العشرين قد مارس حكمه لأكثر من 84.6% من سطح يابسة الكرة الأرضية ... ومنذ سنواته الأولى، نشر الإستعمار إستراتيجيات وطرق مختلفة للسيطرة و التمثيل ..."[2] لعل من أبرز هذه الإستراتيجيات، إستراتيجية الإفراغ ثم الملأ، إفراغ المستدمر من تاريخه ولغته ودينه وملئه بتاريخ المستدمر ولغته ودينه، وقد كان التأكيد على مسألة اللغة باعتبارها عنصرا مهما من عناصر تشكيل الهوية، يمكن من خلاله الولوج للعناصر الأخرى الأكثر تعقيدا، يقول "ألبير ميمي" عطفا على هذه النقطة "... فلا يتم إنقاذ المستدمر من الأمية إلا ليقع في الازدواجية اللغوية، هذا لمن يكون لديه الحظ في ذلك. غير أن أغلبية الأهالي لن تتوفر لها يوما الإمكانية الطيبة لكي يعانوا من عذابات ازدواجية اللغة. فلن يكون بين أيدي الأهالي سوى لغة الأم ..."[3]

لقد عمد الإستدمار الفرنسي من خلال الإهتمام الذي أولاه لنشر لغته، إلى تكوين نخبة من الأهالي تكون أداة طيعة بيده، تأتمر بأوامره و تنتهي عند نواهيه و تروج لأطروحاته ومقولاته (l'Algérie française, mission civilisatrice...)، ناسيا أو متناسيا أن السحر قد ينقلب على الساحر، و أن على الظالم غالبا ما تدور الدوائر .

---

[1] – Lanasri Ahmed, conditions sociohistorique et émergence de la littérature Algérienne, Alger, OPU, 1986, p : 34.

[2] – آنيا لومبا، في نظرية الإستعمار و ما بعد الإستعمار الأدبية تر: محمد عبد الغني غنوم، ط1، دار الحوار، دمشق، سوريا، 2007، ص 30.

[3] – ألبير ميمي، صورة المستعمر، تر: ميشال سطوف، منشورات ANEP ، الجزائر، 2007 ، ص 110.

لقد خص الاستدمار الفرنسي اللغة الفرنسية بأهمية بالغة، ف"... أضحت السياسة المدرسية الكولونيالية، التي صارت لصيقة باسم "جول فيري" انطلاقا من سنة 1881، النقطة المحورية في المشروع الكولونيالي، فقد صرح "جونار" حاكم الجزائر في 17 جوان 1910 : إن المدرسة الابتدائية إن هي في فرنسا حجر زاوية للجمهورية، فهي في الجزائر أساس الجمهورية و أساس هيمنتنا ..."[1]

"... à partir de 1881 la politique scolaire coloniale à laquelle le nom de Jules Ferry reste attaché, va être le cheval du bataille dans le processus colonialiste. Jonnart le gouverneur de l'Algérie déclarait le 17 juin 1910 au conseil Supérieur : l'école primaire qui est en France la pierre angulaire de la république, est en Algérie le fondement de la république, le fondement de notre domination..."[2]

لقد توطدت عرى اللغة الفرنسية في الجزائر بعد أن أصبحت لغة المدرسة والإدارة والمصالح العامة، وفق نظرة إستراتيجية، كان الهدف الأساسي منها هو القضاء على أحد العناصر المهمة للهوية الوطنية وهي اللغة، وقد شهدت فعلا اللغة العربية في هذه المرحلة تقهقرا و تراجعا كبيرا، بعد أن حاولت، دون جدوى، الصمود أمام سيل لغة الاستدمار الجارف، وبخاصة بعد أن تم تفكيك مؤسسة التعليم الأهلي .

وفي هذا السياق التاريخي المفعم بالتحولات الفكرية و الأيديولوجية، ظهر الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية كرد فعل على ما يكتبه أدباء المتربول و الأدباء المتجزئرون، بل و حتى أدباء مدرسة الجزائر الأدبية، إذا ما استثنينا "إيمانويل روبلس" .

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Lanasri Ahmed, conditions sociohistoriques et énergence de la littérature Algérienne, opcit, p : 18 .

إنه أدب المستعمر الذي أحدث ثورة في الدوائر الأدبية و الفكرية و الأيديولوجية الكولونيالية لتلك المرحلة، إن كان في المستوطنة أو في المتروبول .

يبقى أن نذكر قبل الخوض في الحديث عن الأدباء الأهليين les écrivains autochtones، إلى ما كتبه مجموعة من الأدباء، تعاطفوا مع الثورة الجزائرية و أيدوها و نصروها و اعتبروا أنفسهم جزء أصيلا من الأمة الجزائرية، و نقصد بذلك "جان سيناك" Jean Sénac (1926 – اغتيل في ظروف غامضة سنة 1973)، الشاعر الذي أحب الجزائر و التزم بقضيتها و تغنى بثورتها في الكثير من أشعاره (les désordres الفوضى، Matinale de mon peuple فجر شعبي ...) و كان جزاء هذا الشاعر أن حصل على الجنسية الجزائرية بعد الاستقلال، و تبوأ منصب الأمين العام للكتاب الجزائريين ، الشيء الذي جعله يعتقد بأن الكاتب الجزائري هو : "... كل كاتب اختار الإصطاف الى الأمة الجزائرية ..."[1]

"...Tout écrivain ayant définitivement opté pour la nation Algérienne..."[2]

و"آنا كوليت قريقوار" (Anna Gréki 1931-1966) Anna Colette Grégoire، ابنة مدينة منعة في الأوراس الأشم، التي انقطعت عن الدراسات العليا بباريس لتشارك كفاح الشعب الجزائري من أجل الإستقلال، فكلفها ذلك السجن في "بربروس" و التعذيب و التنكيل لتموت بعد ذلك و تدفن بالجزائر، من بين أعمالها أشعار موسومة ب : الجزائر العاصمة عاصمة الجزائر Algérie capitale Alger ، و أوقات صعبة Temps Forts .

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, littérature Maghrebine de langue française, opcit, p : 10

وهنري كريا" Henri Kréa (1933-2000) الشاعر و الكاتب و الناشط ضد الكولونيالية ، ناصر الثورة و أيدها معتبرا مقولة " الكاتب الجزائري " تعنى : "... بالمطلق أننا اخترنا الأمة الجزائرية بغض النظر عن تمايزنا العرقي أو اختلافنا الديني و الفلسفي ..."[1]

"...Dans l'absolu que l'on a choisit la nation Algérienne de quelque origine raciale et de quelque appartenance religieuse ou philosophique que l'on soit ..."[2]

ومنهم من تحول الى الدين الإسلامي ك: "إتيان دنيه" Etienne Dinet (1861-1929) و هو رسام و كاتب فرنسي ، كانت كل لوحاته و كتابته مستوحاة من المجتمع الجزائري، تحول الى الإسلام و حج بيت الله الحرام و أوصى بأن يدفن في الجزائر (بوسعادة) ، يعلق جان ديجو على كتاباته بقوله : "... لم تكن الكتابات التي كتبها بمساعدة "بن براهيم" ذات قيمة أدبية ، بل كانت مجرد وصف لعادات سكان الجنوب، إهتمت الدراسات الأدبية بإثنين منهما تحديدا : لوحة من الحياة العربية (1908) و خضرة راقصة اولاد نايل (1910) و هي رواية إتنوغرافية ..."[3]

"... Ses ouvrages écrits en collaboration avec Ben Ibrahim ne sont pas d'une grande valeur littéraire, Ils se veulent des peintures de mœurs, très près des populations du Sud, deux surtout intéressent directement la littérature : Tableaux de la vie arabe (1908), et Khadra , la danseuse de Ouled Nail (1910) roman de type ethnographique..."[4]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, littérature Maghrebine de langue française, opcit, p: 10.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Ibid, p : 57.

وإيزابيل ابرهارت Isabelle Eberhardh (1877-1904) الملقبة بالفارسة لإرتدائها دوما بدلة الفارس، و إتخاذها لإسم مستعار "سي محمود" وهو ما نقرأه اليوم على شاهد قبرها بعين الصفراء في الجنوب الوهراني، انتصرت "أبرهارت" الى المضطهدين و دافعت عن الأهالي، واقفة في وجه الاستدمار و ممارساته، يقول عنها "جان ديجو" : "... لم يدافع أحد على الضعفاء مثلما دافعت هي، منحازة إليهم في وجه الرؤى الكولونيالية ، مشيدة بالثقافة العربية و الصوفية الإسلامية ..."[1]

"...Nulle plus qu'elle n'a défendu les pauvres ... prenant la contrepartie d'idées coloniales , exaltant la culture arabe et la mystique musulmane..."[2]

تركت "إبرهارت" أعمالا أدبية تنوعت بين القصة و الرواية و أدب الرحلة لعل أشهرها : في ظلال الإسلام الدافئة Dans l'ombre chaud de l'Islam (أدب رحلة) ، في بلد الرمال Au pays du sable (قصة) و المتشرد Trimardeur (رواية) .

إن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح و نحن نقرأ لهؤلاء الأدباء و نقرأ عنهم هو : الى أي مدى يمكن تنزيل ما كتبه هؤلاء ضمن الأدب الجزائري ؟ و هل يمكن اعتبار هؤلاء الكتاب كتاب جزائريون ؟ يرد مالك حداد على هذا الانشغال بقوله : "... ليست الجنسية الأدبية مجرد إجراء قانوني ، إنها لا ترتبط بالمشرع بقدر ما ترتبط بالتاريخ ..."[3]

"...la nationalité littéraire n'est pas une formalité juridique et ne relève pas du législateur mais de l'histoire..."[4]

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, littérature Maghrebine de langue française, opcit, p : 57.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Ibid, p : 10

ويضيف قائلا : "... المستقبل وحده هو ما يجمعنا بالكتاب الجزائريين من أصول أوروبية و هذا ليس بالأمر الهين ..."[1]

"...Avec les écrivains Algériens d'origine européenne, l'avenir seul était en commun, ce qui n'est déjà pas si mal ..."[2]

معتبرا اللغة الفرنسية منفاه، و تواقا للغته الأم التي حرمه الاستدمار منها : "... إنه الحنين الى اللغة الام

"... Nostalgie d'une langue maternelle dont nous avons été sevrés et dont nous sommes les orphelins inconsolables ..."[3]

لكن هل فعلا المستقبل هو وحده ما يجمع هؤلاء الكتاب مع نظرائهم الأهليين ؟ ليس المستقبل وحده هو ما يجمع هؤلاء بهؤلاء ، بل إن الحاضر أيضا جمع بينهم فجعلهم في خندق واحد ، خندق الرفض والمقاومة و المواجهة لكل الأطروحات و المقولات الكولونيالية، لقد اجتمعوا في مختلف المنابر الأدبية و الإعلامية و السياسية، بل و حتى العسكرية في بعض الأحيان من أجل مقارعة و مقاومة كل أشكال الهيمنة و القمع و اللصوصية المادية و المعنوية (سرقة مقدرات الأمة و خيراتها كما سرقة تاريخها، الإثنان سواء).

لقد كتب هؤلاء الأدباء عن الجزائر و شعبها تماما كما كتب الأدباء الأهليون من بعد، لقد انقطعوا للتوجه الجزائري الأصيل في كتاباتهم، و عبروا عن ذلك أصدق تعبير، بل و صرحوا بكل شجاعة و جرأة عن توجهاتهم الفكرية، و أعلنوها صراحة نحن كتاب جزائريون و كل ما هو جزائري ليس غريبا عنا ، فجاءت

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, littérature Maghrebine de langue française, opcit, p: 10.

[3] – Malek Haddad, les zeros tournent en rond, Mapéro, Paris, 1961, p : 32 .

موافقهم و الأعمال التي تركوها تشهد على صدق دعواهم، و ما قصة أستاذ الرياضيات الفرنسي "موريس أودان"Maurice Audin و "فرناند افتون"Fernand Ivton و "إيفون بروسون"Yvon bresson ببعيد، يقول هذا الأخير عن نفسه : "... لقد فعلت كل هذا بوصفي جزائري، و لم بكن لدي أي انطباع من كوني خنت فرنسا . أنا جزائري ، و ككل جزائري كافحت و لا أزال أكافح الكولونيالية، فمكاني كجزائري واع بجانب الوطنيين، و هذا ما فعلت ..."[1]

"... C'est en tant qu' Algérien que je fait toutes ces choses , je n'ai pas l'impression que j'ai trahi la France. je suis Algérien, et comme tout Algérien J'ai combattu et je continue à combattre le colonialisme, en tant que citoyen Algérien conscient, ma place était aux côtés des patriotes, c'est ce que j'ai fait..."[2]

أسس الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية لمرحلة جديدة في الكتابة الروائية تحديدا، مرحلة أيقظت الوعي وشحذت العزيمة و تعالت بالهمة، و هذا هو المبتغى من الأدب، و هو ما يؤكده الباحث و الأكاديمي الفرنسي المتخصص في هذه التيمة "شارل بون" Charles Bonn إذ يقول : "... لا يمكن لأي نص أدبي إلا أن يكون نصا مؤسسا، و لا أن ينتج لنا فضاءات جديدة للمعنى إلا ضمن مفهوم الإنزياح عن ما هو موجود من نصوص أدبية من جهة، و عن قراءاته و تشوهاته من خلال الأيديولوجيا ..."[3]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Frantz Fanon, l'an V de la revolution Algérienne, édition Talantikit, Béjaia, Algérie, 2014, p : 156 .

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... Mais un texte littéraire ne peut être que fondateur, ne peut produire un espace nouveau du sens que par son écart, tant vis à vis d'une littérature déjà existante que de ses lectures et déformations par l'idéologie ..."[1].

5 – الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية :

5 – 1 جيل ما بين الحربين.

تعد فترة ما بين الحربين العالميتين من الناحية التاريخية تتويجا من جهة و ميلادا من جهة أخرى، تتويج للحقبة الكولونيالية التي أرست قواعدها وأتمت دورتها، بإحتفائها بمرور مئة عام على احتلالها للجزائر، وميلاد لإرهاصات مرحلة جديدة، أخذت مؤشراتها تلوح في الأفق، بعدما أصاب هذه الآلة الكولونيالية الاستدمارية الوهن، الذي شل حركتها وقاد بلا شك الى تشظيها وأفولها.

وقد برزت بوادر هذه المرحلة التاريخية الجديدة بعد فتره العداء الكبيرة التي طبعت العلاقة بين الأهالي وقوى الإحتلال: "... و وقع ما يشبه نوع من التقارب الحذر بين الطرفين، حيث حاول كل طرف الانفتاح على الآخر ..."[2]، كما وكانت الظروف الدولية المحيطة بهذه المرحلة مشجعة على هذا الانفتاح، يقول أحمد لناصري : "... لكن فترة ما بعد الحرب هي أيضا إعلان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية توماس واودرو ويلسون (1912–1924) حول حق الشعوب في تقرير مصيرها، وأخيرا ظهور جماعات منظمة ومطالبة بمزيد من الحقوق للأهالي، وصولا إلى حق المواطنة، لكن ضمن الاعتراف بالسيادة الفرنسية ..."[3]

".. Mais l'après–guerre c'est aussi la déclaration du président des états–unis, Thomas Woodrow Wilson (1912–1924) sur les droits des peuples à disposer

[1] – Charles Bonn, le roman Algérien de langue Française, L'Harmattan, Paris, 1985, p: 324

[2] – أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ط1، دار التنوير، الجزائر، 2013، ص 76.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

d'eux-mêmes … c'est, enfin l'émergence des groupements revendicatifs organisés qui , tout en reconnaissant la souveraineté Française, se battent pour l'élargissement des droits politiques de l'indigène et son accession au statut de citoyen[1] …"

إن هذا الانفراج، إن على المستوى السياسي أو الثقافي، لم يكن وليد الصدفة، أو صدقة من بها الاستدمار على الجزائريين المقهورين، و إنما جاء كرد فعل على ثبات هؤلاء على مواقفهم و صمودهم أمام آلة المسخ الهوياتية، و كذا تضحياتهم أمام المد النازي الجارف : "… كان أيضا على المستوى المحلي قانون 4 فيفري 1919 … الذي كان يهدف إلى إرساء عدالة إجتماعية أفضل … لقد كانت هذه الإجراءات التي سعت إلى مجازاة الجزائريين نظير وقوفهم إلى جانب فرنسا في الحرب العالمية الأولى 1914 -1918 ، مثارا لكثير من التعليقات قبل حتى المصادقة عليها …"[2]

"… Mais il y avait aussi au niveau local la loi du 4 février 1919 … cette loi prétendait introduire une meilleure justice sociale … Ces nouvelles mesures qui devaient récompenser la participation des Algériens au côté de la France dans la guerre de 1914-1918 furent abondement commentées avant même d'être adoptées …"[3]

وفي هذا السياق نفسه، يقول "الأمير خالد" أن هذه الإصلاحات وكذا إلغاء بعض بنود قانون "الأنديجينا" Le Code de l'indigénat العنصري، لم تكن منة من أحد، إنما كانت ثمرة لتضحيات

[1] - Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, op cit, p : 13.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Ibid, p :134.

الجزائريين أثناء الحرب ضد النازية التي أودت بحياة الكثير منهم : "... ترجم الأمير خالد هذا الاستياء في المحاضرة التي ألقاها في باريس أيام 12 و13 جويلية من سنة 1924 حول وضعية مسلمي الجزائر مشيرا إلى مسألة ' ضريبة الدم ' و محاولة المستدمر الاعتراف بذلك، يقول : هكذا كرس قانون 4 فيفري 1919 بعض الإصلاحات في الجزائر ..."[1]

"...Ce mécontentement, l'Émir Khaled le traduisit dès 1924 dans sa conférence donnée à Paris les 12 et 13 Juillet sur la situation des Musulmans d'Algérie évoquant ' l'impôt du sang ' et les velléités de reconnaissance du colonisateur, il déclare : c'est ainsi que la loi du 4 février 1919 consacra certaines réformes en Algérie..."[2]

وبناء على هذه المستجدات، صار في مقدور الجزائريين المشاركة في الإنتخابات وتأسيس الأحزاب والجمعيات ف: "... أسس الأمير خالد 1921 الأخوة الجزائرية ، التي عملت على التأسيس لتنسيق أفضل بين جهود الإصلاحيين و التي لم تكن لتتعدى حدود المجالس المنتخبة..."[3]

"... En 1921, l'Émir Khaled crée la fraternité Algérienne chargée de jeter les bases d'une meilleure coordination des efforts réformateurs jusque-là cantonnés dans les assemblées élues ..."[4]

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p : 129.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Ibid, p : 135.

كما "... قام كل من "مصالي الحاج" و "الحاج علي عبد القادر بتأسيس أول كيان سياسي جزائري ذي ميول يسارية سنة 1926 ... "[1]

"... Le premier parti Algérien voit le jour à Paris en 1926 sous l'impulsion de Hadj Ali Abdelkader et de Messali Hadj d'obédience communiste ..."[2]

أما من الناحية الأدبية فقد ظهرت بعض الأعمال التي وإن كانت ليست ذات قيمة أدبية وفنية كبيرة، إلا أنها حاولت أن تصور إمكانية التعايش بين الأهالي والمستوطنين، فيما حاول القليل من هذه الأعمال أن يبقى بمنأ عن هذا التوجه الاندماجيAssimilassionnisme، يقول "جان ديجو" عن هؤلاء: "... اعتبر البعض أنفسهم مواطنين فرنسيين مندمجين، فيما ناضل الآخرون من اجل الحصول على وضع خاص، إنهم يعرفون أين تكمن الالتباسات و سوء التفاهم، ولنذكر بعض الأسماء لهذه المرحلة، و التي كانت مؤلفاتهم في انسجام تام مع السياسة المتبناة بالرغم من قيمتها الأدبية المتواضعة : الشريف بن حبيلس "الجزائر الفرنسية من منظور أهلي مسلم" (1914)، الأمير خالد "وضعية المسلمين في الجزائر"(1924)، فرحات عباس "الشاب الجزائري" (1931)، محمد الشريف ساحلي "رسالة يوغرطا" (1947) ..." [3]

"...les uns s'estiment citoyens français et assimilés, d'autres luttent pour un statut personnel à maintenir, ils connaissent les ambiguïtés et les malentendus. citons quelques noms de cette époque dont les brochures, de peu de valeur sur le plan littéraire, sont bien en cohérence avec les politiques défendues : Chérif Benhabylès (l'Algérie Française vue par un indigène, 1914) L'Emir Khaled (la

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p: 136.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

situation des Musulmans en Algérie), Ferhat Abbas (le jeune Algérien 1931) , Mohammed Chérif Salhi (le message de Youghourta 1947) ..."[1]

لقد صار الأهلي في هذه الأثناء صانعا لخطابه الخاص، ومعلنا عن كينونته و وجوده، في مواجهة أدب المستدمر الفرنسي، بعد أن كان في الأدب الكولونيالي، في بدايات القرن العشرين موضوعا و أداة للزينة في مختلف الأنماط الأدبية (أدب الرحلة، الأدب المتجزئر، أدب مدرسة الجزائر)، وقد كان للأنتلجنسيا التي تكونت في المدارس الفرنسية الفضل في بروز هذا الأدب، الذي لم ينل حقه من الفحص والتحليل والدراسة، فإذا كان التهميش الذي تعرض له قبل الاستقلال مبرر، فإنه من غير المقبول أن يظل كذلك في السنوات التي أعقبت التحرير.

لقد عاش هذا الأدب، الذي كان أحسن معبر عن الفئة المهمشة، فترة طويلة بعيدا عن الأضواء، فلم يعن بأي إهتمام من قبل النقاد الجزائريين أو المغاربة، ناهيك عن الفرنسيين، لا بل حتى من تعرض لدراسة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في ستينيات القرن الماضي، مر على هذه المرحلة التاريخية (فترة ما بين الحربين) مرورا خافتا وباهتا، متجاهلا لتلك الأعمال الكبرى التي رسمت ملامح هذه المرحلة يقول أحمد لناصري : "... ذكر عبد الكبير الخطيبي بمرحلة المتجزئرين دون الإشارة إلى أقرنائهم الأهليين منتهيا، مع شيء من الريبة، عند سنة 1945 ، تكلم "شارل بون" من جهته و بعجالة عن "جان عمروش" لينتقل الى المرحلة المتعارف عليها تقليديا، أي مرحلة الخمسينيات، وحده "جان ديجو" أشار إلى هذا الجزء من الأدب الجزائر، لكن من أجل وضعه في دائرة الأدب المهمش... "[2]

[1] – Jean Déjeux, La littérature Algérienne Contemporaine, op.cit., p : 58.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... Abdelkabir Khatiri rappelle la période des Algérianistes sans faire référence à leurs contemporains autochtones, et prend pour terminus a quo l'année 1945, Charles Bonn mentionne rapidement Jean Amrouche pour passer à la période traditionnellement admise, c.à.d Les années cinquantes, Seul Jean Déjeux fait allusion à cette partie de la littérature Algérienne, mais c'est pour mieux la reléguer dans la marginalité ..."[1].

وسم "جون ديجو" هذه المرحلة من الناحية الأدبية، بمرحلة التقليد والمثاقفة معتبرا الكتاب الجزائريين "... مجرد تلاميذ يتعلمون الإنشاء ويحاولون من خلال ذلك أن يبرهنوا لأساتذتهم الفرنسيين أنهم يستطيعون الكتابة بلا أخطاء لغوية ..."[2]

لكن المثاقفة والتقليد لم تتوقف على هذه المرحلة فحسب بل إمتدتا الى عقود أخرى تلت هذه المرحلة، لأن مسألة التأثر ليست بدعا من السلوك في الحياة الأدبية، كما اعتبر "جان ديجو" : "... أن هذه المرحلة هي مرحلة التماهي مع النموذج الفرنسي مع بعض الاستثناءات، لكن إذا عممنا، يمكننا القول أن كتاب هذه الفترة – إذا ما استثنينا "مالك بن نبي" و "علي الهمامي" في الجزائر أو الكتاب التونسيون اليهود– أكدوا من خلال الأيديولوجيا المعلنة في أعمالهم : نحن كالفرنسيين . نريد أن نكون فرنسيين ..."[3]

"... Cette période est celle de l'identification au modèle français sauf exception, en généralisant on peut même dire que les auteurs de ces années–là, sauf deux auteurs comme Malek Benabi et Aly El Hammamy en Algérie ou les auteurs

[1] – Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p : 129.

[2] – أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 05.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

Juifs tunisiens, affirmaient à travers l'idéologie de leur oeuvres : Nous sommes comme les Français. Nous voulons Être français ..."[1]

يعلق أحمد منور على الكاتب الذي استثناه جان ديجو من قائمة الكتاب الجزائريين الذين كانوا ينادون بالاندماج، ونقصد بذلك الكاتب والمفكر والفيلسوف "مالك بن نبي" قائلا: "... قد عبر عن توجهه الفكري في كتابه الظاهرة القرآنية، الذي كان قد صدر قبل عام من روايته المذكورة، وفي هذه الرواية يعود الكاتب إلى معالجة موضوع الخمرة الذي كان يشكل الهاجس الرئيسي لكتاب العشرينات كما أشرنا من قبل، ولكن من منظور جديد وفي نطاق تصور نظري متكامل لدى المؤلف عن شروط النهضة الجزائرية، التي يرى أنها لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الرجوع إلى الأصل، أي إلى الدين الصحيح، وبناء على هذا الأساس يعطي المؤلف الحل، ولا يترك بطله حائرا مستسلما، ينتظر مصيره المحتوم في قدرية وعجز كامل، كما كان حال بطلي روايه زهراء زوجة المنجمي لعبد القادر حاج حمو، ومامون لشكري خوجة ..."[2]

تأثر " مالك بن نبي بمستشرق فرنسي موضوعي، ناصر القضايا العربية الإسلامية العادلة، وفي مقدمها القضية الجزائرية، في زمن قل فيه الأوفياء، فكان جزاؤه أن عاش وحيدا، يشكو الفاقة، و مات طريدا يحن إلى الرفقة، إنه المستشرق الفرنسي " أوجين يونغ" Eugène Yung الذي عرى الأطروحات الكولونيالية و فضحها، صانعا الوعي بالظاهرة الاستدمارية في المجتمعات المضطهدة : "... و في هذا المقام يتساءل "بن نبي" عما إذا كان الوطنيون و الإصلاحيون اليوم يخامرهم شك في أنهم يحملون في عروقهم أراء وأفكار ومشاعر جاءتهم من آفاق مختلفة..."[3].

---

[1]. Jean Déjeux, situation de la littérature Maghrébine de langue française, opcit, p : 16

[2] – أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق ص 86 .

[3] – جيدل عمار، أفكار استعمارية، ط1، جسور للنشر و التوزيع، الجزائر، 2008، ص 22/21.

وقد ترك أعمالا تنم عن توجهانه الفكرية وتطلعاته الإنسانية، في كتابه الموسوم ب : يقظة الإسلام والعرب، و كتاب الإسلام و المسلمون في الشمال الافريقي و الثورة العربية من سنة 1906 الى سنة 1925، إضافة الى مؤلفات أخرى تسير في إطار هذا التوجه نفسه.

يرجع أحمد لناصري سبب عزوف الكثير من الباحثين والنقاد عن دراسة الأدب الذي ظهر في هذه المرحلة التاريخية الحساسة إلى عاملين أساسيين : "... الأول ذو طابع جمالي، ليس هو المؤثر في اعتقادنا لأنه يتحجج بضعف هذا الانتاج من الناحيه الأدبية لإبعاده عن الحقل النقدي، والعامل الثاني الذي عادة ما يقدم، فهو ذو طابع آيديولوجي، إن هذا الأدب متهم بانخراطه أولا في مقولات المستدمر بتغنيه بإنجازات الاستدمار ثم بتمثله لسياسة الاندماج ..."[1]

"... Le premier qui est d'ordre esthétique ne nous semble pas pertinent puisqu' il argue de la faiblesse littéraire de cette production pour l'écarter et Du champ critique ... Le deuxième critère qui est souvent avancé est d'ordre idéologique. Cette littérature est accusée d'acthérer aux présupposés du colonisateur d'abord en chantant les bienfaits de la colonisation, ensuite en faisant sienne la politique d'assimilation ..."[2]

وبالإضافة الى هذين العاملين (العامل الجمالي و العامل الآيديولوجي) فثمة عامل آخر، فقد "... كان هذا الأدب في حقيقة الأمر قليل المقروئية بسبب صعوبة الحصول على الأعمال التي لا تزال في أغلبها نادرة ..."[3]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p : 130.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... En réalité cette littérature a été très peu lue à cause de la difficulté d'accès à des oeuvres qui demeurent pour l'essentiel encore introuvables ..."[1]

إن ندرة هذه الأعمال وصعوبة الحصول عليها جعل منها بعيدة عن مجال البحوث و الدراسات الأكاديمية، لكن هذا ليس بالسبب الوحيد ، فطابع هذه الأعمال الأدبية الإندماجي، حتى و إن كانت هذه الإندماجية خطيئة يجب إرتكابها ، كان له نصيبه في عزوف الكثير من الباحثين في تناول هذه الأعمال بالدراسة .

يقول أحمد منور و هو من القلائل المتخصصين في هذه التيمة : "... إن كتاب هذه الفترة مظلومون أشد الظلم و لا أبالغ في شيء إذا قلت أنهم بالرغم من اندماجيتهم التي لم يتعلقوا بها في حقيقة الأمر إلا حرصا على فكرة المساواة بين المستوطنين و الجزائريين ، قد دافعوا أحسن دفاع أو عبروا أصدق تعبير عن هوية الشعب الجزائري ..."[2] و يضيف معلقا على هذا الكلام : "... وانطلاقا من عنايتي بهؤلاء الكتاب وتحليلي للعديد من رواياتهم ، **أزعم أنني قد أتيت بجديد لم يسبقني إليه أحد من الباحثين** ، وينطبق هذا حتى على نصوص الخمسينيات أيضا، التي لم تنل هي الأخرى حظها من التحليل المعمق ..."[3]

إن اعتبار أحمد منور نفسه الوحيد من قال بدفاع كتاب فترة ما بين الحربين – أمثال محمد بن الشريف، و عبد القادر حاج حمو، و شكري خوجة، و سليمان ولد الشيخ –عن هوية الشعب الجزائري و قيمه و تراثه وأن أحدا لم يسبقه في ذلك، ومن ثم إتيانه بالجديد في هذا الموضوع، كلام يجانبه في تقديرنا الصواب، لأنه وبعد إطلاعنا على ما كتبه الباحث أحمد لناصري ، الذي سبق ما كتبه أحمد منور بسنوات ، في مؤلفه : La littérature Algérienne d'entre les deux guerres : genèse et fonctionnement والذي حصلنا عليه بشق الأنفس، إتضح لنا أن الأمر ليس كذلك، يقول أحمد لناصري : "... إضافة إلى

---

[1] – Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p: 130.

[2] – أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق ص 05 .

[3] – المرجع نفسه، ص5.

ذلك ، فالنقد الذي يعاتب هذا هذا الأدب كونه قال الكثير أو لم يقل ما يلزم، يجهل أو يتجاهل سياق الإستدمار المتسلط . فحتى ينال الأهلي الكلمة لابد من أن يبدي قبوله بمقولات النظام القائم، و يتجنب كل ما يمكن أن يعيد النظر فيه، بعدها فقط يمكن له جلب الأنظار حول مواطن الخلل و سير هذا النظام ..."[1]

"... En outre la critique qui reproche à cette littérature d'en avoir trop dit ou pas assez, ignore ou feint d'ignorer le contexte oppressif de la colonisation pour prétendre à la parole , le colonisé devait d'abord prêter allégeance au système et éviter tout ce qui pouvait le remettre en question. Ceci posé comme préalable, il pouvait alors se permettre d'attirer l'attention sur ce mauvais fonctionnement du système ..."[2].

ويؤكد أحمد لناصري في نفس هذا السياق، ذاهبا أبعد مما قاله أحمد منور من كونه الوحيد الذي توصل إليه، وناسفا إياه قائلا : "... إن التاريخ النقدي لأدب ما بين الحربين هذا يمكنه أن يكون مليئا بالدروس والعبر على مستويات ثلاثة :

- على مستوى ممارسته الذاتية، فهو يسمح لنا بمعرفة التناقضات التي كان يحياها المجتمع الكولونيالي في ثلاثينيات القرن الماضي .
- أما على مستوى الممارسة الأدبية بصفة عامة ، فهو يعد مثالا جيدا للرفض الذي تجلى في الأعمال الأدبية ضد كل دوغمائية أيديولوجية، من خلال عرض الحقيقة الاجتماعية والأيديولوجيا المهيمنة جنبا إلى جنب، فالتخييل يهدم مزاعم هذه الأخيرة ويعريها كاشفا تناقضاتها الذاتية ..."[3]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, op cit, p : 286.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"… L'histoire critique de cette littérature de l'entre deux guerres peut être pleine d'enseignements, et ce, a un triple niveau :

Au niveau de sa propre pratique , elle nous permet de saisir, dans sa complexité, les contradictions qui travaillent la société coloniale des années trente.

Au niveau de la pratique littéraire en général, elle est un bon exemple de la répulsion manifestée par l'œuvre littéraire pour tout dogmatisme idéologique, en exposant côté à côté la réalité sociale et l'idéologie dominante. La fiction ruine les prétentions de cette dernière en découvrant, par une sorte de mise à nu ses propres contradictions …"[1]

لقد اجتمعت الأعمال الأدبية لهذه المرحلة على رفض سياسة الإندماج التي ما فتئت الأبواق الكولونيالية تطبل لها، داعية في الوقت نفسه إلى المحافظة على الهوية الوطنية .

كما سبق الباحث أحمد لناصري الباحث أحمد منور في نقده لما كتبه جان ديجو، من خلال إبرازه لظاهرة التجديد في هذا الأدب بتناوله لتيمات لم يسبق و أن تناولها كتاب آخرون ، يقول أحمد لناصري : "... وظف جان ديجو في هذه الفترة الطريقة نفسها، التي وظفها النقاد الكولونياليون من خلال إنتقاء الإقتباسات ذات الصلة بمجد فرنسا الكولونيالية و غض الطرف عن مظاهر التمرد في هذا الأدب ..."[2]

---

[1]. Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p: 286 –

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"… En fait Jean Déjeux utilisera pour cette période le même procédé que les critiques coloniaux en sélectionnant soigneusement les passages à la gloire de la France coloniale et en occultant les aspects subversifs de cette littérature …"[1]

تمرد مس الشكل من خلال العنونة التي جاءت حاملة لأسماء عربية، كان لها الدور الأساس في المتن الروائي، و الأمثلة على ذلك كثيرة (أحمد بن مصطفى القوميAhmed ben Mustafa goumier،

بولنوار الشاب الجزائري Boulenouar, le jeune Algérien، مامون، ميلاد مثل أعلى Mamoun l'ébauche d'un idéal، العلج أسير البرابرة El euldj captif des barbaresques، زهرة زوجة المنجمي Zohra femme du mineur، مريم بين أوراق النخيل Mériam entre les palmes، عزيزة Aziza، كما مس أيضا المضمون، بتناوله لمواضيع و تيمات جزائرية صرفة، كمسألة الزواج المختلط وتبعاته على الزوجين، و الإسلام و فرنسا، و كذا السلوكات غير الإسلامية في المجتمع الأهلي.

لقد كان هذا الجيل من الأدباء مدركا، لا بل و حساسا لما يعيشه الشعب الجزائري من بؤس و شقاء وفرنسة، حاولت جاهدة أن تقضي على قيم هذا الشعب وهويته ، فوظف بذكاء كبير أحد وسائل الدعاية الكولونيالية (الرواية) للذود عنها، بعد أن كان وظف من قبل أحد أدوات الإستدمار في الهيمنة و السيطرة، وهي اللغة الفرنسية ، كما أن اللبس الذي قد يبدو جليا من الوهلة الأولى في هذا الأدب، من خلال ما يبرز فيه من إشادة بفرنسا تاريخا وحضارة و لغة من جهة و من حرص على الدفاع عن هوية الجزائريين وقيمهم و تراثهم من جهة أخرى، كان لا مناص منه، يقول أحمد لناصري : "… لقد أشرنا من جهتنا نحن،

[1]. – Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p : 286

إلى ضرورة أن يشتغل هذا الأدب بطريقة النفاق في هذا السياق الكولونيالي، الذي كان سببا في وجوده والذي جعل منه أدبا مهيمن عليه دون عناء ..."[1]

"... Nous avons déjà quand à nous souligné la nécessité de cette littérature à fonctionner sur le mode de l'hypocrisie au regard du contexte colonial ? qui l'a engendrée et qui est en fait , d'emblée, une littérature dominée ..."[2]

كما وكان هذا الجيل أول من كتب بالفرنسية عن الهم الجزائري، حتى و إن كانت كتاباته لم ترق من الناحية الفنية و الجمالية إلى المستوى المطلوب، لكن يكفيها شرفا أنها ساهمت بشكل كبير في فرض تيمات جديدة على الدوائر الأدبية في تلك المرحلة التاريخية كعلاقة الإسلام بالغرب، و الأصالة و الحداثة ، وكذا بعض السلوكيات التي ظهرت في هذه المرحلة في الوسط الأهلي، كتعاطي الخمر و لعب القمار و غيرها، المستوردة من مجتمع الإحتلال، يقول الباحث و الأكاديمي عبد القادر جغلول : "... كان لهذه الإنتلجنسية الجنينية الفضل تاريخيا، كونها أسست للبحث في كل ما يخص المجتمع الجزائري في تلك المرحلة، كعلاقة الإسلام بالغرب، و كذا علاقة التقليد بالحداثة، اللذين صارا في لب النقاش الأساس للمرحلة، و الذي يدور حول رؤية جديدة لمشروع مجتمع يسمح للمجتمع الجزائري بتقرير مصيره بنفسه ..."[3]

"... Cette intelligencia embryonnaire aura eu le mérite historique d'amorcer une réflexion d'ensemble sur la société Algérienne de l'époque, le rapport de l'Islam à l'Occident, celui de la tradition à la modernité sont au cœur du débat fondamental de la période qui tourne autour de la définition d'un nouveau projet

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p : 130.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

de société, qui permette à la société Algérienne de reprendre l'initiative de son destin ..."[1]

وهو كلام يؤكده أحمد لناصري، لا بل و يكرسه من خلال ما قاله حول الدور الهام الذي اضطلع به هذا الأدب بالرغم من كل ما قيل عنه، و هو ما ذهبت إليه أيضا الباحثة فوزية بن جليد بقولها : "... اعتبرت هذه الفئة من المثقفين الكتابة بمثابة فعل لإثبات الذات و على الكتاب إقناع القراء في المتروبول بجدوى دعواهم . قراء منسجمون تماما مع الخطاب الإيديولوجي الكولونيالي الذي تأسس على كليشيهات العربي المتوحش و البدائي الذي يستوجب الأخذ بيده نحو التحضر ..."[2]

"... Pour cette frange d'intellectuels, l'écriture est un acte d'illocution, il s'agit pour les écrivains de convaincre le lectorat de la métropole du bien-fondé de leur cause, un lectorat, pour l'époque, complètement acquis au discours idéologique colonial, fondé sur les clichés de l'arabe sauvage et primitif qu'il faut inviter à la civilisation ..."[3]

دأب الخطاب الروائي للأدباء الأهليين منذ نشأته على الدفاع على كل ما هو أهلي، متحديا بذلك حاجز الخوف من المقاطعة أو التجاهل، جاعلين من نصوصهم الروائية أدوات فعالة لإبراز عناصر الهوية الوطنية، متحدين بذلك الخطاب الكولونيالي الإقصائي و المستعلى، الغرائبي منه و المتجزئر، إنه خطاب بربرية أوروبا التاريخية، التي قال عنها إدغار موران Edgar Morin : "... نلاحظ اندفاعا هائجا لخمسة

[1] - Djeghloul Abdelkader, éléments d'histoire culturelle Algérienne , OPU, Algérie, 1981, p: 22 .

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Faouzia Bendjélid, le roman Algérien de langue Française, opcit, p : 55/56 .

قرون من البربرية الأوروبية، خمسة قرون من الغزو و الاستعباد و الاستعمار ... هناك سجال اليوم بخصوص توجيه يهدف إلى الإشارة في كتب التاريخ المدرسية، إلى المميزات الإيجابية للاستعمار الفرنسي بالجزائر ..."[1]

إن كلاما من هذا القبيل يعد ضربا من ضروب شرعنة الإحتلال و الهيمنة و القهر، إنه انتصار لمنطق القوة لا منطق الحق، لكن التجارب التاريخية تقول بعكس ذلك، لأن الغلبة في آخر المطاف ستكون دائما وحتما لأصحاب لحق، فدولة الباطل ساعة و دولة الحق الى قيام الساعة ، و أن مآل الإستدمار الغربي الأوروبي هو الزوال لا محالة، و التاريخ كفيل بالحكم عليه "... و أن اوروبا هذه، الماثلة أمام محكمة العقل ومحكمة الضمير، لا تستطيع أن تبرأ ذاتها و هاهي تلجأ أكثر فأكثر إلى نفاق وقح، تراجعت خطوط خداعه ..."[2]

فمبررات الاستدمار لم تعد لتنطلي على أحد، لأنه خطيئة تاريخية في حق الإنسانية جمعاء تستوجب التوبة فقد "... أضحت الكولونيالية خطأ سياسيا جسيما، لأنها لم تعمل سوى على هدم سمعة فرنسا السياسية والأخلاقية ..."[3]

"...La colonisation a été une erreur politique de grande importance, parce qu'elle n'aura consister qu'à ruiner le prestige politique et moral de la France ..."[4].

5 -2-1 الأهلي واللغة المستعارة

استطاع الأدب الجزائري أن يضع لنفسه موطأ قدم في الساحة الأدبية، و أن يتموضع في سياق فكري وأدبي و آيديولوجي صعب، ومليئ بالمتناقضات، وقد تمكنت النخبة الأدبية التي تكونت في المدرسة

[1] – إدغار موران، ثقافة أوروبا و بربريتها، ط1، تر : محمد الهلالي، دار توبقال للنشر، الجزائر، 2007، ص 20 .

[2] – إيمية سيزار، خطاب حول الإستدمار، تر: ميشال سطوف، منشورات ANEP ، الجزائر،2006، ص9 .

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Richard Laurent Omgba, la littereature anticolonialiste en France entre 1914 – 1960 , l'Harmattan, France, 2005, p : 307.

الفرنسية – و التي عادة ما يطلق عليها " المتطورون " Les évolués –، من ناصية اللغة الفرنسية، فأستعارتها لتفرض بها نفسها على فرنسيي المتروبول وفرنسيي المستوطنة على السواء، و لتعلن أن ثمة شعب له هويته الخاصة، وتاريخه الحافل بالأمجاد، وحضارة، غير حضارة المحتل.

ظهرت في هذه الفترة التي أطلق عليها " جان ديجو " فترة التقليد و المثاقفة Mémétisme et acculturaion، و التي تمتد بحسبه من سنة 1920 حتى سنة 1950، أول قصة لكاتب جزائري باللغة الفرنسية موسومة ب : انتقام الشيخ La vengeance du Cheik لمحمد بن رحال و هذا ضمن جرد عام قام به هذا الباحث لكل الإصدارات الأدبية الجزائرية تحديدا، و المغاربية عموما، أثناء فترة الإحتلال ووصولا إلى سنة 1978، يقول جان ديجو : "... إن أول قصة كتبها جزائري – بحسب علمنا – كانت في سنة 1891، كتبها محمد بن رحال (1856–1928) موسومة ب : انتقام الشيخ، صدرت في المجلة الجزائرية التونسية للأدب و الفن ..."[1]

"... A notre connaissance la première nouvelle en français écrite par un Algérien a été en 1891, celle de M'hamed Ben Rahal (1856–1928) la vengeance du Cheik dans la revue Algérienne Tunisienne littéraire et artistique..."[2]

هذا فيما يختص بالقصة، أما فيما يختص بالشعر فقد جاءت الدواوين الشعرية متأخرة بعض الشيء، ويرجع جان ديجو أول ظهور لديوان شعري إلى سنة 1917، يقول : "... ظهر أول ديوان شعري لجزائري سنة 1917 لصاحبه سالم القبي (توفي سنة 1921) : حكايات و أشعار الإسلام، أتبعه بديوان آخر سنة 1920 بعنوان : ندى الشرق ..."[3]

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, Situation de littérature Maghrebine de langue française,opu,Algérie, 1982, p: 18 .

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... Le premier recueil de poème date de 1917, celui de Salem El Koubi (Mort en 1921) : contes et poèmes de l'Islam, il sera suivi d'un second par le même auteur en 1920 : Rosées d'Orient ..."[1]

تغنى الشاعر في هذا الديوان بسحر الشرق وعظمة الإسلام و بحضارة فرنسا و أنوارها مسايرا في هذا المقولات الكولونيالية لهذه المرحلة .

يذكر " جان ديجو " أيضا أن عملية المسح التي قام بها و التي عنيت بالإصدارات الأدبية الواقعة زمنيا بين سنتي 1880 و 1920 أنه "... لم يعثر إلا على نصوص قليلة موقعة بأسماء ذات رنين عربي حسب تعبيره، مثل الجزائري، الراوي "الفرياني" ، و هو يشك كثيرا في حقيقة أصحابها، و يستثني إثنين منهم، أحدهما يدعى أحمد بوري الذي نشر سنة 1912 في جريدة الحق رواية مسلسلة بعنوان مسلمون ومسيحيون ..."[2]

كما برز في ميدان الشعر أيضا علم كبير و قامة سامقة، تميزت أشعارها بالجودة في الشكل و المضمون إنه الشاعر : جون الموهوب عمروش، شخصية أدبية تربعت على فضاء النظم الشعري في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر الأدبي، إنه الرجل الذي حاول أن يكون الجسر الذي يربط الجزائر بفرنسا وفرنسا بالجزائر، اجتهد في تسويق الثقافة والقيم الجزائرية للفرنسيين والثقافة والقيم الفرنسية للجزائريين، لقد كان ارتباطه بالبلدين ارتباطا عميقا و من ثمة جاءت مقولته الشهيرة : "... إن فرنسا هي عقل روحي فيما الجزائر هي روح عقلي ..."[3]

---

1. – Jean Déjeux, Situation de littérature Maghrebine de langue française,opcit, p : 18/19 .

2 – أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق ص 73 .

3 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... La France est l'esprit de mon âme, l'Algérie est l'âme de mon esprit ..."[1]

ولد جان عمروش و ترعرع في عائلة اعتنق الوالد بلقاسم فيها المسيحية نظير حصوله على الرعاية والتعليم داخل دير من أديرة الآباء البيض Les Pères Blancs، و من ثمة حصوله أيضا على الجنسية الفرنسية و هي السياسة التي أتبعها الإحتلال ف : "... بعد عجز الفرنسيين على تنصير المستعمرين عمدوا إلى السعي من خلال كلية الحقوق الجزائرية، فأصدر عميدها " مورو" Moraud مشروع مرسوم يقضي بمنح الجنسية الفرنسية للذين يعتنقون المسيحية في الجزائر أو المستعمرات ..."[2]

أما أمه فاطمة آيث منصور، الفتاة الفقيرة واللقيطة التي لم تعثر على زوج غي منطقة القبائل، فقد تزوجها جان عمروش بعد أن اشترط دخولها إلى المسيحية ، ومن ثمة نشأ الطفل جان الموهوب عمروش في هذا الجو العائلي الشاذ في قرية "إيغيل علي" في أعالي جرجرة، الشيء الذي اضطر العائلة إلى الهجرة إلى تونس أولا ثم إلى فرنسا والحصول على الجنسية الفرنسية (الوالدين والإخوة الستة لجان الموهوب عمروش).

تأتي شقيقته "ماري لويز الطاوس عمروش" على وصف العزلة التي عاشتها عائلتها في المهجر وكذا تميزها عن باقي العائلات بقولها في مؤلفها " حي الدفوف La rue des Tombourins" : "... كان الأب يضع على رأسه شاشية فيما الأم تلبس ثيابها على الطريقة الأوروبية عند ظهورها أحيانا، أما الأولاد فيرفضون وضع الشاشية والقبعة الأوروبية على السواء، وبالنسبة للجدة فهي تلتحف غطاء عتيقا مخططا على شاكلة الحايك ..."[3]

---

1. Jean Déjeux, La littérature Algérienne Contemporaine,opcit , p: 60 .

2 – عمار جيدل، أفكار استعمارية، المرجع السابق، ص 81 .

3 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... Le père portait une chéchia, la mère s'habillait à l'européenne, quand par hasard elle se montrait, les garçons circulaient tête nue (rejetant à la fois la chéchia et le chapeau) mais la grand-mère s'enveloppait d'une vielle couverture rayée en guise de Haik"..."[1]

وضمن هذا السياق جاءت أعمالها كسرد سير ذاتي حاولت فيه وصف وضعها : "... التهميش خارج الجماعة، إقتلاعها من جذورها، المنفى، المواجهة مع الآخرين، الحرمان من الحب ..."[2]

"... Marginalité, hors le groupe, déracinement, exil, affrontement avec les autres, soif absolue d'amour[3]..."

تأثر جان الموهوب عمروش بالبرناسيين، فأقتفى أثرهم، ناظما ديوانه الشعري الأول الموسوم ب: " الرماد Cendres " سنة 1934 يقول في مقدمه وبلغة متفائلة :

"... سيتشظى شبابي عبر العالم

كصواريخ نجوم مجهولة ..."[4]

" ...Ma jeunesse

Éclatera sur le monde

En fusées d'astres inconnus[5]..."

1- Jacqueline Arnaud, la littérature Maghrébine de langue Française, opcit, p : 131.

2 - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

3- Jean Déjeux, Dictionnaire des hauteurs Maghrébins de langue Française, karthala, Paris, France, 1984, p : 34.

4 - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

5- Jacqueline Arnaud, la littérature Maghrébine de langue Française, opcit, p : 134.

وبلغة أخرى يلفها الخوف والخشية من عدم بلوغ مرامه في مزيد من الخلق يقول :

"... آأجد الوقت لأكتب و أحلق ؟

آأجد حياة الروح و الوقت للإبداع..." [1]

"... Aurais-je le temps d'écrire et de planer?

Aurais-la vie de l'âme et le temps de créer..."[2]

كما كان للبحث عن الذات والتحري عن الهوية حيز مهم في أعمال جان عمروش، سيما في ديوانه الشعري الثاني " النجمة السرية L'étoile secrète " الذي طغت عليه ذكريات الطفولة بكل تفاصيلها وحيثياتها، يقول الشاعر :

"... لم أقل أي شيء لي

لم أقل أي شيء مني

آه! أخبروني عن هويتي

عن الكلمات التي تتغنى بداخلي

من يخبرني عن مصير هذه الكلمات المجهول صاحبها ؟

أي رسائل تبثها هذه الكلمات ؟

وأي رسائل أبثها أنا ؟..."[3]

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jacqueline Arnaud, la littérature Maghrébine de langue Française, opcit, p : 134.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"...Je n'ai rien dit qui fût à moi

Je n'ai rien dit qui fût de moi

Ah ! Dites-moi l'origine

Des paroles qui chantent en moi...

Qui me dira le destin de ces paroles d'inconnu?

De quoi sont-elles messagères?

De quoi suis-je messager..."[1]

عبر جان الموهوب عمروش في أعماله الأخرى كمقالته "يوغرطة الخالد" L'éternel Jugurtha سنة 1943 وكذا ترجمته للأغاني البربرية في منطقة القبائل Chants Berbères en Kabylie، عن الألم الذي لازمه منذ أن قررت أسرته الهجرة إلى تونس ثم فرنسا، وعن بحثه الدائم عن فردوسه المفقود، الشيء الذي جعله يكرس كل وقته لمحاولة تجسير الهوة بين بلدين متحاربين، ومشروعين متناقضين، مشروع يرنو إلى الحرية وآخر يكرس العبودية وهي مهمة لعمري مستحيلة.

و عندما صارت الثورة التحريرية واقعا معيشا، يحياه الجميع، ومنطقا يفرض نفسه إقليميا ودوليا، نظم جان الموهوب عمروش قصيدتين سنة 1958، صدرتا سنة 1963، عبر فيهما، أيضا عن مسألة الهوية لكن بطريقة أكثر واقعية هذه المرة، لا بتصور أسطوري لهذا المفهوم، يقول الشاعر في هذه الأبيات :

"... أخذنا كل شيء من الجزائريين

[1] – Jacqueline Arnaud, la littérature Maghrébine de langue Française, opcit, p : 140.

أخذنا الوطن واسمه

أخذنا اللغة وعباراتها الإلهية

أخذنا الحكمة التي تنير درب الإنسان

من المهد وحتى ... اللحد

أخذنا الأرض والقمح،... الينابيع والجنات

أخذنا الخبز من أفواه الجوعى وأخذنا الخبز من الروح ..."[1]

"... Aux Algériens on a tous pris

La patrie avec le nom

Le langage avec les divines sentences

La sagesse qui règle la marche de l'homme

Depuis le berceau .... Jusqu'à la tombe

La terre avec le blé, les sources avec les jardins

Le pain de la bouche et le pain de l'âme..."[2]

عاش جان عمروش ممزقا ومات ممزقا، عاش مأساة الانتماء إلى ثقافتين ولغتين و مجتمعين، ولم يقو على الجمع بين هذه المتناقضات، لكن حسبه أنه حاول، منحازا بعض الشيء في أخريات حياته إلى قضية

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jacqueline Arnaud, la littérature Maghrébine de langue Française, opcit, p : 158.

بلده العادلة، الشيء الذي أدى ببعض الفرنسيين إلى نعته باللئيم"... ألقى بعض الفرنسيين باللائمة – أثناء حرب التحرير الوطنية – على جان عمروش بسب مقالاته الداعمة للجزائريين في ثورتهم قائلين له : أنت الذي تدين لفرنسا بكل شيء! ما هذا اللؤم! لقد أطعمناك في السراي و علمناك و ربيناك، وها أنت الآن تثور ضدنا! إن هذا كله معروف بالنسبة لنا ..."[1]

"... Durant la guerre de libération nationale, des français reprochent à Jean Amrouche ses articles de combat en faveur des Algériens : toi qui doit tout à la France ! Quelle ingratitude donc ! On vous a nourri dans le sérail, éduqué, élevé et voilà maintenant que vous vous rebellez ! Tout ceci est bien connu[2]..."

أما بالنسبة للرواية، فيعتقد الكثير من الباحثين المتخصصين في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وعلى رأسهم جان ديجو عراب هذه التيمة بامتياز، أن أول رواية جزائرية ظهرت، هي الرواية الموسومة ب: أحمد بن مصطفى القومي سنة 1920 لمؤلفها محمد بن الشريف، فيما كتب آخرون روايات لم تر النور إلى يومنا هذا "... هكذا كتب الشريف بن حبيلس " الأرواح المتاخمة " وأعلن الحاج حمو عن " معجزة مراد " و "حكايات القطة والأخرص " فيما أنهى محمد ولد الشيخ كتابة " عذراء الريف ..." [3]

"... Ainsi Cherif Benhabyles écrivant Âmes Frontières, Hadj Hamou annonçant le Miracle de Mourad et des contes le Chat et le Muet, Mohammed Ouled Cheikh avait terminé la Vièrge du Douar..."[4]

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, Situation de littérature Maghrébine de langue française, opcit, p : 22.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Ibid, p : 19.

تعرض رواية محمد بن شريف هذه، قصة البطل " أحمد بن مصطفى " الجندي في الجيش الفرنسي الذي انتقل إلى المغرب الأقصى للمشاركة في العمليات العسكرية، أين أبلى بلاء حسنا فكان جزاؤه أن رقي في الرتبة العسكرية، وفي أوج هذه الحرب يواجه البطل أعداء يقاسمونه العرق والدم والهوية، يروي أحمد بن مصطفى لحظة وقوفه أمام العدو المغربي بعد أن أرداه قتيلا قائلا: "... ليس بعد، يقول الخيالة، إحكي لنا البقية.

-لا داعي لذلك ؟ لقد قتل المغربي وحصانه بالطلقة نفسها، اقتربت منه قليلا، وإذ أرى على وجهه صورة عنتر، وحركة شفتيه، التي لم تكن ابتسامة، كشفت أسنانه.

-يا ويلي، .... لقد أراد أن يلدغك، يقول لقويدر مازحا.

- لا تشتمه، لقد مات كالأسد ..."[1]

"... Ce n'est pas tout reprennent les cavaliers, raconte le reste.

-A quoi bon ? le Marocain et son cheval ont été tués par la même balle. Je me suis approché et, sur le visage de l'homme, j'ai vu comme Antar, un mouvement de lèvres, qui n'était pas un sourire, lui mettre les dents à découvert

-Ya ouili ! dit Kouider facétieux. Il voulait te mordre?

-Ne l'insulte pas، il est mort comme un lion..."[2]

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p : 191.

إن إنتماء البطل (الجزائري) وعدوه (المغربي) لفضاء هوياتي واحد، جعلت " أحمد بن مصطفى " يرى نفسه وكأنه قابع أمام مرآة عاكسة، إن قتله للمغربي وكأنه قتل لنفسه وقضاء على هويته ونفي لتاريخه، كما أن استدعاء البطل للتاريخ بحديثه عن عنترة بن شداد العبسي، أحد أشهر شعراء العرب والذي عرف عنه شجاعته وبسالته وقوته في المعارك، كان فيه دلالة واضحة على محاولة مقاومة الفسخ و المسخ و محو الهوية من جهة، وإحساس البطل بالغربة و الضياع، ما يجعله في حالة إتصال بهذا الماضي المجيد والتراث الزاخر بالبطولات والمآثر.

أما "عبد القادر حاج حمو" فقد كتب رواية اختار لها عنوان "زهرة زوجة المنجمي" Zohra la femme du mineur، تحكي هذه الرواية قصة زهرة زوجة ملياني الرجل المتدين والمستقيم الذي يشتغل بالمنجم، لكن حياته السوية هذه تتحول إلى حال أخرى، تبدأ بمعاقرة الخمرة، لتصل إلى معاكسة "تيريز"Therès، زوجة صديقه قريمشي Grimecci ذي الأصل الإيطالي، الذي يقيم بدوره علاقة خارج إطار الزوجية مع شابة من أصول يهودية تدعى "روزيت"Rosette.

تعيش زهرة حياة ضنكا بسبب تحول سلوك زوجها ملياني، فتقرر طلب العون من الكهان والمشعوذين، أملا في عودة زوجها إلى سابق عهده، لكن دون جدوى، وبعد مقتل "قريمشي" تتجه الشكوك نحو ملياني وعشيقته تيريز ليتم سجنهما بعد ذلك، فتطلب زهرة المريضة والمنهكة الطلاق وتموت بعد أن يتم لها ذلك، وينتهي السرد بتوبة ملياني وأوبته وطلبه الصفح ممن أخطأ في حقهم.

إن النمط الجديد الذي اختاره البطل ملياني لحياته جاء تحت تأثير الآخر الغربي المحتل والمستدمر و"... هذه الآلية ليست مجهولة، فهي مخاتلة و خداع، فكما نعرف تنتهي الطبقات المحكومة بتبني آيديولوجية

الطبقة الحاكمة في حدود واسعة ... كما أن قبول هذه الطبقات المحكومة لهذه الآيديولوجية إنما يؤكد، بصيغة ما، الدور الذي خصص لها ..."[1]

إن هذه الآيديولوجيا الكولونيالية تهدف بالأساس إلى تحويل الأهلي عن فضائه الثقافي و الديني و دمجه في فضائها هي، تحقيقا لفكرة الاندماج التي لطالما نادى بها منظروا الكولونيالية و أبواقها، يقول الحاج حمو في الرواية: "... مضت ستة أشهر، لم تتغير صداقة قرامشي لملياني في شيء، لكن حماسة ملياني الدينية تراجعت، فلم يعد يواضب على صلواته الخمس كما كان من قبل ..." [2]

"... Six mois s'écoulèrent qui ne diminuèrent en rien l'amitié de Grimecci et de Méliani l'un pour l'autre, mais qui diminuèrent sensiblement le Zèle religieux de l'arabe, celui-ci ne faisait plus les cinq prières quotidiennes sans interruption ni oublie ..." [3]

لكن سرعان ما استعاد ملياني وعيه ورشده، بعد أن كان قد فقد زوجته و وظيفته و عرف دهاليز السجون، طالبا العفو من زوجته : "... ترجى ملياني مرة ثانية من ابن العجوز عائشة أن يذهب الى زهرة و يخبرها بأنني أنا ملياني السبب في كل عذاباتها، و أنني أطلب منها الصفح، لا أمام الناس، وإنما أمام الله في اليوم الآخر ..."[4]

"... Méliani supplia une seconde fois le fils de la veille Aicha d'aller dire à Zahra ... que lui Méliani se reconnaissant coupable de tous les maux dont-elle souffrait

[1] – ألبير ميمي، صورة المستعمر، المرجع السابق، ص 92 .

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p : 235.

[4] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

et qu'il sollicitait d'elle le pardon, non aux yeux des hommes, mais devant Allah pour le jour dernier ..."[1]

أما فيما تعلق بإدمانه على الخمر، فإن ملياني لم يقنط من رحمة الله، داعيا إياه بأن يغفر له ما تقدم من ذنبه قائلا : "... سيغفر لي الله، لأنني اقترفت هذه المعصية عند معاشرتي لغير المؤمنين ..."[2]

"... Oh! Dieu me pardonnera parce que cette mauvaise habitude, je l'ai contractée en fréquentant les infidèles ..."[3]

ملقيا اللوم على من أسماهم بالكفار الذين استدرجوه للمعصية، ناسفا بتوبته وعودته إلى أصله، فكرة الاندماج و جاعلا إياها ضربا من ضروب المستحيل .

يقول "رولان لوبال" Roland Lebel، و هو أحد أهم منظري الرواية الكولونيالية : "... للمرة الأولى، حاول الأهليون البروز بشكل أصيل، والتعبير عن أنفسهم بأنفسهم، و لربما سيحضرون لنا مفاجآت ..."[4]

"... Pour la première fois des autochtones cherche à se réveler orignalement et ainsi peint par eux-mêmes, nous réserveront peut etre des surprises ..."[5]

وفعلا صدقت نبوءة رولان لوبال، و ظهرت هذه المفاجآت بعد خمس و عشرين عاما، ببروز جيل جديد من الروائيين، حاملين لواء الثورة و المقاومة عن طريق الكتابة، تماما كما توقع ذلك "لوبال" .

---

1. - Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p : 236 .
2. – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.
3. - Ibid, p : 236.
4. – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.
5. - Jean Déjeux, littérature Maghrebine de langue française, opcit, p : 21

كتب من جهته شكري خوجة روايتين، الأولى سنة 1928 تحت عنوان " مامون مشروع مثل أعلى Mamoun, l'ébauche d'un idéal "، تدور أحداثها حول الآثار السلبية للتعليم الكولونيالي الذي يهدف لسلخ الجزائري عن هويته وأصالته، والزج به في متاهات الضياع والاندماج .

أخذ " مامون " بطل هذا الرواية في الابتعاد شيئا فشيئا عن فضائه الجزائري، ليلتحق بفضاء الآخر المستدمر، بعد أن كان قد أخذ قسطا من التعليم في مدارس هذا الأخير، بدأت رحلة " مامون " مع هذا التحول برفضه لفضائه الثقافي و واقعه الاجتماعي، فعمد إلى المقارنة بين طرائق التعليم البدائية و العقيمة في نظره، و المتمثلة في الكتاتيب و الزوايا التي لا جدوى منها، يصفها الراوي قائلا : "... ينتزع كغيره، في ضوضاء المدرسة القرآنية، الآية كاملة على شكل أجزاء من المعلم، الذي يفتقد إلى البيداغوجيا، ويكتبها بيده الحديثة العهد بهذه التجربة على لوح أبيض، فلا فائدة من هذه الطريقة المستعملة سوى تعذيب الذاكرة ..."[1]

"... Dans le vacarme de l'école coranique, il arrache comme les autres, par bribes, au maitre sans pédagogie, le verset entier qu'il écrit de sa main inexperte, sur une planche blanche. Torturer la mémoire, telle est le méthode employée ..." [2]

وطرائق التعليم المتطورة للمحتل، وبين الحياة اليومية البائسة للجزائريين في الأحياء المحرومة والأرياف وحياة الأوروبيين الراقية في المدن و انبهاره بها، يصف الراوي هذا الانبهار بقوله : "... كان معجبا بالممرات

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Chokri Khodja, Mamoun l'ébauche d'un idéal, ANEP, Algérie, 2010, p : 07.

المنتظمة، و بالأجساد الأنثوية الرشيقة التي تمر أمامه، وهذه النظرة جعلته يفكر في نفسه في روعة الحياة المتحضرة، و في فضل فرنسا، التي جعلت من الجزائر جنة حقيقية، في أقل من قرن من الزمن..."[1]

"... Il admirait les allées symétriques ... les sveltes silhouettes féminines qui se profilait devant lui, et cette vision pleine de charme ... l'amenait à raisonner en soi sur les splendeurs de la vie civilisée, sur le mérite de la France qui, en moins d'un siècle, a fait de l'Algérie un véritable Eden ..." [2]

أرسل الوالد بودربالة ابنه مامون إلى الجزائر العاصمة ليتعلم، لكن واقع الحياة الأوروبية هناك جعله يتخلى عن دراسته و يغوص في عالم الرذيلة، عالم الخمارات والنساء، لينتهي به الأمر لأن يصير عشيقا لإحداهن، تدعى السيدة "روبومبيير"Mme Robempierre، زوجة أحد المستوطنين التي لم تكن تخفي كرهها للأهالي، لقد سلك مامون طريقا بلا نهاية، ودخل بئرا بلا قرار، يقول شكري خوجة "... و مامون الذي كان ينمو كعشبة ضارة، رأى نفسه في يوم ما يتدحرج نحو المجهول، بسبب هذه الآلة الجهنمية نفسها التي شغلت تفكيره بشكل مهوس، ترك كوخ أجداده، و انفصل عن قريبته الفقيرة "زهيرة"، وتوجه نحو مستنقع الحضارة ..."[3]

"... et Mamoun qui croissait comme une herbe sauvage, se vit un jour véhiculé vers l'inconnu, par cette méme machine infernale qui avait tant obsédé sa

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Ahmed Lanasri, littérature Algérienne de l'entre deux guerres, opcit, p : 236.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

pensée, il abondonna donc le Gourbi de ses aieux, il se sépara de Zahira, sa cousine pauvre, et s'en alla vers le gouffre de la civilisation ..." [1]

و بعد أن تمادى مامون في غيه، قطع عنه والده المال، فتخلى عنه تبعا لذلك أصدقاؤه الأوروبيون، ليدخل عالم الرذيلة، بارتياده للملاهي، وتناوله الحشيش، فأنتهى به الأمر في السجن، فمرض ومات بعد أن كان قد نطق بالشهادة، إنه المصير نفسه الذي لقيه البطل ملياني في رواية " زهرة زوجة المنجمي " لعبد القادر الحاج حمو التي سبق الحديث عنه.

أما الرواية الثانية فقد وسمها ب : " العلج أسير البرابرة"El-euldj Captif des barbaresques، التي تجري أحداثها في القرن الخامس عشر، في ظل الحكم العثماني للجزائر (خير الدين و بربروس) "... وهذه هي الرواية التاريخية الوحيدة فيما نعلم التي كتبها جزائري باللغة الفرنسية، وستظل حتى عهد قريب الرواية التاريخية الوحيدة أو بعبارة أدق : الرواية التي وظف فيها كاتبها التاريخ كمادة روائية ..."[2]

يفتتح الراوي السرد في هذا العمل بالحديث عن لحظة اختطاف قراصنة أتراك يتزعمهم الرايس " كاتشا ديابلو Catchadiablo "، السفينة الغربية الفرنسية " غلياس Galéasse" و اقتيادها إلى ميناء الجزائر، أقام على إثر ذلك الباشا خير الدين و القائد بربروس استقبالا عظيما، و حفلا كبيرا للرايس " كاتشا ديابلو " نظير إنجازه البطولي هذا، لكن الأمور سارت بإتجاه آخر عندما أمر الباشا خير الدين بإعدام هذا الاخير بسبب انتقاده له، ووصفه بالمستبد، وكذا تلفظه بكلمات إيطالية نابية تحت تأثير السكر ونشوة الانتصار الذي حققه، يقول شكري خوجة : "... التهم "كاتشا ديابلو" في هذا الحين الكاسا موتشاتشو، ولم يقو على

1. – Chokri Khodja, Mamoun l'ébauche d'un idéal, opcit, p : 12 .

2 – أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 192 .

منع نفسه من ارتكاب حماقة أخرى، كان يلح على ترجمة هذه الكلمة المطبخية ذات الأصول الإيطالية بحركات تخدش الحياء، فكانت الفضيحة ..."[1]

"... Catchadiablo dévorait à présent les Cassa Moutchatchou, Il ne peut s'empècher de débiter encore une autre immorale absurdité : il voulait absolument traduire par geste attentatoire à la pudeur de ce mot culinaire d'origine Italienne c'est alors le scandale ..."[2]

إتجه في اليوم الموالي "إسماعيل حاجي"و هو أحد وجهاء مدنيه الجزائر، إلى السفينة المختطفة ليتخذ له عبدا من بين المسيحيين المختطفين، فوقع اختياره على " بيرنار لوديو"Bernard Ledieux.

اقترح "إسماعيل حاجي" ذات مساء أثناء نزهة مع العبد "لوديو" حريته مقابل اعتناقه الإسلام، تردد "برنارد لوديو" في البداية بعد أن استشار صديقه " ألبير " الذي يعمل بالمطبخ، وبعد اكتشاف إسماعيل حاجي للعلاقة التي تربط ابنته ب " برنار لوديو " توعده بأشد العقاب، لكن "لوديو"، و بدهاء كبير، استطاع أن يفلت من هذا العقاب الموعود بدخوله في الإسلام و أدائه صلاة الجماعة في المسجد، وبتزوجه فيما بعد بزينب ابنة إسماعيل حاجي، ويحصل على عمل يليق بمقامه الجديد، ومن هنا تبدأ المشاكل والمنغصات تعكر صفو حياته، و استمرت هذه الحال حتى بعد ولادة ابنه يوسف، ليصبح بعدها ممزقا بين عائلتين الأولى في فرنسا والثانية في الجزائر، ويزداد قلق "برنار لوديو" عندما يعلم أن ابنه يوسف صارت اهتماماته دينية صرفة، بعد أن تكفل بتربيته جده لأمه،آملا أن يصير عالم دين في المستقبل.

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Chokri Khodja, El – euldj Captif des barbaresques, ANEP, Algérie, 2005, p : 46.

أحس "عمر لوديو" (صار اسمه عمر بعد أن أسلم) بالندم، فكر أن يرتد عن دينه الجديد (الإسلام) ليعود إلى المسيحية، و قد قال الأب "سابليرو" Le père Sablero عندما علم بتحول "برنار لوديو" إلى الإسلام:

"... إنه خروف غادر مربطه وسيعود إليه ..."[1]

"... C'est un agneau qui quitte le bercail, et il reviendra..."[2]

استغل "عمر لوديو" فرصة الهجوم الذي شنه "شارلكان" Charles Quintعلى الجزائر العاصمة(1541) بعد نجاحه في غزو تونس، و ظنا منه بالنصر لهذا الأخير، دخل "عمر لوديو" المسجد ليعلن خروجه من ملة الإسلام، وهو ذات المسجد الذي يشغل الإمامة فيه ابنه "يوسف لوديو"، الذي سارع إلى حماية أبيه من غضب جموع المصلين من هذا السلوك، وانتهى المقام بعمر لوديو بأن غرق في البؤس واضعا حدا لحياته، وانتهى السرد كما بدأ، بسماع صوت الأذان للصلاة، يقول الراوي في افتتاح السرد :

"... إنه يوم الجمعة ... 15 نوفمبر ...

ترى البرابرة مبتهجين من خلال فتحات نوافذ الجامع الكبير، أين يؤدون صلاة الجمعة ... "[3]

"... Vendredi novembre 15..., les barbaresques sont en liesse, à travers les lucarnes à claire voie de la mosquée Djamàa el kébir, ou ils se livrent à la prière rituelle du vendredi..."[4]

وينهي بقوله : "... كان وقت صلاة العصر ..."[5]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Chokri Khodja, El – euldj Captif des barbaresques, opcit, p : 89.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Ibid, p : 37.

[5] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... C'était la minute de la prière de l'asr..."[1]

سعى شكري خوجة من خلال هذا العمل أن يبرهن للفرنسيين، إستحالة نجاح سياسة الإندماج التي راهنوا عليها لسنوات طوال، بطرحه لهذه الإشكالية بطريقة عكسية على شاكلة نظرية البرهان بالتراجع في علوم الرياضيات، لقد : "... كان يطرح في الواقع إشكالية الحرية والعبودية كوضع إنساني بصرف النظر عن الجنس الذي ينتمي إليه الإنسان، أو الدين الذي يعتنقه ... ومن ثمة فهو يطرح سؤالا فلسفيا دقيقا ومحددا هو : هل في إمكان العبد أو الأسير أن يختار بكامل إرادته ..."[2]

إن الإجابة على هذا السؤال، نجدها ضمنيا داخل السؤال نفسه، فالقول بالعبودية والأسر يعني بالضرورة غياب عنصر الحرية، لقد تظاهر بطل هذه الرواية "برنار لوديو" بإعتناقه الدين الإسلامي لأنه لم يكن مؤمنا به حق الإيمان، وإنما فعل ذلك خشية على حياته، فعاش ممزقا بين عالمين غربي وشرقي، وبين ديانتين مسيحية و إسلامية، وبين عائلتين فرنسية و جزائرية، فكان جزاؤه أن سخط عليه الجميع، هؤلاء وهؤلاء على السواء، فعاش حياة دنكا و أنهى حياته بطريقة مأساوية و : "... بالضبط هو واقع الحال بالنسبة للجزائري الذي تستهويه الإغراءات، ويستسلم للضغوط، ويقدم على التجنس، هذا ما يريد أن يقوله الكاتب ضمنيا، لن يكون إلا "برنار لوديو" معكوسا، يعاني من نبذ مجتمعه الأصلي ومن رفض مجتمعه الجديد ..."[3]

شذت رواية " العلج أسير البرابرة " عن الصور النمطية التي لطالما رسمها السرد الكولونيالي، لقد رافعت هذه الرواية بقوة، ودافعت أحسن دفاع وبطريقة ذكية عن الهوية الوطنية، مدينة في الوقت نفسه الخطاب الاندماجي، جاعلة منه سعي عبثي لا طائل من ورائه .

---

1 – Chokri Khodja, El – euldj Captif des barbaresques,opcit, p : 170.

2 – أحمد منور، الادب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص205/204.

3 – أحمد منور، الادب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص204.

5 -3 – 2 الزواج المختلط وإرادة التحرر:

ومن بين كتاب هذه المرحلة أيضا الكاتب " محمد ولد الشيخ " صاحب رواية " مريم بين أوراق النخيل " Mériam dans les palmes، التي تسرد لنا قصة حب مرتبطة بقصة تاريخة حقيقية وقعت أثناء إحتلال القوات الفرنسية لمنطقة تافيلالت في الجنوب المغربي سنة 1932 .

بطلة هذه الرواية "مريم" و أخوها "جان حفيظ" جاءا ثمرة لزواج مختلط لأب فرنسي يدعى "دوبوسي" Debussy، وام جزائرية تدعى خديجة، عاش هذا الزوج حياة حبلى بالصراعات بعد ولادة هذين الولدين، بسبب تشبث كل طرف بمرجعيته الدينية و الثقافية واللغوية في تربية الأولاد، و بعد وفاة السيد "دوبوسي" في معركة عسكرية في الريف المغربي، تنفست السيدة خديجة الصعداء، و أحست بنشوى كبيرة، لأنه صار بإمكانها الآن أن تصحح الوجهة، و تعيد توجيه البوصلة وفقا لمعتقداتها و مرجعياتها هي، لكن آثار التربية الأولى التي كان للوالد فيها أثر كبير لا تزال قائمة، لا بل و عصية على الاختراق، فجان حفيظ صار ضابطا في الجيش الفرنسي، أما مريم فصارت مهووسة بالطيران، بعد أن تشبعت بالقيم الفرنسية في المدارس الفرنسية الحداثية، وارتبطت بشاب روسي "إباتوف"، لكنها سرعان ما تخلت عنه، بعد أن وقعت في حب شاب جزائري مثقف اسمه أحمد المسعودي .

وقعت مريم في أسر جيش "بلقاسم" سلطان تافيلالت، بعد عطب أصاب طائرتها، فحاول أخوها تحريرها بمساعدة فتاة بربرية اسمها "زهرة"، و قد نجح في تحرير الكثير من السجناء في الوقت الذي كانت فيه القوات الفرنسية تستعد لغزو تافيلالت، محققا من خلال ذلك حلم والدته بزواجه هو من زهرة، الفتاة البربرية وزواج أخته مريم من أحمد المسعودي، الشاب الجزائري المثقف .

لقد استطاعت خديجة أن تسترجع ولديها وتخرجهما من الضياع و التيه الهوياتي الذي عصف بهما، وقد ساعدها في ذلك الشيخ الذي لجأت إليه في محنتها طالبة العون، فكان لها نعم المعين، ناصحا إياها بالالتزام بالدين، والعمل بتعاليم القرآن قائلا : "... علمي أولادك كلام الله، رد الشيخ قائلا : سيعودون حتما الى العقل، إن القرآن هو الهادي ومنير طريق الإيمان في هذا العالم المتشظي ..."[1].

"... Fait apprendre la parole de Dieu à tes enfants, répond le saint homme, ils reviendront surement à la raison, le coran est le guide et la lumière dans ce monde dégénéré... ""[2]

كان للدين مكانة أساسية في جميع المدونات التي كتبها هؤلاء الأدباء، فهو المرجع عندما تلتبس المسائل، والمنقذ في الشدائد، فمنه ينطلق الملتزمون و إليه يعود التائبون الأوابون، إنه الركن الركين الذي إتكأت عليه جميع هذه الأعمال، إنه عنصر الهوية الأساس، و الحافظ لقيمها و لغتها و تراثها و المكرس لوجودها وكينونتها .

وقد كان أول ما حرصت على فعله خديجة هو تعليم أولادها لغة القرآن كإجراء أول، لإستعادة الهوية المستلبة، يقول الراوي : "... استجاب جان ومريم، تحت ضغط أيمان والدتهم الغليظة، إلى رغبتها في تعلم اللغة العربية، التي صارا يتكلمانها و يكتبانها بشكل سليم اليوم ..."[3]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Mohamed ould cheikh, Mériam dans les palmes, opu, Alger, 1985, p : 23/24.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... Le jour même jean et Mériam, cédant aux adjurations pressantes de leur mère, acceptèrent d'étudier la langue arabe qu'ils parlent et écrivent correctement aujourd'hui..."[1]

مزجت هذه الرواية بين الواقع و التخييل، وضمت العديد من الشخصيات على عكس الروايات السابقة، انتهى المطاف بالبطل في هذا العمل، بالعودة إلى هويته الأصلية، رافضا الإندماج القسري الذي تعرض له في المجتمع الفرنسي .

لقد حاول " محمد ولد شيخ " عبر هذا العمل الروائي أن يبعث برسالة إلى الآخر، إلى الوعي الفرنسي، مفادها فشل فكرة الزواج المختلط كأداة لتسويق مقولة الاندماج، فيما يورد الباحث " أحمد منور " رؤية أدبية أخرى تخالف ما سبق وأن ذكرناه، بقوله : "... وبهذا يكون الكاتب قد قدم لنا رؤية غير مقنعة من الناحية الفنية، مثل ما كانت غير مقنعة من حيث الأطروحات الفكرية ..."[2]

" رابح زناتي " هو الآخر من هذا الجيل الذي حاول أن يتماهى مع الآخر الفرنسي، و أن يقتفي أثره منبهرا بما حققه من نقلات حداثية و حضارية، لكن خاب مسعاه و تلاشى حلمه في نهاية المطاف.

التحق " بولنوار " بطل رواية " بولنوار الفتى الجزائري " Boulenouar le jeune Algérien بالكتاب في سن مبكرة للتعلم و لحفظ القرآن فكانت تلك تجربة مريرة، لم يعلق منها في ذاكرة الطفل بولنوار سوى صور تلك المدرسة البائسة المظلمة، وطرائق التعليم البدائية المتخلفة، وطرق العقاب الفظة.

يدخل بعد ذلك بولنوار إلى المدرسة الفرنسية "... بتشجيع من القاضي لصديقه بوضياف، بعد أن أبدى بولنوار رغبته في الدخول إليها، و تبرمه من طرق التعليم الفظة في المدرسة القرآنية، يستعرض المؤلف

---

[1] – Ibid, p : 25.

[2] – أحمد منور، الادب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص220.

تخوفات والد بولنوار من المدرسة الفرنسية، وهي تخوفات تذكرنا بتلك التي أبداها والد مامون في رواية شكري خوجة ..."[1].

يتزوج البطل زينة الفتاة الأمية ثم يسافر إلى تونس، ربما ليجد الذريعة التي سيستند عليها فيما بعد من أجل نقد التعليم الديني والفكر الإصلاحي بزعامة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده و رشيد رضا، بالرغم من إعجابه بهم، ويشيد بالمقابل برموز الفلسفة الإسلامية مثل الكندي والفارابي والغزالي وابن رشد الذين أناروا الحضارة العربية الإسلامية .

فشل بولنوار في نهاية الأمر في تحقيق المشروع الإسلامي، كما فشل في حياته الخاصة مع زوجته الفرنسية الثانية، التي لم يشعر معها بالسعادة في بلده، و لتحقيق ذلك فكر بالسفر إلى البلد الأسطورة بالنسبة إليه، فرنسا، هناك فقط يستطيع بولنوار أن يصير كما أراد، بعد أن يتخلى عن أصله و بلده و ثقافته، والحال هذه فإن الإستلاب و التمزق سيكونان مصيره المحتوم .

تعد جميلة دباش (1926 – 2010) ابنة مدينة عين ولمان بولاية سطيف، أول روائية جزائرية تبرز إلى العلن لتعبر عن وضع المرأة المستلبة و الخاضعة، القابعة تحت قهر الاحتلال، موظفة لغة المحتل.

تركت جميلة دباش عملين روائيين يعنيان بالمرأة هما : ليلى فتاة من الجزائر (1948) Leila Jeune fille d'Algérie ، وعزيزة (1955) Aziza ، التي تسير في نفس توجهات الرواية الأولى .

[1] – أحمد منور، الادب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق ، ص224.

تتكرر الصور النمطية للأهلي المثقف خريج المدرسة الكولونيالية، الذي يصبو إلى التماهي مع الشخصية الفرنسية المثقفة في هذه الرواية، لكن بصورة أنثوية هذه المرة مثلها مثل شخصية مامون ، بولنوار و ملياني.

تحاول ليلى، المتعلمة و المثقفة المنحدرة من عائلة ميسورة الحال من قبيلة أولاد نايل، أن تبرر سوء التفاهم الحاصل بينها وبين أسرتها بقولها : "... إنني لا أستطيع أن ألوم أسرتي، إنها تظن نفسها علي صواب، إن الداء جاء من كوني تطورت في حين أنهم ظلوا على هامش الحياة المعاصرة ..."[1] وهذا وضع طبيعي لكون المجتمع الذي تعيش فيه البطلة، كان فريسة لسياسات التجهيل و التفقير و التنكيل للكولونيالية، طيلة مئة سنة و نيف .

بعث العم الوصي، في طلب ليلى من المعهد الفرنسي للبنات، حيث كانت تدرس بعد وفاة والدها، مصححا وضعا كان يراه غير سوي، بإرسال أخيه المتوفي ابنته للدراسة في العاصمة، و آملا في تزويجها من ابنه حمزة حتى لا تضيع تركة أبيها، لكنها رفضت و حاولت إقناع عمها بالعدول عن قراراته هذه لكن دون جدوى.

سارعت بعد ذلك في طلب العون من صديقة لها في المعهد تدعى " مادلين لورمون Madeleine Lormand" التي طلبت من والدها السيد آندري لورمون André Lormand الإتصال بهذا العم ومحاولة إقناعه بالعدول عن قراراته، التي لم يكن يحركها سوى طمعه في ميراث ابنة أخيه .

تنجح ليلى في الأخير في المغادرة مع السيد آندري، ثم تأتي على ذكر رسالتين بعثت بهما البطلة ليلى إلى صديقاتها تكريسا لمفهوم الرواية الأطروحة Roman à thèse ، تتكلم في الأولى عن مفهوم الإسلام الصحيح وكذا العادات والتقاليد، وفي الثانية عن طبيعة العلاقة التي من المفترض أن تربط

[1] – أحمد منور، الادب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص234.

الجزائريين بالفرنسيين : "... ونلاحظ أن كلا الرسالتين موجهة إلى (....) الرأي العام الفرنسي (...) و هو تقليد جرى به العرف في روايات هذه الفترة الأولى، حيث كان هناك إعتقاد سائد أن فرنسيي الميتربول يختلفون عن المستوطنين المقيمين في الجزائر، فهم أكثر تفهما و إنصافا للجزائريين ..."[1]

تنتهي الرواية بطريقة مختلفة عما انتهت إليه الروايات التي سبق و أن أشرنا إليها "... حيث تتزوج ليلى من زميلها الطبيب الشاب يحيى بن دريس، المشرف على مصحة المصنع، الذي كان بدوره من أنصار "تطور" المسلمين الجزائريين ..."[2]

يمكننا القول كخلاصة لهذا الحديث عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ما بين الحربين، أنه أدب جزائري الروح، و إن لبس لبوس الآخر الفرنسي، من خلال توظيفه للغته وتبنيه لبعض مقولاته، فلم يكن من مجال أمام هؤلاء الأدباء سوى استعمال التقية من أجل البوح بهواجسهم و التعبير عن انتمائهم بشكل أفضل مما كان عليه الحال في الروايات الكولونيالية، التي دأبت على تصوير الجزائري بالمتخلف و المتوحش ...

إن الإلتباس الحاصل حول هذا الأدب مرده بالأساس إلى طبيعته العلاقة الموجودة بين مستدمر ومستدمر، بين مهيمن ومهيمن عليه وبين غالب و مغلوب .

لقد اتفقت هذه الأعمال عن قصد أو عن غير قصد، في تأكيدها على أن فكرة الالتقاء مع الآخر مهما كانت صورة هذا الالتقاء، يكسر التوازن الحاصل، و يحث البطل على الشروع في البحث عن نفسه و تكريس وجوده، و حول هذه الفكرة بالذات التقت جل هذه الأعمال .

5 -4 جيل خمسينيات القرن الماضي :

[1] - أحمد منور، الادب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص242.

[2] - المرجع نفسه، ص244.

إنها مرحلة الإنزعاج (أو الضيق) والكشف عن الذات Période du malaise et de dévoilement، كما يسميها "جان ديجو" ، وتمتد هذه المرحلة من الناحية التاريخية من نهاية فترة الأربعينيات (1948) – بظهور روايتي " لبيك " لمالك بن نبي و " إدريس " لعلي الهمامي اللتين أسستا لعهد جديد، أعلن فيه الأهلي عن ذاته وشرع في التمرد على واقعه – وحتى سنة (1956) .

وقد أرخ "جان ديجو" لهذه المرحلة بطرق مختلفة في مؤلفاته المتعددة (من سنة 1950–1956 في مؤلفه الأدب الجزائري المعاصر، ومن سنة 1945–1950 في مؤلفه الأدب المغاربي باللغة الفرنسية، ومن سنة 1952–1955 في مؤلفه الثالث معجم الكتاب المغاربة باللغة الفرنسية)

ساهمت العديد من الأحداث التي طبعت هذه المرحلة التاريخية في ظهور هذا الجيل من الأدباء، الذي، وإن تمايز فيه البعض عن الآخر، إلا أنهم التقوا جميعا في التأسيس لمرحلة أدبية جديدة، كانت الإرهاص الحقيقي لميلاد أدب النضال و المقاومة، من أجل استعادة الحرية المسلوبة، و لعل من بين أهم تلك الأحداث انتهاء الحرب العالمية الثانية، ومجازر 08 ماي 1945 وما خلفته من مآسي وأحزان، و ما تبع ذلك من ظهور الأحزاب والحركات الوطنية التي كان لها دور مهم في بث الوعي الوطني الفردي منه والجماعي .

تميز أدب هذا الجيل بالجودة الفنية التي غابت عن أدب جيل ما بين الحربين، و لعل رواية " نجمة " هي من أسس لهذه الجودة وهذا التميز، كما انماز أيضا بطرحه لتساؤلات جوهرية تتعلق بالهوية والانتماء والوضع المأساوي الذي يعيشه الشعب الجزائري .

لقد جاء هذا الجيل الثاني من الأدباء إلى الساحة الأدبية والفنية بمشروع روائي تخييلي ينسجم كل الانسجام مع السياق التاريخي لتلك الفترة، مشروع انطوى على توجهين إثنين، مشروع روائي تخييلي روائي

ما قبل الثورة (مولود فرعون، مولود معمري، مالك واري) و مشروع روائي تخبيلي ثوري (محمد ذيب، كاتب ياسين، مالك حداد)، و إن كان الروائي مولود معمري قد كتب في التوجهين معا .

5-5 – 1 المشروع الروائي لما قبل الثورة :

إنه مشروع روائي سير ذاتي، اعتمده رموز هذا التيار مستندين في ذلك على آليات السيرة الذاتية و آليات الرواية في آن واحد، بإعتبار هذا الجنس الأدبي، جنس هجين بسبب وقوعه في المنزلة بين المنزلتين (السيرة الذاتية و الرواية) : "... و قد سادت في هذه الحقبة التاريخية الرواية الإتينوغرافية التي لا تزيد عما تراه العين يوميا، تصف ولا تحاول أن تغور في اللوحة الخلفية لإفتقادها الرؤية البعيدة إلى حد ما، فواقعيتها كانت واقعية انتقادية ..."[1]

جاءت نصوص هؤلاء الكتاب مزيج من الوصف للحياة اليومية للأهالي، وكذ العادات و التقاليد التي لا تزال تحكم حياة هؤلاء.

وعلى هذا الدرب سارت رواية مولود فرعون " نجل الفقير"1950 Le fils du pauvre، التي صورت، و بشكل دقيق ودون إيغال في التخييل، حياة بطل هذه الرواية "فورولو منراد"، الذي اختبأ وراءه مولود فرعون نفسه، وكذا تيمه الفقر التي استغرقت هذا العمل من ألفه حتى يائه، إضافة إلى التقاليد القبائلية القائمة على البطريركية الذكورية "... كنت الولد الوحيد في البيت، وكان علي أن أمثل القوة والشجاعة لعائلتي، كنت أستطيع أن أضرب أخواتي وقريباتي دون أن أخشى أي عقاب ..."[2]

[1] – واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986، ص75.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... j'étais l'unique garçon de la maisonnée, j'étais destiné à représenter la force et le courage de la maison, je pouvais frapper impunément mes sœurs, mes cousines ..."[1]

بالإضافة الى غلبة النزعة الجماعية على تلك الفردية فيما يعرف ب :"تجماعث"، فالفرد لا وجود له إلا عبر الجماعة،"... التي من دونها يفقد هويته... "[2]

"... Hors du quel il perd son identité... "[3]

كما سعى مولود فرعون، عبر هذا العمل، إلى تعرية السلوكات الكولونيالية المتناقضة، التي تدعو، من جهة، إلى قيم الحرية والأخوة والعدالة، في حيث أن واقع الأمر يكذب ذلك، يقول يوسف نصيب عن هذه المتناقضات : "... حاول مولود فرعون أن يكشف عن تناقض كبير في المنظومة الكولونيالية من خلال تبيانه لذلك البون الشاسع، والهوة العميقة، بين القيم التي تعلمها والواقع السياسي، معتمدا في ذلك على فعل الكتابة، وهو الشيء الذي تغني به منتسبو المدرسة العادية بكل تفاؤل ..."[4]

"... Feraoun met en releif un hiatus colonial de taille : celui de l'indéquation du projet éthique et de l'acte politique, par son écriture il a donc volontairement relevé cette note discordante dans le chant optimiste des normaliens ..."[5]

[1] – Mouloud Feraoun, le fils du pauvre, Enal, Algérie, 1986, p : 32.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Pierre Bourdieu, sociologie de l'Algérie, puf, Paris, France,1970, p : 86.

[4] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[5] – Youcef Nacib, Mouloud Feraoun, édition Mehdi,classique du monde, Algérie, p : 26.

سعى مولود فرعون بتوظيفه لفعل الكتابة، أن يبين للآخر، المستدمر والميتروبوليايني، أن الناس الذين يقاسمونه العيش في المجتمع القبائلي هم أناس مثل غيرهم تماما، وأن الحياة التي يحياها هو و قومه من الأجدر أن يعرفها هؤلاء، وعن هذه التيمة و تيمات أخرى كالهجرة والتضامن ... سارت روايات مولود فرعون الأخرى كرواية "الأرض والدم" La terre et le sang 1953 و "الدروب الصاعدة" Les chemins qui montent 1957 .

شكلت أعمال مولود معمري الروائية وحدة متكاملة ومنسجمة، من خلال تطرقها لمراحل ثلاث من حياة الشعب الجزائري، ينطلق البطل من ربوته المنسية، يحاول بعد ذلك استرجاع ذكرياته في هذه الربوة، ليستيقظ بعد ذلك من إغفاءة العادل، فيستعيد ذاته ويسلك دروب الحرية مناضلا ومكافحا من أجل استقلال بلده، رافضا الافيون والعصا.

تميزت المرحلة الأولى بظهور رواية الربوة المنسية La colline oubliée سنة 1952 ، والتي صورت مظاهر الحياة في منطقة القبائل، يقول عنها "جان مارك مورا"Jean Marc Moura : "... ترسم رواية الربوة المنسية لمولود معمري حقيقة، مسار جيل جعلته الحرب العالمية الثانية يضطرب، لكنها أيضا استحضار عميق للثقافة القبائلية و تقاليدها الجذابة ..."[1]

"... la colline oubliée de M.Mammeri dessine certe le parcours d'une génération qui va ètre boulversée par la seconde guerre mondiale, mais elle est profondément une remarquable évoquation de la culture Kabyle et de ses mœurs si attachantes ..."[2]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Marc Moura, littérature francophone et théorie poscoloniale, puf, Paris, France, 2013, p : 121.

وقد كانت أيضا سببا في تعرض صاحبها لانتقادات كثيرة صادرة عن بعض الوطنيين المنضوين تحت راية حزب الشعب الجزائري، كان أقواها اعتبار الكاتب والسياسي الجزائري "مصطفى لشرف" هذه الرواية تسويقا للفكر الجهوي، ومحاولة لعزل منطقة بعينها عن باقي مناطق الوطن، بعد أن لاقت هذه الرواية استحسان الصحافة واليسار الفرنسيين .

تدور أحداث هذه الرواية في منطقة القبائل، والجزائر تحت الهيمنة الكولونيالية (1939 – 1944) يأتي السارد على وصف رتابة الحياة في إحدى القرى القبائلية، و كذا ندية العلاقة بين شباب هذه القرية الذين صنفهم السارد إلى صنفين، صنف متعلم درس في المدن، و صنف لم يحض بهذه المكرمة، فعاش ضيق الأفق منغلقا على نفسه، لتأتي الحرب بعد ذلك وتحد من أحلام هؤلاء الشباب، وتلقي بتبعاتها المؤلمة على مصائرهم .

حاول مولود معمري في المرحلة الثانية من كتابته الروائية أن يستدرك الأمر ويحدد الوجهة بدقة، فأصدر روايته الثانية إغفاءة العادل Le sommeil du juste، بعد الانتقادات الشديدة التي طالته في أعقاب صدور روايته الأولى، فكانت فكرة انبعاث الوعي في ظل الهيمنة الاستدمارية، هي الفكرة المديرة لهذا العمل الذي ينتهي بإثبات كينونة الذات والدعوة إلى التمرد و الثورة بعد انكشاف الحقيقة، و لعل حديث البطل أرزقي مع نفسه في السجن يؤكد هذا المعنى : "... عندما نخرج من هنا كلنا أنقياء، كلنا أحرار، كلنا أخيرا احرار و قد لاحت في الأفق بوادر فجر جديد، سينتهي عصر المعاناة لننعم بالحياة السعيدة ..."[1]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"… et quand nous sortirons d'ici tous purs, tous libres, tous enfin libres … et déjà les premiers témoins de l'ère nouvelle apparaissent … nous aurons fini de souffrir notre temps est venu d'etre heureux …"[1]

إنه تحول لوجهة الخطاب الروائي بإتجاه القضية الوطنية المركزية، قضية التحرر والانعتاق، و"… يوضح مولود معمري نفسه، أن هذه الرواية تصور مشهد الجزائر المنخرطة في مسار تحرري من خلال مواجهة شرسة بين مجتمعين، وانبعاث الوعي لدى المضطهدين …"[2]

"… Mammeri lui méme explique que ce roman met en scène l'Algérie engagée dans le processus de libération : confrontation brutale de deux sociètés, et prise de conscience grandissante chez les opprimés …"[3]

كما اجتهد أيضا مولود معمري في هذه الرواية في توسيع دائرة وصفه، فلم يعد وصفه يقتصر على تصوير قرية صغيرة مغمورة في أعالي جرجرة، بل أصبح مجال وصفه أشمل وأرحب.

أما المرحلة الثالثة فقد صور فيها مولود معمري الجزائر الثائرة الملتزمة غداة اندلاع الحرب التحريرية، وكان ذلك في روايته "الأفيون والعصا"L'opium et le Baton سنة 1965، التي كتبها عقب استقلال الجزائر (كتب جزء منها بالمغرب الأقصى) بشكل طغت عليه الواقعية(الأحداث ،الشخصيات)، بعد أن تخلص من الضغوطات التي سبق و أن حدت من حريته التخييلية، فجاءت أعماله منذ الوهلة الأولى ذات

[1] – Mouloud Mammeri, le sommeil du juste, édition elothmania, Algérie, 2005, p : 163.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Jean Déjeux, littérature maghrébine de langue française, opcit, p :191.

حمولة إنسانية، ومعبرة عن الهوية البربرية الجزائرية، و داعية و دافعة إلى التحرر، حاملة في أعماقها بذور الثورة والتمرد على سياسات الاحتلال الظالمة .

أما "مالك واري" (1916 – 2001) فقد ترك ثلاث روايات، صدرت الأولى سنة 1956 تحت عنوان " الحبة في الرحى Le grain dans la meule" ، وهي أشهر رواياته الثلاث، رسم فيها العادات القبائلية عبر قصة " فانديتا Vendetta " تيمتها الأساسية الانتقام عبر تلك الرحى التي لا يمكن مقاومتها : "... إنها الرحى، هذه الرحى المصنوعة من الحصى الثقيلة والصلبة والقاسية، إنها رحى انتقامنا، فما من شيء يمكن أن يوقف حركتها الساحقة، إنها مسألة مهمة بالنسبة لنا، تماما مثل حركة النجوم في مساراتها، إن رحانا تدور، ولا بد من أنها ستسحق ذاك الذي من أجله تحركت ..."[1]

"... la meule, cette meule de pierre, lourde, dure, inexorable, c'est celle de notre vengence, rien ne peut l'arrèter dans sa marche à l'écrasement, c'est pour nous un impératif absolu, tout comme la giration des astres .elle tourne notre meule, elle doit écraser celui pour qui elle a été mise en branle ..."[2]

وقد لاقت هذه الرواية بعض المآخذ و الإنتقادات على صفحات الجرائد الصادرة في تلك الفترة، تماما كما حدث مع مولود معمري بعد صدور رواية الربوة المنسية، لكن "... مالك واري، الذي يشبه في اتجاهه الصفريوي، توصل إلى الإجابة بشكل مقنع على المآخذ التي سجلت عليه، ففي نظره، وصف الحياة اليومية للماضي، ليس هروبا ولا دليلا على تجنب المسؤولية، بل هو التزام عميق بالتاريخ الحالي، إلا أنه التزام يبدأ من إتجاه عكسي ..."[3]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Ouary Malek, le grain dans la meule, Buchet, Paris, France, 2000, p : 97.

[3] – واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الحزائر، المرجع السابق، ص 366.

أما روايته الثانية "جبل بني آوى" La montagne aux chacals، فصدرت سنة 1981، فيما صدرت روايته الأخيرة سنة 2000 تحت عنوان " التنورة القبائلية لبايا " La robe kabyle de baya، وهي كلها روايات يمكن تنزيلها ضمن أعمال التيار الإتنوغرافي، الذي يقول عنه الروائي و عالم الإجتماع المغربي عبد الكبير الخطيبي : "... إن الرواية الإتنوغرافية أو الفلكلورية ليست حدثا معزولا، إنها إمتداد لتقليد فرنسي في إفريقيا ... إن هذا النوع من الرواية يتزامن من الناحية السياسية مع التوسع الإمبريالي، أما من الناحية العلمية فهو يتزامن مع تطور العلوم الاجتماعية و مع الإتنولوجيا تحديدا، كعلم يعنى بدراسة ثقافات الشعوب المستعمرة ..."[1]

"... Le roman éthnographique et folklorique au Maghreb n'est pas un fait isolé, il est la continuation d'une tradition française en Afrique ... Ce type de roman correspond sur le plan politique à la période de l'expansion de l'impérialisme, et sur le plan scientifique du développement des sciences sociales, en particulier de l'éthnologie en tant qu' étude des cultures du monde colonisé ..."[2]

حرص أدب ما قبل الثورة على وصف حياة الأهالي في أدق تفاصيلها، كما عمد أدباء هذه المرحلة – و إن بطريقة ضمنية – الإيغال في إيضاح ذلك التباين و التمايز الحاصل بين الجزائري و المحتل، إن على مستوى العادات والتقاليد أو على مستوى اللغة والفكر أو حتى على مستوى الدين و المعتقد، وهي نقطة البداية التي– انطلاقا منها – يمكن التأسيس للحديث عن الهوية الوطنية والإنتماء القومي الجزائري، حتى وإن لم تشر هذه الأعمال صراحة إلى المحتل، كونه هو من تسبب في شقاء هذا الشعب ومعاناته، يقول الباحث الفرنسي المتخصص في هذه التيمة شارل بون Charles Bonn : "... إن روايات فرعون،

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Khatibi Abdelkader. Le roman maghrébin, François Maspero, Paris, France, 1968, p: 28.

معمري، و مالك واري (الحبة في الرحى1956) بل حتى ثلاثية الجزائر لمحمد ذيب مع شيء من الإختلاف، هي روايات التوتر المأساوي الحاصل بين عالمين، إنها تفكيك للمجتمع الكولونيالي، حتى وإن لم تكن الكولونيالية هي الموضوع الأساس ..."[1]

"... Les romans de Feraoun, de Mammeri de Malek Ouary (Le grain dans la Meule 1956)... Ou de manière différente la trilogie Algérie de Mohammed Dib, sont plutôt ceux de la tension tragique entre deux mondes, mais si la colonisation n'est pas l'objet central, c'est bien de la dislocation de la société coloniale qu'il s'agit ..."[2]

لقد اجتهدت النخب الأدبية و الفكرية في السنوات الأخيرة، في إعادة قراءة هذا الأدب الإتنوغرافي من زوايا أخرى غير الزاوية الغرائبية و الفلكلروية، من خلال التركيز على كشفه لمعاناة الشعب الجزائري عبر التفاصيل الوصفية لحياة الأهالي، وتمايزها عن حياة الآخر المحتل، وتكريسه بذلك للهوية الوطنية .

5 -6 -2 المشروع الروائي الثوري : أو أدب المقاومة.

ظهر هذا الجيل من الروائيين (الذي ينتمي البعض منهم إلى الجيل الأول) غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية وكذا مجازر الثامن من ماي من سنة 1945، و بروز النزعة الاستقلالية في الكثير من البلدان، أما من الناحية الأدبية فالجو العام كانت تصنعه "مدرسة الجزائر" Lécole d'Alger بتحول إهتمامها من الجزائر اللاتينية إلى الجزائر المتوسطية التي يمكن أن تستوعب الجميع، المستدمرين و الأهالي

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Charles Bonn, littérature Francophone, T1 : le roman, Hatier, Paris, France, 1997, p : 185 .

(و هي فكرة حاول اصحابها إيجاد حل لمسألة فرنسيي الجزائر الذين ولدوا و ترعرعوا على أرضها، واستنشقوا هواءها ونعموا بخيراتها، فسقطت كما سقطت فكرة الجزائر اللاتينية التي حاول أصحابها – يائسين – تجاوز مسلمات التاريخ و الجغرافيا على السواء) فانتشرت في هذه المرحلة العديد من المجلات (Afrique, Fontaine , l'Arche, Forge...) سعى مؤسسوها جمع كل المبدعين باللغة الفرنسية بما في ذلك الأدباء الأهليين على طاولة واحدة، وتجاوز كل القضايا الخلافية، وقد كان لهاته المدرسة وهاته الدوريات دور مهم في ولوج الأدباء الأهليين إلى عالم الرواية تحديدا، من بابه الواسع، يقول غابريال إوديزيو تعليقا على هذا الدور : "... لقد شهدنا – من خلال إحاطتنا إياهم بصداقتنا الحارة – خروجهم من الظلمات، وأخذهم الكلمة بشكل سيد مفاجئ، ليوثقوا لنا شهاداتهم، يقول غابريال أوديزيو ..."[1]

"... Nous avons assisté, écris Gabriel Audisio, en les chauffant de notre impatiente amitié, à leur sortie des ténèbres ... ils prennent la parole avec une soudaine autorité pour nous apporter leur témoignage..."[2]

إتخذ كتاب هذه المرحلة من اللغة الفرنسية سلاحا خاضوا به معركة الكينونة، وإثبات الوجود، وليعلنوا عن أنفسهم وعما يمثلون، لهذا السبب وسم "جان ديجو" هذه المرحلة 52 – 56/55 بمرحلة القلق والكشف عن الذات la période du malaise et de dévoilement ، محاولين الإجابة عن أسئلة جوهرية من قبيل من نكون ؟ إلى أين نحن ذاهبون ؟ إنها أسئلة الهوية و الكينونة، إنها أسئلة المصير.

لقد تميز أدب هذا الجيل عن أدب الجيل الذي سبقه بكونه أراد أن يثبت وجوده من دون المرور الحتمي عبر القوالب الكولونيالية، أو الالتزام بالأطروحات والمقولات الاستدمارية التي كانت تحتم على روائي

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, littérature Maghrebine de langue française, opcit, p : 23.

عشرينيات القرن الماضي تصوير أبطال روايتهم بمحاكاة النماذج الفرنسية، والنظر إليها بعيون الآخر، من خلال تصويرهم من الخارج، فصور الأهلي من الداخل ونظر إليه بعيونه هو، لا بعيون الآخر، معبرا عن وضعه المأساوي في ظل هيمنة وتسلط هذا الآخر المحتل .

اقتحم الأهلي بكل إقتدار وجدارة عالم الكتابة بلغة الآخر المفروضة عليه عنوة، ليعبر عن نفسه، نافيا ورافضا الصورة التي أراد هذا الآخر وصفه بها، فظهرت عديد الأعمال الأدبية ذات الجودة العالية هذه المرة، لعل أبرزها ثلاثية الجزائر لمحمد ذيب (الدار الكبيرة، الحريق، النول) التي شكلت علامة فارقة وبارزة في تاريخ الرواية الجزائرية عموما و تلك المكتوبة باللغة الفرنسية تحديدا "... فلأول مرة تتجاوز فيه الرواية صالونات المثقفين ... و وهم التعايش السلمي بين الأهالي و المعمرينن و تنزل إلى الطبقات الدنيا من المجتمع، و تتحدث عن هموم الناس البسطاء ... وتصف أحوالهم المعيشية القاسية و معاناتهم من الجوع و الفقر و القهر، و لأول مرة تتحدث عن النضال السياسي الجزائري و لأول مرة أيضا تطرح تساؤلات محددة عن الهوية الوطنية و عن مفهوم الوطن ..."[1]

فإذا كان هاجس مولود فرعون هو وصف حياة الأهالي في بعض القرى القبائلية بلغة فيها الكثير من المسالمة و المهادنة مع هذا الأخير إذا ما إستثنينا بعض الشيء رواية " الدروب الصعبة "، فإن هاجس محمد ذيب هو الدعوة الضمنية من خلال فعل الكتابة الى الثورة على الأوضاع القائمة من أجل ميلاد فجر جديد ينعم فيه الجزائري بالحرية والعدالة و رغد العيش.

تأثر محمد ذيب في مشواره الروائي تحديدا بالروائية الإنجليزية " فرجينيا وولف" Verginia Wolf، وهي واحدة من رموز الرواية الأنجلوسكسونية، وبتيار الوعي الذي ظهر بشكل خاص مع " جويس جيمس"James Joyce، كما كان للأدب الأمريكي تأثير جلي على محمد ذيب، تقول "جاكلين

[1] – أحمد منور، الادب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 87/86.

أرنو"Jacqueline Arnaud: "... كان كاتب ياسين يقرأ دوس باسوس، فولكلنر، و كذلك فعل محمد ذيب وهو الذي يجيد الإنجليزية من خلال إهتمامه بهؤلاء الكتاب و غيرهم ك : شتينبك، هيمنغواي، كولدوال، ميلر ..."[1]

"... Kateb lit Dos Passos et Faulkner, Dib n'est pas en reste, qui a l'avantage de connaître l'anglais et s'intéresse à ces auteurs ainsi qu'a Steinbeck, Hemingway, Caldwell, Miller ..."[2]

ولعل هذا التأثر الكبير بالأدب الأمريكي عموما و أدب "دوس باسوس" على وجه التحديد، هو ما جعل محمد ذيب يقدم على كتابة ثلاثيته متأثرا في ذلك بثلاثية دوس باسوس، بالرغم من كون هذه الأخيرة جاءت مرتكزة بالأساس على ثلاث عناصر متباينة هي : العنصر التاريخي (1919) والعنصر الجغرافي (خط 42)، و العنصر الإقتصادي (الرغيف الكبير)، مصورة الحياة الامريكية في الثلث الأول من القرن العشرين (1900 – 1930)، و ما حملته من متناقضات (أمريكا الغنية و الأخرى الفقيرة، الأمريكي القوي و المتسلط و الأمريكي الضعيف و المهمش...)، وقد نجح "دوس باسوس" إلى حد كبير في مشروعه الأدبي الطموح، الذي أراده تصوير روائي تخييلي لحياة المجتمع الأمريكي، و هذا ما يدعونا الى الاعتقاد بأن "محمد ذيب" ربما يكون قد تأثر بشكل ما بثلاثية "أمريكا" في تأليفه لثلاثية "الجزائر"، فيما نستبعد أي ارتباط لهذه الثلاثية بثلاثية الأديب الفرنسي " الكسندر دوما" Alexandre Dumas، الموسومة بالمحاربين الثلاثة Les trois mousquetaires، الصادرة سنة 1844، بسبب البعد الزمني من جهة، و التباين الواضح في مضمون الثلاثيتين من جهة أخرى.

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jacqueline Arnaud, la littérature Maghrébine de langue Française, opcit, p : 164.

كما ألف محمد ذيب في مشواره الإبداعي ثلاثية أخرى، أطلق عليها النقاد "ثلاثية الشمال" La trilogie Nordique، و تضم رواياته الثلاث : سطوح أرسول Les terrasses d'orsol سنة 1985، غفوة حواء Le sommeil d'Eve سنة 1989، و ثلوج من رخام Neige de Marbre سنة 1990، تطرح إشكالية الماضي الذي عليه أن يتماهى و يتأقلم مع الحاضر الذي يحياه المغترب، في قالب فلسفي و رمزي يفوح بتيمة الاغتراب هذه المرة، لا في قالب واقعي كما في الثلاثية الأولى.

كتب محمد ذيب هذه الثلاثية الشمالية في أثناء تردده على فنلندا Finlande، ومكوثه بها فترة من الزمن، و هو الشئ نفسه الذي فعله "دوس باسوس" عند تأليفه لثلاثيته الثانية الموسومة ب : مقاطعة كولومبيا (رواية "مغامرات شباب" سنة 1939، رواية "رقم واحد" سنة 1943، و رواية "التصميم الكبير" سنة 1949)، و هذا ما يعمق من قناعتنا بتأثر محمد ديب بدوس باسوس.

عكف محمد ذيب بين هذه الثلاثية وتلك على التأليف و الابداع في الرواية كما في القصة، و في النثر كما في الشعر، فمحمد ذيب شاعر قبل أن يكون ناثر : "... أنا شاعر بالأساس، قدمت من الشعر إلى الرواية و ليس العكس..."[1]

"... Je suis essentiellement poète, et c'est de la poèsie que je suis venu au roman, non l'inverse... "[2].

نظم محمد ذيب الكثير من القصائد، بل حتى وهو يكتب الرواية كانت هذه الروح الشعرية تتدفق برفق لتغمر السرد وتصبغ شخوصه بهذه الصبغة الجمالية، فيأتي التخييل الروائي غاية في الروعة والأناقة والانسجام.

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Jean Déjeux, la littérature Maghrébine de langue Française, opcit, p : 161.

تراوحت التيمات التي دارت حولها أشعار محمد ذيب حول الجزائر، البلد الأم، والاغتراب و الهوية،

يقول شاعرنا في إحدى قصائده :

"... أنا الذي يتكلم الجزائر

لعلي لست سوى

أكثر النساء المغمورات

لكن صوتي لن يتوقف

عن الكلام في السهول و الجبال

إني قادم من الأوراس

افتحوا الأبواب

أيتها الزوجات الاخوات

إسقينني ماء زلالا

و إطعمنني عسلا و خبز الشعير

لقد أتيت لرؤيتكن

ولأجلب لكن السعادة... "[1]

"...Moi qui parle, algérie

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

Peut-être ne suis-je

Que la plus banale de tes femmes

de héler plaines et montagnes

Je descends de l'Aurès

Ouvrez vos portes

Épouses fraternelles

Donnez-moi de l'eau fraîche

Du miel et de pain d'orge

Je suis venu voir-voir

Vous apporter le bonheur… "[1]

تغنى محمد ذيب في هذه الأبيات من قصيدة "الأرض الجوالة" La terre errante بالجزائر، وطنه الأم وأرضه الطاهرة، وارتباطه الوجداني بها، ولربما جاء هذا الوصف لهذه العلاقة أكثر عمقا و جمالا مما جاء في وصف مولود فرعون لعلاقة الأهلي بأرضه في منطقة القبائل.

أما القامة الأدبية الأخرى التي ظهرت في هذه المرحلة الحاسمة و المفصلية من تاريخ الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية فهي " كاتب ياسين " صاحب رائعة "نجمة" ، الرواية التي أسست لهذا التحول الفني والتيماتي في الأدب الجزائري عموما، والمكتوب منه باللغة الفرنسية بشكل خاص، من خلال محاولة الروائي

[1]- Jean Déjeux, Situation de la littérature Maghrébine de langue française, opcit, p: 163.

إبراز حقيقة شعب و أمة تئن تحت سياط الاستدمار، لكنها لم ترضخ ولم تستسلم، بل تصدت وقاومت فكرست ذاتها، فكانت هذه التيمة المركزية لهذه الرواية، بعد أن عمد كاتب ياسين إلى خرق قواعد الكتابة الأدبية التقليدية السابقة، بإعتماده على تقنيات جديدة في الكتابة، مستقلة تماما عن تلك الكولونيالية، وتوظيفه للثقافة الشفهية والحكاية والتداخل الأجناسي الذي ميز جل أعماله، فلم تعد هناك حدود فاصلة بين الرواية والشعر أو بين الرواية و المسرح و كذا الأسطورة، كما كانت الكثير من أعماله وليدة حالة نفسية لا شعورية، يقول جان ديجو تعليقا على هذا : "... وقد كان الكاتب نفسه يقول أن جزء كبيرا من عمله تم بطريقة لا شعورية ..."[1]

"... D'ailleurs, l'auteur disait lui-même qu'une grande partie de son travail était inconsciente ..."[2]

وفي هذا السياق نفسه يقول الباحث الفرنسي "شارل بون" Charles Bonn: "... حتى و إن كان وصف الحيز الكولونيالي جذابا، فهدف كاتب ياسين لا يعتمد الواقعية من أجل كتابة التاريخ، فلا يجب -بحسبه هو- وصف الأحداث بل يجب إعادة خلقها ..."[3]

"... Même si la description de l'univers colonial est souvent saisissante, le but de Kateb n'est pas le réalisme pour produire l'histoire, il ne suffit pas de décrire les faits, il faut les récréer ..."[4]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, Dictionnaire des hauteurs Maghrébins de langue Française, karthala, Paris, France, 1984, p : 138.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Charles Bonn, le roman Algérien de langue Française, opcit, p : 56 .

ومن هنا كان اهتمام الروائي بالأسطورة و توظيفه لها بغية كشف السلوكات و الممارسات الإستدمارية بطريقة ضمنية أو صريحة، و من ثم الثورة عليها، إنها الكتابة الأسطورية للتاريخ التي دأب عليها كاتب ياسين فكانت هي ديدنه، لقد نجح هذا الأديب في إعلاء الهمم و إذكاء روح الثورة و التمرد : "... ساعد هذا الأدب على بث الوعي من أجل النضال والكفاح، كما أن هذا الأدب الواقعي أحيانا(ذيب، فرعون) والمتخيل أحيانا أخرى(كاتب)، و المتضمن لذكريات الطفولة و لتداخل بعض الأحداث (الحرب العالمية الثانية، ما بعد الحرب، حرب التحرير الوطنية) تجعل هؤلاء الكتاب يلتقون في ما يعرف بالتيار الإتنوغرافي عندما يتعلق الأمر بوصف الواقع المأساوي لمواطنيهم ..."[1]

"... Elle favorise l'éveil des consciences pour la lutte et le combat, qualité tantôt vécue (Dib, Feraoun) tantôt rêvée (Kateb), les souvenirs d'enfance, certains chevauchements de temps (la deuxième guerre mondiale, l'après-guerre, la guerre de libération nationale) que les auteurs se croisent et se rejoignent dans le courant éthnographique quand il s'agit de décrire le quotidien cauchemardesque de leurs compatriotes ..."[2]

لقد أبدع كاتب ياسين رائعته" نجمة" بعد أن كانت قصيدة شعرية، ثم حولها إلى قطعة مسرحية، وهو ما يعني أن الكاتب نشر مؤلفا واحدا ثلاث مرات عند نفس الناشر، و هو الأمر الذي يقره بنفسه قائلا : "...

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Guetarni Mohammed, littérature de combat chez Dib, Kateb et Feraoun, Dar El Gharb, Algérie, 2000, p : 149.

أظن أنني مؤلف عمل واحد، كان في الأصل قصيدة شعرية، ثم تحول بعدها إلى رواية، فقطعة مسرحية ..."[1]

"... Je crois bien, en effet, que je suis l'homme d'un seul livre, à l'origine c'était un poème qui s'était transformé en roman et en pièce de théâtre ..."[2]

يقول كاتب ياسين في مقطع من قصيدة نجمة قبل أن تصبح رواية :

"... تظهر نجمة كل خريف من جديد

لا من دون أن تنزع مني

خنجري و دموعي

تختفي نجمة كل خريف

و أنا شاحب الوجه، المنهك

من عدوتي الحلوة

التي لا بعاد عنها و لا فكاك

إن صمت ابائي الشعراء

و أمي المجنونة

و النظرات القاسية

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jacqueline Arnaud, Kateb Yacine : l'œuvre en Fragments, 2éd, Sindbad, Paris, France, 1986, p : 81.

و دموع جداتي الفارسات

قذفوا في صدري

قلب فلاح من دون أرض..."[1]

"...Nedjma chaque automne reparue

Non sans m'avoir arracher

Mes larmes et mon Khandjar

Nedjma chaque automne disparue

Et moi pâle et terrassé

De la douce ennemie

À jamais séparé

Le silence de mes pères poètes

Et de ma mère folle

Les sévères regards

Les pleurs de mes aïeuls Amazones

On enfuit dans ma poitrine

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

Un cœur de paysan sans terre..."[1]

يبكي كاتب ياسين – في هذه الأبيات من قصيدة "نجمة و كبلوت" – نجمته، ومن خلالها يبكي شاعرنا جزائره التي لم ينقطع عنها و لم ينشغل بغيرها، كما يبكي أيضا أرضه المسلوبة عبر عملية تخييل تستمد قوتها من تلك الصورة المزدوجة التي طبعت جل أعماله، والمتمثلة في صورة المرأة (نجمة بمختلف تمظهراتها و إيحاءاتها) و صورة الأجداد (كبلوت)، وفي هذا إحالة ضمنية إلى مسألة الهوية، و هي التيمات نفسها تقريبا التي أثارها كاتب ياسين في "نجمة" الرواية، إضافة إلى اعتمادها على تقنية التكثيف والتلخيص بشكل لافت "... و يمكننا أن نعتبر هذا أمرا منطقيا إذ و مع اتساع المجال الذي تعطيه القصة فهي تستعرض حياة أربعة شخصيات في مختلف مراحلها الزمنية، بالإضافة إلى القصص المضمنة الخارجة عن الإطار الزمني، لذا فالتلخيص هو الوسيلة الأنجح للتعامل مع هذا المجال القصصي الواسع ..."[2]

كما أن رواية نجمة أيضا ما تزال تحضى باهتمام المشتغلين بمجال الأدب، و كل ينظر اليها من زاوية معينة، إنها عمل روائي متجدد، يثير الفضول، و يطرح من الأسئلة أكثر مما يعطي الإجابات، لقد كان لرواية نجمة تأثير كبير على أعمال كاتب ياسين الأدبية التالية ، وبخاصة الأعمال المسرحية التي ظلت تفوح بشعرية نجمة الرواية.

لقد طغت النزعة الشعرية على تفكير "كاتب ياسين" و على إبداعاته المتنوعة، بعيدا عن تلك الطرق التعليمية الفجة، وهو الشيء الذي أعابه على رائد المسرح العالمي، الألماني برتولد براخت[3] Bertolt

---

[1] - Jacqueline Arnaud, Kateb Yacine : œuvres en fragments, opcit, p : 81.

[2] – كريمة بلخامسة، تحليل الخطاب الروائي في رواية نجمة، دار الأمل، الجزائر، 2016، ص 135 .

[3] – برتولد براخت Bertolt Brecht (1898–1956) مسرحي و كاتب و شاعر ألماني و مخرج، يقوم مذهبه في المسرح على فكرة أن المشاهد هو العنصر الأهم في العمل المسرحي و من أهم أساليبه في كتابة المسرحية: 1 – هدم الجدار الرابع (جعل المشاهد مشاركا في العمل) 2– التغريب (تغريب الأحداث اليومية) 3– المزج بين الوعظ و التسلية 4– استخدام مشاهد متفرقة 5– استخدام اغنيات بين المشاهد .

Brecht، يقول عن ذلك "... الشيء الذي أرفضه لدى بريخت هو طريقته – وهو الشاعر – في لجم التدفق الشعري بإستمرار من أجل تمرير الأفكار الأيديولوجية ..."[1]

"... Ce que je refuse chez Brecht, c'est la façon qu'il a, lui qui est poète, de freiner continuellement la poésie au profit de l'enseignement d'une doctrine ..."[2]

وقد انقسم النقاد و القراء على السواء بشأن هذا المبدع ما بين محب ومعجب بشخصه ومثمن لأعماله، وما بين مؤاخذ له ومعاتب، بل و حتى محارب له أحيانا بسبب مواقفه المناوئة للدين الإسلامي و اللغة العربية الفصحى كما يراها البعض، وكذا اعتبار "كاتب ياسين" أن لا اعتبار ولا حاجة لهذه المسائل في تطور المجتمع، يقول "كاتب ياسين" موضحا هذه الفكرة : "... نحن شعوب شابة، أي أننا لسنا بحاجة ماسة للدين ..."[3]

"... Nous sommes des peuples jeunes, c'est – à-dire que nous n'avons pas tellement besoin de religion ..."[4]

إن هذه المآخذ– وإن كان البعض منها وجيه و حقيقي – جاءت في سياقات تاريخية معينة، فليس من المنهجي و لا من المنطقي الحكم على مرحلة تاريخية ولت و انقضت، من خلال معطيات مرحلة تاريخية تلتها، و بالتالي لا يمكن أن ننفي عن هذا القلم المبدع وطنيته و حبه للجزائر، وهو الشاب اليافع الذي شارك في مظاهرات الثامن من ماي سنه 1945 و اعتقل على أثرها وهو لم يتجاوز سن السادسة

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Charles Bonn, le roman Algérien de langue Française, L'Harmattan, Paris, 1985, p : 67/68 .

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Jean Déjeux, Situation de littérature Maghrébine de langue française, opcit, p :222.

عشر، و تبعات كل ذلك على صحة والدته التي اعتقدت أن ولدها استشهد في تلك المظاهرات، فألمت بها أزمة نفسية جعلتها تقضي باقي حياتها حبيسة المرض.

لقد غذت هذه التجربة روح كاتب ياسين، و صقلت حسه الفني عموما و المسرحي تحديدا، فسارت معظم مسرحياته : "... في هذا الإتجاه الثوري و أهمها حسب اهتمام النقاد بها وحسب الصدى الذي أحدثته، تلك التي قدمها كاتب ياسين مثل مسرحية الجثة المطوقة، والأجداد يزدادون ضراوة ..."[1]

إن الفرجة التي يصنعها كاتب ياسين من خلال عوالمه المسرحية، ليست بمنأى عن العوالم التي نحياها ونحن نقرأ رواياته، فالقاموس التيمياتي هو نفسه : التمرد، الثورة، المقاومة، الهوية، الإلتزام و استدعاء التاريخ.

ولعل آخر من مثل هذا المشروع الروائي الثوري في هاته المرحلة هو الشاعر والروائي "مالك حداد"، الذي بدأ حياته الأدبية كاتبا لبعض المقالات، كان نشرها في بعض الصحف الفرنسية، فكانت بمثابة النافذة التي أطل من خلالها على جمهوره، تاركا فيهم أثرا طيبا، وهو الشيء الذي جعل الشاعر الفرنسي المعروف "لويس أراغون Louis Aragon " يتنبأ له بمستقبل واعد في عالم الكتابة والنظم والإبداع .

عاش كثير من أدباء هذه المرحلة مأساة اللغة التي طبعت حياتهم و جل أعمالهم، يقول مالك حداد عن اللغة المستعارة : "... إننا نكتب بالفرنسية ولا نكتب للفرنسية ..."[2]

"... Nous écrivons le français, nous n'écrivons pas en français ..."[3]

[1] – أحمد منور، الادب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص242.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Jean Déjeux, Dictionnaire des hauteurs Maghrébins de langue Française, karthala, Paris, France, 1984, p : 123.

إن توظيف الكتاب لهذه اللغة المستعارة، لغة المستدمر تجعلهم يشعرون بالتمزق الداخلي، كونهم يشعرون ويحسون باللغة الأم ويعبرون عن هذه الأحاسيس والمشاعر بلغة من يعتبرونه العدو، و قد عبر مالك حداد عن هذا التمزق بأبيات قال فيها :

"... إني استلهم أغنيتي من شوارع العرب

أو من طريق منفاي

إن كل قصيدة أكتبها

أكتبها من الأخرى..."[1]

" Je puise ma chanson dans la rue des Arabes

Ou par chemin de mon exil

Chacun de mes poèmes

Est écrit par un autre "[2]

يعلق شارل بون عطفا على هذا الكلام قائلا : "... لا يجب أن ننسى أن هذا الكاتب كان منشد منفاه باللغة الفرنسية، كما كان يحن إلى اللغة الأم (التي فطمنا منها والتي نحن أيتامها الذين لا عزاء لهم) ..."[3]

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Malek Haddad, Les zéros tournent en rond,opcit, p : 19

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... N'oublions pas que cet écrivain a été le chantre de son exil dans la langue française, de sa nostalgie d'une langue maternelle (dont nous avons sèvrés et dont nous sommes les orphelins inconsonables) ..."[1]

كما كان وضع اللغة العربية في هذه الأثناء يؤرق مالك حداد، وقد عبر عن ذلك على لسان بطل روايته "رصيف الأزهار لا يرد " Le quai aux fleurs ne répond plus "خالد بن طوبال" حين سأله الصحفي السويسري : " لكن لماذا تكتب إذن؟... " [2]

" Mais alors pourquoi écrivez – vous ? " [3]

فيرد عليه : " لأنني ببساطة لم أعد أقوى على الكلام "[4]

" C'est simple, parce que je sais plus parler " [5]

كان موضوع الثورة و الكفاح من أجل تحرير الأرض و استعادة الحرية، هي البؤرة الأساسية التي دارت حولها أعمال الشاعر والروائي مالك حداد، والتي جاءت على ما يبدو متأثرة بأعمال و إبداعات "لويس أراجون" و "بول إليار"Paul Eluard[6]، فكان : "... يركز على جو القلق و التوتر الذي يطبع الحياة العامة أكثر مما يركز على الأحداث و الوقائع، و يجعل أبطاله يعيشون ذلك القلق والتوتر ويعانون الحرب

---

1 – Charles Bonn, le roman Algérien de langue Française, opcit, p : 12.

2 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

3 – Malek Haddad, Le quai aux fleurs ne répond plus, Julliard, Paris, 1961, p : 38 .

4 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

5 – Ibid, p: 38.

6 – بول إليار Paul Eluard(1895–1952) :شاعر فرنسي، و هو ركن من أركان السريالية و الدادائية، من بين أعماله : الواجب، للعيش هنا، عاصمة الألم، الحب و الشعر، المحبة، لست وحيدا ...

وآثارها ... تقول فضيلة في رواية التلميذ والدرس (أنا شقية)، ويعلق الدكتور قادر على ذلك بقوله (كنت أنتظر هذه الكلمة لأنها وحدها تلخص تاريخ وطن) ..."[1]

إن تأثر مالك حداد بالثقافة الفرنسية واضح وجلي، لذا جاءت أعماله الروائية تحديدا (الانطباع الأخير La dernière impression سنة 1958، سأهبك غزالة Je t'offrirai une gazelle سنة 1959، التلميذ و الدرس L'élève et la leçon سنة 1960، و رصيف الأزهار لا يرد Le quai aux fleurs ne répond plus سنة 1961)، حاملة لتمظهرات هذا التأثر، فمعظم أحداث رواياته تقع في مدينة باريس القريبة من قلبه، ومعظم أبطالها يتكلمون لغة فرنسية راقية و يلبسون مثل الفرنسيين، لا بل و يشربون أجود أنواع النبيذ التي تزخر بها القرى الفرنسية، و قد كانت هذه من المآخذ التي سجلها بعض النقاد على رواياته، فيما كانت أشعاره "الشقاء في خطر" Le malheur en danger سنة 1956، و"استمع سأناديك" Écoute je t'appelle سنة 1961، الذي جاء بعد مقالته الشهيرة : الأصفار تدور في المستدير Les zéros tournent en rond سنة 1961، تتغنى بالثورة التحريرية وتدعو إلى التمرد على سياسات الاستدمار، لكن بلغة تغلب عليها اللمسة الشاعرية والجمالية والإنسانية.

ومن بين من مثل هذا الجيل أيضا الروائية "آسيا جبار"، التي آثرنا أن نخصص بحثنا هذا لدراسة مدونتها الموسومة ب" بعيدا عن المدينة " Loin de Médine، إضافة إلى رواية " الحريق L'incendie "لمحمد ذيب، حتى و إن كانت هذه الروائية لم تنخرط في هذا التوجه الأدبي الثوري منذ البداية و إنما كان تحولها لهذه الوجهة بظهور روايتها الثالثة " أطفال العالم الجديد Les enfants du nouveau monde "سنة 1962، بعد أن كال لها الكاتب و الناقد "مصطفى لشرف" انتقادات لاذعة جعلها تعدل عن توجهاتها

[1] – أحمد منور، الادب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 90.

الأولى، التي عبرت عنها في رواية العطش La soif سنة 1957 و المستعجلون Les impatients سنة 1958، والتي دارت بشكل أساسي حول اكتشاف المرأة لجسدها و قضايا ذات صلة بهذه التيمة.

يقول شارل بون : "... لم يظهر الإلتزام عند آسيا الجبار إلا في سنة 1962 "[1]

"... Chez Assia Djebar l'engagement nationaliste n'intervient qu'en 1962 ..."[2]

تميزت أعمال آسيا جبار بحس أنثوي متدفق وهي الأديبة المبدعة التي حظيت بشرف السبق في الكتابة الأدبية الأنثوية في الجزائر، إضافة الى أسماء أخرى لم تلق الرواج الذي لاقته هي .

لقد كانت التقاليد الجزائرية تثقل كاهل هاته المبدعة، بما تقتضيه من مجموع سلوكات على المرأة أن تلتزم بها وتراعيها أشد المراعاة، فلم تجد وسيلة لتجاوز هذه المحنة سوى اللجوء إلى السرد السير ذاتي للتعبير عن نفسها و الكشف عن مكنوناتها، مستعينة في ذلك بشيء من التخييل حتى لا ينكشف أمرها، تقول " كرستيان شولي عاشور" Christiane Chaulet Achour، و هي المتخصصة في هذه التيمة : "... حقيقه كانت أولى السرديات الجزائريات عبارة عن سرديات عن الحياة، وشهادات عن مسارهن في غالب الأحيان، كن يخفين هذه الشهادات بطريقة أو بأخرى، وهو أمر ليس بالغريب إذا ما أخذنا في الحسبان واجب التحفظ و الحشمة و الصمت الذين تربين عليهم ..."[3]

"... Effectivement les premiers récits d'Algériennes sont des récits de vie, des témoignages sur leur parcours, le plus souvent, elles masquent ce témoignage

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Charles Bonn, le roman Algérien de langue Française, opcit, p : 12 .

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

d'une façon ou d'une autre, ce qui n'est pas étonnant compte tenu des impératifs de réserve, de pudeur, que leur éducation leur a inculqués ..."[1]

ومن ثم كانت لغة العدو المستدمر هي الملاذ والسبيل إلى الخلاص، والتي بواسطتها يمكن العبور إلى الضفة الأخرى، ضفة الحرية والبوح والانطلاق والتخلص من تلك البطريركية الأبوية والمجتمعية، و من ثم الكشف عن الذات والاحتفاء بالجسد من دون رقيب ولا حسيب، و هو ما حاولت تأكيده في ثنايا ردها على منتقدي روايتها الأولى العطش سنة 1957، قائلة : "... بالنسبة لبطل رواية العطش، فإن اكتشاف الجسد هو أيضا ثورة مهمة ..."[2]

"... Pour le personnage de la soif, la découverte du corps et aussi une révolution importante ..." [3]

توالت بعد ذلك أعمال آسيا جبار بلغة فرنسية شفافة، تزاوج فيها ما بين اللمسة الشعرية الجميلة والعين التاريخية الناقدة، و متخذة من الجزائر و المرأة تيمات أعمالها الأساسية .

5 -7 جيل ستينيات القرن العشرين أو الجيل الجسر.

فيما مثل جيل آخر من الأدباء الجسر الذي ساعد على التواصل بين جيل ما قبل الإستقلال وجيل الإستقلال، ويأتي على رأس هؤلاء " مراد بوربون " الذي اقتصرت انتاجاته الأدبية على بعض الأشعار كقصيدتي ' الحج الوثني Le pèlerinage paien سنة 1964، و" الانفجار المتعدد L'éclatement

[1] - Chaulet Achour Chrstiane, Noum, Algérinnes dans l'écriture Ségnier, Paris, France, 1999, p : 97.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Beida Chikhi, Assia Djebar, Histoires et fantasies, PUPS, Paris, France, 2007, p : 13.

pluriel سنة 1963، تحدث فيها الشاعر عن ذكرياته الحزينة التي لم تقو السنون على محوها، يقول مراد بوربون في مقطع من هذه القصيدة :

"...تذكروا الظل

الليل الفاصل بيننا و بين كل إنساني

أشباح حقول البرتقال الضائعة

المرايا الهادئة والمتفجرة

وجموع الموتى من دون رثاء

تتنزه في صفوف متراصة من دون ظل مدين

تحت شمس عاجزة عن ردعها

مئة و ثلاثون سنة من الظل

من دون أي فجوة للنور

تذكروا هذا ثم اجتثوا الذكرى... "[1]

" ... Souvenez-vous de l'ombre

Frontière entre l'humain et nous

Fantômes d'orangerais perdues

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

Calmes miroir éclatés

La cohorte des morts sans épitaphe

Promène en rangs serrés sans ombre accusatrice

Sous un soleil impuissant à la dissoudre

Cent trente ans d'ombre

Sans un rayon interstitiel

Souvenez- vous et puis déracinez le souvenir… " [1].

يؤكد الشاعر في هذه الأبيات على مسألة هامة، كانت بمثابه البؤرة محط اهتمام الكثير من أدباء هذا الجيل، إنها مسألة الذاكرة التي لا يمكن أن تمحى حتى و إن أصبح ليل الاستدمار من الماضي .

أما في مجال الرواية فقد ترك مراد بوربون روايتين الأولى بعنوان: " جبل الشجيرات ذات الأزهار الصفراء le Mont des génets سنة 1962، أتى فيها على وصف تشظي العالم القديم، عالم الإستدمار والاستعباد، عالم الهيمنة و التسلط، وبروز فجر جديد، فجر الجزائر الجديدة، وقد ركز الروائي على مسألة الوعي الذي بدأ يدب في تفكير الجزائري حول وضعه كإنسان مستدمر و مقهور إبان الحقبة الاستدمارية، و عن حتمية الثورة والتمرد على هذا الوضع وصولا إلى التحرر والاستقلال، وهو الشيء الذي فهمه جيدا عرابو المؤسسة الكولونيالية.

حاول مراد بوربون، الحديث عن حتمية سحق المستدمر، ويظهر هذا بشكل جلي في الحوار الذي دار بين بطلي روايته "عمر" و "شهيد" مؤكدا على تيمة الهوية و مستدعيا التاريخ، يقول مراد بوربون: "... على هذه

[1] – Jean Déjeux, Situation de la littérature Maghrébine de langue française, opcit, p : 359.

البقايا المتعفنة يتم بعث عالم أو ماض لتقويضه، إن حنبعل، يوغرطا، المقراني و غيرهم ينتظرون منا أن نراجع مواقفنا منهم لتحديد ما إذا كان عليهم الأفول من جديد، و نحن وحدنا من يقرر في هذا الشأن ..."[1]

"... Sur ses restes pourrissants, ressusciter un monde, un passé pour encore l'emonter, Hannibal, Jugurtha, Mokrani et tant d'autres attendent qu'on révise leur procès, et s'ils doivent à nouveau disparaître c'est à nous seuls d'en décider..."[2]

سعى مراد بوربون في مرافعته ضد الكولونيالية إلى تكريس البعد البربري للشعب الجزائري، لكن بطريقة فيها شيء من الشوفينية، حتى وصل به الأمر إلى التهكم على خطابات ائمة المساجد وعلى الدور السلبي لهذه الأخيرة، قائلا على لسان أحد أبطاله : "... ماذا يعرف الخطباء الحمقى الذين يرتادون مساجدنا عن الإسلام ؟ إننا ننتج مؤمنين جهلة بالجملة بقرآن محرف، إن المسجد يخدرهم ..."[3]

"... Les phraseurs imbéciles qui hantent nos mosquées que savent-il de l'islam ? maintenant, dit-il, on fabrique en série des croyants analphabètes avec un Coran dénaturé, la mosquée les endors ..."[4]

إن هذا التحامل على الدين الإسلامي وعلى مؤيديه، يعزى في تقديرنا إلى تأثر هذا الكاتب الشديد بكاتب ياسين، حتى أنه كان ضمن الفرقة المسرحية التي أدت مسرحية " الجثة المطوقة" Le cadavre encerclé لهذا الأخير، و هو الشيء الذي جعل مصطفى لشرف يشن عليه هجوما شرسا منتقدا إياه على صفحات

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Boureboune Mourad, le mont des genèts, Juilliard, Paris, France, 1962, p : 67 .

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Jean Déjeux, littérature Maghrébine de langue française, opcit, p : 363.

مجلة " الأزمنة الحديثة" Les temps modernes متهما روايته هذه بكونها عبارة عن نسخة لرواية "نجمة" لكاتب ياسين، يقول "جان ديجو" في هذا الشأن : "... نذكر إضافة إلى ذلك أننا نجد هنا كما عند بو جدرة (التطليق) وبعض الكتاب المعاصرين الآخرين، آثار رواية نجمة لكاتب ياسين ..."[1]

"... Notons en outre que nous retrouvons ici, comme chez Boudjedra (la répudiation) et d'autres contemporains, une influence ou des réminiscences de Nedjma de Kateb..."[2]

أما رواية بوربون الثانية " المؤذن"Le Muezzin"، فقد صدرت سنة 1968، ويدور موضوعها بالأساس حول خيبة أمل الكاتب من الوضع الذي آلت إليه الجزائر بعد تولي " هواري بومدين " الحكم و اختياره لفرنسا كملاذ آمن له، و من ثم دعوته الضمنية للشعب الجزائري للثورة على من إدعوا يوما أنهم هم من حرروه، يقول بوربون على لسان بطل روايته " رامز السعيد " : "... محررون، لن يكونوا أبدا محررين، إذا لم يقضوا على من إدعوا يوما أنهم من حرروهم ..."[3]

"... libérés, Ils ne seront jamais libres s'ils e mettent pas en pièces ceux qui prétendent les avoirs libérés ..."[4]

تعج رواية المؤذن بالإنتقادات إتجاه السلوكات الدينية، أو ما يسميه هو بالنفاق الديني، حتى يصل الأمر ببطل الرواية إلى التفكير في تفجير المسجد، لكنه يعدل عن ذلك في آخر المطاف لينتهي السرد إلى نفق مسدود بموت البطل و من ثمة موت الثورة التي طالما حلم بها .

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, littérature Maghrébine de langue française, opcit, p : 362.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Boureboune Mourad, le Muezzin, Christian Bourgeois, Paris, France, 1968, p : 90 .

أما "رشيد بوجدرة" لغة فيمكن تصنيفه ضمن الموجة الجديدة من الروائيين الشعراء الذين أسسوا لعهد جديد في الكتابة الأدبية بالفرنسية غداة الإستقلال، فقد حاول رشيد بوجدرة أن يلفت النظر إلى كتاباته من خلال العزف على وتر الدين الذي كان سلعة رائجة في هذه الفترة، كما لم تسلم كذلك العادات والتقاليد والموروثات الثقافية من ضربات مطرقته، فجلب لأعماله اهتمام القارئ المحلي كما اهتمام القارئ من الضفة الأخرى للمتوسط، لكن و بالرغم من توجهاته الأيديولوجية اللادينية المعلنة، إلا أنه ظل وفيا لقضاياه الوطنية و القومية على رأسها القضية الفلسطينية منتقدا بشدة اولئك الذين باعوا هذه القضية بثمن بخس، آملا في الولوج إلى العالمية كحال "بوعلام صنصال" و "كمال داود" .

كان تأثير أدب "كاتب ياسين" بارزا في إبداعات "رشيد بوجدرة" خاصة في رواية "التطليق" La répudiation الصادرة سنة 1969، كما كان كثير الإعجاب بروايات الأمريكي "وليام فولكنر"[1] William Faulkner و الفرنسي "مارسيل بروست[2] Marcel Proust ".

بدأ رشيد بوجدرة حياته شاعرا قبل أن يتجه إلى الرواية، حيث أبدع و نظم العديد من القصائد جمعها في ديوان أسماه "حتى لا نعد نحلم"Pour ne plus rêver، كان لمقص الرقيب فيه فعل كثير، يقول "رشيد بوجدرة" في إحدى قصائده الموسومة ب "دعوات" Litanies:

"...هناك دعوات لا تعرف الصمت

وبكاء لا يعرف التنهد

[1] – وليام فولكنر William Faulkner :(1897–1962) قاص و روائي أمريكي حائز على جائزة نوبل للآداب سنة 1949، من أشهر أعماله : الفوضى و الغضب، في حين إحتضاري، أضواء أغسطس ...

[2] – مارسيل بروست Marcel Proust : (1871–1922) كاتب و روائي فرنسي من أشهر أعماله المتتابعة الروائية، البحث عن الزمن المفقود .

ورغبات فظيعة لا تنتهي [...]

لماذا تراني أحلم أنني قتلت أبي؟

وأن الصراصير لديها أيدي عظيمة ؟

إنني أعد الساعات بالثواني من فرط القلق

أحاول أن أعيش أيام سوية ... لكن الأراجيف المتعفنة تقض مضجعي

ومرة أخرى أكرر دعواتي... "[1]

" ... Il y a des litanies qui ne savent se taire

Il y a des pleurs aussi qui ne savent sangloter

Et des désirs horribles qui ne veulent pas crever[...]

Pourquoi est – ce–que je rêve que j'ai tué mon père?

Et que les crelats ont des mains formidables?

Je compte les heures en secondes d'ennui

J'essaie de repartir vers les jours plus habiles

Mais les blasphèmes envahissent mes litanies[2] ..."

تتوارى خلف هذه الأبيات ثورة ضمنية على السلطة الأبوية التي تمادت في غيها وتسلطها، وقد تجلى هذا بشكل واضح في روايته الأولى "التطليق"La répudiation التي حاول الروائي من خلالها تصوير نموذجين من الحياة، الأولى حياة سطحية معلومة لأم مطلقة تعيش حياة ضنكا، تنتهي بموتها عند أحد أقاربها، و أب سيء المعاملة، جلف، غليظ الطبع تعيش معه زوجة ثانية تصغره بكثير، تثير الغرائز، إضافة إلى إخوة و أخوات لكل منهن حكاية، أما الحياة الثانية فهي عميقة يحياها الراوي رشيد مع عشيقته الفرنسية "سيلين"Celine التي كانت بمثابة القلب الدافئ، والأذن الصاغية، والملاذ الآمن الذي يجد عندها الراوي راحته و يستمد منها قوته . و للرواية بعد أيديولوجي سياسي مرتبط بشكل أساسي بالتحول السياسي

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, littérature Maghrébine de langue française, opcit, p : 385.

الذي عرفته الجزائر غداة أحداث 19 جوان 1965، تنتهي الرواية بشكل مأساوي حيث تضمر مشاعر سيلين تجاه رشيد، فتغادر الجزائر بعدما كانت قد أرهقتها الحياة مع بطل هذه الرواية .

يزخر مشوار "رشيد بوجدرة" الأدبي بأعمال أدبية عديدة تنوعت بين الشعر و المسرح و الرواية والقصة، لعل أبرزها : "الحلزون العنيد" L'esgargot entèté (1977)، "التفكك" Le démantèlement (1982)، ألف عام و عام من الحنين Les milles et une année de la nostalgie (1988) ، " فوضى الأشياء"Le désordre des choses (1990)، "شجر الصبار" Les figuiers de barbarie (2010)...

أما "نبيل فارس" إبن مدينة القل، هو الآخر – على غرار الجيل الذي سبقه – كتب في الشعر والرواية وحاول من خلال أعماله الأدبية أن يقارب مواضيع كثيرا ما تطرق في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية كموضوع الهوية و ذكريات الطفولة و النسيان و فقدان الذاكرة، خاصة في روايته "ذاكرة الغائب" La Mémoire de l'absent سنة 1974، التي جعلت من فقدان البطل "عبد النوار" لذاكرته أثناء حرب التحرير موضوعها الرئيسي، و جاء ذلك في قالب واقعي أحيانا، وفني تخييلي أحيانا أخرى، يحاول فيه البطل إسترجاع ذاكرته التي غيبتها صدمة نفسية عنيفة ومزدوجة : موت عمته "جيدة" من جهة و اعتقال الجيش الفرنسي لوالده من جهة أخرى، يقول "عبد النوار" واصفا وضعه النفسي الممزق : "... لم أستطع أن أتحرر من فقدان والدي، لا أبدا [...] نعم إني أعرف ما حصل بداخلي، في هذا المكان الذي تركني فيه والدي، وفيه تركتني أنت أيضا "جيدة" ، لقد أصبت بالهذيان، حتى قبل أن أعرف ماهية هذياني هذا ..." [1]

"... Je ne me suis remis de l'enlèvement du père, non jamais [...] Oui je sais ce qui s'est passé en moi, là, à cet endroit où le père m'avait quitté et où toi

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

Jidda, aussi tu me quittais … Je dus délirer, oui délirer avant de comprendre la loi, cette loi de mon délire …"[1]

جاءت رواية ذاكرة الغائب هذه ضمن الثلاثية التي كتبها نبيل فارس، حيث سبقتها رواية "حقل أشجار الزيتون Le champ des oliviers " سنة 1972، ثم تلتها رواية المنفى و الحيرة L'exil et le désaroi " سنة 1976، و كان نبيل فارس قد كتب من قبل أول رواياته " يحيى غير المحظوظ Yahia pas de chance " سنة 1970 وهي عبارة عن رواية سير ذاتية ثم رواية " عبور للغرب Un passage de l'Occident "، طرح فيها الروائي مسألة "الهجنة" L'hybridité و البحث عن الأصول و التركيز على الهوية البربرية للمجتمع الجزائري .

ترك نبيل فارس ثلاث دواوين شعرية، الأول جاء بعنوان "غناء آكلي Chant d'Akli " سنة 1971، فيه تغنى الشاعر بالطبيعة التي تزخر بها منطقة القبائل، والثاني موسوم ب : " أغاني من التاريخ ومن الحياة Chants d'histoire et de la vie " سنة 1978، فيما اختار للديوان الثالث إسم : " تأنيث المنفى L'exil au féminin" سنة 1986 و هو عبارة عن مجموعة من القصائد من الشرق ومن الغرب .

وسم الباحث الأكاديمي " جان ديجو " الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية الذي ظهر انطلاقا من منتصف الستينيات و حتى سبعينيات القرن ماضي بأدب النزعة الإحتجاجية الإجتماعية و السياسية "... وقد استمر هذا التوجه الإنتقادي الاحتجاجي حتى بعد وفاة بومدين في أواخر شهر ديسمبر 1978، ونجد ذلك بارزا في روايات رشيد ميموني خاصة رواية النهر المحول سنة 1982 و طومبيزا سنة 1984 [...] و كذا الأمر في روايات الطاهر جعوط، ولكن برمزية أكثر إيغالا وغموضا، و بلهجة أقل حدة مثل روايته الباحثون عن العظام سنة 1984، وإلى حد ما روايته " منزوع الملكية " Le dépossédé سنة 1981

[1] – Nabil Fares, Mémoire de l'absent, le seuil, Paris, France, 1973, p : 29.

الذي يقترب فيها وضع بطله إلى حد كبير من وضع بطل رواية "طومبيزا"، حيث يعاني بدوره من أزمة هوية حادة نتيجة تجريده من وسائل التعبير الأساسية التي هي اللغة ..." [1]فيما عادت " يمينة مشاكرة " إلى أحداث الثورة كمادة لروايتها "الكهف المتفجر" La grotte éclatée سنة 1979، وإلى تجربتها كطبيبة أمراض عقلية في روايتها الثانية "آريس" Arris سنة 1999 تناولت فيها تيمة الهوية والرجوع إلى الأصل.

5 -8 الأدب الاستعجالي La littérature de l'urgence

و مع الإنفتاح السياسي الذي شهدته الجزائر في أواخر الثمانينات وبروز التيار الإسلامي بقوة على الساحة السياسية تحديدا، و تقدمه في الإنتخابات التشريعية لتلك الفترة، و ما صحب ذلك من تدهور في الأوضاع الأمنية أدت إلى مآس كثيرة، أدخلت البلد في أتون حرب لا يزال الجزائريون يحيون تداعياتها إلى يوم الناس هذا، لم تكن الساحة الأدبية بمنأى عن هذا الصراع و التجاذب، فظهر في هذه الأثناء أدب أطلق عليه النقاد إسم " الأدب الإستعجالي"La littérature de l'urgence، الشيء الذي أثار جدلا حادا في الدوائر الأدبية في الجزائر في تلك الفترة بين من يعتبره أدبا وثق لنا شهادات حية عن هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الجزائر المعاصر، في قالب تخييلي جميل، وبين من يعتبر رموز هذا الأدب مجرد وافدين جدد من عوالم الإعلام و الصحافة إلى عوالم جديدة، لا يفقهون كنفها، ولا يملكون أدواتها، يقول الباحث والصحفي "مختاري رشيد" عن ظروف نشأة هذا الأدب : "... ظهر حوالي خمسون مؤلفا باللغة الفرنسية ما بين رواية ومقالة و شهادة ودراسة و كتابات أخرى مطبوعة بالحدة والعنف، وهذا من أجل توثيق الوقائع بشكل استعجالي أمام دوامة العنف الإسلامي الذي أدخل كل جهات الوطن من الجزائر العاصمة إلى القرى الجبلية في حمام من الدماء ..."[2]

[1] – أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 98/97 .

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"… Une cinquantaine d'ouvrages en langue française, tous genres confondus, romans, chroniques, témoignages, essais, ont surgi comme autant de graphies acérées brutales et abruptes pour dire l'urgence face à la violence islamiste qui ensanglante toutes les régions de l'Algérie de sa capitale à ses coufins montagneux …"[1]

وثق، إذن، العديد من الروائيين شهاداتهم، كل من الزاوية التي تتفق مع مرجعيته الفكرية والأيديولوجية، فكتب رشيد بوجدرة "جبهة الحقد Le fis de la haine" سنة 1994، وكتب رشيد ميموني "اللعنة"La malédiction سنة 1995، فيما كتب ياسمينة خضرة "خراف الإله" Les agneaux de Seigneur سنة 1998، أما بوعلام صنصال فكتب "قسم الهمج Le serment des Barbares" سنة 1999.

5 – 9 جيل الألفية الثالثة Génération du troixième millinaire

وبدخول الجزائر في الألفية الثالثة، بدأ الوضع الأمني يعود تدريجيا إلى حالته الطبيعية، الشيء الذي ساعد على تجاوز النمط الاستعجالي في الكتابة، و الشروع في البحث عن بنيات أكثر جمالية في الإبداع الأدبي، من خلال الغوص في النفس البشرية، و الإهتمام بالخصوصية الأنثوية، وهو ما ظهر بشكل واضح في كتابات "مايسة باي"، "مليكة مقدم" و "آسيا جبار" و غيرهن، كما تحولت الكتابة الأدبية في هذه المرحلة إلى الإهتمام بواقع المرأة و نضالاتها من أجل التحرر، و كذا إثارة مواضيع من قبيل موضوع الهوية و العمل على الذاكرة و كسر الطابوهات، أملا في الولوج إلى صرح العالمية.

[1] – Mokhtari Rachid, la graphie de l'horreur, essai sur la littérature Algérienne (1990–2000) éd Chihab, Alger, 2002, p : 39.

وقد ظهرت في سماء الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية العديد من العناوين في العشريتين الأولى والثانية من الألفية الثالثة، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر : رواية "طرابندو Trabendo" لعبد الرحمن زكاد سنة 2001، رواية "زمن الوجع Le temps de la douleur " لبهية خيارد سنة 2003 ورواية "زوجة القايد La femme du Gaid" سنة 2005 للروائية نفسها، كما كتب الروائي يسمينة خضرة العديد من الروايات من بينها رواية "فضل الليل على النهار"Ce que le jour doit à la nuit سنة 2008، و رواية "المعادلة الإفريقية" L'équation Africaine سنة 2011، و رواية "الملائكة تموت من جراحنا" Les anges meurent de nos blessures" سنة 2013، ورواية "ليس لهافانا رب يحميها" Dieu n'habite pas la Havane سنة 2016، و القائمة تطول في ما يتعلق بأعمال هذا المبدع، أما عبد القادر جمعي فكتب رواية "الليلة الأخيرة للأمير"La dernière nuit de l'emir سنة 2012، فيما كتب كمال داود رواية "مارسو تحقيق مضاد" Merssault contre-enquête سنة 2013 التي نال عنها جائزة "غونكور" المرموقة في فرنسا (prix Goncourt)، وكتبت مايسة باي "لا طريق آخر"Nulle autre voix سنة 2018، ونالت الروائية الناشئة لندة شويتن جائزة "آسيا جبار للرواية" عن عملها" الرقصة"La valse" سنة 2019.

وكتتويج لهذه الإطلالة التاريخية السريعة، و هذا الغوص غير العميق في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية تحديدا، أضع بين أيدي القارئ هذه المنحنيات البيانية التي توجز بشكل دقيق تطور الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، معتمدين في ذلك، وبشكل أساسي، على الاحصاءات والمسح الشامل الذي قام به الباحث الأكاديمي الفرنسي "جان ديجو" لجميع الأعمال الأدبية التي صدرت ما بين سنتي 1945 – 1981 (الجداول المرفقة في آخر هذا الفصل)، وقد حاولنا تحيين هذه الجداول والمنحنيات البيانية لكن شح المعلومات عن الإصدارات السنوية للأعمال الأدبية الصادرة باللغة الفرنسية بين سنتي (1980 – 2019)، خاصة تلك المتعلقة بالأعمال المغمورة ، وكذا الخشية من تأثير المسح غير الشامل على علمية

الدراسة و أكاديميتها، جعلنا نعدل في آخر المطاف عن هذا التحيين، نكتفي بهذا النقل للقارئ بالعربية وفي ذلك فوائد مرتجاة، مع إجتهادنا الذاتي في تحويل أرقام الجداول إلى أعمدة بيانية، تيسيرا للفهم و تبسيطا للمعرفة وربحا للوقت.

1 – أعمدة بيانية خاصة ب: إحصاء الإنتاجات الخاصة بالأدب الجزائري باللغة الفرنسية بين سنتي 1945 – 1981.

2 – أعمدة بيانية خاصة ب : الإنتاجات المسرحية المكتوبة بالفرنسية بين سنتي 1945 – 1981.

3 – أعمدة بيانية خاصة ب : تطور الإنتاج الروائي بين سنتي 1945 – 1981.

4 – أعمدة بيانية خاصة ب : الإنتاج القصصي بين سنتي 1945 – 1981.

5 – أعمدة بيانية خاصة : تطور إنتاج الدواوين الشعرية باللغة الفرنسية بين سنتي 1945 – 1981.

6 – جداول وأعمدة بيانية توضيحية.

جدول رقم 01 : إحصاء للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية (1945-1981):[1]

السنة	الروايات	مجموعة قصصية	دواوين شعرية	قطع مسرحية	المجموع
1945	1				1
1946			2		2
1947	2				2
1948	2				2
1949					
1950	1				1
1951			1		1
1952	2				2
1953	2		1		3
1954	1	1	5		7
1955	2	1	2		5
1956	2		3		5
1957	3		3	1	7
1958	2		3	1	6
1959	2		3	4	9
1960	3		4	3	10
1961	3		7		10
1962	4		9	3	16
1963	2		6		8
1964	3		10		13
1965	1		5		6
1966	2	2	7	2	13
1967	2		5		7
1968	3		6		9
1969	3	1	11	2	17
1970	3		5	3	11
1971	1	1	2		4
1972	3	2	4	1	10
1973	5	1	3	3	12
1974	3		8	3	14
1975	3	2	6		11
1976	3		5	1	9
1977	5		10		15
1978	4	2	19	2	27
1979	8		11	1	20
1980	7	3	13	3	26
1981	11	2	22	1	36
	104	18	201	34	357

[1] - Jean Déjeux, la littérature maghrébine de langue francaise, opcit, p : 67.

أعمدة بيانية رقم 01 : إحصاء للأعمال الأدبية للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية بين سنتي 1945 - 1981

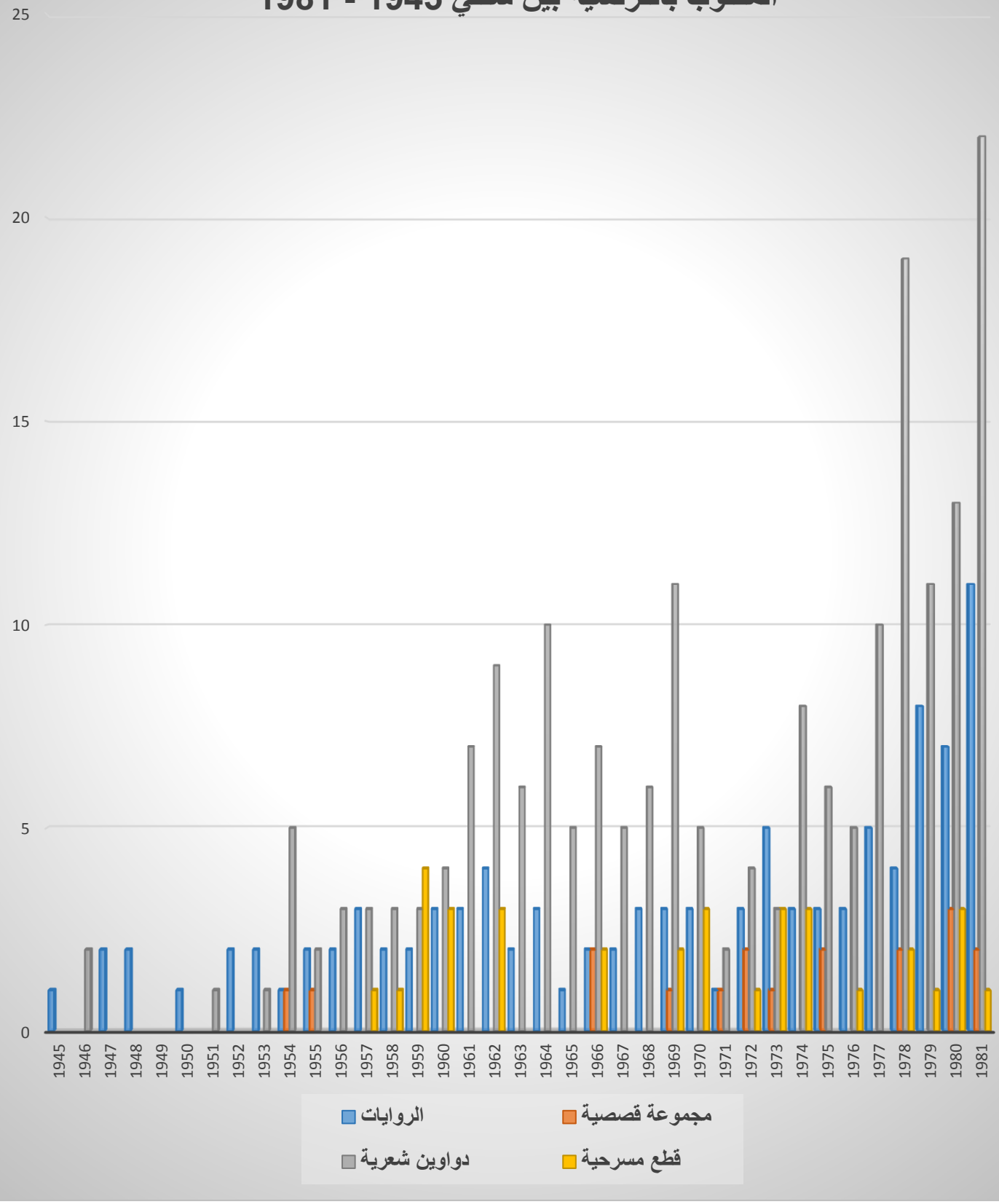

جدول 02 : القطع المسرحية باللغة الفرنسية (1945-1981): [1]

العام	قطع مسرحية
1945	
1946	
1947	
1948	
1949	
1950	
1951	
1952	
1953	
1954	
1955	
1956	
1957	1
1958	1
1959	4
1960	3
1961	
1962	3
1963	
1964	
1965	
1966	2
1967	
1968	
1969	2
1970	3
1971	
1972	1
1973	3
1974	3
1975	
1976	1
1977	
1978	2
1979	1
1980	3
1981	1
	34

[1]- Jean Déjeux, dictionnaire des auteurs Maghrébins de langue Française, opcit, p : 370.

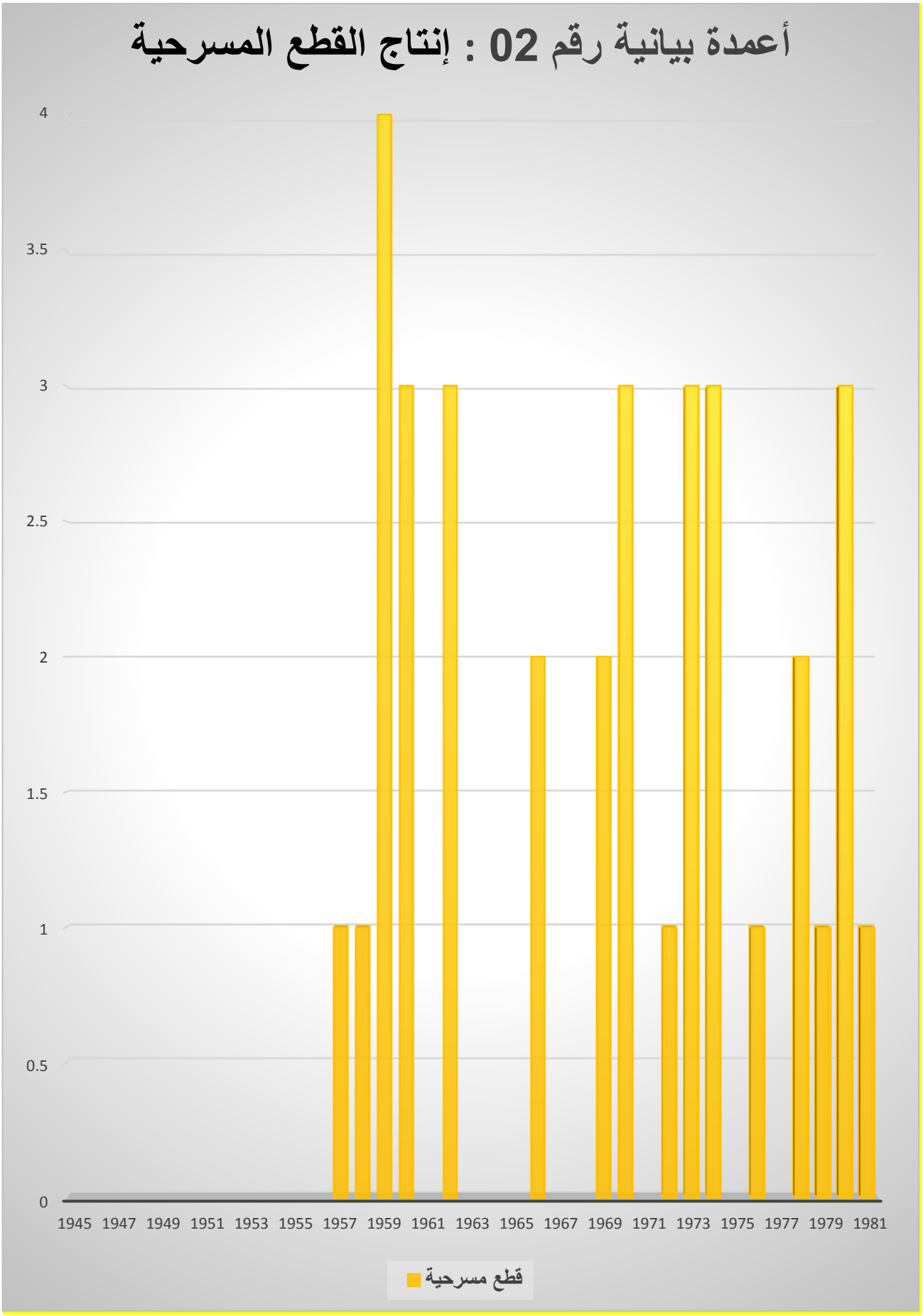
أعمدة بيانية رقم 02 : إنتاج القطع المسرحية
4
3.5
3
2.5
2
1.5
1
0.5
0
1945 1947 1949 1951 1953 1955 1957 1959 1961 1963 1965 1967 1969 1971 1973 1975 1977 1979 1981
قطع مسرحية

جدول 03: الروايات باللغة الفرنسية (1945-1981): [1]

السنة	الروايات
1945	1
1946	
1947	2
1948	2
1949	
1950	1
1951	
1952	2
1953	2
1954	1
1955	2
1956	2
1957	3
1958	2
1959	2
1960	3
1961	3
1962	4
1963	2
1964	3
1965	1
1966	2
1967	2
1968	3
1969	3
1970	3
1971	1
1972	3
1973	5
1974	3
1975	3
1976	3
1977	5
1978	4
1979	8
1980	7
1981	11
	104

[1]- Jean Déjeux, dictionnaire des auteurs Maghrébins de langue Française, opcit, p : 370.

أعمدة بيانية رقم 03 : الإنتاج الروائي باللغة الفرنسية (1945-1981)

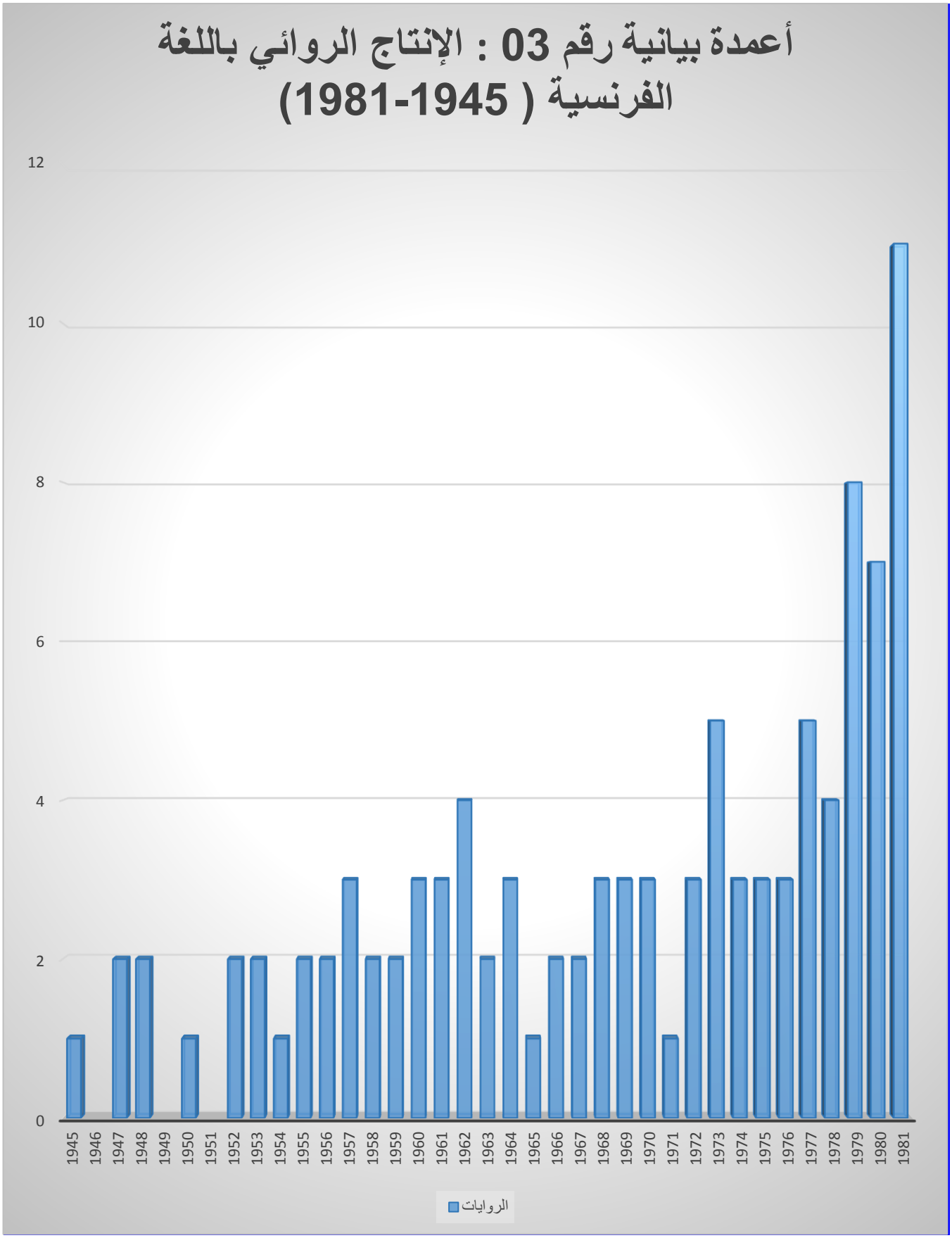

جدول رقم 04 : المجموعات القصصية باللغة الفرنسية (1945– 1981): [1]

العام	مجموعة قصصية
1945	
1946	
1947	
1948	
1949	
1950	
1951	
1952	
1953	
1954	1
1955	1
1956	
1957	
1958	
1959	
1960	
1961	
1962	
1963	
1964	
1965	
1966	2
1967	
1968	
1969	1
1970	
1971	1
1972	2
1973	1
1974	
1975	2
1976	
1977	
1978	2
1979	
1980	3
1981	2
	18

[1] - Jean Déjeux, dictionnaire des auteurs Maghrébins de langue Française, opcit, p : 370.

أعمدة بيانية رقم 04 : إنتاج المجموعات القصصية

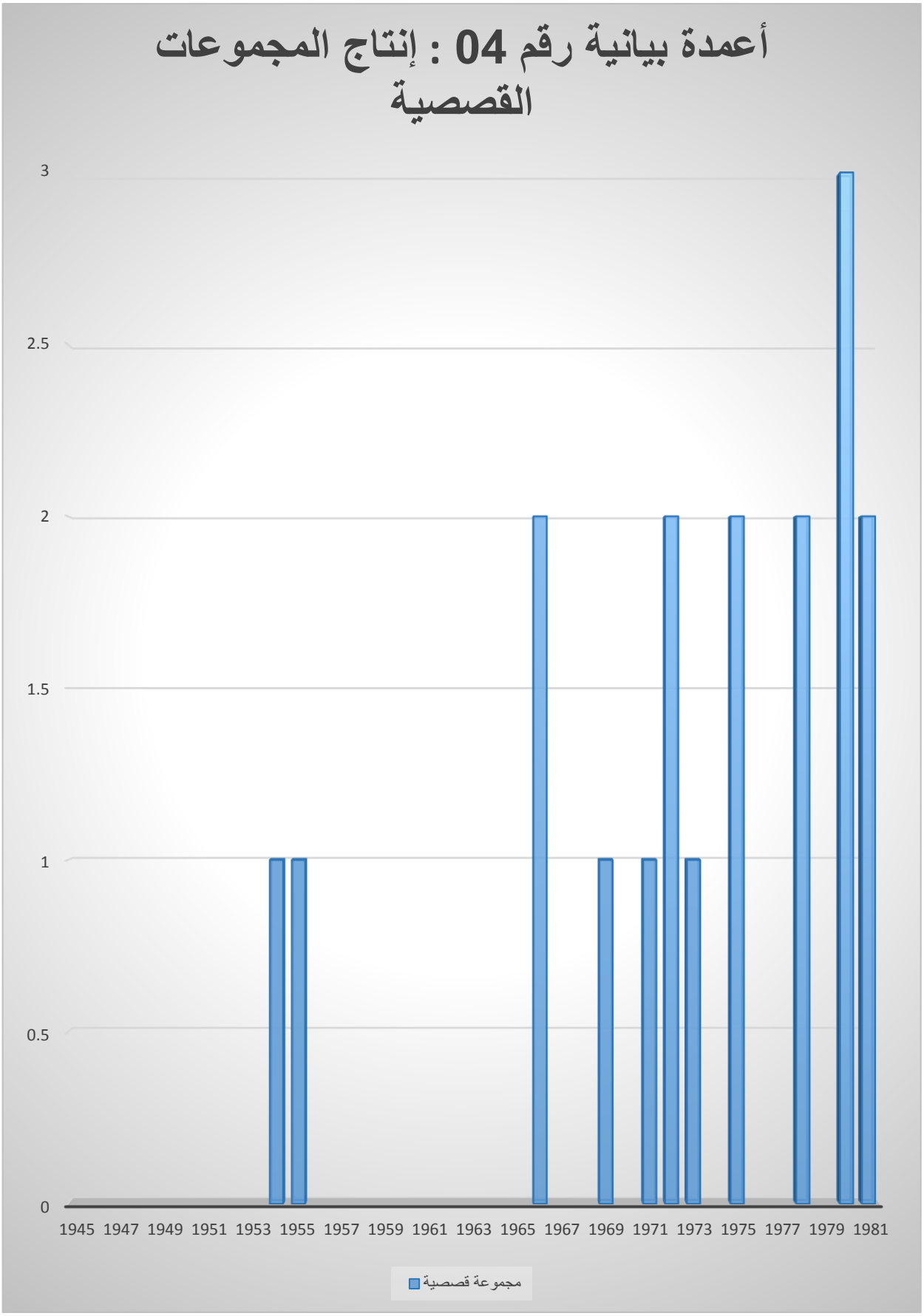

جدول رقم 05 : الدواوين الشعرية باللغة الفرنسية (1945-1981)

العام	دواوين شعرية
1945	
1946	2
1947	
1948	
1949	
1950	
1951	1
1952	
1953	1
1954	5
1955	2
1956	3
1957	3
1958	3
1959	3
1960	4
1961	7
1962	9
1963	6
1964	10
1965	5
1966	7
1967	5
1968	6
1969	11
1970	5
1971	2
1972	4
1973	3
1974	8
1975	6
1976	5
1977	10
1978	19
1979	11
1980	13
1981	22
	201

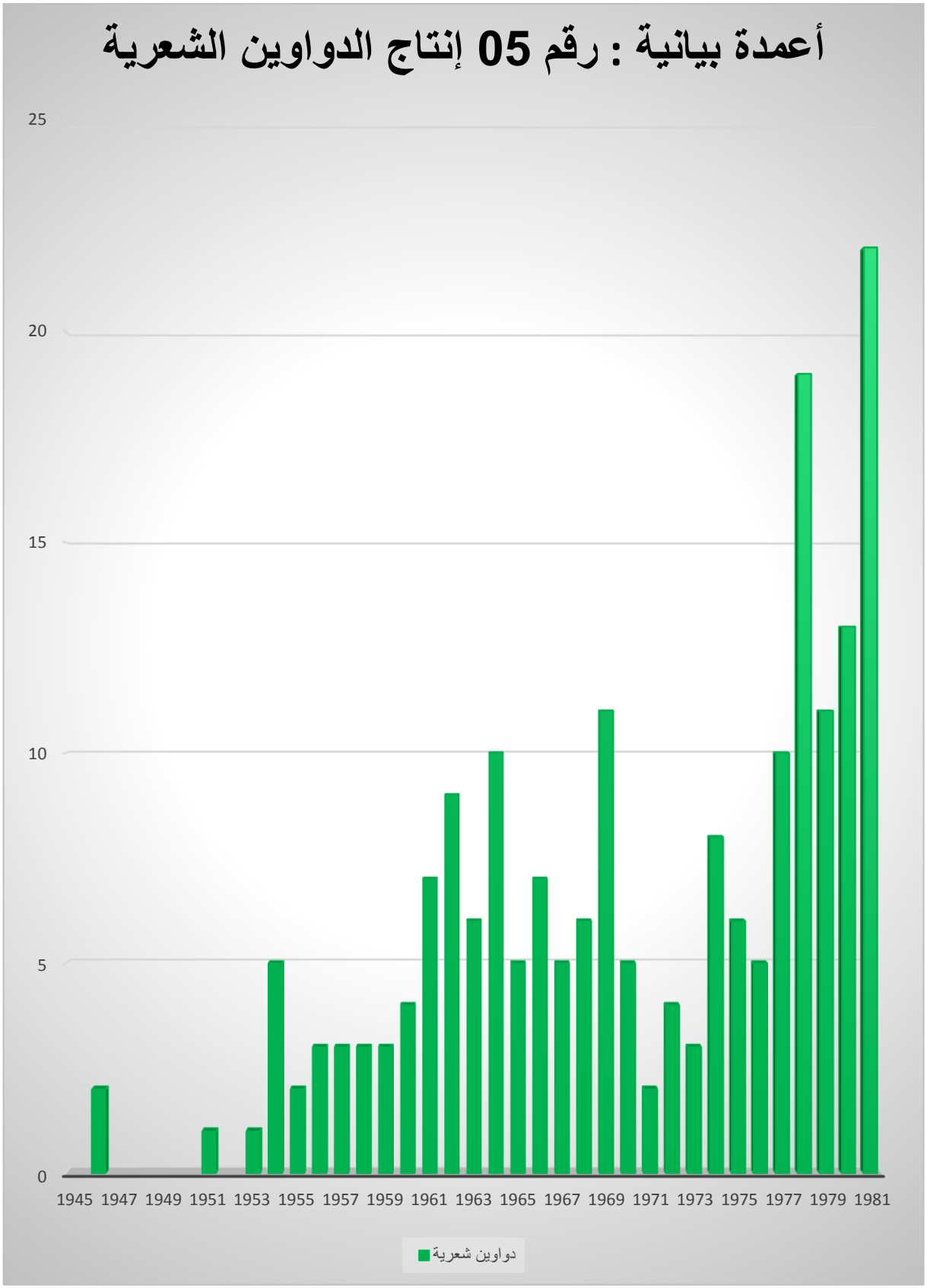
أعمدة بيانية : رقم 05 إنتاج الدواوين الشعرية
25
20
15
10
5
0
1945 1947 1949 1951 1953 1955 1957 1959 1961 1963 1965 1967 1969 1971 1973 1975 1977 1979 1981
دواوين شعرية

المجموع

العام	الروايات	مجموعة قصصية	دواوين شعرية	قطع مسرحية	المجموع
1945	1				1
1946			2		2
1947	2				2
1948	2				2
1949					
1950	1				1
1951			1		1
1952	2				2
1953	2		1		3
1954	1	1	5		7
1955	2	1	2		5
1956	2		3		5
1957	3		3	1	7
1958	2		3	1	6
1959	2		3	4	9
1960	3		4	3	10
1961	3		7		10
1962	4		9	3	16
1963	2		6		8
1964	3		10		13
1965	1		5		6
1966	2	2	7	2	13
1967	2		5		7
1968	3		6		9
1969	3	1	11	2	17
1970	3		5	3	11
1971	1	1	2		4
1972	3	2	4	1	10
1973	5	1	3	3	12
1974	3		8	3	14
1975	3	2	6		11
1976	3		5	1	9
1977	5		10		15
1978	4	2	19	2	27
1979	8		11	1	20
1980	7	3	13	3	26
1981	11	2	22	1	36
	104	18	201	34	357

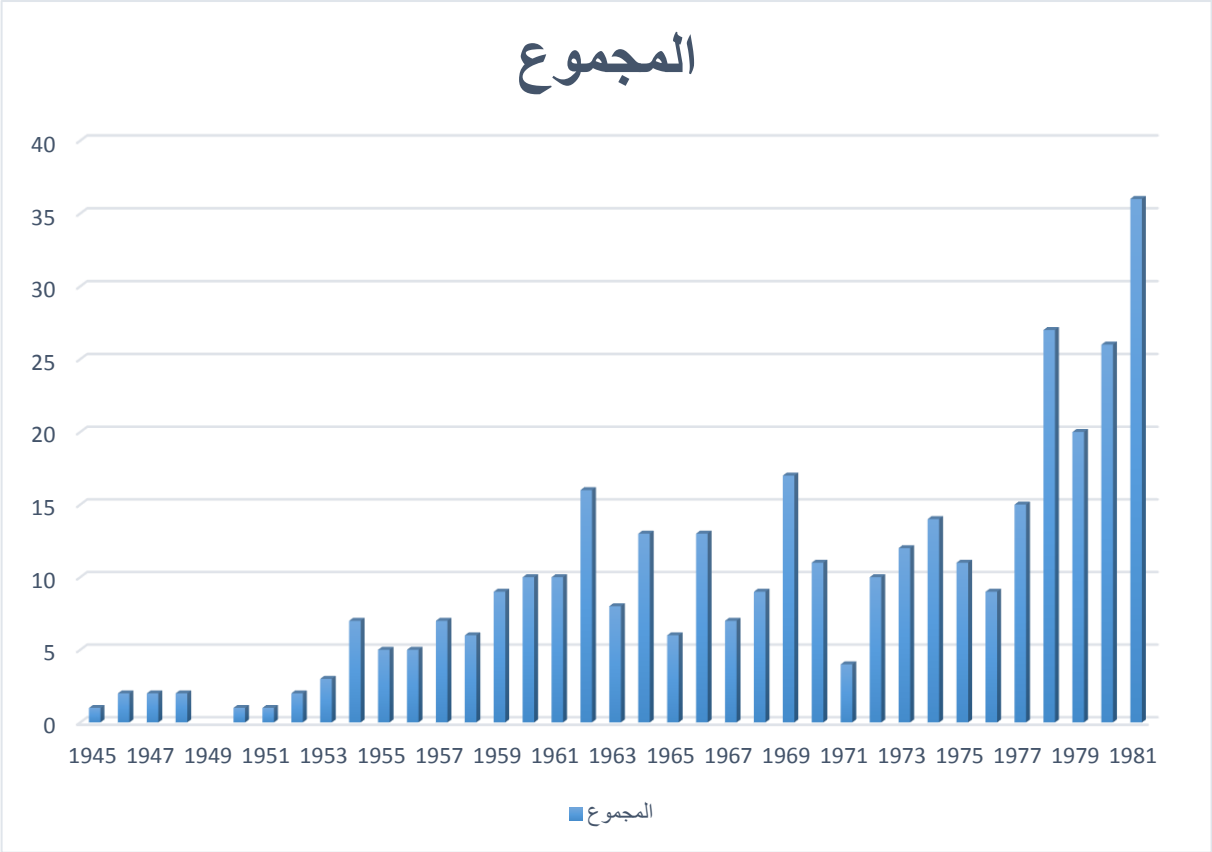

تعليق على الأعمدة البيانية :

يمكن لمتصفح هذه الأعمدة البيانية (اعتمادا على تلك رقم 01 التي تجتمع فيها جميع الانتاجات الأدبية، روائية و شعرية و قصصية و مسرحية)، أن يخلص لمجموعة من الملاحظات يمكن إجمالها في النقاط التالية :

1 – إن الأعمدة البيانية الخاصة بالإنتاج الشعري في الفترة الممتدة ما بين 1945 – 1949 تبين بأن الإنتاج الشعري في هذه الفترة التاريخية وما قبلها يكاد يكون منعدما، إذا ما استثنينا سالم القبي(حكايات وأشعار الإسلام، ندى الشرق) وجان الموهوب عمروش(الرماد، النجمة السرية)، والمعروف عن هذه المرحلة أنها مرحلة أدب جيل عشرينيات القرن الماضي، وأن أدب هؤلاء لم يكن ذا قيمة أدبية كبيرة، فقد كان يفتقر للغة الشعرية واللمسة الجمالية والبعد الفني، وقد اعتمد رموز هذا الجيل بشكل أساسي على جنس الرواية الذي كان شائعا في تلك الفترة (شكري خوجة، محمد ولد الشيخ، عبد القادر الحاج حمو ...).

2 – تظهر الأعمدة البيانية للإنتاج الشعري من سنة 1945 وحتى أواخر الستينيات، أن هذا الأخير كان يفوق الإنتاج الروائي والقصصي، ولعل هذا يعزى في تقديرنا إلى كون جيل الروائيين في هذه المرحلة كانوا بالأساس شعراء وقد بينا ذلك في سردنا لتاريخ هذا الأدب.

3 – تذيلت المجموعات القصصية الإنتاج الأدبي في الفترة محل المسح الشامل، وكادت تنعدم خاصة في العشرية الممتدة من سنة 1955 حت سنة 1965، و لعل السبب في ذلك يعزى للطفرة التي شهدتها الرواية في هذه المرحلة التاريخية، جاعلة منها موضة العصر، الشئ الذي حدى بالكثيرين إلى التحول إلى الكتابة الروائية.

4 – لم يكن حال الأعمال المسرحية بأفضل من حال الأعمال القصصية بكثير، فقد انعدمت تماما، و لم تظهر للوجود إلا بحلول سنة 1955، بصدور مسرحية الجثة المطوقة لكاتب ياسين، ولعل وضع الجزائر كدولة قابعة تحت الإحتلال لم يكن ليسمح بتطور هذا الجنس الأدبي، فالمسرحية إنما تؤلف لتجسد فوق الركح، و هذا ما لم يسمح به الاستدمار، خاصة و أن هذه الأعمال و غيرها، كانت ذات طابع وطني ملتزم بقضية التحرر، متماهية مع مخرجات مؤتمر الصومام.

البــاب الأول

الفصــل الثاني : في فلسفة الهوية

المبحث الأول : الهوية، مقاربة في المفاهيم

المبحث الثاني : إشكالية اللغة و الهوية

المبحث الثالث : البعد الهوياتي المتعدد أو قهر العولمة

المبحث الأول : الهوية، مقاربة في المفاهيم :

بلغت الحضارة الغربية قمتها السامقة من خلال ما وصلت إليه ثورة دول الشمال العلمية والتكنولوجية، جاعلة من سلاح العلم قوتها الضاربة، الشيء الذي ساهم في نقلة نوعية للحضارة الإنسانية بشكل عام، في محاولة لعولمة جميع مناحي الحياة : الاقتصاد والثقافة والسياسية وكذا العلم والدين ، والتي كانت إلى وقت قريب تحتفظ بشيء من الخصوصية والتميز.

وقد ساهمت هذه الثورة العلمية و التكنولوجية عبر وسائلها المتعددة في تقريب المسافات ، و تيسير الاتصال بين البشر ، فكثر التلاقي و بالتالي زاد الاحتكاك بالآخر، فظهرت تبعا لذلك مواطن التلاقي ومواطن الاختلاف مع هذا الآخر المختلف، الشيء الذي جعل من سؤال الهوية يفرض نفسه بقوة كقدر لا فكاك منه "... إذ أن المرء لا يدرك أهمية هويته إلا في لحظة مأزومة يواجه فيها المختلف، عندئذ يرتد إلى مكوناته الأصلية التي تمنحه الإحساس بوجوده، أي بتميزه و اختلافه عن الآخر، فيحس بضرورة الحفاظ على هذه المكونات، إذ كلما احتدت المواجهة مع الغير ، زاد تمسكا بمكونات هويته وخصوصيته..." [1]

تعدد توظيف استعمال مصطلح الهوية فتقاذفته كثير من المجالات المعرفية، فأصبح من العصي الإمساك بمفهوم واحد و جلي يمنحه تميزا و خصوصية، إن هذه الطبيعة الزئبقية لمصطلح الهوية تجد لها تفسيرا في كون الحديث عن الهوية هو في كثير من الأحيان حديث الإنسان عن الإنسان، و حديث الذات عن الذات، ولعل هذا ما حدا بـ : غوتلوب فريجة " Gottlob Frege[2] أن يعلن " ...بأن الهوية مفهوم لا يقبل التعريف و ذلك لأن كل تعريف هو هوية بحد ذاته، فالهوية مفهوم أنطلوجي وجودي، يمتلك خاصية سحرية تؤهله للظهور في مختلف المقولات المعرفية، وهو يتمتع بدرجة عالية من العمومية والتجريد

[1] – ماجدة حمود، إشكالية الآنا و الآخر، عالم المعرفة ، 398، مارس 2013 ، الكويت ، ص13.

[2] – فريديريش لودوفيك غوتلوب فريجه Friedrich Ludwig Gotlob Frege : (1848– 1925) عالم رياضيات وفلسفة و منطق ألماني، عرف عنه أنه مبتدع الفلسفة التحليلية.

تفوق مختلف المفاهيم الأخرى المجانسة والمقابلة له ... " [1]

إن أهم ما يميز العلوم الإنسانية والاجتماعية عن العلوم التجريبية والكونية هو عدم الثبات وعدم الاستقرار، إن على مستوى المفاهيم أو على مستوى النتائج، و قد عرفت هذه المفاهيم بناء على ذلك إشكالية في التعريف و الدلالة "...وبقدر ما تعلق الأمر بمفهوم الهوية ، فإنه ينطوي لغويا و اصطلاحيا على معنى عام مشترك يتعلق بتحديد الماهية (المعنى والطبيعة والمكونات والخصائص)، و إذ يجعل ذلك من الهوية حدا، و الحد في الفلسفة هو الكلام الكاشف عن معنى المحدود و حقيقته، فستكون هويتي هو ما يكشف عن حقيقتي، مثلما إن هوية الآخر هي ما يكشف عن حقيقته ويحدد طبيعته بدلالة السمات التي يعرف بها عن نفسه ومن هو على شاكلته ..." [2]

إن هوية الشيء تعني ماهيته و حقيقته التي تعبر عنه بوضوح، وتحديد هذه الهوية إنما يمر بمستويين متناقضين ، مستوى التماثل من خلال التماهي مع الآخر المماثل، ومستوى الاختلاف من خلال التباين مع الآخر المختلف، الذي يعد وجوده ضروري لمعرفة الذات ، لا بل لتكريس هويتها لأن الإنسان كلما انغلق على نفسه كلما زاد جهلا بها و بالآخرين، فالمرء لا يعرف الموضع الذي هو فيه إلا إذا عرف موضع الآخر، ولا يعرف نفسه إلا من خلال تعرفه على الغير.

إن العيش في القيتوهات Ghéttos من خلال الانغلاق على الذات والتمركز حولها، يجعلها تتوهم التفوق المطلق، ومن هنا تنشأ فكرة المركزيات التي لطالما لاقت النقد والرفض .

[1] – أحمد بعلبكي ، أحمد مفلح وآخرون ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر ، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، لبنان ، 2013، ص157.

[2] – المرجع نفسه ، ص297.

1 – مقاربة فلسفية فكرية :

شغل مفهوم الهوية اهتمام الكثير من الفلاسفة والمفكرين فـ :"... لا أحد من المتفلسفة اليوم لم يقف بوجه أو بآخر على أن المشهد الفسلفى العالمي قد انطبع بشكل سريع و مذهل بمسألة الهوية، كأن الفيلسوف قد قبل في نهاية الأمر بدور موظف هووي لدى الإنسانية ... " [1]

لقد أضحت تيمة الهوية من المواضيع الأكثر تداولا في الدوائر السياسية والاجتماعية والثقافية بشكل عام والفسلفية الفكرية منها تحديدا، كما استولى هذا الموضوع على اهتمام الكثير من الفلاسفة الغربيين والعرب، بدء بسقراط و أرسطو الى الكندي و الفارابي، فكانط و هيجل وصولا إلى أطروحات تشارلز تايلور و بول ريكور و دريدا و فوكو، و كذا ادوارد سعيد و عبد الله العروي وعلي حرب وأمين معلوف في الضفة الأخرى .

فيما عدَّ البعض الآخر من الباحثين في هذا المجال المعرفي، مفهوم الهوية مفهوما دخيلا و وافدا جديدا الى الحيز الثقافي العربي فـ " ... مصطلح الهوية في حد ذاته لا يمت بصلة إلى جوهر اللغة العربية، فهو طارئ عليها و من منظومة آخرى، هذا ما يؤكده ابن رشد في كتابه " تفسير ما بعد الطبيعة " في معرض شرحه لهذا المفهوم، إذ يقول :"... لقد اضطر إليه بعض المترجمين فاشتق هذا الاسم من حرف الرباط ، أعني الحرف الذي يدل عند العرب على ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره، و هو حرف "هو" في قولهم ، زيد هو إنسان ..."[2]

أما في التراث الفكري العربي فقد حظيت الهوية بدراسات عدة و إسهامات كثيرة، في محاولة لحصر معناها ف " ... الهوية عند ابن رشد تقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود، و عند

[1] – المسكيني فتحي ، الهوية و الحرية : نحو أنوار جديدة ،ط1، جداول للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2011 ، ص131.

[2] – رسول محمد رسول، محنة الهوية ، مسارات البناء وتحولات الرؤية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان ، 2002، ص17.

الفارابي هو الشيء عينه وتشخيصه وخصوصيتة و وجود المتفرد له الذي لا يقع فيه اشراك ... " [1]، أما الجرجاني فقد تناول مفهوم الهوية باعتباره "... الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق، اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق ... " [2]

تلامس هذه المقاربة الفسلفية عند هؤلاء الفلاسفة تلك "...الصعوبة التي أثارها ريكور والمتعلقة بالتواشج اللطيف ما بين المعنى الانطولوجي للهوية من حيث تدل على الموجود أو " الهو هو " la mêmeté، والمعنى الفينومينولوجي للهوية من حيث تدل على معنى ذاته أو نفسه ipséité..." [3] وفي هذا محاولة من " بول ريكور Paul Ricœur ، لتبيان ذلك التمايز الذي يمكن أن نلحظه بين مفهوم الهوية العينية mêmeté التي تتحق بالوجود والثبات، ومفهوم الهوية الذاتية "ipséité" الموسومة بالتحول والتبدل .

إن موضوع الهوية موضوع فلسفي بالأساس، اشتغل عليه المتفلسفة المثاليون والوجوديون على السواء، بالرغم من أنه لطالما نعت بكونه تيمة ثقافية وتاريخية وانثروبولوجية ، وقد حاول الفلاسفة العرب "... تجذير الدلالة السائدة للفظة الهوية " Identité " بإخراجها من مستوى اللغة العربية الحديثة، حيث تشير إلى " نحن " انثروبولوجية وثقافية إلى مستوى اللغة الفلسفية، حيث يجدر بها أن تدل على معنى الهوية " ipséité" التي تثوي في قاع كل فهم عامي للهوية، بمعناها المشار إليه، وذلك في ضوء النقد ما بعد الحديث لنموذج الذاتية "subjectivité" الحديثة ..." [4]

2 – مقاربة أنثربولوجية ثقافية :

تناولت الأنثربولوجيا بإعتبارها علم يعنى بوصف :"... الخصائص الإنسانية والبيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الأزمان وفي سائر الأمكنة ..." [5]

---

[1] – أحمد بعلبكي ، احمد مفلح و آخرون ، الهوية و قضاياها في الوعي العربي المعاصر، المرجع السابق، ص23.

[2] – الشريف بن محمد الجرجاني ، التعريفات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1995، ص257.

[3] – المسكيني فتحي ، الهوية و الحرية، نحو انوار جديدة ، المرجع السابق ، ص12.

[4] – المرجع نفسه ، ص8.

[5] – فهيم حسين ، قصة الانثربولوجيا د ط ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1986، ص13.

مفهوم الهوية الذاتية والهوية الشخصية بالفحص والتحليل و"... لقد ميز بعض الانثربولوجيين بين هذين المصطلحين ، ووجد هذا الفرق مثلا في أعمال كل من بيسنيرBesnier(1991-1995) و ستريت (1993) إذ تعتبر "ذاتي" Self الماهية التي أشعر أنها تمثلني عاطفيا وانفعاليا في حين "شخص"Person تشير إلى الهوية التي أعكس بالنسبة إلى الآخرين في أدواري المحددة اجتماعيا ..." [1]

إن هذه المقاربة الانثربولوجية للهوية تظهر لنا بشكل جلي أن ثمة تمايز بين ما هو ذاتي في الهوية و ما هو شخصي، فإذا كانت الهوية الذاتية هي تلك الهوية التي نمارسها في خلواتنا من دون أن يطلع عليها أحد، من خلال تلك المجموعة من الانفعالات و العواطف و المشاعر، فإن الهوية الشخصية هي ما نحب أن يرانا عليه الآخرون ، ولعلى تمسك الأقليات بموروثاتها الثقافية وطقوسها الدينية في المجتمعات المستقبلة لها، نموذج من نماذج هذه الهوية.

لقد صاغت الأنثربولوجيا مفاهيم غاية في الاهمية من خلال الأبحاث و الدراسات التي أجرتها على ما يربط بين مختلف الثقافات من اتصال وعلاقات "... منها مفهوم التثاقف الذي شاع استعماله بين العلماء، ومفهوم الاستلاب الذي سبقه والذي ارتبط بتحليل الآثار السلبية العميقة للاستعمار، و على هامش هذين المفهومين كتب عن الهيمنة الثقافية والامبريالية الثقافية والغزو الثقافي وكتب أكثر عن مفهوم الهوية والانتماء والأمة والخصوصية والنسبية الثقافية... "[2]

لكن هل تكفي هذه العدة المفاهيمية في مقاربة تداعيات العولمة التي لقيت انتشارا واسعا في الأدبيات الإنسانية عموما، والعربية على وجه التحديد ؟ أم أن الأمر قد تجاوزه الزمن ونحن الآن في حاجة إلى أدوات جديدة أكثر فعالية وأكثر نجاعة في فهم هذه الظاهرة ومن ثم التعاطي معها فحصا وتحليلا .

[1] – جون جوزيف ،اللغة و الهوية (قومية ، اثنية، دينية) تر : خراقي عبد النور، د ط، دار المعرفة ، الكويت ،2007، ص16.

[2] – عماد عبد الغني ، سوسيولوجيا الهوية (جدليات الوعي و التفكك وإعادة البناء) ، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان، 2017، ص126.

ويعد مفهوم الهيمنة ركن ركين من أركان العولمة، إذ من خلاله تستطيع ثقافة جماعة ما أن تفرض نفسها و تبسط سيادتها على ثقافة جماعة أخرى، وهذا ما يشكل تهديدا لهذه الأخيرة، و تاريخ البشرية حافل بالشهادات التي تكرس هذه الحقيقة، فحيثما حل الغزو والاحتلال حلت معه الهيمنة بجميع تمظهراتها (السياسية والاقتصادية والدينية واللغوية والثقافية) ، ولعل هذه الأخيرة، هي التي تشكل تهديدا حقيقيا ووجوديا للهوية الثقافية لأي جماعة مستقلة تخلت عن تميزها الحضاري و خصوصياتها الثقافية تحت ضغط قهر العولمة (وهو ما يعرف بالاستلاب الحضاري Aliénation)، الذي حول حتى مفهوم المثاقفة acculturation من مفهوم إيجابي – أتت به الأنثربولوجيا الأمريكية بإعتباره "... مجموعة من الظواهر الناتجة عن احتكاك مستمر و مباشر بين مجموعات أفراد تنتمي إلى ثقافات مختلفة، تؤدي إلى تغيرات في الأنماط الثقافية الأولية لهذه المجموعة أو تلك... "[1] – ، إلى مفهوم سلبي كونه سلاحا فتاكا من أسلحة العولمة، يعمل على تفويض وتفكيك الثقافات المحلية والقومية وإعادة بنائها وفقا لرؤى وتصورات القوى المهيمنة، "... هذا التعريف يميز بين المثقافة و التغير الثقافي ، لأن الثقافة شكل من أشكال التغير الثقافي و بالتالي يصبح الفرق واضحا بين المثقافة و التماثل الذي يجب فمهمه على أنه المرحلة النهائية من مراحل المتثاقفة وهي مرحلة تقتضي غياب ثقافة الجماعة غيابا نهائيا، من خلال استبطان تام لثقافة الجماعة المهيمنة ..." [2]

وقد سعى الخطاب الأنثربولوجي في العقود الأخيرة إلى أنسته مقولاته ، من خلال طرح يأخذ في الحسبان هواجس واهتمامات الإنسان المعاصر مهما كان جنسه وحيثما كان، وهذا هو المأمول منه، ف "...إذا كانت الأنثروبولوجيا التقليدية قد ارتبطت بالاستعمار وخدمته، فإن الأنثربولوجية المعاصرة والمستقبلية

[1] – بعلبكي منير، قاموس المورد(انجليزي – عربي) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 1994، ص24

[2] – عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الهوية (جدليات الوعي و التفكك و اعادة البناء) المرجع السابق، ص70.

على حد سواء ، تتبنى المواقف الإنسانية المناهضة للاستعمار والتفرقة العنصرية،كما أنها تدعو للسلام وتأكيد إنسانية الإنسان في كل مكان ... " [1]

3 – مقاربة سيكولوجية سوسيولوجية :

اعتبر عالم النفس ومؤسس مدرسة التحليل النفسي "سقموند فرويد" Segmund Freud الهوية الشخصية بناء ديناميكيا، تتفاعل بداخله قوى الجهاز النفسي الثلاث المعروفة، التي هي في حراك وصراع دائم و مستمر وهي "الهو"ID"،"... الذي يحوز كل ما هو موروث و ما هو موجود منذ الولادة ، و ما هو ثابت في تركيب البدن و هو يحوي الغرائز التي تنبعث من البدن ..."[2] ، و"الأنا" الذي " ... يقوم بمهمة حفظ الذات و هو يقبض على زمام الرغبات الغريزية التي تنبعث عن الهو، فيسمح بإشباع ما يشاء منها، و يكبت ما يرى ضرورة كبته، مراعيا في ذلك مبدأ الواقع ، و يمثل الأنا الحكمة و سلامة العقل، على خلاف الهو الذي يحوي الانفعالات ..."[3] أما القوة الثالثة من قوى الجهاز النفسي فهي "الأنا الأعلى " superego الذي يدعوه العامة بالضمير، وهو ما يحمله و يتعلمه الطفل من والديه ومربيه وشيوخه وقدواته من قيم أخلاقية و مثل عليا، و الشخصية السوية من الناحية النفسية عند " فرويد" هي تلك الشخصية التي تعيش بداخلها هذه القوى الثلاث في وئام وانسجام و توازن تام وفي نفس هذا الاتجاه، لايفصل " إريك إريكسون" Eric Erikson الهوية عن مفهوم الذات الذي يختصر ماهية الفرد بإعتبارها مجموعة المميزات التي يختص بها عن أقرنائه .

وانطلاقا من هذا المعنى، يعتبر "إريكسون" الهوية هي "الأنا الأعلى"Super Ego من حيث كونها حاملة للخصائص الفردية ومستودعا للقيم الأخلاقية والمجتمعية، التي يتلقاها الطفل في البيت والمدرسة والمجتمع .

---

[1] – فهيم حسين ،قصة الانثربولوجيا (فصول في تاريخ علم الانسان) ، المرجع السابق،ص281.

[2] - فرويد سيقموند، الأنا والهو ، تر : نجاتي محمد عثمان ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ، 1982، ص12

[3] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

يعتبر " إميل دور كايم " Emil Durkheim، من جهته،" أن في داخل كل فرد مكونات ومعطيات جمعية تتمثل بالضمير الجمعي، الذي يتشكل من أنساق القيم والأفكار والأحاسيس و العادات والرموز التي تعبر عن شخصية الفرد، و تعبر في الوقت نفسه عن الجماعة التي ينتمي إليها، وهذا الضمير الجمعي هو النواة البانية للهوية الجمعية، ويرى "دور كايم" أن التصورات الجمعية هي أعظم شكل للحياة النفسية..." [1] ، كما "... يرى أن الجماعة تفكر وتسلك وتشعر بشكل مختلف تماما عن أفرادها إذا كانوا متفردين، فالتجمع يؤدي إلى إنتاج الوعي الجمعي والهوية الاجتماعية ..." [2]

إن هذا الوعي الجمعي، وهذه الهوية الاجتماعية تجعل الفرد يشعر بكثير من الانسجام والتوافق مع عناصر الجماعة التي ينتمي إليها، في حين تجده يشعر بشئ من الاختلاف و سوء الفهم مع الافراد الذين ينتمون لهويات اجتماعية مختلفة

فيما يقارب "نوربرت إلياس"* Norbert Elias الهوية من زاوية آخرى إذ "... يعتبر أنه ليس هناك هوية " الأنا " دون هوية النحن ، حيث يرى أنه لا يمكن الفصل بين الفرد و المجتمع ، فلا يوجد مجتمع بلا أفراد، فهما وجهان لبنية واحدة ، كما أن العلاقة بينهما علاقة تأثير و تأثر، بحيث أن المجتمع يمارس تأثيره في تكوين شخصية الفرد ، و لذلك يقترح عبارة " هوية نحن – أنا " لتفسير السيرورة التاريخية أو الحضارية ، و ذلك عن طريق رصد توازن "نحن–أنا " والتقاط تحولاتها في المراحل التاريخية كآفة ..." [3]، وهي مقاربة توفيقية تجميعية، تحاول أن تقف على مواطن الالتقاء و التقاطع و الاتفاق بين ما أقره " إميل دوركايم" من أن الجماعات البشرية الأولى كانت مجردة من أي وعي ذاتي، و ما ذهب إليه " ماكس فيبر " Max Weber: " ... من أن الأنماط الجماعاتية تتأسس على العلاقات الاجتماعية المبنية على الشعور

[1] – عماد عبد الغني، سوسيولوجيا الهوية (جدليات الوعي ، التفكك واعادة البناء)، المرجع السابق، ص45 .

[2] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

* – نوربير إلياسNorbert Elias (1897 – 1990) : كاتب و عالم اجتماع ألماني صاحب االكتاب العلم " على درب الحضارة " ترك العديد من المؤلفات نذكر منها : مجتمع الافراد، منطق الاقصاء، في مفهوم علم الاجتماع...

[3] – عماد عبد الغني، سوسيولوجيا الهوية (جدليات الوعي والتفكك واعادة البناء)، المرجع السابق ، ص49.

الذاتي ... "[1] ، كما تعد التفاعلات الاجتماعية عنصرا هاما من عناصر بناء الهوية الفردية عبر مختلف أطوراها ومراحلها، و لعل أبرزها مرحلة المراهقة ،" ...إن قضية التركيز على الفرد داخل السياق الاجتماعي قضية علم النفس الاجتماعي في المقام الأول، و من منطلق هذا التوجه، هدف علماء النفس الأوروبيون إلى تحقيق توجه مختلف و متميز ، و ذلك عن طريق التركيز على الفرد داخل الجماعة، و من ثم يمثل السياق بوصفه " الكل " أهمية كبيرة نسبيا في " الجزء" الذي يعني هنا سلوك الفرد..."[2]

إن الهوية وفقا لهذا التصور السيكولوجي السوسيولوجي، هي ذلك الوعي الذي يتكون لدى الذات عن نفسها، و عن كل ما يحيط بها في المجتمع، إنها مجال يتقاسمه النفسي و الاجتماعي أو الفردي و الجماعي. .

4 – مقاربة جندرية أنثوية :

تربع مفهوم الهوية على مكانة جوهرية في متواليات السرد النسوي، سواء تعلق الأمر بالتجربة التي تحملها العوامل السردية التي تحيل إلى الواقع الذي تعيشه المرأة في المجتمع بمختلف تمظهراته – هذا الواقع الذي طبعته الهيمنة الإبستمولوجية والتاريخية وكذا النظرة المجتمعية الدونية، بالإضافة إلى انتشار الصور النمطية السلبية حول هذا المخلوق –، أو تعلق الأمر بالتخييل الروائي الذي يبحث بإستمرار عن هوية من نوع آخر، تكون متحررة من كل قيود أنماط التمثيل الذكورية المهيمنة، التي جعلت من الأنثى ذات وضيعة، خاضعة لسلطة الذكر الذي تبوأ منزلة السيادة و الريادة ، جعلته يمتلك حتى حق تشكيل حياة المرأة نفسها، وما يستتبع ذلك من قهر وكبت، إنه الواقع المر الذي عاشته المرأة عبر حضارات مختلفة، وعصور متتالية، واقع شكك في إنسانية المرأة، واصفا إياها بأبشع وأقبح الصفات والنعوت، إنها خلاصة نظرة الثقافات القديمة من خلال ما تجلى في كتابات الكثير من فلاسفتها ومفكريها ، على غرار سقراط

[1] – عماد عبد الغني، سوسيولوجيا الهوية (جدليات الوعي والتفكك واعادة البناء)، المرجع السابق، ص47.

[2] – زايد احمد ، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات ، قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات ، عالم المعرفة ، 326الكويت ،أفريل 2006، ص1 -

وأفلاطون وأرسطو وبعض الديانات كالمسيحية واليهودية والبوذية "...وإذا ما ألقينا نظرة على هذا الإستعراض التاريخي ، ظهرت لنا عدة نتائج ، أولها أن تاريخ النساء كان من صنع الرجال ، لذلك كانت مسألة المرأة دائما مسألة رجال، فهم الذين أمسكوا دائما بمصير المرأة بين أيدهم، ولم يقرروا فيه تبعا لمصلحتها، بل أخذوا بعين الاعتبار أهدا فهم الخاصة ومخاوفهم وحاجاتهم..." [1]

إن الرؤية الأنثوية للذات و للعالم، إنما تبلورت من خلال الفعل المقاوم للكتابة الذي لجأت إليه المرأة، و الذي بدأ بالسعي لتقويض العقلية البطريركية التي كرست فكرة التابع Le subalterne، التي عطلت بدورها بروز الوعي الأنثوي لأن "...من وجهة نظر الأدب النسوي ، لا يمكن أن تنبثق هوية أنثوية إلا بعد تفكيك السلطة الذكورية، ولهذا تفضح الرواية النسوية الاستبداد و العنف اللذين تمارسهما ثقافة الذكور بحق الإناث..."[2] . إن تثبيت الهوية الأنثوية لن يتحقق إلا من خلال نسف تلك البنية التاريخية الناظمة للعلاقة بين الرجل و المرأة، التي لطالما حرص الرجل من أجل الهيمنة عليها.

إن المنطق الذكوري المتعالي ونظرته الاستعلائية للمرأة، هو من شكل لها هذه الهوية النمطية، هوية موسومة بالخضوع والضعف والسلبية في مقابل هوية ذكورية مهيمنة ، قوية وايجابية ، وقد سعت بعض التيارات الفكرية والأدبية النسوية إلى تكريس هوية أنثوية حقيقية، بعيدة كل البعد عن تلك الصورة التي رسمها لها الأنا الذكوري ، إنها هوية تنهض على فكرة نقد التحيز والتمييز على الأساس البيولوجي ، وحصره في الادوار والوظائف الاجتماعية فقط، ومن هنا "...كانت النظريات النسوية الخاصة بالتحليل النفسي، ترى أسباب عدم التماثل بين الجنسين في العمليات الأسرية الجنسية النفسانية، التي تشكل العقليات الإنسانية الفردية، و تولي النظريات النسوية المادية مزيدا من الاهتمام للطرق التي ترسخ مساهمة الظروف الاقتصادية والاجتماعية في عدم المساواة بين الجنسين، وتقيم المنظرات الملونات * في النظرية النسوية نظريتهن، على

---

[1] – ديبوفوار سيمون ، الجنس الاخر، المرجع السابق، ص64– 65

[2] – ابراهيم عبد الله ، المجاورات السردية ، ط1، منشورات الاختلاف ، الجزائر ،2011، ص 138

* – " الملونات " Les femmes de couleur : غالبا من يقصد بذلك السود أو غير البيض في المجتمعات الغربية

أساس افتراض أن المرء لا يمكن أن يفهم حياة المرأة بدون فهم دور العنصر/ العرق في تشكيل تجربتها ..." [1]

حاولت هذه التنظيرات أن تؤسس رؤية نسوية للمرأة أولا، ومن ثمَّ لرؤيتها للعالم بعيدا عن التاثيرات الخارجية، إنها معركة اثبات الوجود و تكريس القطيعة مع الهيمنة الذكورية، والاضطهاد الجنسي والتبعية للرجل، وقد نشأت تبعا لذلك حركات نسوية عديدة، هدفت لتحرير المرأة، ودعوتها لتقرير مصيرها بنفسها لا بالوكالة، وقد سعت هذه الحركة النسوية جاهدة إلى "... إعادة تنظيم العالم على أساس المساواة بين الجنسين (ذكر ، أنثى) في جميع العلاقات الإنسانية، إنها حركة ترفض كل تمييز بين الأفراد على أساس الجنس، وتلغي جميع الامتيازات والأعباء الجنسية، وتسعى جاهدة لإقامة اعتراف الإنسانية المشتركة للمرأة الرجل بإعتبارها أساس القانون والعرف... "[2]

ساهمت الحركة النسوية من خلال ثورتها ومقاومتها لكل اشكال الهيمنة و التبعية إلى حد كبير فيما يمكن وصفة بعملية " التأنيث" التي طالت مجالات عدة في المجتمع: الكتابة ، التاريخ، الثقافة، الفن ... والذي تجلى في الانتقال من المطالبة بالحق في المساواة بين الرجل والمرأة، إلى المطالبة بالحق في الاختلاف و التباين ، وهي دعوة ضمنية للاعتراف بالهوية الأنثوية من خلال القيم التي تحملها المراة ، هاته القيم التي كرست هويتها، بعد أن كانت في وقت غير بعيد عاملا من عوامل اقصائها و تهميشها لا بل واحتقارها.

إن الحديث عن مسألة تأنيث الكتابة يقودنا حتما الى التطرق الى إبداعات واحدة من ألمع الروائيات المغاربيات، اللواتي اشتغلن على هاته التيمة، فصارت هذه الأخيرة لصيقة بجل أعمالها، إنها الروائية الجزائرية "آسيا جبار " التي وطأت موطأ صعبا، وتحملت أعباء ثقيلة، بالرغم من أنها لم تكن منخرطة في

[1] – ويندي كيه كولمار وفرانسيس بارتكوفيسكي، النظرية النسوية (مقتطفات مختارة)،تر : عماد ابراهيم ، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ،2010، ص12.

[2] – المرجع نفسه، ص18.

توجهات هذه الحركة النسوية، بل كان هدفها الأساس من هذا النضال، هو تحرير المرأة الجزائرية بشكل خاص، وهونضال من أجل تثبيت القيم الإنسانية ذات الصلة بموضوع المرأة.

لقد سعت إلى قراءة الواقع والتاريخ من منظور أنثوي، محاولة كشف عورات الكتابات الذكورية المتحيزة، وما شابها من تحريف وتزييف وتحامل على المرأة .

إن تقويم هذا الخلل التاريخي لن يتأتى من خلال ردات الفعل السردية العنيفة تجاه كل ما يكتبه الرجل عن المرأة، ومن خلال تبني بعض الافكار والايديولوجيات المتطرفة، التي تحارب الدين والعقل والفطرة، حتى وصل الأمر بالبعض منها – بدعوى إثبات حرية الذات الأنثوية – إلى الدعوة الى المثلية الجنسية، وهي سلوكيات منافية للفطرة الانسانية السوية، ناهيك عن القيم الدينية.

ولن يتم إعادة الاعتبار لما تكتبه المرأة و تثمينه ، إلا من خلال مبادرة الرجل الى التقرب أكثر من المرأة ومحاولة فهم ما تكتبه في إطار عملية حوارية تفاعلية "... ولعل إنتباه الرجال إلى القيمة الإنسانية المتنامية لدور المرأة بما فيها الأدب الذي تكتبه ، وتحفف الأدب النسوي من نزاعات الغلو التي دشنها النقد السنوي والحركات النسوية الراديكالية، سينتهي بالجميع إلى مزج الرؤى وتنوع المنظورات وتفاعل التصورات، بما يتيح للرؤية الأنثوية أن تسهم بطريقة فاعلة في ظهور تعبير أدبي فيه ثراء خصب من التنوع الإنساني الشامل..."[1]

يمكن أن تصبح العلاقة بين ما يكتبه الرجل وما تكتبه المرأة علاقة هوسية، إن لم يعمد كلاهما إلى فهم الآخر، والسعي إلى تجاوز سوء الفهم هذا، ومن ثمة بناء علاقات جديدة قوامها التفاهم والحوار والشراكة، ينزل فيها الرجل من برجه العاجي الذي لطالما ساهم في إنتاج تلك النظرية الفوقية الاستعلائية للمرأة، وينظر إلى ما تكتبه بعين فاحصة وناقدة وندية، لا عين مستصغرة ومزدرية وأبوية، ولا تعود المرأة خائفة

[1] – ابراهيم عبد الله ، موسوعة السرد العربي، المرجع السابق ، ص12.

ومتوجسة من النظرة الذكورية التي نعتتها لردح طويل من الزمن بالقاصر والتابع، إن هذا النوع من الرؤية التشاركية، من شأنه أن يصحح إتجاه البوصلة، ويضع المرأة في المكانة الجديرة بها.

المبحث الثاني : إشكالية اللغة و الهوية :

1 – اللغة تكريس لمفهوم الهوية :

عمد الباحثون في مجال علوم اللغة إلى الاعتقاد بأن اللغة هي نظام من العلامات (الصوتية، المكتوبة أو الإشارية) ، له وظيفة جوهرية هي إتاحة الاتصال بين البشر، وهي إلى جانب هذا التعريف الوظيفي الشائع تحمل دلالات متنوعة ،"... فهي على مستوى الماضي الذاكرة الجماعية للأمة، والحافظة لخلاصة تجربتها في التاريخ ... و هي على مستوى الحاضر خير معبر عن الهوية القومية لهذه الأمة، وما انتهى إليه من درجات النضج والنمو... وهي على مستوى المستقبل طريق وحيدة لكل نمو داخلي عضوي يمكن أن يستفيد من كافة التجارب الإنسانية من دون أن يركن إلى التواكل والبحث عن الحلول الجاهزة... " [1]

ليست اللغة إذا مجرد قالب نضع فيه خواطرنا وأفكارنا، أو وعاء لمكنوناتنا، بل إن لها حمولة فكرية وثقافية لا يمكن نكرانها، والعلاقة بينهما علاقة متشعبة ومتداخلة ومتبادلة، فاللغة هي مادة التفكير، ولا يمكن لهذه العملية الذهنية المجردة أن تتم إلا من خلالها، كما أن هذه الأخيرة لا يمكن أن تنمو و تتطور إلا من خلال التفكير وعملياته العقلية والمعرفية، "... و إن هذا جعلنا نقول إن اللغة بالنسبة إلى الفكر هي االلحظة الأنطولوجية التي ينكشف بها على وجوده الفعلي المحسوس و يباشره، كما أنه لو خلت اللغة من الفكر لأستحالت إلى أصوات لا تقول شيئا و لا تعني شيئا ..."[2]

إن هذه الحمولة الفكرية والثقافية للغة هي اعقد من مجرد علاقة دال بمدلول أو شكل بمحتوى "... ذلك أن اللغة تحمل في طياتها الفكر نفسه، لأنها تستمد وجودها ودلالاتها من أعمال الإنسان، فكره وأماله وآلامة

[1] - بعلبكي أحمد وآخرون ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر ، المرجع السابق، ص268

[2] - منذر عياشي، الكتابة الثانية و فاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998،ص77.

وتحرك الحياة بين يديه، وتشحن هذا الوجود وهذه الدلالات عن مسيرة الفكر التاريخية والحاضرة ..."[1] إنها تعبير عن الارتباط بالجماعة قيميا و وجدانيا والانتماء إليها "... وهي بهذا المعنى مرآة عاكسة للهوية الاجتماعية ومقوم أساسي ضامن لوحدتها واستمرارها، ومن هنا نشأت فكرة أن كل جماعة بشرية تنتمي، إن واقعيا أو افتراصيا إلى تراث ثقافي مميز، ينتقل إلى أجيال الجماعة عبر اللغة، كما يتوراثه جميع أفرادها بإعتباره هبة فطرية من لغتهم الخالدة ..." [2]

إن علاقة التأثير والتأثر بين اللغة والهوية علاقة متداخلة ومتشابكة، وإن الصلة بينها وثيقة " ...كما بين ذلك " بنيدكت آندرسون "، وإن كان الجدل قائما حول طريقة تبادل التأثير، يقول جوزيف: المشكل لا يكمن في أن ارتباط الهوية باللغة ذاته قد حظي بأهمية بالغة ، بل إنه يكمن في التعامل مع طريق ذات اتجاهين كما لوكانت طريقا واحدة، إن " أندرسون " سخر كل اهتمامه لمعالجة الكيفية التي بها يجري تشكيل اللغات القومية للهويات القومية ، ولم يهتم قط بكيف تشكل الهويات القومية اللغات القومية، وهو ما تقوم به في الواقع بشكل عميق...".[3]

إن اللغة عامل أساسي من عوامل تشكل أي هوية، فاللغة هوية أما الهوية فهي ليست بلغة، بناء على أن للهوية مكونات كثيرة ومتعددة، واللغة ليست إلا واحدا منها، والعلاقة بينهما هي علاقة الجزء بالكل، فالهوية أشمل من اللغة لأنها تتضمنها وتحتويها "... وعلى الرغم من رسوخ فكرة أن اللغة مرآة للهوية – نحرص في مقاربتنا على عدم الخلط بين الهوية اللغوية والهوية الخطابية، وسندنا في ذلك نتائج دراسات لغوية حديثة ، بخاصة في مجال علم اللغة الاجتماعي sociolinguistics ..."[4] إنه ميدان يبحث قي الكيفيات التي تتفاعل بها اللغة مع المجتمع، وهو مجال بحث حديث العهد نسبيا (ستينيات القرن الماضي)

[1] – بعلبكي أحمد وآخرون ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، المرجع السابق ، ص268

[2] - بعلبكي رمزي وآخرون، اللغة و الهوية في الوطن العربي،ط1، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، لبنان، 2013،ص 232. بلكا إلياس و حراز محمد، إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي، ، ط1، مركز الامارات للدراسات والبحوث

[3] - الاستراتيجية، أبو ظبي2014، ص23

[4]- بلعبكي رمزي وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العربي، المرجع السابق، ص 231

وكذا تحليل العلاقة القائمة بين اللغة والممارسات الاجتماعية ، على عكس اللسانيات السوسيرية التي تدرس اللغة في ذاتها ولذاتها "... وهكذا فإن المنظومة اللغوية هي بمنزلة بيت الكائن البشري ، فيها ينظم أمور معاشه، ويخزن رموزه وثرواته ، إنها تؤويه وتحفظ أسراره ، ومن مشكاتها يرى العالم ويدركه، وهذا ما حدا بالأديب الفرنسي "ألبير كامو" إلى أن يقول " نعم لي وطن ، إنه اللغة الفرنسية ..." [1]، ولأن اللغة هي معبرنا للآخر ووسيلتنا للتواصل معه ، فقد جاء الرد سريعا على هذه المقولة من ابن بار من أبناء هذا الوطن ، وأحد رموز الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ، إنه "مالك حداد" الذي قال بأن اللغة الفرنسية هي منفاي، وفي هذا جرأة أدبية كبيرة وتضحية بالمكاسب المادية الضيقة، والتزام بموقف تجاه قضية الهوية الوطنية التي تعتبر اللغة فيها العنوان الرئيس ،"... إن اللغة في العالم أداة للهوية الإنسانية، لا يمكن الاستغناء عنها من أجل مواجهة متطلبات الثقافة المحلية والمحافظة على السلوك الاجتماعي، وجعله يؤدي وظائفه تحت مختلف الظروف الاجتماعية..." [2]

2 – اللغة رمز للإنتماء :

إن توظيف أي منا للغته هو تحديد لموقعه داخل المجتمع، أو رمز لانتمائه للجماعة التي تستخدم هذه اللغة، إنه ارتباط وثيق لا تنفصم عراه ، إنه عبارة عن علاقة روحية بين الفرد والمجموعة اللغوية التي يتكلم لغتها وينهل من مرجعياتها التاريخية والثقافية والفكرية. وإذا كان الإنتماء هو تلك "... النزعة التي تدفع الفرد للدخول في إطار اجتماعي فكري معين ..."[3] فهذا يعني استشعار هذا الأخير لإرتباطه بالمجتمع الذي ينتمي إليه مهما كانت طبيعة هذا الارتباط (فكرية ، أدبية ، دينية ، سياسية ...). إن لغة الأمة هي رمز لانتمائها وتكريس لهويتها وتجل لحضارتها ونهضتها وخزان لثقافتها وتراثها وحافظ لتاريخها وأمجادها، فإذا أضاعت الأمة لغتها، تكون قد أضاعت ماضيها وحاضرها، لا بل ومستقبلها .

---

[1] - بلكا الياس وحراز محمد ،اشكالية الهوية و التعدد اللغوي في االمغرب العربي، المغرب أنموذجا ، المرجع السابق ، ص 22

[2] - السيد محمود ، اللغة العربية وتحديات العصر ، وزارة الثقافة ، سوريا ، 2008، ص178

[3] - راتب نجلاء عبد الحميد، الإنتماء الاجتماعي للشباب المصري ، دراسة سوسيولوجية في حقبة الانفتاح ، مركز المحروسة للنشر ، القاهرة ، مصر 1999، ص57

لقد بات العامل اللغوي – كإرث اجتماعي لأي جماعة إنسانية – أهم عامل من العوامل التي تتشكل منها المنظومة القيمية للانتماء الحضاري لهذه الجماعة، من خلال تمتينه للحمتها، وعكسه لإنتمائها، وتحقيقه لهويتها "... فالانتماء يؤكد حضور مجموعة متكاملة من الأفكار والقيم والأعراف والتقاليد التي تتغلغل في أعماق الفرد، فيحيا بها وتحيا به، حتى تتحول إلى وجود غير محسوس ، كأنه الهواء يتنفسه وهو لا يراه ، ويشكل الانتماء جذر الهوية الاجتماعية وعصب الكينونة الاجتماعية ..."[1]

وقد كشفت الدراسات والأبحاث في مجال علم النفس الاجتماعي "...عن أهمية الخبرات المكتسبة ، حيث يولد الفرد ليجد نفسه محاطا بأفراد ... يشكلون المصدر الأولى لخبراته، ومع تقدمه بالعمر، يتسع هذا المجتمع من حوله من خلال تعاملات تعود عليه بالمنفعة ...، ما يقوده إلى الاستقرار النفسي وبالأخص عندما يتكيف معهم في مواقف متنوعة ، فعندما يلقى تصرفه استحسان الجماعة يكسبه ذلك خبرة تجعله يكرر تصرفه هذا ويطوره بما يعزز انتماءه تكيفه مع هذه الجماعة، وإلا فإنه يتخلى عنه ..." [2]وهذا ما عبر عنه عالم الاجتماع الفرنسي " بيير بورديو" Bourdieu Pierre من خلال مفهوم "الهابتوس" habitus[3] الذي يساعد على التمييز بين مختلف الطبقات والتكتلات الاجتماعية فـ " ... هو يفسر لماذا يتصرف – غالبا– أعضاء ينتمون إلى نفس الطبقة أو الجماعة نفسها بشكل متشابه من دون الحاجة إلى التشاور فيما بينهم ، ..." [4] ولعل الممارسة اللغوية لهؤلاء الأفراد هي أحد عناصر انتمائهم الاجتماعي، فهي التي تسمح لهم بأن يتماهوا مع المجتمع الذي يعشيون فيه، ويتفاعلون بداخله ، وهي أيضا الركيزة القوية لبقاء الأمة والضامن لوحدتها والدافع لديمومتها .

3 – إشكالية التعدد اللغوي :

[1] – بعلبكي أحمد وآخرون ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر ، المرجع السابق ، ص153/154

[2] – عماد عبد الغني ،سوسيولوجيا الهوية : جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء ، المرجع السابق ، ص133

[3] – الهابتوس هو مجموعة من الاستعدادات وصور السلوك التي يكتسبها الفرد من خلال التفاعل مع المجتمع

[4] – عماد عبد الغني ،سوسيولوجيا الهوية : جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء ، المرجع السابق ، ص133

لم تعد اللغة هي تلك المجموعة من الرموز والعلامات التي يستطيع الإنسان بواسطتها التواصل مع غيره فحسب ، بل أضحت وعاء حاملا لقيم هذا الإنسان وفكره وهويته، ومستودعا حافظا لمعرفته وتراثه وتاريخه، وقد ساهمت الطفرة التكنولوجية والعلمية التي شهدها عالمنا اليوم، في احتكاك اللغات فيما بينها، الشيء الذي ساهم بشكل كبير في نشوء صراعات حادة بين تلك اللغات .

وكتداعيات لهاته الصراعات، وانفتاح المجتمعات على بعضها البعض، سيطرت لغات الأقوياء، فيما هرع الضعفاء إلى تعلم تلك اللغات متماهين في ذلك مع الفكرة الخلدونية القائلة بولع المغلوب بتقليد الغالب، ومن هنا تكرست ظاهرة التعدد اللغوي ، بالإضافة الى عوامل أخرى ساهمت بدورها في بروز هذه الظاهرة وتفشيها في المجتمعات (الاستعمار ، الهجرات ، العامل الاقتصادي ، الاجتماعي...)

إن احتكاك لغات أخرى مع اللغة الأم من جهة، وبروز لهجات محلية مصدرها اللغة الأم نفسها، ذكى الصراع اللغوي وأشكل اللغة "...لذا صار هذا التعدد مشكلة لا ميزة، يقول الشدادي :" عندما يتكلم بعض الناس عن التعددية اللغوية عندنا كحظ سعيد وعنصر ايجابي في ذاته ، فذلك ليس بصحيح، لأنه في الواقع يبرهن عن وضع لغوي فوضوي سلبي..." [1]

ويذهب عبد العزيز العاشوري * من جهته في نفس هذا الإتجاه بقوله :"... لقد أكدت التجربة في عدد من البلدان العربية أن اعتماد لغة أجنبية بصفة رئيسية في بعض مجالات الفكر والمعرفة، لم يفض بصفة آلية إلى قبول الأفكار الجديدة التي تحملها هذه اللغة الأجنبية أو تلك، بل إن أفكارا كثيرة من هذا القبيل قد رفضت، وربما انتبذت على أنها أفكار مستوردة ..." [1]

إن اللغة، أي لغة، إنما تحيا وتعيش بإستخدامها وتوظيفها في شتى مناحي الحياة، فقيمة اللغة من قيمة المجتمع الذي يتبناها، فإن كان هذا المجتمع معتدا بنفسه واثقا بها، فإن لغته ستنمو وتتطور حتما، وتفرض

---

[1]– بلكا إلياس ومحمد حراز ، إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المعرب العربي ، المغرب الأقصى انموذجا ، المرجع السابق، ص131.

*باحث تونسي.

[1] – أحمد بعلبكي ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر،المرجع السابق، ص28

نفسها، أما وإن كان المجتمع ضعيفا ومغلوبا على أمره، تكسوه مركبات النقص من قبيل عجز لغته عن مواكبة روح العصر، فإن مصير هذه اللغة سيكون حتما الضعف والوهن والضمور، فيما يرى فريق آخر أن الانفتاح على لغة الآخر أمر لا مناص منه، لما في ذلك من إثراء واغناء للغة الأم من جهة، ومواكبة العصر ومتغيراته ومستجداته من جهة أخرى.

إن التعددية اللغوية مسألة قائمة لا يمكن نكرانها ، فإما أن نتعامل معها ونستفيد منها ونجني ثمارها، وليكن ذلك بحذر شديد من خلال مراقبة حمولتها الثقافية والإيديولوجية، وإما أن ننغلق على أنفسنا ونرفض هذه التعددية بدعوى حماية اللغة الوطنية، والخوف عليها من الذوبان في اللغات الأخرى، وفي هذه الحالة سيكون مصير اللغة الأم الانطواء والضمور والانكماش، وما ينجر عن ذلك من تراجع عن الانتاجات العلمية والأدبية، وضرب للهوية في الصميم.

إن سر بقاء اللغات وتفوقها إنما يرجع إلى قدرتها على مسايرة مختلف التحولات التي يشهدها العالم، ومواكبة التطورات مع المحافظة على خصوصياتها ومرجعياتها، وهنا يقع دور مهم للغاية على عاتق محبي هذه اللغات ومريديها، من أجل صونها والارتقاء بها، وذلك من خلال جملة من المسائل الإجرائية التي تبدأ من البيت ثم المؤسسات التعليمية بمختلف أطوارها ثم الحياه العامة بكل مجالاتها، الاقتصادية والاعلامية والاجتماعية وغيرها ...

إن فكرة استعداء العامية أو اللغات الأجنبية التي كثيرا ما يطلق لها العنان المتحمسون للاستعمال الحصري للغة الوطنية، ليست فكرة نابعة عن دراسة علمية متأنية، ولا عن فحص موضوعي دقيق، إنها فكرة كثيرا ما يكون الدافع إليها غرائزي وعاطفي صرف، كما أن الدعوة إلى إيلاء الأهمية القصوى إلى اللغة الأجنبية دونما قيد أو شرط، يجعلها تبسط نفوذها شيئا فشيئا على قطاعات عامة في المجتمع والدولة، إلى أن تصير هي السيدة التي لا يرد لها طلب.

إن التعاطي الواقعي والعلمي مع هذه الظاهرة، يدعونا الى اعتماد النظرة الوسطية التي تعطي اللغة الأم مكانتها الطبيعية في المجتمع والدولة كلغة أساسية في التعاملات الرسمية وغير الرسمية، كما تعطي اللغة الأجنبية دورها المنوط بها، من خلال اعتبارها نافذة للتواصل مع الآخر، وأداة للولوج إلى عوالم المعرفة المتغيرة بإستمرار " ... فالتعددية اللغوية إن برزت بصورة طبيعية نابعة من متطلبات المجتمع المتطلع إلى المعرفة الإنسانية هي ظاهرة صحية ، وأما إن سلك التعدد اللغوي مسلكا إيديولوجيا سياسيا تحت أقنعة مختلفة، ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب، فذلك هو المسخ الثقافي والحضاري والاستدمار في شكله الجديد...." [1]

إن ظاهرة التعدد اللغوي بجميع تمظهراته، أكان ازدواجية لغوبة أو ثنائية لغوية*ظاهرة صحية في حياة المجتمعات " ... فوجود لغة بدون مستويات[2]ولهجات هو حلم ليس له وجود على أرض الواقع، فمن القواعد المقررة عند علماء اللغة، أنه يستحيل على مجموعة بشرية تعيش في مساحة أرضية شاسعة أن تصطنع في حديثها اليومي لغة موحدة تخلو من اختلاف صوتي أو دلالي، أو اختلاف في البنية والتراكيب ، إن هذه القضية ليست في حاجة إلى برهنة ..."[3].

كانت التعددية اللغوية ولا تزال وستبقى سنة كونية وحاجة ثقافية واجتماعية وتاريخية، وعامل محفز على النهوض الحضاري، وبناء عليه، يصبح التسليم بالاختلاف بين البشر وكذا تباين أرائهم ومعتقداتهم وانتماءاتهم الآيديولوجية أمرا حتميا .

[1] – ديدوح عمر ، الصراع اللغوي في الجزائر . تأزيم الهوية، www.almarefh.net– 15/08/2018 10س– 01د.

[2] – مستويات اللغة : فصحى التراث (أعلى مستوى) فصحى العصر (عامية المثقفين) ، عامية المتنورين ، عامية الأميين

[3] – كمال محمود الاخناوي، ما موقع اللغة العربية من الإعراب، دار صفصافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر، 2016، ص81

إن قراءة النصوص (خاصة الأدبية منها) بلغاتها الأصلية من دون واسطة، سيسهم بلا شك في فهمها فهما جيدا وعميقا، ومن ثم الولوج إلى خباياها وإدراك كنهها والاستمتاع بجماليتها، لكن يمكن لظاهرة التعدد اللغوي هذه أن تصير مشكلة إذا ما وقع اختلال في طبيعة العلاقة بين اللغة الفصحى والعامية في حالة الازدواج اللغوي ، وبين اللغة الوطنية واللغات الأجنبية في حالة التعددية اللغوية.

لقد أضحت إشكالية التعددية اللغوية مسألة كونية بفعل عولمة الاتصال ، الشيء الذي جعل العديد من الدول تنحو بإتجاه سياسات لغوية تتبنى فكرة التعدد اللغوي، بالنظر إلى ايجابياته المتعددة، شرط التحكم فيه بشكل جيد، وتوجيهه التوجيه الحسن، بإفراغه من حمولته الإيديولوجية والثقافية، وعندئذ يمكن الاستفادة من هذه الظاهرة دون خوف، على أن تضطلع بهذه المهمة مؤسسات علمية متخصصة، لأن العمل الفردي في هذه القضايا لا يجدي نفعا.

4 – اللغة الفرنسية في الجزائر : غنيمة حرب أم استلاب هوية ؟

جاء في كلام العرب أن " الغرم بالغنم" وهي قاعدة فقهية تعني أن على الشخص المنتفع بشيء ما أن يتحمل ضرره، فالغنيمة لا تعني الربح والفائدة فقط، وإنما قد يستتبع ذلك ضرر وخسارة وهو الوجه الآخر لهذه الكلمة .

شاعت في الدوائر الأدبية الجزائرية مقولة الروائي والمسرحي كاتب ياسين " اللغة الفرنسية غنيمة حرب " حتى أصبحت تردد على أفواه عدد كبير من المفكرين والمثقفين، معتقدين في المعنى الظاهر لمعنى الغنيمة، وهو الظفر بالشيء دون عناء أو ضرر " ... ومن ثم يجوز القول أن المغاربيين الفرنكو فونيين المتحمسين لفكرة اللغة الفرنسية " غنيمة حرب " قد تشابه الأمر عندهم بين المعنى اللغوي والاجتماعي لكلمة " غنيمة "، وبعبارة أخرى فإنهم قوم أغراهم ظاهر المعنى المجرد للفظ الغنيمة في اللغتين العربية والفرنسية Le butin، فجاءت نظرتهم ضيقة إزاء إدراك واقع الأمور بموضوعية، و من ثم اتسم تصورهم بالتفاؤل نحو اللغة الفرنسية كغنيمة حرب يجب عدم التردد في أخذها والمحافظة عليها والتحمس لها ..."[1]، لقد ثبت بشكل لا مجال فيه للشك، بأن فهم هذه النخب الفرنكوفونية لهذه المقولة فهم سطحي قاصر، أضحى فيه الفرنكوفوني مجرد رقم إضافي في هذا الفضاء الفرنكوفوني، أو قد تكون هناك نية مبيتة لضرب اللغة العربية.

كان من الممكن لهذه المقولة أن تجد لها صدى عند السواد الأعظم من الجزائريين فيما لو حاول المنتصرون لها توظيف هذا الإرث اللغوي من خلال نقل وترجمة ما كتب بها إلى اللغة العربية، كما فعل ذلك الكثير من المشارقة والشوام منهم تحديدا ، ويكفي هؤلاء شرفا أنهم السباقون في هذا المجال، بل وترجموا حتى تلك الأعمال التي أبدعها جزائريون بلغة " موليير "، وليس أدل على ذلك من تلك الترجمة الرائعة لثلاثية الجزائر "لمحمد ذيب" من قبل "سامي الدروبي" ، في حين كان الجزائريون هم الأجدر بالمبادرة إلى هذا الفعل بحكم تمكنهم من ناصية اللغة العربية و الفرنسية من جهة، واطلاعهم على الثقافة الفرنسية من جهة أخرى.

جاءت إذا مقولة " كاتب ياسين" هذه على أن اللغة الفرنسية من المكتسبات المجانية للمجتمع الجزائري حصل عليها دونما عناء أو تعب، وأن لا ضرر من تبنيها ، في حين أن الواقع اللغوي يكذب ذلك بالمطلق

[1] – أحمد بعلبكي واخرون ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر ، المرجع السابق ، ص334.

فقد تربعت هذه اللغة على وسائل الاتصال الرسمية وغير الرسمية، كما بسطت نفوذها في مجالات الحياة المختلفة من اقتصاد وسياسة وثقافة ومعاملات يومية، وذلك على حساب اللغات الوطنية والرسمية " ... فنحن نرى في المقابل أن قول العرب " الغنم بالغرم " قول حكيم يتصف بالعمق في الفهم والإدراك لطبيعة الأشياء في الميدان، إذن فمضمون هذا القول نجده صالحا لتحليل معالم الغرم (أي المعالم السلبية) المصاحبة للغنمية " الغنم غرم"، وبعابرة أخرى نود الكشف هنا عن معالم الخسارة والضرر للغات الوطنية .. بعد مجيء اللغات الأجنبية الدخيلة إلى المجتمعات البشرية..."[1] ، وهو نفس الوضع اللغوي تقريبا الذي عرفته الحالة المغربية بعد أن عمد الفرنسيون المتواجدون هناك بحكم القوة إلى محاربة الهوية المغربية بكل مكوناتها ف".. طريقة إدماج اللغة الفرنسية في التعليم بعد الإستقلال والدعم السياسي الذي لاقتة من طرف بعض عناصر " جيل الاحتلال الذي كان يدافع على الفرنسية من منطلق عقلاني ممزوج بنوع من الإعجاب بالآخر، أدى إلى امبريالية وظيفية من طرف اللغة الفرنسية ، بحيث حافظت على وظائفها التي كانت لها في دولة الحماية ، مع تعديلات طفيفة ، وبخاصة في مجالات الإدارة و التعليم التعالي والاقتصاد والمالية ...، وأعادت بناء شرعيتها الحضارية، بحيث لم تعد في نظر كثيرين إرثا استعماريا وجب التخلص منه ..."[2]

سبقت الإشارة إلى أن التعددية يمكن أن تلعب دورا ايجابيا في حياة الأفراد إذا ما تم توظيفها بشكل سليم ومدروس، فضلا عن أنها ستفرض نفسها عنوة على الشعوب والأفراد بفرط ضغط العولمة الشديد، إن لم يستطع هؤلاء استيعابها وتوجيهها الوجهة الصحية، بعدم التهاون في متابعتها ومرافقتها ومراقبتها وظيفيا، حتى لا تتعدى الحدود التي من أجلها سمح لها بالعبور، حفاظا على هوية الأمة الثقافية وتكريسا لتميزها

[1] – أحمد بعلبكي واخرون ، الهوية وقطباياها في الوعي العربي المعاصر ، المرجع السابق ، ص335.

[2] – رمزي منير بعلبكي و آخرون، اللغة و الهوية في الوطن العربي (اشكاليات تاريخية و ثقافية و سياسية)، ط1، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، بيروت، لبنان، 2013،ص114.

وخصوصيتها، الشيء الذي يسمح لها بمواجهة كل قوى الهيمنة المضمرة في المفاهيم المعاصرة من قبيل العولمة والتعددية اللغوية .

لكن واقع اللغة الفرنسية في الجزائر يقر بغير ذلك تماما، فقد احتلت هذه الأخيرة وتحتل مكانة السيادة والريادة، وتربعت على عرش التواصل الرسمي وغير الرسمي في جل مجالات الحياة في الجزائر، فإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية في تاريخنا المعاصر تتوسل الاقتصاد والإعلام والسياسة للتمكين للغة الإنجليزية، فإن فرنسا، المحتل السابق، جعلت من اللغة هي المعبر إلى الاقتصاد والسياسة وغيرهما .

إن سعي الكثيرين اليوم من أبناء جلدتنا لتوظيف اللغة الفرنسية في الحياة اليومية، وفي أصعدة متعددة، لا يعدو أن يكون في تقديرنا سوى سلوكا انهزاميا، واستلابا حضاريا، ومعول هدم للهوية الوطنية، التي تعتبر اللغة فيها ركنا ركينا، ومن دونها لا يمكن لهذا الصرح أن يقوم وأن يصنع لنفسه مجدا، وواهم من يعتقد بأن التمكن من ناصية لغة ما يعطي الحق في امتلاكها أو الانتساب إليها، وفي هذا المعنى يقول الباحث الفرنسي "هوق سان فور "Hugues Saint – Fort :

«... En fait, les ex-colonisés se trompent lourdement quand ils pensent devenir les propriétaires de la langue de leurs anciens maîtres. D'ailleurs, les écrivains de l'Hexagone ne sont nullement dupés de cette tentative par les ex-colonisés de «se couler dans la langue la plus académique, dans les formes les mieux acceptées.» On connaît la distinction classique faite dans l'Hexagone même entre la littérature «française» et la littérature francophone...»[1]

" يخطئ المستدمرون القدامى كثيرا عندما يعتقدون أنهم أصبحوا ملاكا للغة مستدمريهم، كما لم تعد محاولة المستدمرين القدامى التماهي مع اللغة الأكثر أكاديمية، ذات الأشكال الأكثر قبولا، لتنطلي على كتاب

[1] - Hugues Saint -Fort, le mythe de la langue française,WWW.POTOMITAN.INFO.13/04/2017.21h14mn.

المتروبول ، الذين يعرفون جيدا الفرق الكلاسيكي بين الأدب الفرنسي والأدب الفرنكفوني... "[1]. يستوجب الانعتاق والتحرر من الاستدمار اللغوي الفرنسي تحديدا ، كفاحا فكريا واعيا ومقاومة ثقافية جادة، تحفظ للأمة مقوماتها الثقافية المتنوعة من أدب وتراث فكري وعادات ... وتفرض على أولياء الأمور منا سن كل ما من شأنه التمكين للغة الوطنية والإعلاء من شأنها، دون أن يكون ذلك على حساب مسألة التعاطي مع الآخر والانفتاح على لغته .

المبحث الثالث : البعد الهوياتي المتعدد أو قهر العولمة :

1 – العولمة وخطر تشظي الهوية :

أضحى مفهوم الهوية مهددا بالتغيير تارة وبالتشويه والاختراق تارة أخرى، تحت وطأة تأثيرات العولمة التي صارت تمثل تحديا حقيقيا للهوية الوطنية والانتماء القومي، وللمنظومة القيمية للمجتمع ، كما ولدت الشك وزادت من حالة عدم اليقين لدى الأفراد فأصبح مفهوم الهوية عبارة عن عملية عبور من مفهوم المناطقية والجهوية وحتى الأمة، إلى مفهوم أكثر اتساع وشمولية وهو مفهوم الهوية الإنسانية أو الكونية ،" وعليه يتسم جميع الأفراد بسمات مشتركة تضفي إنسانية على البشرية : تفرد وذكاء من نمط جديد، وسمة عقلية تتيح تجلي الذهن الذي يتيح بدوره ظهور الوعي ..." [2] لكن ثمة أخطار تحملها العولمة يمكن أن تكون وبالا على المجتمعات الضعيفة، "...وإذا كانت الأخطار السياسية والاقتصادية لظاهرة العولمة أخذت تظهر بصورة واضحة في هيمنة الدول الصناعية والشركات المتعددة الجنسيات على التوجهات السياسية لدول الجنوب واقتصادياتها، فإن الخطر الأكبر الذي تمثله هذه الظاهرة ينسحب على الجوانب الثقافية والفكرية.

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - إدغار موران، النهج ، إنسانية البشرية، ط1، تر: هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث، أبو ظبي ،إ.ع.م، ص75

فالدول الكبرى تريد أن تفرض ثقافتها وأنماطها الفكرية على دول العالم الثالث، بتعميم النموذج الغربي في العالم .." [1]

إن هذه السياسات ستعمل من دون شك، وبشكل من الاشكال على تقويض البنى الثقافية والفكرية للمجتمعات، وتكرس بالمقابل الهيمنة الغربية بجميع أشكالها، من خلال سعيها لإعادة تشكيل الرؤى والتصورات الجوهرية عن الإنسان والكون، وفي هذا خطر كبير على هوية المجتمع وتهديد لانتمائه القومي وقد "... أثبت "أميل دروكايم" في دراسته الشهيرة عن الانتحار الصادرة عام 1897 بأن الناس الذين يشهدون تهديدا لهويتهم الجماعية، يعانون قلقا شديدا على المستوى الشخصي، وهو ما يطلق عليه إسم اللامعيارية ، قد تظهر اللامعيارية في المجتمع وفي صميم الأفراد بطريقتين مختلتين، إما عبر انتقالهم من محيط اجتماعي ثقافي إلى آخر، أو عبر حدوث تغييرات جوهرية في المجموعة الثقافية التي ينتمون إليه ، وفي كلتا الحالتين ، يعاني الأفراد العاجزون عن التكيف مع الوضع الجديد، الاضطراب والقلق وفقدان الشعور بالانتماء والمعنى ..." [2]

يرى محمد عابد الجابري أن نظام العولمة يقضي على الهويات الوطنية ويحولها إلى كيانات هشة ومشتتة و " ... يقفز على الدولة والأمة والوطن، وفي مقابل ذلك يعمل على التفتيت والتشتيت، إن إضعاف سلطة الدولة والتخفيف من حضورها لفائدة العولمة، يؤديان حتما إلى استيقاظ أطر للانتماء سابقة على الدولة، أعني القبيلة والطائفة والجهة والتعصب المذهبي، والنتيجة تفتيت المجتمع وتشتيت شمله .." [3]

فيما يذهب "على حرب" مذهبا مغايرا في التعاطي مع مفهوم العولمة الذي ارتبط بالثورة العلمية والمعلوماتية، وأسس لآفاق علمية ومعرفية جديدة لمختلف المجتمعات فهو يرى "... أن لا يستعجل كثيرا الخائفون عندنا على الوعي والهوية والصراع الإيديولوجي، من ثورة المعلومات وانفجار التقنيات والوسائط،

[1] - سليمان بن صالح الخراشي ، العولمة ، ط1، دار بلنسية للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 1998، ص28.
[2] - عبد الغني عماد ، سوسيولوجيا الهوية ، جدليات الوعي والتفكك واعادة البناء ، المرجع السابق ، ص84.
[3] - محمد عابد الجابري ، قضايا في الفكر المعاصر، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1997، ص149

فالمنظومات الإيديولوجية وفلسفات التاريخ قد تكون مصدرا للوعي أو أداة للتثقيف والتنوير، ولكنها قد تكون في المقابل أداة للتزييف والتضليل، خصوصا وأن اللا وعي والوهم والخداع، لها دورها في تشكيل الوعي وقرارات العقل وسير التاريخ ..."[1]

إن العولمة منتج غربي أمريكي خالص، تم تسويقه لمختلف أرجاء المعمورة، منتج له مزايا كثيرة وتلفه شعارات براقة، لكنه يحمل بداخله الرغبة في بسط نفوذه وسيطرته، والهيمنة على الاقتصاد والسياسة والثقافة، وتهديده لكينونة المجتمعات الوجودية وخصوصياتها الحضارية، لهذا ف "... الشكوى التي تتردد في الكثير من الثقافات غير الغربية في عصرنا الحاضر، ومنها الثقافة العربية ، تجاه عملية العولمة، لاسيما الجانب الثقافي منها، ناتجة عن قلق طبيعي على الخصائص المميزة لتلك الثقافات التي يخشى أن تذوب في الثقافة المسيطرة، ومن هنا تنشأ عملية مقاومة تلقائية حينا، ومخطط لها حينا آخرا، تسعى فيها الثقافة التي تتعولم إلى استنهاض تراثها ومميزات حاضرها، دفاعا عن كيانها وشخصيتها الخاصة، مما يترك أثره على الأدب ضمن أشكال الثقافة الأخرى ..."[2]

كما صار لزاما على هذه المقاومة التعاطي مع هذا المنتج الغربي بطريقة انتقائية تأخذ منه ما يثري ثقافتها ويطور قدراتها الفكرية والعلمية والمعرفية، ويحافظ على مقدراتها وينميها، وتترك كل ما من شأنه التأثير سلبا على تاريخها وثقافتها وانتمائها الحضاري"... وهكذا يجب أن ينظر إلى الغرب، فلا نخلط بين مستوياته[3] وشرائحه، ولا نحرم أمتنا من تأييد الأنصار والأصدقاء ... ففي الغرب مصادر قوة لنهضتنا إذا نحن أحسنا التعامل مع الإنسان الغربي، وتيارات الفكر الغربي، وإمكانات العلم الغربي ...."،[4] وفي هذا

[1] - علي حرب ، حديث النهايات ، فتوحات العولمة ومآزق الهوية ، ط2، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، 2004، ص22

[2] - ميجان الرويلي ، سعد البازعي ، دليل الناقد الادبي ، ط3، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ،2002، ص196

[3] - يجب التمييز بين مستويات ثلاث عند الحديث عن مواجهة العولمة: 1 الإنسان الغربي – 2العالم الغربي – 3المشروع الغربي

[4] – محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ، مصر ، 1999، ص44

عودة إلى الانتفاع من الآخر، والتسليم بمبدأ الاختلاف، والإيمان بالتعددية الفكرية، دونما تبعية أو ذوبان، والاستفادة مما توصل إليه العلم والتقنية الغربية خدمة لثقافتنا وتكريسا لهويتنا.

2 – المثاقفة وطمس الهوية :

تربع مفهوم المثاقفة في العقود الأخيرة على الساحة الفكرية والثقافية العالمية في ضوء ما أفرزته العولمة من تداعيات حولت العالم إلى قرية صغيرة، من خلال قضائها على الحدود الفاصلة بين الدول وإشاعتها للتواصل بين الأفراد والمجتمعات، ومساهمتها في الانتشار السريع للمعلومات.

وقد جاء في قاموس المورد أن " ... المثاقفة هي مجموعة من الظواهر الناتجة عن احتكاك مستمر ومباشر بين مجموعات أفراد تنتمي الى ثقافات مختلفة، تؤدي إلى تغيرات في الأنماط الثقافية الأولية لهذه المجموعة أو تلك ..." [1]

تأرجح مفهوم "المثقافة" acculturation بين معنيين أساسين لفريقين مختلفين، تعاطى الفريق الأول مع هذا المصطلح باعتباره احتكاك ايجابي بين ثقافتين مختلفتين أو "عبور إلى الأخر"transculturation في إطار من المنافسة والندية، وهو ما اصطلح عليه بالمثاقفة التلقائية أو الطوعية، فيما اعتبر فريق آخر أن هذا المصطلح يوحي بالهيمنة الثقافية والفكرية الغربية على باقي الثقافات ، وسيطرتها على التوجهات الثقافية العالمية، وهو ما يعرف بالمثقافة القسرية، التي هي حقيقتها عبارة عن ضرب من ضروب التسلط الغربي على الشرق، بل ووجه آخر من أوجه الاستدمار الناعم، المفضي إلى الاستلاب الثقافي .déculturation

حاولت هذه القوى الاستدمارية الجديدة المتخفية وراء لبوس الثقافة، على مدى عقود من الزمن النيل من عناصر الهوية الوطنية، من لغة ودين وموروثات حضارية، وإحلال ثقافتها وعاداتها محلها، وإن لم تفلح هذه المحاولات أثناء فترات الاحتلال، لكن سعيها لطمس هوية هذه المجتمعات لا يزال قائما، موظفة أساليب جديدة أكثر نجاعة من سابقاتها، ولعل فيما نراه اليوم من تربع اللغات الأجنبية على ميادين الاتصال

[1] – منير بعلبكي ، قاموس المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 1994، ص24

والتأليف والإبداع، وكذا انبعاث مفاهيم المناطقية والجهوية والطائفية بمعزل عن مفهوم الهوية الوطنية الجامعة لخير دليل على أن ظاهرة المثاقفة قد آتت أكلها، فيما "... عمد "ساپير"* إلى استخدام مفهوم الميل والنزوع لشرح أن المثاقفة ليست مجرد تحول من ثقافة لثقافة أخرى، ذلك أن تغير الثقافة الأولية يتم عبر انتخاب عناصر ثقافية مقترضة، وهذا الانتخاب يتم تلقائيا تبعا للميل والنزوع العميق الموجود في الثقافة المقترضة، وبالتالي يخلص إلى أن المثاقفة لا تسبب بالضرورة اختفاء أو ذوبان الثقافة الأصلية الأخذة عن غيرها، ولا تغير منطقها الداخلي الذي يمكن أن يبقى مهيمنا ..." [1]

إن تعدد معاني المثاقفة وتباين تأثيراتها، لا يجعلها تتناقض فيما بينها، بل هي مجرد أشكال وتمظهرات لهذا المفهوم فـ"... لا يوجد تعريف مثالي لمثاقفة مثالية، ويبقى أن الحلقة المركزية في المثاقفة هي الصراع وفق قوانين متعددة الأشكال ..." [2]

إن الوعي بطبيعة المثاقفة ومراميها يعد مسألة مهمة من أجل العمل على تحديد أهدافها السلبية وتلافيها، من خلال خطط وآليات عملية، والاستفادة من هذه الظاهرة بوصفها أحد منتجات الحداثة الذي يمكن البناء عليه.

3 – الهوية المتعددة والهوية القاتلة :

تكاد تجمع الكتابات العربية المعاصرة حين تعاطيها مع مسألة الهوية على الإتجاه صوب إحدى الوجهتين، إما التمسك بالهوية تمسكا شديدا، ينتهي بالمرء إلى الانطواء والعزلة والانغلاق على الذات، ولا يقبل فكرة تعدد الهويات، ويختزل الكائن البشري في بعد واحد من أبعاده المتنوعة، فتجد الوطني المنكفئ الذي يرفض فكرة القومية، وتجد كذلك القومي المنكفئ الذي يرفض فكرة الوحدة الإسلامية، كما تجد أيضا الإسلامي المتمترس وراء الدين، والذي ربما يقفز على جميع هذه الانتماءات معتبرا إياها ضربا من ضروب الجاهلية

---

* – ادوارد سابير Edward Sapir:(1884– 1939) عالم لسانيات و انثوبولوجي امريكي

[1] – عبد الغني عماد ، سوسيولوجيا الهوية ، جدليات الوعي والتفكك واعادة البناء ، المرجع السابق ، ص71.

[2] – عزالدين المناصرة ، المثاقفة والنقد المقارن ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1996، ص73.

الأولى، دون أن يتسع صدر أي من الأطراف لقبول فكرة تعدد الهويات التي أصبحت من الأفكار المتداولة بكثرة في المجتمعات المتحضرة في أيامنا هذه، "... لقد دخلنا عصر الاختزالات التبسيطية للظواهر المعقدة، ولا يمكن إقصاء التعدد والاختلاف داخل الهوية الواحدة، فقد انتقلنا من منطق الوحدة إلى التعدد، ولم تعد الهوية كينونة جامدة وجوهرا خالصا، بل خليطا من التمازجات والتداخلات والتفاعلات الثقافية المركبة ، لذلك فإن الهوية ليست فعلا نهائيا، بل إنها حضور حي متجدد، مفتوح على التعدد والاختلاف، ومتفاعل مع الزمن والمكان ..." [1]

وهي نفس الرؤية التي يتبناها الأديب اللبناني"أمين معلوف" من خلال قوله "... الهوية ليست ثابتة بل هي تتحول بمرور الوقت، وتحدث في السلوك البشري تغييرات عميقة، وإن وجدت في كل الأوقات تراتبية معينة بين العناصر المكونة لهوية كل إنسان ... " [2]

ليست الهوية إذا مفهوما ثابتا، أو إرثا جاهزا، بل هي بناء في تطور وتحول مستمرين، وهي بذلك ثمرة للتجربة الإنسانية في الحياة، وما يلف هذه التجربة من تفاعلات وتحولات، يقول المفكر و الباحث" طارق رمضان: [3]« ...Nos identités sont multiples et toujours en mouvement...» وقد تحدد الهوية باعتبارها ظاهرة سياقية – بالنظر إلى الآخر – وتأتي تراتيبتها بحسب العلاقة مع الآخر فالهوية في تحول دائم ومستمر، والسياق هو الذي يحدد أأسبقية عنصر ما من عناصر الهوية على عنصر آخر، فقد تظهر هوية معينة وتضمر أخرى بضغط من السياق، يقول أمين معلوف " ...فبالنسبة إلى الطفل الذي يبصر النور في نيجيريا ، لا يعد العنصر الحاسم في هويته كونه أسودا وليس أبيضا، بل كونه ينتمي

[1] – محمد سعدي، الهوية من الوحدة إلى التعدد، مجلة آفات المستقبل، العدد 07،أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، سبتمبر/التوبر، 2010، ص82-83.

[2] – أمين معلوف ، الهويات القاتلة ، تر، نهلة بيضون ، ط3، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2015، ص24.

[3] – Tariq Ramadan, mon intime conviction, Archipoche, France, 2011,p : 71

إلى قبلية اليوروبا و ليس إلى عشيرة الهاوسا، وفي جنوب إفريقيا، كون الإنسان أسود أو أبيض يبقى عنصرا مهما في تحديد هويته، ولكن انتماءه الإتني يوازيه أهمية، زولو، كوزا، الخ..." [1]

تأتي في أغلب الأحيان تراتبية الهوية إما تحت ضغط الواقع، أو بتخطيط سياسي واجتماعي، ففي دولة كلبنان التي تضم على صغرها – ثمانية عشرة طائفة تقتضي الحكمة السياسية التركيز على عنصر العروبة في الهوية لأنه عنصر جامع، لا على عنصر الدين الذي قد يولد اصطفافات دينية متعددة ومفرقة، أما في منطقة شمال إفريقيا مثلا، فالحكمة هنا تقتضي التركيز على عنصر الدين (الهوية الدينية)،لا على القومية أو العرقية ، فالتراتبية هنا قد تأتي بضغط من الواقع أو بتخطيط وهندسة اجتماعية وحكمة سياسية تقتضي ابراز هوية على هوية أخرى : "... ففي كل مرة تطفح طبقة معينة لتحتل الصدارة، وكأن الهوية عبارة عن نسيج من الطبقات تتداخل فيها وتتفاعل الميكروهويات Micro-identité (الانتماء إلى القبيلة، العشيرة، الجهة الترابية، الإثنية ، المهنة ...) والماكروهويات Macro-identité (الدين، اللغة، القومية، المواطنة، الإنسانية، الكوسموبوليتية...) هذا ما يجسد الطابع الديناميكي للهوية، فهي دائمة الحركة والانتقال، تتشكل وتتفكك، ويعاد بناؤها وتوظيفها وإنتاجها، وفقا لحاجات الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين واستراتيجياتهم ..."[2]

إن هذا التعاطي مع مفهوم الهوية لا يضرب في نزاهة متبنيه، ولا يمكن عده قصورا في الفهم، أو نوعا من أنواع البراغماتية، إنه توجه فكري أملته التحولات الاجتماعية والسياسية الكبرى التي يعشيها عالمنا المعاصر الآن (استعمار ، هجرات ، لجوء، عولمة..)، وعطفا على هذا الكلام يقول طارق رمضان :

« En d'autres termes, vous avez plus d'une identité et vous donnez la priorité à l'une ou à l'autre de ces identités en fonction de l'environnement et

[1] - أمين معلوف، الهويات القاتلة، المرجع السابق، ص36/35

[2] – محمد سعدي، الهوية من الوحذة الى التعدد،مجلة آفاق المستقبل، المرجع السابق، ص83

de la situation, sans que cela remette en cause votre loyauté à l'un ou à l'autre des ordres d'appartenance. celui qui s'affiche végétarien lors d'un repas n'en est pas moins poête.. »[1]

" بمعنى آخر فإنه لديكم أكثر من هوية ، وأنكم تعطون الأولوية لهذه أو تلك تبعا للمحيط الذي تعيشون فيه، وتبعا للسياق كذلك من دون أن يطعن هذا في نزاهتكم تجاه أي عنصر من عناصر الانتماء، إن إعلان إنسان – أثناء مأدبة عشاء– عن كونه نباتي لا يجعل منه بالضرورة أقل نظما للشعر من غيره "[2].

يعمل الاعتراف بعنصر واحد من عناصر الهوية ونفي البقية، على تفجير صراعات مدمرة لا طائل منها، والتجربة القومية العربية منا ليست ببعيد، فقد سعت –يائسة– الانتصار لعنصر العروبة ونفي، لا بل ومحارية باقي عناصر الهوية، والشواهد على ذلك كثيرة ومتعددة من العراق إلى السودان، ووصولا إلى دول شمال إفريقيا .

يعد الإيمان بفكرة التعدد والتسليم بها، نقطة الانطلاق، والسبيل الأمثل للحماية الذاتية وقطع الطريق أمام أية محاولة لإثارة الفتن الإثنية والعرقية والجهوية، يقول عبد الكبير الخطيبي معلقا على هذا المعنى :"... لنأخذ الإنسان العربي، وعلى وجه التحديد الإنسان المغربي ، فإننا نلاحظ أنه يحمل في أعماقه كل ماضيه قبل الإسلامي والإسلامي والبربري والعربي والغربي، أهم شيء إذن هو أن لا تغفل هذه الهوية المتعددة التي تكون هذا الكائن، ومن ناحية أخرى يجب أن نفكر في الوحدة الممكنة بين هذه العناصر جميعا.."،[3] تأتي المشكلة الحقيقية التي هي بؤرة الصراعات المعاصرة، من بقاء روح الهوية القبلية في هوياتنا المعاصرة، واختصار هوية الإنسان في بعد واحد، إن هذا الاختزال لمفهوم الهوية ولد الكثير من المآسي والحروب والصراعات الدموية.

[1] - Tariq Ramadan, mon intime conviction, opcit, p : 70.

[2] - ترجمة الباحث ، تدقيق المشرف

[3] – بن عبد العالي عبد السلام، التراث والهوية ، ، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1987، ص12

كما ساهم تحول الهوية إلى مجرد انتماء قبلي بشكل كبير، في جعلها آلة للدمار والقتل بيد المتطرفين الذين نصبوا أنفسهم حماة للدين وحراسا للعقيدة ،"...ألم أقل توا أن كلمة هوية هي مضللة ؟ فهي توحي في بادئ الأمر بحق مشروع ثم تصبح أداة قتال، وهذا الانزلاق من دلالة الى دلالة أخرى يبدو خفيا وطبيعيا ... إن كل المذابح التي ارتكبت في السنوات الأخيرة، بالإضافة إلى معظم النزاعات الدموية مرتبطة بملفات انتمائية شائكة وسحيقة ...."[1]

إن هذه الوقائع البشعة التي ارتكبت باسم الهوية، وهي منها براء، يمكن تجاوزها من خلا ل التعامل بطرق سلسة مع مسألة الاختلاف الهوياتي، والتسليم به كظاهرة صحية في مختلف المجتمعات، يمكن أن تساهم – إذا ما تم توظيفها بطريقة إيجابية – في ترقية الجتمعات وتقدمها وانفتاح بعضها على بعض.

4 – الحداثة والهوية أو الموقف من التراث :

بات السعي للتوفيق بين فكرتي الأصالة والمعاصرة، أو بمعنى آخر فكرتي الهوية والحداثة أمرا يؤرق المشتغلين بهذا الحقل المعرفي في شقه الشرقي، ويقض مضجعهم، نتيجة للقناعة التي تولدت لديهم من خلال توالي بث أفكار جديدة من قبيل التنميط uniformalisation والتوحيد unification بإخضاع أنماط سلوك وعيش المجتمعات غير الغربية إلى المنظومة القيمية والسلوكية الغربية، بإعتبارها ذات وظيفة مرجعية في هذا المجال، بما تحمله من فكر تنويري، تغلب فيه النظرة العقلية النظرة النقلية، ومن ثم عقلنة جميع مجالات الحياة الإنسانية من سياسية واقتصاد وثقافة ودين " ... تلك هي إذن مقومات الحداثة التي تقترن في نمط تكوينها وفي نمط عملها بالمعقولية، حصيلة العمل العلمي المختلف، وذلك في جميع المستويات، على أن هذه المعقولية (في العلم والسياسة والتاريخ والدين) التي تسطر حقل الحداثة في قرون النهضة

[1] – أمين معلوف ، الهويات القاتلة ، المرجع السابق ، ص46/45

الغربية، ترتكز بدورها على بدايات انتقال أوروبا على المستوى الاقتصادي، من نمط إنتاج فلاحي أساسا، إلى نمط إنتاج صناعي وتجاري ..." [1]

ومن نفس هذا الزاوية حاول "عبد الله العروي" مقاربة مسألة التراث من خلال عملية تفكيكه والانفصال عنه، فلا أحد يستطيع ".. أن يدعي أنه يدرس التراث دراسة علمية موضوعية إذا بقي هو– أعني الدارس – في مستوى ذلك التراث ، لا بد له قبل كل شيء أن يعي ضرورة القطعية، وأن يقدم عليها. كم من باحث يتكلم عنها كموضوع وهو نفسه غير قادر على تحقيقها ؟ فلا سبيل لهذا الباحث أن يكون أبدا في مستوى المستشرقين، إذا نفى أو تجاهل ضرورة القطيعة، أصبحت جهوده تحقيقه تافهة...."[2] ويستطرد في هذا المعنى قائلا :"... ذلك أن رباطنا بالتراث قد انقطع نهائيا وفي جميع الميادين و أن الاستمرار الثقافي الفكري عندنا هو الغرور بذلك السراب، وعدم رؤية الانفصام الواقعي، فيبقى الذهن العربي حتما مفصولا عن واقعه، متخلفا عنه بسبب اعتبار الوفاء للأصل حقيقة واقعية، مع أنه أصبح حسا رومانسيا منذ أزمان متباعدة ..." [3]

بني مفهوم الحداثة بالأساس على فكرة التمرد على التراث بكل ما يحمله من قيم وأخلاق وسلوكات مجتمعية، وعادات وتقاليد متوارثة جيلا بعد جيل، متجاورا كل المحظورات والطابوهات، جاعلا منها أوراق اعتماد، يمر عبرها إلى مختلف الشرائح الاجتماعية، مدعيا في الوقت نفسه السعي إلى التغيير، وحاملا للواء التجديد، الشيء الذي استدعى بالضرورة عند هذه الأخيرة، العودة إلى التراث والتقاليد، وتحصين الخصوصيات، وصولا إلى حد بروز العصبيات وانتشار الانتماءات الجهوية والقبلية والمناطقية، بدعوى

[1] – فتحي التريكي ورشيدة التريكي ، فلسفة الحداثة ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، لبنان ، 1992، ص31

[2] – عبد الله العروي ، مفهوم العقل ، ط2، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1997، ص11

[3] – عبد السلام بن عبد العالي، التراث والهوية (دراسات في الفكر الفلسفيبالمغرب) ، المرجع السابق، ص10

الحفاظ على الهوية ودرءا لمخاطر الطمس " ... فالمائلون إلى التقليد ، يميلون إلى الأخذ بالتراث بما يشبه الاقتصار عليه، ليكون هو الموجه للحياة المقبلة على نحو ما كان موجها للحياة الماضية..."[1].

يؤكد بدوره محمد الجابري على أهمية التراث في أي إقلاع حضاري، لكنه يولي الفكر الحداثي الأهمية نفسها، ويجعله وثيق الصلة به، و يعتبر التراث الإطار والمرجع الذي ننطلق منه إلى الحداثة " ... فالحداثة في نظرنا لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي، بقدر ما تعني ارتفاع بطريقة التعامل مع مستوى نسميه بالمعاصرة..."[2]

يعد السعي للاهتمام بالتراث، ونفض الغبار عنه، ودراسته ونقده وتوظيف كل ما توصل إليه الفكر الحداثي في قراءته قراءة مستبصرة بعيدة عن التحيز والتوجيه، على ما يعتري هذه المحاولة التوفيقية من عقبات، عاملا مفصليا ومهما من عوامل الحفاظ على الهوية وحمايتها من كل محاولات خلخلتها وضعضعة أركانها وطمسها.

[1] - عبد المجيد النجار ، مقاربات في قراءة التراث الدار المالكية للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس، ص11
[2] - محمد عابد الجابري ، التراث والحداثة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، لبنان، 1991، ص15-16

البــاب الأول

الفصــل الثالث

الالتزام و الأدب : أي تعالق ؟

1 – أركيولوجيا الالتزام

2 – الالتزام من منظور التيارات الفكرية المعاصرة

2 – 1 الواقعية الاشتراكية منظرا للالتزام

2 – 2 الوجودية محضنا للالتزام

2 – 3 الالتزام بين الواقعية الاشتراكية و الوجودية

3 – الثورة الجزائرية محكا للالتزام

4 – الالتزام من وجهة نظر إسلامية

الالتزام و الأدب : أي تعالق ؟

1 – أركيولوجيا الالتزام

توطئة : استحوذت ظاهرة الالتزام الأدبي على اهتمام نخبة كبيرة من المفكرين والأدباء والفلاسفة، وقد زاد الاهتمام بهذه الظاهرة بشكل خاص عقب الحقبة الكولونيالية وما بعدها، من قبل أن تبرز على الساحة الأدبية، في سبعينيات القرن المنصرم – الأطروحات الشكلانية والبنيوية وما بعد البنيوية، ملقيه بتيمة الالتزام الأدبي في غياهب النسيان، ورافعة عن كاهل الأديب هذا العبء الثقيل، وهذه المسؤولية الجسيمة، بتحول الاهتمام من دور الأديب و وظيفته في المجتمع الذي يعيش فيه، إلى طبيعة العمل الأدبي وبنيته .

تنهض فكرة الالتزام الأدبي على مسألة اعتناق الأديب لفكرة أو لمبدأ، والدفاع عنه، والعمل بمقتضاه ونكران ذاته في سبيله، و في هذا السياق يأتي تعريف الفيروز أبادي لهذا المصطلح بقوله :"... لزم الشيء ثبت ودام ، لزمن بيته لم يفارقه ، لزم بالشيء: تعلق به و لم يفارقه، التزمه: اعتنقه، التزم الشيء : لزمه من غير أن يفارقه ، التزم العمل و المال : أوجبه على نفسه ..."[1]، وفي مادة لزم، يقول ابن منظور :"... والإلتزام الاعتناق .." [2]، وجاء في المعجم الوسيط :".... التزم الشيء أو الأمر : " أوجبه على نفسه.." [3].

أي جعله يصحبه ولم يعد ليفارقه.

أما من ناحية الاصطلاح، فإن مفهوم الالتزام مفهوم زئبقى من الصعب الإمساك به، فكل ينظر إليه من الزاوية التي تنسجم مع مرجعياته، فهذا الأديب ينظر الى الالتزام من جهة المقولة الشائعة " الفن للفن "، وذاك ينظر إليه من زاوية التعبير الهادف والرسالي عن قضايا الأمة وتطلعاتها، ومن هنا تتجلى زئبقية

---

[1] – الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ج4، ط4، باب الميم، دار المأمون للطباعة ، 1938، ص176.

[2] – محمد رأفت سعيد، الالتزام في التصور الإسلامي للأدب ، ط1، دار الهدى للنشر والطباعة والتوزيع، مصر ،1987، ص5.

[3] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

هذا المفهوم، وهي كلها مسائل يقع على عاتق الأديب الأخذ بها و الدعوة إليها، و هنا يكمن الالتباس في التعاطي مع مفهومي الالتزام و الإلزام ، فالالتزام كمفهوم يتضمن حرية الاختيار، لأن الأديب في هذه الحال يكتب و يبدع و يعبر عن أفكاره دونما رقيب و لا حسيب، و لا سلطان يحد من سقف حريته، أما الإلزام فيعني فيما يعنيه وقوع الأديب و المبدع تحت طائلة الضغط و الإكراه و القيد، فلا يكتب إلا ما يطلب منه، ولا يبدع الا ضمن أطر معينة و محدودة، إنها الكتابة تحت الطلب L' écriture à la demande.

يمكن الزعم أن مفهوم الالتزام في عمومه يقوم بالدرجة الأولى على الموقف الذي يتخذه المفكر او الأديب أو الفنان، و هذا الموقف يقتضي صراحة و وضوحا و إخلاصا و صدقا و استعدادا من المفكر الملتزم لأن يحافظ على التزامه دائما، و يتحمل التبعة التي تترتب على هذا الالتزام، و من هنا كان الالتزام مرتبطا بالعقيدة ، منبثقا من شدة الإيمان بها، صادرا في جميع أشكاله و أحواله عن إيديولوجية معينة يدين بها المفكر الملتزم ..." [1]

فيما يرى رمضان الصباغ أن "... موقف الكاتب الملتزم ينطلق من وضعيته، على أساس هذا الوضع فإنه يلعب دوره بالنسبة لجمهور قرائه، و يجب ألا يقع تحت بعض العوامل الذاتية... " [2].

يجعل الالتزام الأدبي– بهذا المعنى – من الأدب أدباغيريا، أدبا يهتم بالآخر، لا أدب انطواء وانكفاء، أدبا مشغولا بتطلعات الآخر واهتماماته، أكثر من انشغاله بذات الأديب وخصوصياته و فرديته، يقول " جون بول سارتر في هذا المعنى: "... يوسم الكاتب بالملتزم عندما يحصل لديه الوعي الكامل والصافي بكونه صاحب رسالة ..." [3]

[1] - الخامسة علاوي : الالتزام في الأدب بن حقيقية الوضع ومجازبة الاستعمال، مجلة جبل للدراسات الأدبية والفكرية ، ع2، اكتوبر 2015، ص12.

[2] - رمضان الصباغ، فلسفة الفن عند سارتر و تأثي الماركسية عليها،ط2، دار الانماء القومي، القاهرة، مصر، 1988، ص.6

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

" ... L'écrivain est engagé lorsqu'il tàche à prendre la conscience la plus lucide et la plus entière d'être embarqué..."[1]

وعطفا على هذا التعريف لمفهوم الالتزام السارتري، يقول نصر الدين بن غنيسة :"... مفهوم سارتر للمثقف الملتزم يفترض إيمانه بقضية ما، مؤسسة على مجموعة من القيم والمبادئ التي تعكس مفهوم الحقيقة لديه، حتى وإن كانت هذه القيمة هي الحرية ذاتها، فالحرية عند " سارتر " لا يمكن أن تنفصل عن المسؤولية ، هذه بدورها لا يمكن أن تأخذ أبعادها الإنسانية من غير أن تستمد كينونتها من مجموعة قيم، كالعدل والحق وغيرهما، أو ما يسمى بإختصار بالآيديولوجية ...."[2]

يعتبر الكثير من النقاد والباحثين أن " جون بول سارتر " Jean Paul Sartre هو أول من بلور مفهوم الالتزام الذائع الانتشار في عصرنا الحالي، في مختلف الدوائر الأدبية والفكرية العالمية، والذي يؤكد رسالة الأدب ومسؤولية الأديب، وينتقد بالمقابل مروجي فكرة الفن للفن :"... فهم يقولون لا ينبغي للكاتب بحال أن يشغل نفسه بمسائل الحياة المادية العارضة، كما لا ينبغي له مطلقا أن يشغل نفسه بمسائل الحياة العارضة، كما لا يجوز له مطلقا أن ينظم كلمات لا معنى لها، ولا يقتصر في بحثه على الجري وراء جمال الألفاظ التي تساق فيها ..." [3]

لقد حارب " سارتر " دعاة هذا التوجه الذي سعى من أجل تخليص الأدب من الغائية والنفعية، وأن يتحرر من كل القيم والمبادئ عدا قيمة الجمال .

---

[1] - Jean Kaempfer,Sonya Flory et JéromeMeizoz, formes de l'engagement littéraire (xvi – xxi) https://www.decitre.fr, éditions antipodes,Lausanne, suisse, 2006, p : 19.

[2] - نصر الدين بن غنيسة، في بعض قضايا الفكر و الأدب (جولات في العقلين العربي و الغربي)، ط1، دار الامة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2002، ص23.

[3] - جون بول سارتر، ما الأدب ؟، تر : محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع،القاهرة، مصر، ص25.

مر مفهوم الالتزام بمحطات عديدة عبر التاريخ، وإن كل النصف الأول من القرن العشرين هو عصره الذهبي، ولهذه المفردة "... جذور موغلة في أعماق تاريخ النقد الأدبي، منذ أقدم عصوره عند كبار مفكري اليونان القدماء وعند الرومان الذين ورثوا حضارتهم الفكرية، ثم في العصور الوسطى، ثم انتشرت هذه الأفكار، في العصور الحديثة، ونشطت في بيئات الأدب عند جميع الأمم المتحضرة التي عرفت الفن الأدبي..." [1]

ينظر إلى الالتزام الأدبي منذ القدم على أنه التزام للمبدع بالشأن المعاصر الذي يعيش فيه، والمجتمع الذي يحتضنه، بكل صدق وأمانه وموضوعية، إن وظيفية الأدب هذه، سواء كانت اجتماعية أو أخلاقية أو حتى جمالية، قديمة قدم الأدب نفسه، وقد نظر " أفلاطون " Platon قديما إلى الشعر من زواية اجتماعية وأخلاقية صرفة، فرأى أن هذا الأخير :" ... ينبغي أن يحث الناس على فعل الخير، أي أنه يطلب غايات اجتماعية للفن، الذي عليه أن يصور الناس تصويرا ملائما من شأنه أن يؤخذ على سبيل الاحتذاء ... وكذلك الحال في الفن الروائي ، فقد رأى أن الكوميديا يجب أن تتجه إلى السخرية من كل خلق ذميم، و أن تهتم بما يطلق عليه " أفلاطون " العواطف النبيلة ..." [2]

وهذا ما يمكن اعتباره النظرية الأخلاقية للأدب، والأرضية التي يتكئ عليها مفهوم الالتزام في عصرنا الحالي :"... ومن المعروف أن أفلاطون قد نفى " هوميروس " Homère من جمهوريته، لأنه قد حدد معالم الفن بمقدار قيمته الاجتماعية، وقد ذكر في كتابه القوانين أن الفن يسهم في تكوين المواطنين ويقوى المجتمع... ولذلك فإنه من الواجب أن ترتبط الثقافة الفنية بالحاجات الاجتماعية ..." [3] وهو الشيء الذي يجعل الأديب والمبدع يعيش حالة من الحيوية والنشاط من خلال شعوره بعدم الرضى عن الواقع الذي يحياه من جهة، و سعيه لتجسيد واقع أفضل، عن طريق الكتابة، بدلا من ذلك من جهة أخرى، وهذا ما

[1] – بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي، ط3 ، دار الريخ للنشر ، الرياض ، السعودية ، 1984 ، ص 5 .

[2] - رجاء عيد ، فلسفة الالتزام في النقد الأدبي، منشأة المعارف، الإسكندرية ، مصر ، 1988، ص14.

[3] - المرجع نفسه ، ص13

يجعل الأدب يلعب دورا حاسما في بث الوعي الفكري والجمالي في الأوساط الاجتماعية، ومن ثم التأثير في تشكيل رؤاها وقناعاتها، لهذا نرى حرص الأنظمة، خاصة الشمولية منها، على هذه الفئة من المجتمع، لا من أجل الارتقاء بالواقع الفكري والأدبي نحو الأفضل دائما، وإنما من أجل التأثير في الجماهير وسوقها إلى الوجهة التي تخدم مصالح هذه الأنظمة وأطماعها.

ونجد " أفلاطون " كذلك يؤمن بالانتقائية في الأدب، ف : " ... يرى أول واجب على الدولة، في نظره، السيطرة على الذين يلفقون الخرافات، و يجب اختيار أجملها و نبذ ما سواها ، وإذا كان من الواجبات المقدسة الدفاع عن الوطن ، فإنه يجب أن يربى الشباب على الشجاعة، وأن يستبعد من الشعر، كل شعر يحذر من الموت و يبث الرعب في قلوب الشباب، و يدفعهم إلى الجبن..." [1]، إنها دعوة ضمنية إلى أن يكون الأديب صاحب فكرة ورسالة، يسعى إلى تحقيقها ويناضل من أجلها، فكرة و رسالة مؤداهما تكريس إنسانية الإنسان، وتجسيد القيم الأخلاقية النبيلة، وبث روح الثورة في أوصاله ، أما فيما يختص بطبيعة الأدب والفن على العموم أهو إلهام أم صنعة ؟ فإن :"....أفلاطون يرى رأي أستاذاه سقراط في فكرة الإلهام، التي يؤكد هو فيما يسوقه على لسان سقراط، عن شعراء الملاحم الممتازين جميعا، وأنهم لا ينطقون كل شعرهم الرائع عن فن ولكن إلهام روحي إلهي ، وكذلك الأمر في حالة الشعراء الفنانين الممتازين الذين ينزل عليهم الوحي الإلهي..."[2] و فكرة الإلهام هذه لا تعفي المبدع من مسألة الالتزام لاعتبارها مفروضة عليه، و إنها تبدو متناقضة مع اعتبار الأديب صورة لمجتمعه وبيئته، فالمتعة التي يولدها هذا الإلهام لا تلغي بالضرورة طبيعة العمل الأدبي الاجتماعية.

يرى " أرسطو" من جهته أن :"...الشعر قد نشأ لسببين، الأول بسبب المحاكاة كغريزة إنسانية ، فالناس يجدون لذة في المحاكاة ... والسبب الثاني هو أن التعلم لذيذ ، ولقد انقسم الشعر وفقا لطباع الشعراء،

[1] – رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النقد الادبي، المرجع السابق، ص 14.

[2] – المرجع نفسه، ص18.

فذوو النفوس النبيلة حاكوا الأفعال النبيلة وأعمال الفضلاء، وذوو النفوس الخسيسة حاكوا أفعال الأدنياء فأنشدوا الأحاجي، بينما أنشد الآخرون الأناشيد والمدائح..."[1] ، وفيما يرى " أرسطو" أن الشعر محاكاة للطبيعة التي يعدها محاكاة لعالم المثل، يرى أستاذه " أفلاطون " أن هذه المحاكاة بعيدة عن الأصل بثلاث درجات (صورة الشجرة، الشجرة في الطبيعة، الشجرة في عالم المثل)، كلما ابتعدنا درجة، ابتعدنا أكثر عن نشدان الحقيقة، وبهذا تكون الرؤية الأرسطية لمفهوم المحاكاة قد تباينت عن الرؤية الأفلاطونية من خلال تأكيدها على أن محاكاة الشاعر للطبيعة ليست محاكاة لعالم عقلي كما عند " أفلاطون "، وقد ظلت رؤية " أرسطو " هذه إضافة إلى باقي أرائه الأخرى مؤثرة و راسخة لمئات السنين، بما في ذلك فترة العصور الوسطى، التي شهدت هيمنة الديانات السماوية الثلاث على جميع مفاصل الحياة الفكرية والأدبية والاقتصادية والسياسية والثقافية، فلم تجد هذه الأخيرة في مؤلفات " أرسطو" ما يتعارض مع قيمها وتعاليمها، لا بل وجدت في فلسفته ومنطقه ما يساعد على تكريس معتقداتها وقيمها.

إن فكرة الإلهام التي آمن بها " سقراط " ودعا إليها من بعده تلميذه " أفلاطون "، لم تعد لتروق لمن جاء بعدهم من المفكرين والفلاسفة بسبب المعنى الذي تحمله و "... الذي يفترض قوى غيبية سحرية تسيطر على الفنان، وهي على ذلك تعفيه من أية مسؤولية وأي التزام ... " [2]، ومن ثم كانت الدعوة إلى مسألة أخرى وهي الخيال الذي يسعى من خلاله الشاعر لإبراز الصلات والروابط بين الأشياء والحقائق دونما كذب أو زيف، وهي قيمة لطالما كثر حولها الجدل بين من يرى أن أجود الشعر ما صدق منه، ومن يرى أن أجود الشعر أكذبه .

[1] - رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النقد الادبي، المرجع السابق، ص15
[2] - المرجع نفسه ، ص24

إن مفهوم الخيال : "... لا يعني الاختلاف والتوهم والاتكاء على مفهوم مشوش للتخلص من أية مسؤولية فنية، فذلك أمر غير مقبول، فلا بد من ملاحظة جادة وادراك جاد للعلاقة بين الأشياء..." [1]

الفن و فلسفة الجمال :

ركز رموز المدرسة الجمالية في أبحاثهم ودراساتهم على مفهوم الجمال وأحاطوه بعناية فائقة، ذلك أن الفن في معتقدهم متجرد عن االنفعية.

وقد ميز النقاد المحدثون جيدا بين التوهم والخيال الذي عدوه أساسيا في عملية النظم ، فبينما يأتي التوهم كتصورات يعتقد صاحبها بصوابيتها من دون أي سند عقلي ومنطقي فيها، هي بعيدة كل البعد عن الواقع نرى أن الخيال يتجلى كتقنية فنية تبرز مدى تمكن المبدع من تجاوز المألوف عبر ملكاته التصورية والعقلية، دون أن يبرح عالم الممكن والواقع الذي يحياه الناس.

فنجد أن " ... "إمانويل كانت" Emmanuel Kant قد فصل العمل الفني عن الواقع، ثم راح يؤكد عزل الشكل عن المضمون أو الموضوع، ومن ثم أصبح الحكم على العمل وقيمته الجمالية إذا توافر فيه خلوه من الغرض وعالميته و عدم احتمال فنائه، و التسليم لأول وهلة بأنه موضع الرضا العام..." [2]

وقد نجح " إمانويل كانت " إلى حد كبير في أن يحرر الجمال من المنفعة كما عند أتباع المدرسة السفسطائية، مؤسسا بذلك لما بات يعرف بمذهب الفن للفن، الذي لا يقول إلا بالمتعة الجمالية الخالصة، متجاوزا كل ما قد يعلق بالفن من قيم أو أخلاق أو آيديولوجيات وقد :".... تعاونت أفكار" كانت " مع فلاسفة الجمال الشكلي تحت زعامة " هاربرت "الذي يفصل كذلك بين صورة الشئ ومحتواه، ويرى الصورة هي مجال الحلم.

[1] - رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النقد الادبي، المرجع السابق ، ص24
[2] - المرجع نفسه، ص29

فهي الخالدة المحتوى فجماله لمجرد ، وأما تبعيته للصورة، وعلى ذلك فهو و"كانت " قد قدما القاعدة الذهبية لمدرسة الفن للفن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ..." [1]

وعلى هذا الأثر سار الشاعر والروائي الفرنسي " تيوفيل جوتيه "Théophile Gautier أحد رموز المدرسة البرناسية Parnasse، وقد أكد توجهه هذا بقوله :"... نحن نعتقد في استقلال الفن، فالفن لدينا ليست وسيلة ولكنه الغاية، وكل فنان يهدف إلى ما سوى الجمال فليس بفنان فيما نرى، ولم نستطيع قط فهم التفرقة بين الفكر والشكل، فكل شكل جميل هو فكرة جميلة، إذ ما قيمة شكل لا يدل على شيء..." [2]

لا قت هذه الأفكار الجمالية قبولا كبيرا، لا بل ورواجا مهما في الأوساط النقدية العربية قديمها وحديثها، يقول القاضي الجرجاني :"... والشعر لا يحبب إلى النفوس بالنظر والحاجة، و لا يحلى في الصدور بالجدال و المقايسة، و إنما يقربه منها الرونق و الحلاوة، و قد يكون الشيء متقنا محكما ، و لا يكون حلوا مقبولا..." [3]

يرى ابن رشيق من جهته أن :"... الشعر ما أطرب النفس، وهز الإسماع وحرك الطباع ..." [4]، أما الجاحظ فعبر عن هذه الرؤية بمقولته المتداولة بكثرة :"... المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها الأعجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتغيير اللفظ وسهولة المخرج ... فإنما الشعر صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير.." [5]

كما تناول النقد العربي القديم أيضا قضية الإلهام هذه بالبحث، فنجد"... القاضي الجرجاني في وسطاته، يجعل فكرة الإلهام ترتبط في إطار ما يسميه بالطبع، على شريطة أن تجمع بين الذكاء والدربة، فيقول : أن

[1] - رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النقد الادبي، المرجع السابق ، ص25.
[2] - محمد غنيمي هلال، النقد الادبي الحديث، ط1، دار العودة، بيروت، لبنان، 1982، ص305.
[3] - رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النقد الادبي ، المرجع السابق ، ص40.
[4] - المرجع نفسه، ص40.
[5] - المرجع نفسه، ص40.

أقول – أيدك الله – أن الشعر علم من علوم العرب، يشترك فيه الطبع والروية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له ، و قوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرر، و بقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ..." [1] ، و قد حاول الجرجاني في حديثه هذا عن الإلهام أن يزواج بين نظريتين مختلفتين لمفهوم الإلهام، نظرة أولى تقول بوجود ربات الشعر، توحي للشاعر بأجمل القول في أوقات يحس فيها بأنها خارجة عن إطار إرادته، فيما يأتي نظمه للقصيدة بشكل عفوي واريحية لا تكلف فيها ولاعناء ولا تعب، ونظرة ثانية تقول بالدربة والممارسة .

أما الفارابي فيقول :"... الأديب يعرض له الخاطر فيستهويه، ويسحره ولا يجري في باله – أول الأمر – شيء من المصائب و العوائق، ينظر إلى الغاية دون المذاهب ويشيع في كيانه الأثر الذي سيحدثه وقد يتصور الأمر واقعا، ولا يندر أن يتوهم أنه ليس عليه إلا أن يتناول القلم، فإذا به يجري أسرع من خاطره يكبر هذا في وهمه لحظة تطول أو تقصر، ثم يهم بالعمل ليعالج أداءه، فيتبين أن عليه أن ينضج الفكرة، و يتقصى النظرة و يلم بهذا و يعرج على ذلك... ثم إنه يصب ذلك في قوالب ملائمة ينبغي أن يعنى بانتقائها ..."[2]

فيما عد ابن رشيق في مؤلفه " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده "، الطبع هو الأصل في الشعر قائلا ".... ومن الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولا وعليه المدار، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين...." [3]

يرى حازم القرطاجني في محاولة تأليفية توليفية بين مفهومي الإلهام والطبع والصنعة في الشعر، أنه من الممكن تقويم الطبع عن طريق التعلم والممارسة من خلال التعرف على قواعده وخصوصياته، ومن ثم

[1] - رجاء عيد، الالتزام في النقد الأدبي، المرجع السابق، ص19.

[2] – المرجع نفسه، ص61

[3] – ابن رشيق االقيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ونقده ، ج1، ط5، دار الجيل ، لبنان ، 1981، ص129.

النظم فيه بعد الاطلاع على بحوره وأوزانه وعروضه ، يقول ".. وأنت لا تجد شاعرا مجيدا منهم إلا وقد لزم شاعرا آخر المدة الطويلة، و تعلم منه قوانين النظم و استفاد منه الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية .." [1] وهو الرأي نفسه الذي ذهب إليه الكثير من النقاد المحدثين، لعل من بينهم الناقد " أحمد بدوي " فقد تناول هؤلاء قضية الصنعة بالبحث والفحص والدراسة، وهم :"... يكادون يجمعون على أن الشاعر وإن كان عبقريا، يعود إلى شعره فيقومه ويهذبه و يغير من قوافيه إذا كانت قلقة ناظرة ، ومن عباراته حتى تسلس وتنقاد... " [2]

2 – الالتزام من منظور التيارات الفكرية المعاصرة :

عرف العصر الحديث انتشار العديد من المذاهب والتيارات الفكرية التي جاءت كتتويج للتطور الفكري الذي شهدته البشرية من جهة، وكرد فعل على تيارات فكرية سبقتها من جهة أخرى، واستند كل تيار من هذه التيارات على مرجعيات ومصطلحات ولغة خاصة به ، ومن بين هذه التيارات تيار الواقعية، الذي ظهر في شكل مستقل، انطلاقا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كرد فعل على التيار الرمنسي الذي أوغل في الخيال والانطواء على الذات، والبعد عن الواقع المعيش بكل ما يحمله من مآسي ومتاعب وإخفاقات فإذا :" ... كانت الرمنسية تحتفل بالأحلام والرؤي والتخمينات، انطلاقا من هذا الطرح كانت نظرة الواقعيين للرمنسية نظرة تلفها السلبية، وهذا :" ... يتجلى في نقد الواقعيين للتشاؤم الرمنسي الشهير حتى في أرقى تعبيراته وأنضجها وأقربها إلى روح التمرد الثوري..."[3]

لم يقتصر نقد الواقعية للتيار الرمنسي وحده ، بل طال نقدها الكثير من التيارات الفكرية والأدبية السابقة واللاحقة ، فبالرغم من تقاطع الكلاسيكية في كثير من المجالات مع الواقعية الموضوعية النموذجية مثلا ، إلا أن ذلك لم يشفع لها من تعرضها لوابل من الانتقادات " ... بيد أن الواقعية ترفض مثالية

[1] – حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ،1986 ، ص27

[2] – احمد بدوي أسس النقد الأدبي عند الغرب ، نهضة مصر للطباعة ، مصر ، 2003، ص485

[3] – صلاح فضل، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي ، ط2، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1981، ص187

الكلاسيكية وتفسر النموذج على أنه نموذج اجتماعي وليس نموذجا إنسانيا عالميا مطلقا ، كما ترفض ما تفترضه الكلاسيكية من وضع سلم لشرف الموضوعات ونبلها ، وتكسر مستويات الأسلوب... "[1]، كما لم تسلم من هذا النقد المدرسة الطبيعية التي تزعمها" إميل زولا" Emile Zola مؤسسا بذلك لنهج جديد في الرواية والقصة ، يعتمد بشكل أساس على مخرجات المنهج العلمي فصارت الرواية عنده توسم ب " الرواية التجريبية " Le roman expérimental متأثرة في ذلك بمنهج " كلود برنار " Claude Bernard في كتابة " مدخل لدراسة الطب التجريبي " الذي يقول عنه : "... هذا الكتاب الذي ألفه عالم يعتبر رأيه حجة قاطعة ، سأتخذه أساسا صلبا لي وسأحاول العثور فيه على جميع أبعاد المشكلة ، وعندما استشهد ببعض نصوصه، يكفيني أن أحل كلمة قصصي محل كلمة طبي لستقيم النظرية كحقيقه علمية ..." [2]

لقد أكد " إميل زولا " في الرواية التجريبية، على أن لا يقف الكاتب موقف المتفرج على الأحداث، مسجلا أياها فحسب ، بل لا بد من أن يقف منها موقف المجرب (Expérimentateur) الذي يخضع شخصياته لجملة من التجارب، ويعالج القضايا الاجتماعية والنفسية كما يعالج الطبيب مرضاه، وكما يتعاطى الفيزيائي مع المادة موضوع تجربته ، وهذا التصور جعل هذا التيار محط انتقادات لاذعة من قبل الواقعيين، فإذا كانت :" ... ضرورة خلق النماذج تعد من أهم أسس الواقعية الجمالية، فإن هذا يقوم في وجه الاتجاهات التي تبرز بإفراط الجانب العضوي في الوجود الإنساني كما نرى عند " زولا " ومدرسته، و في وجه الاتجاهات الأخرى التي تنحصر بالإنسان في المستوى النفسي البحت ... "[3]

[1] – صلاح فضل، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي المرجع السابق، ص 186

[2] – المرجع نفسه، ص189/188

[3] – المرجع نفسه، ص197

والروئ والتصورات مرتبطة بالجماعة والبيئة التي نمت فيها وترعرت:"... وإذا كانت المثالية ترى أن الإنسان يدرك الوجود بخواطره و تأملاته ، فإن الواقعية ترى أنه يدركه بتجاربه العلمية الواقعية ، هذا هو الأساس العام القاسم المشترك الأعظم الذي تشترك فيه كل مفاهيم الواقعية ..." [1]

كان للخصومة الحادة التي نشبت بين مجموعة من النقاد التشيكيين والكاتب الفرنسي " جول فرنسوا فليكس هوسن " Jules François Féliks Husson المعروف بإسم" شمفلوري" Champfleury (نسبة لبلدية شمفلوري) الأثر الكبير في بروز مصطلح الواقعية، " ... إذ قام هذا الكاتب عام 1857 بنشر مجموعة من المقالات الأدبية في مجلد أطلق عليه اسم الواقعية، كما أصدر مع أحد أصدقائه مجلة أدبية، لم تعمر كثيرا، تحمل نفس التسمية " الواقعية "، و قد تبلورت في هذه الكتابات النقدية المبادئ الأولى للواقعية ..."[2]

تأثرت الواقعية كتوجه أدبي بالكثير من الفلسفات السائدة في تلك المرحلة، كالفلسفة الماركسية والفلسفة الوضعية والوجودية :"... فقد اتجه الفن نحو الواقع بتأثير آراء فرانسيس بكون Francis Bacon (1561-1626) وهو أول من نادى بأن الفلسفة الطبيعية الواقعية التي تعتمد على التجارب الحسية للوصول إلى حقائق الوجود، هي وحدها الجديرة بالاحتفال ..." [3]

انتشر المذهب الواقعي بسرعة في القارة الأوروبية، فأشتد عوده و ذاع صيته و كثر مريدوه، فتطور بشكل لافت مع كتابات" غي دو موبسان " Guy de Maupassant و" ألفونس دودية Alphonse Daudet "و" الإخوة جونكور Les Frères Goncourt، و" ستندال " Sthendal ، و" مريمية Mérime و " غوستاف فلوبير" Gustave Flaubert و" إميلا زولا " Emile Zola، الذي ترك بصمات واضحةفي تاريخ الرواية العالمية، بتزعمه لتيار الواقعية الطبيعية وريادته لما بات يعرف بالرواية التجريبية، و" اونوريه

[1] – سيد أحمد النساخ ، في الرمنسية و الواقعية ، المرجع السابق ، ص77/76.

[2] – صلاح فضل، منهج الواقعية في الابداع الادبي، المرجع السابق، ص13.

[3] – سيد أحمد النساخ في الرمنسية و الواقعية ، المرجع السابق ، ص74

دو بلزاك " Honoré de Balzac رائد الواقعية النقدية، وصاحب أكبر موسوعة في الأدب الواقعي ، اسماها ساخرا ب " الكوميديا الإنسانية " La comédie humaine، وهي عبارة عن مجموعة من المؤلفات تفوق التسعين مؤلفا ما بين رواية وقصة ومقالة، امتدت كتابتها ما بين 1829-1850 ، صور فيها بلزاك الواقع الاجتماعي بكل مآسيه وتعقيداته، والطبيعة البشرية بكل جشعها وطمها وسوءاتها، ومن هنا كانت المفارقة بين المضمون وعنوان هذا العمل (الكوميديا) : "... وقد صور بلزاك صراع البورجوازية الأوروبية في سبيل الثراء والسلطان، وتحول ضمائر أفرادها من الإيمان بالمثل الأخلاقية الكريمة إلى الإيمان بالثروة وفضح فئة معينة أضلها اتجاهها الاستغلالي الجشع ... فكانت واقعيته بذلك اجتماعية محضى لم يتكلف فيها تطبيق النظريات العلمية ، وإنما قامت على النقد البناء المفيد ..."[1]

2 – 1 الواقعية الاشتراكية منظرا للالتزام :

تبلوت الواقعية الاشتراكية كمدرسة أدبية وفكرية في النصف الأول من القرن العشرين في مؤتمر إتحاد الكتاب الروس سنة 1934، على يد مجموعة من الكتاب الروس لعل أبرزهم كان " مكسيم قوركي "Maxime Gorki و" آندري جدانوف"[2] Andrei Jdanov، ويعد هذا التاريخ محطة هامة، ومنعرجا حاسما، وتحولا تاريخيا في حياة الأمة الروسية الأدبية والثقافية.

تتكئ الواقعية الاشتراكية من الناحية الفكرية على الفلسفة الماركسية التي قعد لها" كارل ماركس " Karl Marx متأثرا بكتابات أستاذه " جورج فريديريش هيجل " Georg Friedrich hegel ، وأفكار الاشتراكيين الفرنسيين " بيار جوزيف برودون" Pierre Joseph Broudhon، و" سان سيمون " Saint Simon الذي

[1] – سيد أحمد النساخ، في الرمنسية والواقعية، المرجع السابق، ص77.

[2] – آندري جدانوف (1896-1948) : مفكر و منظر و سياسي سوفياتي، من المقربين من الزعيم السوفياتي " جوزيف ستالين " كان مثقفا موسوعيا،عمل على توظيف كل الوسائل و الامكانات الفنية والابداعية (فن، آداب، موسيقى ...) من أجل مواجهة الثقافة البرجوازية، الى حد أن عد البعض أفكاره تيارا فكريا قائما بذاته (الجدانوفية) . –

اشتهر بكونه الرجل الذي وضع الاقتصاد مكان الإله كما يقول عنه أتباعه (L'homme qui mit l'économie à la place de Dieu)، و هو الشيء الذي ساهم في تحوله من المثالية إلى المادية، ومن الديمقراطية الثورية إلى الشيوعية الثورية ف :"....هناك إذن عاملان أساسيان ساعدا على بلورة الدعوة إلى الواقعية الاشتراكية في الأدب والفن، أما أولهما فهو الفلسفة الواقعية المادية الماركسية، وأما ثانيهما فهو ظروف المجتمع والحياة في روسيا بعد نجاح الثورة الاشتراكية ..." [1]

أشار" ماركس " وانجلز " في أكثر من موضع إلى أن فلسفتهما المادية إنما هي تتويج للمثالية الهيجلية، وإن كانا قد وجها نقدا قاسيا لهذه الأخيرة، منطلقين من فكرة أساسية وجوهرية في فلسفتهما، وهي اعتبارهما أن المادة هي أساس هذا الكون (الأجسام الحية : إنسان، حيوان، نبات، وأدوات الإنتاج، والتقنيات الحديثة...)، وأن مدار حياة البشر يدور حول التحولات التي تلحق بهذه المادة، ومن ثمة تأتي مسألة الأفكار والقيم والأخلاق، وهو ما يعرف في الفسلفة المادية بالبنية الفوقية، فيما تمثل المادة البنية التحتية، فالعلاقة بين هاتين البنيتين في الفلسفة المادية هي علاقة تصاعدية تنطلق من الأسفل (المادة) لتصل إلى الأعلى (الروح – القيم– الأخلاق).

بينما ترى الفلسفة المثالية الهيجلية، أن مركز هذا الكون هو الروح وليس المادة كما يرى "ماركس " و"انجلز "، فالروح هي مصدر كل الأفكار والسلوكيات التي تطبع حياة الإنسان، وأن هذه الأخيرة ما هي إلا تعبير وتجسيد لما تمليه الروح.

إن البنية الفوقية في الفلسفة المثالية هي الأساس، والعلاقة بينها وبين البنية التحية إنما هي علاقة نزولية تنطلق من الأعلى (الروح ، الأخلاق ، القيم) لتصل إلى تحت (المادة و الجسم).

إن القول بأسبقية المادة على الروح (الفكر– القيم– الأخلاق) قول ليس صحيحا بالمطلق ، فإذا كنا نرى في الكثير من الحالات أن الأفكار التي نحملها إنما هي انعكاس لوقائع عشناها ولمسناها، فإننا نجد

[1] – سيد أحمد النساخ، في الرمنسية والواقعية، المرجع السابق، ص84

أيضا أن بعض الحالات لا تستجيب لهذه الرؤية المادية البحتة، لأنه قد يحدث أن نحصل على انتاجات فكرية وقيمية متنوعة، لا بل ومختلفة انطلاقا من الواقع المادي نفسه.

كما أن الاعتقاد بأن لا وجود لأشياء مستقلة بذاتها، وخارجة عن نطاق المنظومة الفكرية والقيمية، اعتقاد فيه بعض المغالاة، لأننا يمكن أن نجد بعض الوقائع التي يمكن أن تأتي سابقة للفكر (وقائع طبيعية جامدة مثلا كالأرض والجبال والسماوات ، وحية كالحيوان مثلا...) .

لقد أتاحت وجهة النظر الماركسية هذه للكتاب الواقعين، أن يتسلحوا بقدرات جديدة في ضوء الفلسفة العلمية الحديثة، وأن ينفذوا منها إلى حقيقة قوانين التطور الاجتماعي المتحركة بصورة موضوعية، وأن ينشطوا في المطالبة بأدب واقعي ثوري يعبر عن الطبقة المنتصرة، وينتصر للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة، ويكون له دوره الايجابي الفعال والبناء الذي لا يقل عن دور أي وسيلة من وسائل الإنتاج باعتباره عملا منتجا، وبالنظر إلى الأديب من حيث كونه عاملا منتجا أيضا، وهنا برزت الدعوة إلى " الواقعية الاشتراكية التي استفادت كثيرا عن النظرية الماركسية ....." [1]

تعرضت الواقعية الاشتراكية كغيرها من المنظومات الفكرية والفسلفية والأدبية إلى وابل من الانتقادات من خصومها كما من بعض المنتسبين إلى المدرسة الواقعية :"... وقد عيب على الواقعية الاشتراكية، كونها ركزت على المضمون دون الشكل، بلا تبنت كلية الأشكال المعتمدة في الأدب البرجوازي، ونحن نعرف أن الشكل ليس حياديا و أنه يمثل الوعاء الذي يشكل المحتوى والمضمون ، لذلك فإن تغير المحتوى دون الشكل أدى إلى جملة من المتناقضات التي أثرت على محدودية المذهب الواقعي الاشتراكي، ونحن نعرف أيضا أن المحتوى في الواقعية الاشتراكية هو الأهم، بينما يضحى بالشكل في أغلب الأحيان..." [2]، كما

[1] – سيد احمد النساخ ، في الرمنسية والواقعية ، المرجع السابق ، ص 90.

[2] – الطبيب بودربالة ، جاب الله السعيد ، الواقعية في الأدب ، مجلة العلوم الإنسانية ، عدد7، جامعة محمد خيضر ، بسكرة الجزائر ، ص62.

كانت هدفا لبيان شديد اللهجة "... يعتبر رد فعل ضد الواقعية الاشتراكية، وقعه كل من الكاتب الفرنسي الشهير " آندري برتون "André Breton مؤسس السريالية، والرسام المكسيكي " ديبجو دي ربيرا "* Diego Rivera، وكلاهما ماركسي، تحت عنوان من أجل فن ثوري مستقل – و يقال أن كاتب البيان هو " تروتسكي" نفسه، لكنه آثر ألا يوقع عليه – يشنون هجوما عنيفا على تبعية الفن الذليلة للدولة في عهد ستالين..." [1]

وبالرغم من هذه السهام السامة الموجهة إلى هذه المدرسة الفلسفية والفكرية، مضت الأخيرة بكل ثقة، شآقة طريقها في خضم واقع تعيس ويائس، يستقبلها الكثير من النقاد والمفكرين والأدباء بترحاب كبير، معتبرين إياها بارقة أمل، عساها تكون حيز وفضاء لمجال إبداعي جديد، وسانحة تفتح أمامهم آفاقا غير محدودة، ويؤسس لميلاد مجتمع اشتراكي نموذجي :" ... وقد انتشرت الواقعية الاشتراكية في كل بلدان العالم تنظيرا و إبداعا، ورأى فيها بعض كبار الأدباء العالميين مشروع بعث إنسانية جديدة ، ومن روادها الكبار الشاعر الروسي " مايا كوفسكي" والأديب الروسي ذائع الصيت" غوركي " و" لويس أراغوان " في فرنسا ، و" ناظم حكمت " في تركيا و" بابلو نيرودا " في الشيلي و" غارسيا لوركا" في اسبانيا ومحمد ذيب في الجزائر ...."[2]

ولعلى أحسن من مثل هذا التوجه الفكري والفلسفي في كتاباته السردية على وجه التحديد في الجزائر، هو الشاعر والروائي " محمد ذيب " صاحب رواية الحريق موضوع دراستنا هذه، فهو :"... خير من مثل الواقعية الاشتراكية في الجزائر، وثلاثية المتكونة من الدار الكبيرة، الحريق، والنول تعبر عن انتقاضه الفلاحين الجزائريين من وجهة نظر تقدمية يسارية، وكل مكونات الواقعية الاشتراكية حاضرة في هذه الثلاثية (وبخاصة الحريق) مثل : انتقاضة الفلاحين والعمال ، الرؤية التقدمية ، الديناميكية الاجتماعية ، البطولة

[1]– صلاح فضل ، منهج الواقعية في الايداع ، المرجع السابق ، ص88–89.

[2]– الطبيب بودربالة ، السعيد جاب الله ، الواقعية في الأدب ، المرجع السابق ، ص61

الجماعية، والبطل الايجابي، روح التفاؤل، الحركة العالمية المناهضة الاستعمار وللرأسمالية، شفافية الكتابة .... الخ "[1].

نجح " محمد ذيب " في كتاباته خاصة الواقعة منها زمنيا في أربعينات وخمسينات القرن الماضي، في الدعاية عن طريق الرواية لقضية شعبه – المقهور فوق أرضه وتحت سمائه، من قبل الآلة الاستدمارية – ونقلها إلى العالمية، لقد أبدع محمد ذيب في وصف حياة الأهالي بأدق تفاصيلها، وبواقعية قل مثيلها، قبل أن يتحول إلى الكتابة الرمزية ويتحرر من القوالب التقليدية للكتابة الروائية.

2 – 2 الوجودية محضنا للالتزام :

ارتبط مفهوم الالتزام بمجالات شتى، اجتماعية كانت، أم سياسية أم ثقافية، وهو في جوهره دفاع عن قضية ما، وانتصار لها، واعتقاد بمشروعيتها، وبحسب منظري هذه المدرسة الفكرية والفلسفية، فإن كل إنسان مدعو للالتزام بهذا المفهوم، ولو في معانيه البسيطة، والشائعة عند عامة الناس، في حين أن التزام المفكر والمثقف والمبدع أعمق بكثير :" ... ويؤكد " إدوارد سعيد " أن رسالة المثقف رسالة حضارية تتجلى في حرصه على الحفاظ على القيم المطلقة كالعدالة والحقيقة والعقل ، لهذا نجد المثقف الفعلي القائم بدوره دائما يقف وجها لوجه أمام السلطة، رافضا لآديولوجيتها التي تحاول طبع المجتمع بها بطرق مختلفة، فتتعاظم الأدوار التي يجب على المثقف أن يقوم بها ، و في نفس الوقت يبقى المثقف مترددا في كثير من الأحيان بين الالتزام الفكري، فيبقى معرفيا في مهمته، و بين الانخراط في السياسة و رفض إيديولوجية السلطة ..." [2]

[1] – الطبيب بودربالة ، السعيد جاب الله ، الواقعية في الأدب ، المرجع السابق،ص62.

[2]– أحمد معط الله، رؤية ادوارد سعيد للمثقف العربي بين الالتزام و الإيديولوجية ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، العدد الخامس ، جوان 2016، ص51

إن هذا النوع من الالتزام الساتري الذي أصبح يتعاطى مع الإنسان الفرد، ومع قضايا التحرر الاجتماعي والنضال من أجل إسناد حركات المقاومة ضد قوى الاستكبار والهيمنة، جاء في أعقاب ذلك الالتزام الذي دعا إليه " فلاديمير لينين " Vladimir Lénine و" غرامشي " Gramsci Antonio و" ماو تسي تونغ " Mao Tsé-Toung، فالمثقف الملتزم في نظر هؤلاء، هو ذلك الجسر الذي يربط بين ضفتين، ضفة المعرفة من جهة، وضفة الجماعات المقهورة والمسحوقة من جهة أخرى .

يقول محمد عزيز الحبابي عن العلاقة بين الفسلفة والالتزام :"... يجب على الأبحاث الفلسفية أن يكون لها اتصال مباشر حميمي بالحياة ، فتاريخيا لا يمكن لفيلسوف حق أن يكون محايدا : الفلسفات التي ترفض الالتزام والنضال تغرق في هذر من النظريات المجردة ...." [2]

إن الفسلفة السارترية كما الواقعية الاشتراكية، تكرسان فكرة الالتزام في الأدب، وأن على الأديب أن يلتزم في فيما يبدع، وأن يكون وفيا مع نفسه، ومع أفكاره حتى في أحلك الظروف.

وبالعودة إلى مفهوم الالتزام الوجودي، فقد صدرت: "... مجموعة مقالات شهيرة بعنوان ما الأدب ؟ نشرت عام 1948، وضع سارتر مفهوم الأدب الملتزم، اعتمدت فكرته الأساسية على أن الكتابة هي شكل من أشكال الفعل التي يجب أن نتحمل عنها المسؤولية، لكن هذه المسؤولية تتعلق بمضمون الفعل، لا بشكله فقط..." [3]

[2] – محمد عزيز الحبابي ، من الحريات إلى التحرر ، دار المعارف، مصر، 1972، ص206.

[3] - توماس آرفلين، الوجودية ، تر: مروة عبد السلام، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر ، 2014، ص251

يرتكز الفكر الوجودي على ذات الإنسان ووجوده، لا على وعيه أو المقولات المعنوية لشخصيته، متجاوزة فكرة أن الإنسان مادة وروح ، وهي بهذا المفهوم تكون قد أسست لمذهب فلسفي قائم على اعتبار الإنسان الفرد هو أساس كل شيء، وعلى مناهضة كل المذاهب والتيارات والفلسفات التي من شأنها التقليل من قيمة الفرد وحريته ووجوده.

وتقوم الوجودية على فكرة أساسية وهي أن " الوجود يسبق الماهية " L'existence précède l'essence، ومعنى هذا الكلام أن الإنسان يوجد أولا ثم يعرف، مخالفة بذلك كل الأديان والفلسفات السابقة التي تعتقد أن الماهية تسبق الوجود، لأن الإنسان مخلوق لله تعالى، ومخلوقيتة سابقة في علم الله وتقديره، قبل أن يتحقق وجود الإنسان في هذا الوجود، و الهدف من هذه الفكرة هو أنه ما دام أن لا ماهيات قبل وجود الإنسان، فهو إذن غير محكوم بأية ضرورة أو حتيمة، فلا إله ولا تاريخ ولا قيم لا ودين "... وقد وصل سارتر إلى الاعتقاد بنفي الأ لوهية وأن الوجود يجب أن يخلي من اعتباره وجود الله L'existence de l'homme exclut l'existence de Dieu..." [1]

تغرق الوجودية أيضا في فهمها للحرية، لا بل وتقدسها، وترى أن الفرد لا بد وأن يكون حرا، وأن لا يقف شيء في سبيل حريته، لا دين ولا مجتمع ولا أي شيء، جاعلة من كل لخطة في الحياة اختيار حر لا غير، لا يكترث لأي مانع، أخلاقي أو ديني، والوجود يون نوعان :" ... أولهما الوجوديون المسيحيون وأذكر من بينهم ياسبرس وغابرييل مارسيل ذوي العقيدة الكاثوليكية، وهناك من جهة أخرى

[1] – رجاء عيد ، فلسفة الالتزام في الفقد الأدبي، المرجع السابق ، ص141

الوجوديون الملحدون، وندرج ضمنهم هايدغر[1] والوجوديين الفرنسيين أيضا، وأنا نفسي، وما يشتركون فيه ببساطة أنهم يعتبرون الوجود سابق على الماهية ..." [2]

إن كانت الوجودية الملحدة التي دعا إليها كل من هايدغر وساتر وألبير كامو وسيمون دبوفوار وغيرهم، وجودية يسودها الإحساس الدائم بالقلق وبالنظرة إلى المظاهر السلبية فقط في هذه الحياة، فإن الوجودية المؤمنة أو الدينية التي تزعمها " غابرييل مارسيل" Marcel Gabriel كانت مطبوعة بنظرة تفاؤلية، معتبرة الإيمان بالرب يساعد الإنسان على حل مشكلاته، فيما يعتبر الكثير من الباحثين أن الرائد الأول لهذه المدرسة الوجودية الدينية هو الفيلسوف الدنمركي تسورين كرغارد"..." [3]

يتضمن الفكر الوجودي ثلاث مفاهيم مفتاحية يقوم عليها بناؤه، هي الحرية والمسؤولية ومن ثم الالتزام :"... فعندما اختار الخير لصالح نفسي، يكون صالحا لغيري، وما دمت ادعو الناس عن طريق اختياري فكأنني تحملت مسؤولية عن الأخرين بسبب القلق والهم اللذين يصاحبان هذه المسؤولية، وعلى ذلك فالتزام الفرد ليس إتجاه نفسه بل اتجاه إلبشر جميعا ... "[4]

تتقاطع الوجودية مع الواقعية الاشتراكية في نظرتهما للدين والأخلاق، ففي تصورها فكرة الله من خلق الإنسان، وإنه لمن المفارقات وكبرى المتناقضات أن يكون الله موجودا ويكون الإنسان حرا، متأثرة في ذلك بفكرة " فريديرك نيتشه "Friedrich Nietzsche القائلة بموت الإله، وقيام الإنسان الكامل" السوربرمان "،

---

[1] - مارتن هايدغر Martin Heidegger (1889 – 1976)، فليسوف الماني تتلمذ على يد" إدموند هوسرل" مؤسس الظاهر تية، من أهم أعماله : الوجود والزمان (1927) و المفاهيم الأساسية في الميتافيزيقا (1961).

[2]- جون بول سارتر الوجودية منزع انساني، تر: محمد نجيب عبد المولي/ زهير المدنيني، ط1، دار محمد على للنشر، مصر،2012، ص26، 27.

[3]- تسورين كبرغارد Soren Kierkegaard (1813–1855) فيلسوف و لاهوتي و شاعر دنماركي، كتب نصوص نقدية حول المسيحية ، و الأخلاق و علم النفس، تتعامل الكثير عن أعماله مع القضايا التي تناقش كيف يعيش الفرد كفرد منفرد مبرزا أهمية الاختيار الشخصي و الالتزام.

[4]- رجاء عيد ، فلسفة الالتزام في النقد الأدبي، المرجع السابق، ص143.

كما أنها ترى أن الاخلاق عقبة في طريق الإنسان، تحد من حريته، لكنها تختلف معها في النظرة للإنسان، فإذا كانت الوجودية تقدس فردية الفرد وذاتيته معتبرة إياها:"... مكونة المجتمع، وهي أساس الفكر ومنبع الإبداع الفني..."[1] فإن الواقعية الاشتراكية لا تعترف بهذه الفردية والذاتية لابل وتلغيها :"... لذلك فهي تجعل الفرد قطرة ذائبة في بجر المجتمع الذي يكون الصورة المتكاملة لوجوده.."[2] وفي نفس هذا السياق، فإن الوجودية تقول بالحرية الكاملة للإنسان الفرد، فيما تعتقد الواقعية الاشتراكية بحرية الجماعة، وينبه الوجوديون إلى وجود نوعين من الالتزام ، التزام سلبي وآخر ايجابي :"...الأول يتضح في الخضوع للإملاء الذي يفرضه الآخرون على الذات، فيحقق ذاته عن طريق الذوب في المجموع، وعلى ذلك فهو جبان lâche، وسوف يفقد حريته في النهاية، ويتحول من موجود لذاته إلى موجود في ذاته، والاتجاه الثاني، التزام ايجابي ينتج عنه الرفض لأية أحكام سابقة، وعليه فلنواجه الحياة بأنفسنا من غير معاونة خارجية رافضين لكل المثل الجاهزة..." [3]

2-2 -1 الوجودية السارترية هدفا للانتقادات :

تمر كل حقيقة بحسب الفيلسوف الألماني " آرثر شوبنهاور"[4] Arthur Chopenhauer، زعيم النزعة التشاؤمية بثلاث مراحل ، مرحلة الاستهزاء بها ثم تعرضها لمقاومة شديدة وأخيرا سيرورتها نحو التسليم بها (Toute vérité franchit trois étapes : d'abord, elle est ridiculisée. Ensuite, elle subit une forte opposition. Puis, elle est considérée comme une évidence). وإن كانت

[1] - رجاء عيد ، فلسفة الالتزام في النقد الأدبي، المرجع السابق، ص144.

[2] - المرجع نفسه، ص144.

[3] - المرجع نفسه، ص144.

[4] – * آرثر شوبنهاور Arthur chopenhauer (1860 – 1788) ، فليسوف ألماني معروف بفلسفته التشاؤمية – لا يرى في الحياة إلى الجانب المظام و الشر المطلق ، من أشهر مؤلفاته : العالم ارادة و تمثل .

الوجودية لم ترق إلى أن تصير مسلمة بسبب مغالاتها في النظرة للدين والأخلاق والحرية و الوجود – الشيء الذي أدى الى أفول نجمها، إلا أنها مرت بالمرحلتين اللتين حددهما " شوبنهاور "، فقداستهزئ بها في البداية، وشنت عليها حربا بلا هوادة، فقد رأى التيار الشيوعي في تلك الفترة أنها تعمل على :"... التشديد على الخسة الإنسانية وبيان الدناءة والإبهام والميوعة في كل شيء، والتغاضي عن بعض مظاهر الجمال المبهجة، والجانب المشرق من الطبيعية الإنسانية..."[1] فيما آخذنا التيار المسيحي، يقول جون بول سارتر، على "... إنكارنا لواقعية الالتزامات الإنسانية وجديتها، بما أننا بإنكارنا وصايا الله والقيم المنقوشة أزليا، لن تبقى لنا إلا اعتباطية محضة باستطاعة أي فرد أن يفعل ما يشاء دون أن يكون قادرا – من وجهة نظره – على إدانة وجهات نظر الآخرين و أفعالهم...." [2]

إن فلسفة تلغي معقولية الكون من خلال إلغاء كل ضرورة، وتنفي كل يقين ، تؤدي وبصفة تلقائية إلى الشك والإحباط والخوف والعدمية * والعبثية ** التي تجعل الإنسان يعيش في حيرة من أمره، بين متطلباته المعقولة، والعالم غير المعقول الذي يعيش فيه، وهذا التناقض هو الذي يدفع بالإنسان العبثي بإتجاه الانتحار، سواء أكان انتحارا جسديا ينتهي بالموت، أو انتحارا فلسفيا [3] Un suicide philosophique يحافظ على الحياة، ويدفع بإتجاه الأمل، إذا ما تمكن الوعي منه، فبتكرار سيزيف، بطل رواية "أسطورة سيزيف" لألبير كامو، رفع الصخرة من قاع الوادي إلى قمة الجبل، يشعر بأن لا جدوى من عمله هذا، إلا

[1] - جون بول سارتر، الوجودية منزع انساني، المرجع السابق، ص20.

[2] - المرجع نفسه، ص20/21.

* العدمية Le nihilisme : هي فلسفلة قائمة على رفض جميع المبادئ الدينينية والأخلاقية، والاعتقاد بأن الحياة لا معنى لها، من أشهر رموزها : فيودور دوستويوفسكي .

** العبثية absurde : مدرسة فكرية وأدبية قائمة على عدم التوافق والانسجام، وانعدام المنطق في تركيب العالم، الأمر الذي يكابده الذهن ويعانيه، من رموزها : ألبير كامو، كيرغارد سورين.

[3] – جون بول سارتر ، الوجودية منزع إنساني ، المرجع السابق، ص21

أن تمسكه بالحياة وبالأمل يجعله أشد إصرارا على مواصلة عمله العبثي، متحديا الموت في كل لحظة، لهذا كان " سيزيف " بطلا عبثيا بإمتياز.

كما عد إغراق الوجوديين في القلق والتشاؤم من بين المؤاخذات التي سجلت في حق هذا التيار، ما دام لا منطلق واضح ينطلق منه هؤلاء، ولا مصير معروف يسعون نحوه، ويقر " جون بول سارتر" بنفسه بهذا الأمر قائلا :" ... ونحن على علم بالمأخذ الجوهري الموجه إلينا والمتمثل في تصويب اهتمامنا نحو الجانب السيء من الحياة الإنسانية ... "[1]

ويردف" سارتر " قائلا :"... حدثوني مؤخرا عن سيدة، أنها عندما تفوهت – تحت ضغط الغضب – بكلمة بذيئة اعتذرت قائلة : يبدو أني أصبحت وجودية ..." [2] لقد آلم هذا الوصف كثيرا جون بول ساتر الذي اعتبره تحاملا على الوجوديين غير مبرر على الاطلاق، لأن هؤلاء غير تشاؤميين ولا سلبيين، لا بل إن الوجودية :"... تحث الإنسان على العمل ومشاركة الآخرين، وترى هذا العمل أمل الإنسان الوحيد، ترى حثها على هذه المشاركة، أن خطأ الفعل خير من براءة اللافعل ..." [3]

2 –3 الالتزام بين الواقعية الاشتراكية والوجودية :

ترى المدرستان الوجودية والواقعية الاشتراكية أنّه على الأديب أن ينخرط بشكل أساسي في حركة هذا المجتمع في كل مجالاتها، فالأدب موقف يتخذه الأديب، وقضية يناضل بالكتابة من أجلها ، لكن ثمة تباين في الرؤية بين هاتين المدرستين لمفهوم الالتزام، فـ: "... الالتزام لدى سارتر فردي يوجد ذاتيا وينتهي ذاتيا بخلاف الواقعيين، والسبب هو نقطة البدء في الفكر نفسه، فالفلسفة الاشتراكية تعتبر الفرد تحت سيطرة الواقع، ومنه يأخذ أحاسيسه ومعتقداته وأفكاره... أما الوجودية فتجعل نقطة مبدئها الذات ... " [4]

[1] – جون بول سارتر ، الوجودية منزع إنساني ، المرجع السابق، ص21.

[2] – المرجع نفسه، ص21.

[3] – رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النقد الأدبي ، المرجع السابق، ص145.

[4] - المرجع نفسه، ص.155

هذا من جهة النظر إلى مفهوم الالتزام، أما من جهة النظر إلى مفهوم الحرية، فالواقعية الاشتراكية :"... تؤمن بأن الحرية قضية اجتماعية لن تتم إلا في تقويض الأنظمة الرأسمالية والبرجوازية، بينما يراها سارتر مشكلة فردانية لا صلة لها بأي وضع اقتصادي، والفرد يملك حرية التصرف بمجرد اختيار الموقف..." [1] لكن هذا التباين في التعاطي مع مفهوم الالتزام بين الواقعية الاشتراكية والوجودية لا يلغي وجود نقاط تقاطع كثيرة بين المدرستين الفكريتين لعل أهمها أن :" .... الالتزاميين سواء أكانوا واقعيين اشتراكيين أم كانوا وجوديين، لا يعترفون بفكرة الفن للفن ولا يرضون الإمتاع غاية من غايات الفن الأدبي ... " [2]

إن الالتزام الحق لا يمكن أن يكون قيدا يحد من حرية الأديب والمفكر، ولا إلزاما له بعقيدة معينة أو فكر ما، بل هو موقف يتخذه بكل حرية دونما ضغط أو تأثير، موقف نابع من المرجعية الفكرية والثقافية التي يؤمن بها : "... ليس هناك من شك في أن الأديب يجد مجالا أرحب لتقدير فنه، إذا استطاع أن يرضى العقول بالإضافة إلى غايته الأصلية من هز المشاعر، وإرضاء العواطف..." [3]

3 – الثورة الجزائرية محكا للالتزام .

لطالما تغنت فرنسا بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ولطالما تعالت بشعار ثورتها " أخوة – حرية– مساواة "، لكن واقع سلوكاتها في مستدمراتها، بل وحتى داخل المتروبول نفسها (إذا ما تعلق الأمر بالتعامل مع المهاجرين)، كان يوحي غير ذلك، لا بل ونقيض ذلك تماما، فقد عمدت إلى تبني سياسة التفقير والتجهيل ومحاربة عناصر الهوية من لغة ودين وغيرهما :" ... فقد حرم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات، فاللغة العربية تعتبر في الجزائر لغة أجنبية منذ عام 1830، إنهم مازالوا يتحدثون بها إلى اليوم... ليس هذا فحسب، بل إن الإدارة الفرنسية قد صادرت دين العرب لكي تعمل على تفتيتهم وانتزاعهم

[1] – رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النقد الأدبي، المرجع السابق، ص155

[2] – بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية ، 1984، ص33

[3] – المرجع نفسه، ص82

من جوهم العربي، وهي تختار رجال الدين الإسلامي من بين عملائها..." [1] لقد عاثت فرنسا الاستدمارية في الجزائر فسادا، آتية على الاخضر واليابس، وكرد رد فعل على هذه السلوكات، فقد انتفض الشعب الجزائري برمته في وجه هذا الطغيان، راسما صورا غاية في الشجاعة والمقاومة والبطولة، ومؤسسا لمرحلة جديدة في تاريخه، عنوانها ما أخذ بالقوة لا يسترد إلى بالقوة ، ولأن الحق منتصر بالرغم من كيد الكائدين، فقد ظهر من صلب الفرنسيين أنفسهم من صدح بالحق وكشف الحقائق وعرى زيف الاستدمار، فكان" جون بول سارتر " Jean Paul Sartre واحدا من هؤلاء، فقد كان موقفه من الثورة واضحا وجليا وثابتا، مسقطا كل الأفكار والقيم والمبادئ التي آمن بها ونظر لها عن الالتزام، فلم تعد مجرد أفكار تسبح في فضاء النظريات المجردة . لقد أيد" سارتر" الثورة الجزائرية ودافع عنها، مدينا في الوقت نفسه المؤسسة الاستدمارية ورموزمها، داعيا فرنسا إلى أن تخلص نفسها من فرنسا، ومعتقدا اعتقادا جازما أنه :"... إذا كنا نريد أن نوقف هذه الأعمال الإجرامية التي تنفر منها الإنسانية ، وأن ننتشل فرنسا من وصمة العار، وننقذ الجزائريين من هذا العذاب الوحشي ، فليس هناك إلا سيل واحد هو أن نفتح باب المفاوضات على مصراعيه وندخل إلى السلام من بابه الواسع...." [2]

تعاطف سارتر مع الثورة، و تعامل معها كإنسان لا كناشط سياسي في الحزب الشيوعي، و يضيف " سارتر " عن هذا الموقف قائلا :"... إن الدرس الوحيد الذي تعلمناه من هذه الأحداث ، نحن فرنسيي الوطن الأم، فهو أن الاستعمار يعمل الآن على هدم كيانه، ولكنه مازال سادرا في تعكير الجو، إنه عارنا وهو يتنكر لمبادئنا ويظهرنا بمظهر ساخر أمام العالم ..." [3]لقد حرص " سارتر " في الكثير مما كتب إلى لفت القارئ، ومن خلاله لفت الرأي العام الفرنسي تحديدا، والعالمي بشكل عام، إلى معاناة الشعب الجزائري القابع تحت الاحتلال والمتعرض لكل أنواع القهر والتعذيب والقتل بكرة وعشيا، ف :"... حقيقة أن ما

[1] – جون بول سارتر ، عارنا في الجزائر، الدار القومية للطباعة النشر ، مصر ، ص18

[2] - المرجع نفسه، ص59

[3] - المرجع نفسه ، ص26

بين 1957و1959، ركزت كتابات " سارتر " السياسية على طرق التعذيب في الجزائر، وأصبح مهتما بالشعب الجزائري الذي فرض عليه القتل الجماعي، والتعذيب والتشريد "... وعلى هذا الأساس كتب سارتر " سجناء ألطونا " لكي يقارن جرائم النازية التي كانت أرحم من الجرائم التي ارتكبتها فرنسا في حق الشعب الجزائري ..."[1] لم تقتصر هذه السلوكيات الوحشية على الشعب الجزائري وحده، بل إن كل مستدمرات فرنسا كانت مسرحا وفضاء لها، وستبقى من دون ريب وصمة عار في جبين هذا البلد الذي ما فتئ يتشدق بمقولات حقوق الانسان والكرامة الإنسانية، لكن الحقيقة أنه لطالما عمل على:" ... نزع حضارة الأرض المستدمرة، وعلى إشاعة خبله بأتم المعنى، و تكسيره و إيقاظ غرائزه المكبوتة، وإثارة الجشع والعنف والحقد العنصري ونسبية الأخلاق...وعلينا إظهار أنه في كل مرة يقطع رأس في فييتنام، وتغتصب فتاة صغيرة، أو ينكل بملغاشي، إنما نتقبله في فرنسا كمكسب للحضارة التي تلقى بوزنها الميت ... " [2]

إن عملية انبعاث الوعي الوطني مسألة غاية في الأهمية، لما تحققه من نفع، لأنها عملية لا بد وأن تفضي إلى إيقاظ الضمائر، وشحذ الهمم، تحريرا للطاقات الكامنة من أجل :"... استعادة الذات والكرامة المستقلة، إن الاندماج في المستدمر يستلزم إلى حد ما رفض الذات، ورفض المستدمر بالمقابل، هو التمهيد لاستعادة الشخصية، حيث يجب التخلص من هذه الصورة الاتهامية والمعطلة ، ويجب مواجهة القمع طالما أنه من المستحيل الالتفاف عليه ...." [3]

ومن هنا تبدأ الذات في اكتشاف حقيقتها، وأنها ليست ذاتا من الدرجة الدنيا، أو أنها ذاتا تابعة، فيتولد لديها شعور بالرغبة في تحقيق هذه الذات طالما أنها تماما مثل ذات المستدمر، وهي فكرة يعبر عنها فرانتر فانون بقوله"... اكتشف المستدمر إذن أن حياته، نفسه، وخفقات قلبه هي نفسها الموجودة عند المستدمر، وأن لون بشرة هذا الأخير ليست أفض منل بشرته، إن هذا الاكتشاف يحدث رجة هائلة في العالم

[1] – جون بول سارتر ، عارنا في الجزائر المرجع السابق ، ص26

[2] – إيميه سيزر، خطاب حول الاستدمار، تر: ميشال سطوف، منشورات أناب، الجزائر، 2006، ص12.

[3] – ألبير ميمي ، صورة المستعمر، تر، ميشال سطوف ، ANEP ، الجزائر، 2007، ص132

فإذا كانت حياتي لها نفس قيمة حياة المستمدر، فإن نظرته لم تعد لتصعقني، ولا لتشل حركتي وأن صوته لن يخيفني..." [1]

" ... Le colonisé donc découvre que sa vie, sa respiration, les battements de son cœur, sont les mêmes que ceux du colon, il découvre qu'une peau de colon ne vaut pas plus qu'une peau d'indigène, c'est-à-dire que cette découverte introduit une secousse essentielle dans le monde...si en effet ma vie a le même poids que celle du colon, son regard ne me foudroie plus, ne m'immobilise plus, sa voix ne me pétrifie plus..."[2]

عدت الثورة الجزائرية محكا حقيقيا، به ميز الشعب الجزائري بين مواقف النخب الفكرية الفرنسية التي لطالما تغنت بالقيم الإنسانية من حرية وعدالة وعيش كريم ، فإذا كان " جون بول سارتر " قد أبلى البلاء الحسن بوقوفه إلى جانب الحق، ودفاعه عن أصحابه، فإن زميلا له في المدرسة الوجودية، قد كشفت الثورة الجزائرية زيف دعواه، وأعني بذبك الروائي والفيلسوف والمسرحي " ألبير كامو "، وهذا بالرغم مما قدمه من إسهامات ايجابية في سبيل بعث الأدب الأهلي، لكن مواقفه من الثورة لم تكن لترقى إلى مستوى دوره الإنساني هذا، فقوله أنه لو خير بين العدالة وأمه لاختار أمه، عند رده عن سؤال لطالب جزائري غداة تسلمه لجائزة نوبل للأدب سنة 1957، جلب له العديد من الانتقادات، إن من قبل اليسار الفرنسي الذي كان ينتمي إليه، والذي عرف عنه تعاطفه مع الثورة، وإن من قبل النخب الجزائرية التي رأت في موقفه هذا خيانة لقضيتهم، بعد التعاطف الذي أبداه فيما مضى مع وضع الأهالي الصعب، ودعوته لفكرة استفادة الأهالي من مزايا المواطنة الفرنسية، وكذا حصولهم على بعض الحقوق داخل إطار فيدرالي يضمن لهم الوجود

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Fantz Fanon, les damnés de la terre, édition Enap, Algérie, 2006, p : 20.

الحر، وقد لاقي " ألبير كامو" نظير موقفه هذا، وعدم التزامه بالأفكار التي ناضل من أجلها، انتقادات لاذعة خاصة من أحد المقربين من " سارتر " في أثناء صدور كتاب كامو " الإنسان المتمرد "، وهو فرنسيس جونسيون Francis Johnson[3] الذي كان يشرف على صدور مجلة " الأزمنة الحديث " Les temps modernes المناصرة للثورة الجزائرية، جنبا إلى جنب مع الوجودية والنسوية " سيمون دوبوفوار" Simon Debauvoir.

تضمن مقال " جونسون " الذي يقع في إحدى و عشرين صفحة، دراسة نقدية لكتاب" الإنسان المتمرد " التزمت بموضوعين رئيسيين، هما الهجوم على المؤلف والكتاب، والملاحظ أن " جونسون "حتى قبل أن يلمس جوهر الكتاب، شرع ينتقذ الرجل وكتاباته السابقة... وعزا بعد ذلك لهجته الساخرة إلى رغبته في الحد من شهرة " كامو" كقديس أخلاقي...." [2]

وقد كال " جونسون" سيلا من الانتقادات " لكامو " بسبب خذلانه للثورة التحريرية، ووقوفه منها موقفا لم ينل رضى الوطنين الجزائريين، ولا رضى المعمرين، فعاش تبعا لذلك وضعا نفسيا صعبا، وحالة من التمزق زادت في تعقيد وضعه، وكذا ضبابية انتمائه وهويته،" فكامو " ذو الأصول المختلطة الفرنسية الإسبانية، و ذو المولد والمنشأ الجزائري، عاش بسب المواقف التي اقتنع بها، وعبر عنها في أكثر من مناسبة حيال الجزائر وثورتها المأساة نفسها التي عاشها " فرنان إفتون " الذي تعاطف مع الثورة الجزائرية فانخرط فيها، فحاول تفجير المصنع الذي يعمل فيه، تنفيذا لأوامر قيادة الثورة، لكن خشيته من (قوع ضحايا من بين الأبرياء خاصة بعد عودة عاملين اثنين إلى الموقع الذي وضع فيه " إفتون " القنبلة الموقوتة

---

[1]- فرنسيس جونسون Francis Johnson(1922– 2009) : وجودي فرنسي من المقربين جدا من " جون بول ساتر"، عمل رئيسا لتحرير مجلة الأزمنة الحديثة، كان مناصرا قويا للثورة التحريرية ، أسس جبهة لدعم الثورة التحريرية اسماها حملة الحقائب Les porteurs de valises، كما ألف سنة 1955 مع زوجته " كوليت "colette كتابا (1975) بعنوان " الخارجون عن القانون " وكتابا آخرا بعنوان " حربنا " سنة 1960، حكمت عليه السلطات الفرنسية ، بعشر سنوات سجنا غيابيا، وفي سنة 1966 شمله العفو العام.

[2] - رونالد آرنسون ، كامي و ساتر ، تر: شوقي جلال ، مجلة عالم المعرفة ، عدد 344ديسمبر ، 2006، ص186

جعله يعود ويفكهها، وفي أثناء ذلك قبض عليه وحكم عليه بالإعدام، وكانت النهاية بأن أدين من الطرفين، من طرف القادة الوطنيين بسبب خيانته لقضيته، ومن طرف الفرنسيين بسبب خيانته لأصله وعرقه، وهي الحادثة التي حولها " إما نويل روبلس " Emmanuel Roblès بلمسة إبداعية جميلة إلى مسرحية حملت عنوان " مرافعة من أجل ثائر "Plaidoirie pour un rebelle تقول جوليانة توزو رودينيس: "... توجه كيلر هذا الصباح إلى المصنع بنية عدم إيذاء أي شخص ، فألقي عليه القبض في الوقت الذي كان يغير فيه مكان القنبلة الموقوتة، وقد كان حرصه على حماية عاملين تأخرا في الضواحي، أكثر من حرصه على إتمام مهمته مهما كلفه ذلك من ثمن ، لكن سلوكه هذا ضيعه، فأرتد عليه الجميع ، فهو بالنسبة للبعض خائن لقضيته و بالنسبة للبعض الاخر خائن لأصله و عرقه..." [1]

"... keller se rend ce matin là à son usine avec le dessein de n'atteindre personne, il se fait prendre au moment même oû il change le dispositif, soucieux qu'il est de protéger deux manœuvres attardés dans les parages, plutôt que de mener à bien, coute que coute sa mission.Ce geste le perd.Tout le monde se retourne contre lui, aux yeux de tous il a trahis. Traitre pour les uns à sa cause, traitre pour les autres à son pays..."[2]

4 – الالتزام من وجهة نظر إسلامية :

إذا كان الالتزام في الواقعية الاشتراكية ينطلق من الجماعة، ويعتبر هذه الأخيرة هي مصدر أحاسيس الكاتب ومعتقداته وأ فكاره، وفي الفكر الوجودي ينطلق من الذات جاعلا منها البؤرة الأساس، التي تدور حولها كل أطروحاته ، فإن الالتزام من وجهة النظر الإسلامية يرى أن :"... الأديب الملتزم التزاما ثقافيا

[1] – ترجمة الباحث ، تدقيق المشرف.

[2] - Giuliana Toso Rodinis, Emmanuel Roblès et le gand théatre du monde, traduit de l'italien par Gérard Hug, Paris, France, 1959, p :179.

برؤية إسلامية فهو الأديب الذي يعبر عن المفاهيم الإسلامية أو الأفكار الإسلامية أو التصورات الإسلامية الشاملة لجوانب الحياة كلها تعبيرا فنيا رائعا، فأراه ملتزما وهو يتحدث عن العقيدة، وأراه ملتزما وهو يتحدث عن العبادة، وأراه ملتزما وهو يتناول علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وأراه ملتزما عندما يعبر عن الحياة وعن المعاناة ....وأراه ملتزما وهو يتحدث عن علاقتة بأبنائه و أراه ملتزما في وقفته أمام أحداث زمنه وقضايا أمته ...."[1] إن الالتزام بهذا المعنى التزام حر، لأنه ينطلق من عقيدة راسخة وقناعات رصينة، والحرية بالمفهوم الإسلامي حرية كاملة غير منقوصة، بل هي ضرورة من الضرورات التي يقوم على الدين الإسلامي، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى في محكم تنزيله : "... لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي.." سورة البقرة، الآية 256، إن هذه الآية الكريمة قطعية الثبوت وقطيعة الدلالة في الدعوة إلى عدم إكراه الناس للدخول في الإسلام، وقوله تعالى أيضا :"... وقل الحق من ربكم فمن شاء فليمن ومن شاء فليكفر..." سورة الكهف، الآية 29، فالحرية وفقا للتصور الإسلامي مضمونة لكنها ليست مطلقة، لأن ذلك سيجعل منها مدعاة للفوضى، فحرية بلا ضوابط ولا قيود تنتهي إلى الانفلات والتميع والتشرذم .

إن الأدب الإسلامي– شعره ونثره – بإعتباره :"....التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان، من حلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان ... " [2]، هو المادة الخام التي منها ينطلق التزام الكاتب في سعيه لتكريس قيم الحق والخير والعدل والجمال، و تصديه لكل فكر منحرف أو سلوك غير سوي : " ... ونستطيع أن نقول بأن ظهور الإسلام أدى إلى التزام بعض الشعراء مثل الأعشى التميمي، ومعبد الخزاعي وعلى رأسهم حسان بن ثابت، وكذلك شعراء المغازي والفتوح، وانضم إليهم المشركون، أمية بن ابي الصلت وعبد الله الزبعدي وسواهم.."[3]

[1] – محمد رأفت سعيد، الالتزام في التصور الإسلامي للأدب، ط1، دار الهداية للطباعة والنشر، مصر1987، ص09

[2] – محمد قطب ، منهج الفن الاسلامي ، ط4، دار الشروق ، مصر 1984، ص6

[3] – رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النقد الادبي بين النظرية و التطبيق، المرجع السابق، 213

أدى الشعراء المسلمون في بدايات الدعوة الإسلامية دورا مهما للغاية، دفاعا عن الدين الجديد، وتمكينا له، والذود عنه، حتى أتى نصر الله مظهرا الحق ومزهقا الباطل. لقد حارب المشركون النبي صلى الله وسلم واتهموه بأبشع التهم، ووصفوه بأقبح الأوصاف، فقالوا عنه أنه كاهن ومجنون وشاعر، وقد تصدر هذه الحرب الكلامية نخبة من المشركين من شعراء مكة ، فتصدى لهم شعراء الإسلام مبطلين أراجيفهم، و رادين عليهم افتراءاتهم وأكاذيبهم وادعاءاتهم بتحريم الإسلام للشعر في قوله تعالى في خواتيم سورة الشعراء :" ... **والشعراء يتبعهم الغاوون* ألم ترى أنهم في كل واد يهيمون* وأنهم يقولون مالا يفعلون *إلا الذين امنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقبلون*...**" **سورة الشعراء الآيات(من221 حتى227)** فالشعراء الذين قصدهم الله عز وجل في هذا الوصف هم أولئك الذين يبيعون الأوهام للناس، ويسلكون دروب الغي والضلالة، ويهيمون في كل واد، طمعا في غنائم يصبونها أو دنيا يتملكونها، وهم بذلك يعيشون عبيدا للطغاة والجبابرة، يأتمرون بأوامرهم وينتهون عن نواهيهم، وقد استثنى الله تعالى من بين هؤلاء، أولئك الذين امنوا وعملوا الصالحات، وهي الفئة المؤمنة والموحدة والمنتصرة للحق، وهؤلاء الشعراء هم الذين يمكن أن نطلق عليهم الشعراء الملتزمون، بناء على ما جاء في هذه الآيات الكريمات : آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعدما ظلموا ف :"... هذه الصفات الأربع هي التي تميز الشاعر الملتزم عن ما سواه من الشعراء، فضلا عن ذلك، فإن الالتزام الإسلامي فطري وعفوي ليس فيه إكراه...."[1] وعطفا على هذه التحديد يمكننا القول :"... إن الالتزام في الأدب الإسلامي لا حدود له، وهو لا يفرض على الأديب موضوعا معينا، أو جمهورا خاصا، إنه يستطيع أن يلتزم بأي قضية صغرت أو كبرت، وليس لهذا الالتزام إلا ضابط واحد مواطأة الحق بمعناه العقدي العام، والتعبير عنه كما يراه الإسلام، وكما تطمئن إليه الفطرة الإنسانية السليمة...".[2]

[1] – ظاهر محسن جاسم ، ظاهرة التزام الشاعر في الأدب الإسلامي ، مجلة ينابيع ، عدد25، رجب / شعبان، ، العراق ، ص 54.

[2] - وليد إبراهيم قصاب، من قضايا الأدب الإسلامي، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2008، ص32.

ارتبط الأدب الإسلامي منذ نشأته ارتباطا وثيقا بالمجتمع، فكان أفضل وأصدق معبرعنه، عن حاله، عما هو كائن، وعما يجب أن يكون، عن نجاحاته، عن إخفاقاته، عن همومه، عن أفراحه، عن أطراحه... وبهذا المفهوم أوكل الأدب الإسلامي لنفسه مهمة بث الوعي الفكري والديني والفني عند عموم القراء، وهو ما يجعل من هذا الأدب أدبا رساليا، يعمل على الارتقاء بالمجتمع إلى مستوى الريادة في شتى المجالات.

إن الأدب الإسلامي وإن كان مرآة عاكسة لحياة المجتمع المسلم، فإن هذا لم يمنعه من الاهتمام بفردانية الفرد وذاتيته، فالعملية الإبداعية بطبيعتها ذاتية وفردية، فإن لم تمنح الذات قدرا كافيا من الاهتمام والعناية، فإن الرسالة الأدبية لن تصل إلى أصاحبها، وإن وصلت، فستصل مبتورة ومشوهة، وهذا ما يميز الالتزام الإسلامي عن الالتزام الواقعي الاشتراكي والوجودي.

إن التزام الأديب الإسلامي التزام طوعي وحر، نابع عن إيمان وعقيدة، يعبر عن الجماعة كما يعبر عن الفرد، لا يقبل الحرية التي لا ضوابط لها ولا قيود، فالالتزام لا ينتقص من حرية المبدع، ولا يغلق عليه فضاء الخلق والإبداع، بل يشرع له كل أبواب التعبير الحر في إطار المنظومة القيمية للمجتمع ف "... عندما يغيب الالتزام عن ساحة الأدب، ويميل الإبداع جهة الميوعة والانحلال، دون اعتبار للقيم الأخلاقية للمجتمع، فإن ذلك يخلق جوا أدبيا مضطربا، تتجاذبه السلبيات من جميع النواحي..." [1]

إن الأدب المنفلت والأدب الإباحي والأدب اللأخلاقي، أدب هدام لا يبني المجتمعات، إنه معول هدم يعمل على تفكيك المجتمع من الداخل، من أجل إعادة بنائه من جديد، وفقا لرؤى وتصورات منظري هذا الصنف من الأدب، إن مواجهة هذا الأدب الهدام لن تنجح إلا بإطلاق العنان للأدب الهادف، والجمالي والملتزم، فهو وحده القادر على كشف زيف هذا الأدب وخداعه ومراميه الدنيئة، التي تعمل على القضاء على المنظومة القيمية والأخلاقية للأمة، بكسر حاجز الحياء، ومن ثمة إحلال اللادينية واللأخلاقية محلها.

[1] – محمد إقبال عروي، جمالية الأدب الإسلامي، ط1، المكتبة السلفية ، الدار البيضاء ، المغرب، 1986، ص121

إن الوعي بهذه الحرب غير المعلنة على المجتمع وقيمه، والتي تتخذ من الأدب مطية لها، يعد بداية الطريق من أجل إفشال هذه المشاريع الهدامة، وتثبيت القيم الإسلامية الأصيلة.

إن فعل الكتابة فعل مسؤول بالأساس، ولن يؤتي هذا الفعل أكله ما لم يتحول من رؤى وتصورات نظرية حبيسة الكتب والمؤلفات في أدراج المكتبات، إلى واقع يتحرك بين الناس، إن الكتابة الأدبية لم تعد تقتصر على مسألة الإمتاع – و إن كانت هذه المسألة من صميم كنهها – بل صارت أداة فعالة تعمل على تحرير الطاقات الكامنة، وتكريس الفاعلية السياسية. إن الكتابة الملتزمة، خاصة ما تعلق منها بتلك المرتبطة بكتابات محمد ذيب، موضوع بحثنا، سلطت الضوء على حياة المهمشين والمقهورين والمستضعفين بإعتبارهم من صناع التاريخ وفاعليه، بقدر اعتبارهم من ضحاياه وفرائسه، إنها محاولة لكتابة التاريخ من أسفل، من حيث بدأ، لا من حيث انتهى.

إن المتتبع للكتابة الملتزمة يلحظ، دون عسر، أن ثمة ملامح محددة ميزت هذه الكتابة عبر التاريخ، ويلخص الباحث الفرنسي "جون كلود مولتلار" Jean Claude Muhlthaler هذه الملامح في المسائل التالية : "...

1- انبثاق الوعي لدى الكاتب، وإحساس الأخير بالمسؤولية السياسية، وضرورة الصدع بالحق في أوقات الأزمات.

2- النظر إلى الكتابة باعتبارها كشف لواقع يائس.

3- الكتابة هي دعوة للجمهور لأن يتحرك.

4- الكتابة الملتزمة ظاهرة فعالة، الكتابة موقف و فعل..."[1]

" ... 1 – La prise de conscience chez l'écrivain de sa respensabilité politique et la nécéssité impérative de prendre la parole dans une situation de crise.

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

2 – L'écriture conçue comme dévoilement d'une réalité douleureuse.

3 – Lécriture en tant qu'appel au publique à agir.

4 – L'aspect performatif de l'écriture engagée, écrire c'est faire..."[1].

إن الكتابة الأدبية تكسب قوتها حين تخرج من دائرة التنظير والتقعبد والإنشاء، إلى دائرة الفعل والممارسة والتجسيد، إن الكتابة التي لا تتبعها مواقف تكرسها، تظل كتابة بلا روح ولا رائحة، سرعان ما تتيه في غياهب النسيان، إن هذه الملامح أو البعض منها على الأقل جسدته الكتابة الذيبية، خاصة تلك الواقعة منها زمنيا بين 1950 – 1962، لهذا رأينا أنه من الأجدى مقاربة مدونة بحثنا الثانية من هذه الزاوية.

[1] - Jean Kaempfer, Sonya Flory et Jérome Meizoz, Formes de l'engagement littéraire (xv – xxi) opcit, p : 19.

البـاب الثانـي

الفصـل الأول

روايـة "بعيدا عن المدينـة":

الهويـة في قلب التاريـخ، و التاريـخ في قلب التخييل

1 – تجلي الأنثى في روايات آسيا جبار

2 – مراحل تطور الكتابة عند آسيا جبار

3 – تيمات روايات آسيا جبار

4 – رواية بعيدا عن المدينـة : الهوية من وجهة نظر أنثوية

4 – 1 – الحرية والتحدي

4 – 2 – محتجات وثائرات

4 – 3 – خاضعات وغير خاضعات

توطئة :

التراث والرواية والهوية.

استحوذت مسألة التراث على إهتمام الكثير من الأدباء و المفكرين، مثيرة جدلا حادا ونقاشات كثيره في المنتديات والدوائر الأدبية العربية بصفه عامه والجزائرية منها تحديدا، كما و" ...اهتمت الدراسات الأجنبية بالتراث و وضعت له النظريات والأسس، وتوسع إليوت[1] في مفهوم التراث فتناول الأساطير والدين، فأدخل الفلكلور والتراث الشعبي والأغاني في التراث، بل تجاوز ذلك الى وصف الأديب بأنه لا يستحق أن يكون له موضع بين الأدباء إن لم يستطع أن يجعل الأولين من توابع الأسلاف يعيشون في أدبه، فما يميز الشاعر الناضج برأيه لا أنه، فحسب، يختزل الموروث الذي ظل من قبله معطلا، بل إنه يعيد جدل أكبر عدد ممكن من طاقات الموروث المفككة"[2]

لقد صار الدفاع عن ثقافه المجتمع و حضارته وقيمه وتاريخه مسألة تحظى باهتمام بالغ من قبل الكثير من المشتغلين بمجال الثقافة والأدب والفكر، محاولة منهم الحفاظ عليها وترقيتها وتسويقها من جهة، والوقوف سدا منيعا أمام كل محاولات الطمس ومحو الذاكرة المستمرة من جهة أخرى، كما يمكن اعتبار هذا السلوك رد فعل طبيعي إتجاه كل تلك الهجمات التي استهدفت، ولا تزال، تاريخ الأمة وقيمها وإسهاماتها الكبيرة في تاريخ الحضارة الإنسانية برمتها " ... فكانت العودة إلى الماضي محاولة لإثبات الذات العربية، فالتراث هو المثل الشرعي لمقومات الأمة وشخصيتها، لأنه شيء قائم فينا، وهو ذاتنا التي تنادينا من وراء

[1] – يقصد به " توماس سترنيز إليوت" Thomas Stearns Eliot و هو شاعر و مسرحي و ناقد أدبي انجليزي (1888 – 1965) حائز على جائزة نوبل للآداب سنة 1948 من اعماله الشعرية " الأرض اليباب " ومن مسرحياته " جريمة في الكاتدرائية ".

[2] – حسن علي المخلف، التراث و السرد، ط1، وزارة الثقافة و الفنون و التراث، الدوحة، قطر، 2010، ص 15.

العصور، وأن العودة إليه بقصد الاكتشاف والمعرفة ينبغي أن تكون طريقا لتنميه الامتداد في المستقبل بقيم متطورة عنه مستهلكة رؤاه... "[1]

وقد شكل استلهام التراث وتوظيفه في المدونات النثرية والشعرية على السواء، علامة فارقة ومنعطفا حاسما في مسيرتها الفنية، شاهدةٌ إقبالا غير مسبوق من طرف الكتاب والروائيين، باحثين عن أنماط تعبيرية جديدة، عساها تسهم في ايصال المضامين المنتقاة في قوالب جديدة، و تضمن الولوج الى نفوس المتلقين بطرق سلسة و يسيرة.

ويكاد يجمع أغلب الباحثين "... أنه بنهاية القرن الثالث الهجري، كان التاريخ العربي الإسلامي، قد أرسى قواعده كعلم مستقل عن علم الحديث، ولكن دون إهمال لآلياته الأساسية، وهي الإسناد الذي يعطي للروايات التاريخية الكثير من الثقة التي اتخذها الحديث، خصوصا وأن معظم مؤرخي هذا العصر كتبوا في التاريخ انطلاقا من الاهتمام بالحديث، جمعا وكتابة ... "[2]

إن الروايات التي تستلهم موضوعاتها من الأحداث الخالية، معتمدة إياها مادة أولية لصناعتها الأدبية، هي أعمال بها : " ...نهيئ الناس لمطالعة التواريخ و إن يكن في تأليف الرواية من المشقة اضعاف

[1] – حسن علي المخلف، التراث والسرد، المرجع السابق، ص24 / 25.

[2] – عبد الله عبد اللاوي، حفريات الخطاب التاريخي العربي: المعرفة، السلطة، التمثلات، ط1، ابن النديم للنشر و التوزيع، الجزائر، 2012، ص 113.

ما في تأليف التاريخ مع ظهور فضل مؤلف التاريخ أكثر من ظهور فضل مؤلف الرواية، ولكن غرضنا الفائدة العامة وأقرب الطرق اليها من حيث التاريخ الطريقة القصصية التي نحن سائرون فيها ... "[1]

كما أن هذه الطريقة القصصية لها فوائد أخرى تميزها عن غيرها لعل أبرزها :".... تمثيل الوقائع التاريخية تمثيلا يشخص تلك الوقائع تشخيصا يقرب من الحقيقة، تتأثر به النفس فيبقى أثره في الحافظة فضلا عما يتخلل ذلك من بسط عادات الناس وأخلاقهم و آدابهم، مما لا يتأتى بغير أسلوب الرواية إلا تكلفا ..."[2]

إن الرواية التاريخية بحسب جورج لوكاتش Georg Lukacs الذي أجرى دراسة عميقة بشأنها هي: "... بمعناها الحقيقي حديثة عهد في الآداب الغربية وهي رواية لا يراد بها أداء وظيفة التاريخ، ،إنما استثمار المناخ التاريخي و توظيفه كخلفية للوقائع ..."[3]

ويعتقد رموز النزعة التاريخية في الأدب : "...أن التاريخ والرواية مترابطان ترابطا عضويا و تلك هي الصورة التي كانت الرواية عليها لدى بالزاك مثلا ... "[4] وهو طرح يرفضه بشدة رموز الرواية الجديدة ك: " آلان روب غرييه " Alain Robbe Grillet "ناتالي ساورت "Nathalie Sarraute و"ميشال بوتور"Michel Butor الذين عملوا على تقويض بنية الرواية التقليدية، وتفكيك مكونات السرد، من خلال إفراغ الرواية من حركيتها الطبيعية (تطور الاحداث، وضوح العقدة...)، وإحلال مفاهيم أخرى محل ذلك

[1] – عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة : تفكيك الخطاب الاستعماري و اعاده تفسير النشأة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، 2013، ص 255.

[2] – المرجع نفسه، ص 255.

[3] – المرجع نفسه ص254.

[4] – عبد الملك مرتاض، في نظريه الرواية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص 15.

كتكثيف المحتوى ورفضهم لشخصية البطل و كذا لمسألة الالتزام الأيديولوجي في المتن الروائي، وتفشي ما بات يعرف بالسرد الفسيفسائي الذي لا يعترف بسببية الأحداث ولا بتسلسل الأبواب والفصول فيما يجعل الرابط بينها مجرد خيوط رفيعة تستعصي على القراءة و التأويل.

لقد بات الرجوع الى الماضي والنهل منه – وقائع وشخصيات – ضرورة ملحة للأدباء والمفكرين تمليها عليهم حتميات العولمة التي صرنا نحياها اليوم، ونرضخ لسطوة تداعياتها أفرادا و جماعات ف : "...استدعاء أحداث الماضي هو أحد المهيمنات الكبرى في أدب القرن التاسع عشر نثرا وشعرا، والرواية التاريخية إنما هي مثال على ذلك ..."[1]، ولعل ذلك يرجع لكون التراث: "... هو روح الأمة و مقوماتها وتاريخها، والأمه التي تتخلى عن تراثها تتخلى عن روحها وتهدم مقوماتها وتعيش بلا تاريخ ..."[2]

إن أمة بلا تراث هي أمة بلا ماضي ولا تاريخ ولا هويه ولا مستقبل، إن تاريخ الامم والشعوب هو الضمانة لبقائها وديمومتها ورسوخها، فمهما أحلت بها من نوائب و ملمات، و تعرضت له من هزائم وانكسارات، فإنها بالتأكيد ستنهض، لتنفض عن نفسها الغبار، و تشرع في المسير من جديد، من أجل بناء غد تليد بسواعد من حديد لأجيال لن تحيد.

إن الروائي بتوظيفه للشخصيات التراثية يسعى لأن : "... يعبر عن كل أقراحه و أفراحه، أن يبكي هزيمته أحر البكاء وأصدقه وأفجعه، وأن يتجاوزها في نفس الوقت، بينما كان كل كيان الأمه يئن منسحقا تحت وطأتها الثقيلة، و أن يستشرف النصر ويرهص به في أفق لم تكن تلوح فيه بارقة نصر، وأن يتغنى

[1] – عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المرجع السابق، ص258.

[2] – الاسد ناصر الدين، التراث والمجتمع الجديد، مطبعه الهاني، بغداد، العراق، 1996، ص 11.

للحرية أعذب غناء وأنبله، و أن يتمرد على القهر و يقول لا في وجه من قال نعم، في وجه من فرض على الجميع أن يقول نعم، أن يقول لا، في وقت كان فيه من يقول لا، لا يرتوي إلا من الدموع ..."[1]

لقد أضحت الرواية التاريخية ملاذا آمنا و مجالا خصبا من أجل توظيفه لتكريس مفهوم الهوية: "... إذ تتيح الفرصة لصوت الأنا للتعبير عما يضطرم في الاعماق من مخاوف و آلام وأفكار..."[2] وهي بالإضافة الى ذلك : "... من أقدر الفنون على تقديم تفاصيل الحياة بكل حقائقها وأوهامها..."[3]

إن الحديث عن الكتابات التاريخية عموما والنسوية منها على وجه التحديد، يقودنا حتما إلى الحديث عن التهميش الذي طال هاته الكتابات شعرا كانت أم نثرا، منذ ما قبل الإسلام و حتى في الفترة الإسلامية وصولا الى أيامنا هذه ف : "... إهمال أعمال النساء ربما بدا للبعض أنه الأمر الطبيعي الذي يجب فعله، و ربما لم يقم أحد عن قصد باستبعاد شعر النساء من التسجيل أو النشر، لكن الإتفاق الضمني و المقبول عموما، كان أن كتابات الرجال هي بالضرورة ذات قيمه أدبيه أكبر، و لذلك فهي تستحق جهود العاملين في هذا الموضوع ..."[4] و هذه نظرة يطغى عليها التصور الأبوي البطريركي الذي يكرس السيطرة و الهيمنة الذكورية في جميع مناحي الحياه و"... رأى أوائل المشتغلين في ذلك الحقل أن الأبوية شائعه في كل المجتمعات، بمعنى أنها كلها أبويه النظام لا يسمح للمرأة فيها أن تتجاوز موقعها الثانوي أو الدوني، و

[1] – على عشري زايد، استدعاء الشخصيات التاريخية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1997، ص 7.

[2] – ماجدة حمود، اشكاليه الانا والأخر، عالم المعرفة، عدد: 398، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس 2013 ص 14.

[3] – المرجع نفسه الصفحة نفسها.

[4] – بثينة شعبان، مئة عام على الرواية النسوية العربية، ط1، دار الآداب، بيروت، لبنان، 1999، ص16.

وجدوا في المصطلح أداة منهجيه و معرفيه مفيدة للتعرف على مختلف الممارسات الجنوسية المتعلقة بجنس الفرد والتعبير عنها ..."[1]

إن هذه النظرة التي تختزل وجود المرأة (الأنثى) في مجرد تابع ليس إلا، وتعطي الرجل (الذكر) السلطة كل السلطة، جاعلة منه الكائن المهيمن على كل شيء، ساهمت على مدى عقود في حشر المرأة في زاوية لا فكاك منها ولا خروج، فلا صوت يعلو فوق صوت الذكر ولا سلطة تفوق سلطته "... ويقوم حجر الزاوية في النظام الأبوي على استبعاد المرأة، من هنا كان العداء العميق و المستمر في لاوعي هذا المجتمع للمرأة ونفي وجودها الاجتماعي كإنسان، والوقوف بوجه كل محاولة لتحريرها حتى عند رفع شعار تحرير المرأة، هذا المجتمع لا يعرف كيف يعرف ذاته الا بصيغة الذكورية وصفتها، ليس للأنوثة من وظيفة فيه إلا تأكيد تفوق الذكر وتثبيت هيمنته..."[2]

و ضمن هذا السياق العام تنخرط المدونة الأولى التي اخترنا أن تكون موضوع بحثنا ودراستنا، وأعني بذلك " رواية بعيدا عن المدينة "loin de Médine لآسيا جبار، إنه سياق السرديات البديلة كما يسميها الباحث المغربي محمد بوعزة[3]"... وهي سرديات تحررية وتنويرية تسعى في ممارستها الدالة إلى تفكيك الأنساق المضمرة المتحكمة في الثقافة المهيمنة، وتعرية تميزاتها الأيديولوجية ..."[4]

---

[1] – ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الادبي، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص 63.

[2] – هشام شرابي، النظام الابوي و اشكالية تخلف المجتمع العربي، تر: محمود شريح، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان،1993، ص 16.

[3] – محمد بوعزة: باحث مغربي واستاذ السرديات والنقد الادبي الحديث، جامعة مولاي اسماعيل، مكناس، المغرب.

[4] – محمد بوعزة، تمثلات الهوية النسوية في رواية " دنيا " لعلوية صبح، 09:53 à 07/06/2020 le http://www.dohainstitut.org

هذه التحيزات التي كرست النظرة الاستعلائية للرجل تجاه المرأة في مجالات شتى من الحياة، الشيء الذي دفع المرأة هي الأخرى أن تسعى لأن تكون "... متمركزة حول ذاتها، تشير إلى ذاتها، مكتفيه بذاتها، تود اكتشاف ذاتها و تحقيقها خارج أي إطار اجتماعي، في حالة صراع كوني أزلي مع الرجل المتمركز حول ذاته..."[1]

كانت حلبة هذا الصراع الأبدي الأزلي هي التاريخ والأدب والفلسفة واللغة "... وهنا تأتي المرأة إلى اللغة بعد أن سيطر الرجل على كل الإمكانات اللغوية و قرر ما هو حقيقي وما هو مجازي في الخطاب التعبيري، و لم تكن المرأة في هذا التكوين سوى مجاز رمزي، أو مخيال ذهني يكتبه الرجل و ينسجه حسب دواعيه البيانية و الحياتية ..."[2] ، إن هذا التقزيم لصورة المرأة دفع بالكثير من "... المشتغلين و المشتغلات بحقل النقد النسوي إلى السعي لتطهير اللغة من كل مظاهر التحيز، من أجل إرساء معالم جديدة للغة محايدة، وأغلب الدراسات التي ركزت على الجنوسة واللغة، غربية المنبت وانتقلت إلينا مع توسيع مجال المثاقفة..."[3]

إن رواية " بعيدا عن المدينة " من الروايات التي حاولت مقاربة هوية المرأة بعيدا عن طابعها البيولوجي، بل من منظور ثقافي تاريخي اجتماعي، يحاول تفكيك وتقويض النظرة البطريركية للمرأة انطلاقا من نظرة أنثوية للعالم، تعمل على إعادة التوازن الى الآليات الناظمة للعلاقة بين الرجل والمرأة، من أجل اعادة الاعتبار لها دورا ورسالة وهوية ف: "... من المعلوم أن الهوية تمثل بؤرة مركزية في السرد النسوي، سواء على مستوى التجربة التي تحيل عليها الحكاية، وتتعلق بوضعية المرأة في المجتمع والتي تميزت بالعنف

[1] – عبد الوهاب المسيري، قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الانثى، ط2، نهضة مصر للطباعة و النشر والتوزيع، 2010، ص 20.

[2] – عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص 7.

[3] – عيسى برهومة، اللغة و الجنس، حفريات لغوية في الذكورة والانوثة، دار الشروق، عمان، الاردن ،2002، ص 86.

الإبستميولوجي والتاريخي والتهميش الاجتماعي و سوء التمثيل، أو على مستوى التخييل السردي الذي يتمثل بالبحث عن هوية بديلة متحررة من سلطة أشكال التمثيل الذكورية المهيمنة..."[1] وفي هذا إعادة لتمثل الواقع بما يتوافق مع النظرة الأنثوية له، من خلال توظيف لغة متحررة من قيود الذكورة المتسلطة، فالمبدع وهو يكتب يجيب عن القضايا التي يطرحها وجوده"... وتفرضها الحقبة التي يعيش فيها، فهو يتمثل الواقع ويجعل من اللغة وسيطا لإعادة إنتاجه و في هذه العملية يتحرك اللاشعور، وتصبح الذاتية موجها أساسيا لإنتاج الواقع عبر اللغة..."[2]

1) تمظهرات الهوية في أدب آسيا جبار

1.1) تجلي الانثى في روايات آسيا جبار

1.1.1) آسيا جبار: ميلاد أنثى

ولدت آسيا جبار واسمها الحقيقي " فاطمة الزهراء إملاين" في الرابع من شهر أوت من سنه 1936 بمدينة شرشال الساحلية، لعائلة عربية بربرية. تعلمت اللغة الفرنسية في سن مبكرة في المدرسة الابتدائية بموزاية أين كان والدها " الطاهر إملاين " يعمل كمعلم، و كانت هي تتردد على المدرسة القرآنية "... تقر آسيا جبار لوالدها بالفضل في تعلم اللغة الفرنسية، فهو نفسه من ألحقها بالمدرسة لتتجنب تبعا لذلك مصير الكثير من النساء المسجونات في البيوت..."[3]

[1] – محمد بوعزة، تمثلات الهوية النسوية في رواية دنيا لعلوية صبح، المرجع السابق، ص32.

[2] – سعيد جبار، من السردية الى التخييلية، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2013، ص 109.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

" ...A son père elle doit la connaissance de la langue française,c'est grâce à lui qu'elle a été inscrite à l'école s'échappant ainsi au sort des femmes cloitrées..."[1]

أتمت دراستها الثانوية بالجزائر العاصمة كداخلية، ونالت شهادة البكالوريا سنة 1953، و"... نجحت آسيا جبار في سنة 1955 في مسابقة الدخول الى المدرسة العليا ب " سفريس "، و عدلت في صيف 1956 عن المشاركة في مسابقة الليسانس بسبب إضراب الطلبة الجزائريين ، وفي ظرف شهرين أتمت كتابة روايتها الاولى " العطش "، انقطعت عن الدراسة في المدرسة العليا بعد سنتين من الدراسة 1957/ 1958 تزوجت ب " ولد رويس أحمد "، و في السنة نفسها تحصلت على ليسانس في التاريخ ثم شرعت في تحضير دبلوم الدراسات العليا في التاريخ ..."[2]

"...En 1955 elle passe avec succès le concours d'admission à l'École normale supérieure de Sèvres En été 1956, grève des étudiants algériens Elle ne passe pas les examens de licence mais écrit son premier roman le Soif 1957/1958 après deux années à l'école normale, ne rejoint pas pour la 3eme année, mariage en mars 1958, elle termine une licence d'histoire en 1958 puis prépare à Tunis un diplôme d'études supérieures d'histoire...."[3]

عملت بعد ذلك في الصحافة بعض الشيء (إجراء تحقيقات لجريدة المجاهد) ثم شغلت منصب أستاذة مساعدة في جامعة الرباط (1962/1959) ثم جامعة الجزائر، "... أمضت " آسيا جبار " فترة من

[1] – Boussad Berrichi, Tamazgha (Afrique du Nord), Francophone au féminin, Séguier, Paris, France, 2009, p : 89.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Jean Déjeux, dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française, op.cit., p : 99.

الوقت (1965 /1974) في باريس تعمل كناقدة أدبية وسينماتوغرافية، كما اشتغلت بالمسرح كمساعدة مخرج، وفي سنة 1973 أنجزت قطعة مسرحية حول " مارلين مونرو " Marilyn Monroe، عادت بعد ذلك إلى التدريس في جامعة الجزائر سنة 1974، وفي السنة الموالية (1975) انفصلت عن زوجها.

أنجزت كذلك " آسيا جبار " في الفترة الممتدة بين سنتي 1978/1977 فيلما وثائقيا تحت عنوان " نوبة نساء جبل شنوة "، تزوجت " آسيا جبار " مرة ثانية بالشاعر " مالك علولة " سنة 1980..."[1]

"...1965/1974, Séjour à Paris, activités de critique littéraire et cinématographique activités théâtrales comme assistante à la mise en scène. En 1973 elle réalise une pièce sur Marilyn Monroe de Tom Eyen. En 1974 retour à Alger à l'université. Divorce en 1975. En 1977/1978 réalisation du film le Nouba des femmes du Mont chenwa, remariage avec le poète Malek Alloula en 1980..."[2]

خاضت إذن آسيا جبار، بالإضافة الى اشتغالها بمجال الأدب رواية و شعرا و صحافة، مجال الإخراج السينمائي، عبر إنجازها– زيادة على الفيلم المذكور أعلاه (نوبة نساء جبل شنوة) الذي نالت عنه جائزة النقد الدولي فيبريتشي prix de la critique internationale Fipreci في فينيسيا بإيطاليا – لفيلم الزردة و أغاني النسيان " la Zarda et les chants de l'oublie

"... شرعت آسيا جبار في كتابة رباعيتها سنة 1985 بدء برواية " الحب والفنتازيا " الرواية العلم حول إحتلال الأجنبي للجزائر، لقد سعت من خلال الكتابة باللغة الفرنسية إلى البحث عن هويتها منذ اليوم الذي

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française, op, p : 100.

أخذ والدها بيدها متجها بها إلى المدرسة الفرنسية. إنها بالتأكيد الرواية الأكثر نضوجا حتى الآن، وقد أتبعتها برواية " ظل السلطانة " سنة 1987 "[1]

"... Assia Djebar commence un quatuor en 1985 avec l'amour et la fantasia, remarquable roman sur la mémoire ancienne de la conquête de l'Algérie par l'étranger, la recherche de sa propre famille et sa propre mise en mouvement par l'écriture française, depuis le jour où son père l'a prise par la main en la conduisant à l'école française. C'est sans doute jusqu'à présent le roman le plus accompli de l'auteur. Il est suivi en 1987 par "ombre sultane"..."[2]

و كانت قبل ذلك قد جمعت مجموعه من الحكايات والقصص في عمل وسمته ب : نساء الجزائر في مخدعهن Femmes d'Alger dans leurs appartements سنه 1980، و هو عمل يأتي في حوارية مع لوحة" يوجين دولا كروا "Eugène de la Croix لزوجات القرصان الثلاثة التي رسمها في أثناء زيارته للجزائر سنة 1832 والموجودة الآن في متحف اللوفر بباريس.

أما رواية " الحب والفنتازيا "l'amour et la fantasia الصادرة سنة 1985، فقد كرست حضور الأديبة في الفضاء الروائي الجزائري لا بل والمغاربي، عكس أعمالها الأولى (العطش، المستعجلون، أطفال العالم الجديد، القبرات الساذجة) التي لم تكن على علاقة لا من قريب ولا من بعيد بحياة الروائية.

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, littérature féminine de la langue française au Maghreb, Ed karthala, paris, France, 1994, p : 31.

إن توظيف آسيا جبار لضمير المتكلم في هذه الرواية يوحي بمحاولتها تسويق نظرة معينة لعالم تبحث فيه المرأة عن هويتها وتثبت فيه ذاتها،"... إن رواية" الحب و الفانتازيا " هي المرحلة الأولى في كتابتي السير ذاتية عن حياتي ككاتبة ، عن ذكريات طفولتي، و عن علاقتي بلغة الآخر ولغتي الأم..."[1]

"... L'amour est la fantasia est une première étape biographique، c'est une autobiographie de ma formation d'écrivaine, de mes années d'enfance de mes rapports avec la langue de l'autre et avec ma langue maternelle ..."[2]

تتواصل عطاءات "آسيا جبار" الأدبية في تسعينيات القرن الماضي وبداية القرن الحالي، فتفرج قريحتها الأدبية عن مجموعه من الأعمال التي إختلط فيها التخييل بالتاريخ والتاريخ بالدين، فصدرت رواية" بعيدا عن المدينة"(1991) موضوع بحثنا هذا، إضافه إلى روايات "واسع هو السجن" vaste est la prison (1995)، "بياض الجزائر" le Blanc de l'Algérie (1996)، "وهران لغة ميتة" Oran languemorte (1997)، "إمرأة من دون قبر"la femme sans sépulture (2002)، " اختفاء اللغة الفرنسية" la disparition de la langue française (2003)، ورواية" لا مكان في دار أبي"nulle part dans la maison de monpère (2007).

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Najib Redwane et Yvette BenayounSzmidt, AssiaDjebar, l'Harmattan, Paris, France 2008, p : 37.

نالت أعمال آسيا جبار قدرا كبيرا من الاهتمام، فكانت مواضيع لدراسات كثيرة، و ترجمت إلى واحد وعشرين (21) لغة، الشيء الذي رشحها لجائزة نوبل للآداب سنة 2009، وساعد على ولوجها رسميا الأكاديمية الفرنسية[1]، المؤسسة العلمية المرموقة في فرنسا سنة 2005، شاغلة الكرسي الخامس الذي كان يجلس عليه قبلها "جورج فيدال"Georges Vidal، لتكون بذلك أول سيدة عربية إفريقية تنضم إلى أكاديمية الخالدين، هذا بعد أن كانت قد انتخبت في الأكاديمية الملكية في بلجيكا سنه 1999 لتأخذ كرسي "جوليان جرين" Julien Green، كما سبق وأن كانت أول أستاذة جامعية في الجزائر وأول امرأة جزائرية تنتسب الى دار المعلمين في باريس سنة 1955، كما سبق لها وأن درست في أرقى الجامعات الأمريكية : جامعة لويزيانا Louisiana سنة 1995، وجامعه نيويورك new York سنه 2001.

انتقلت آسيا جبار في السادس من شهر فيفري من سنة 2015 إلى جوار ربها تاركة وراءها إرثا أدبيا هائلا، يحتاج الى أن يحظى بالاهتمام اللازم جمعا وطباعة ونشرا وترجمة، مع الإشارة إلى أنه تم إنشاء جائزة آسيا جبار للرواية سنة 2015 تكريما لهذه الروائية الكبيرة وتخليدا لذكراها، وقد أطلق عليها نقاد المتروبول اسم فرانسواز ساغان[2] الجزائر المسلمة "l'Algérie Musulmane Françoise Sagan

[1] الأكاديمية الفرنسية، L'Académie Française: هي مؤسسة علمية فرنسية (برلمان العلماء Parlement des savants) نشأت سنة 1634، وتم ترسيمها من طرف الكاردينال " ريشوليو " Richelieu سنة 1635، تتكون من أربعين عضوا من مختلف المجالات المعرفية : أدبا، روائيين، شعراء، مسرحيين، نقاد أدبيين، لسانيين، مؤرخين، فلاسفة...تعنى بالمحافظة على اللغة الفرنسية وترقيتها.

[2]– فرانسوازساغان Françoise Sagan (1935 – 2004) هو الاسم المستعار للأديبة الفرنسية "فرانسواز كوراز"Françoise Quarez، نالت شهرة عالمية بعد صدور روايتها المشهورة "صباح الخير يا حزن" Bonjour tristesse سنة 1954 إضافة الى روايات أخرى مثل : "في شهر في سنة" Dans un mois Dans un an سنة1957، "حارس القلب" le garde du cœur سنة 1968 و رواية "كدمات الروح" Les bleus de l'âme سنة 1972.

حازت آسيا جبار على العديد من الجوائز والشهادات في مسيرتها الأدبية الحافلة، كان أهمها: الجائزة الدولية ب: "بالمي"بإيطاليا سنة1998، جائزة مجلة الدراسات الفرنسية سنة1999، جائزة السلام للمكتبيين الألمان سنة2000، الجائزة الدولية "بابلو نيرودا"سنة2005، وغيرها من الجوائز الأدبية....

1-2. مراحل تطور الكتابة الروائية عند آسيا جبار

عرفت الكتابة الروائية الجبارية تحولات عدة يمكن حصرها في المراحل التالية :

1-2-1. المرحلة الأولى 1957/ 1967 :

كتبت آسيا جبار في هذه العشرية من حياتها الأدبية أربع روايات هي العطش La soif سنة 1957، المستعجلون Les impatients سنة 1958، أطفال العالم الجديد Les enfants du nouveau monde سنة 1960، و القبرات الساذجة Les Allouettes naives سنة 1967، نشرت كلها في دار النشر"جوليار" Julliard بفرنسا.

الروايات الثلاث الأولى لآسيا جبار كانت روايات شباب كما تقول الروائية عنها، إضافة الى كتابتها " لقطعة مسرحية "إحمرار الفجر" Rouge l'Aube سنة 1969 وديوان شعري موسوم ب : أشعار من أجل جزائر سعيدة Poèmes pour une Algérie heureuse سنة 1969"

تعرضت آسيا جبار لنقد لاذع، و تحامل كبير كانت هدفا له بعد صدور هذه الروايات التي لم تعبر عن آلام الشعب الجزائري وعذاباته، بل راحت تتحدث عن مواضيع لا صلة لها بهذا الواقع إطلاقا من قبيل الحديث عن اكتشاف المرأة لأنوثتها ومغامراتها العاطفية، وقد كالت لها الدوائر الأدبية الوطنية آنذاك انتقادات حادة.

"كانت روايات آسيا جبار الأولى العطش 1957، المستعجلون 1958، أطفال العالم الجديد 1960 القبرات الساذجة 1965/1962 عرضة لانتقادات حادة من قبل الوطنيين، لقد إتهموها بتجاهلها للواقع المعيش في تلك المرحلة وتغاضيها عن الوجود الكولونيالي ..."[1]

"...Assia Djebar a été sévèrement critiqué par les nationalistes pour ses premiers romans la Soif 1957, les impatients 1958, les enfants du Nouveau Monde 1960 et les Alouettes naïves (62-65), elle a été accusée d'avoir totalement négligé les réalités politiques de l'époque dans ses romans, et aussi de n'y avoir pas tenu compte de la présence coloniale ..."[2]

وقد شكلت رواية " القبرات الساذجة " نهاية مرحلة وأسلوب، وبداية مرحلة جديدة.

1-2-2. المرحلة الثانية (1967 – 1977) :

توقفت آسيا جبار في هذه الفترة عن الكتابة بعد الاتهامات والانتقادات اللاذعة التي طالتها خاصة من قبل المثقف الجزائري المعروف في تلك المرحلة وهو " مصطفى الأشرف " الذي أعلن عن موقفه من بعض رموز الأدب المكتوب بالفرنسية بكل وضوح قائلا :"... يجب أن نزيل الغموض، يقول مصطفى الأشرف، "مالك حداد" و "آسيا جبار" كتاب لم يعبروا عن مشاكلنا (همومنا) حتى العامة منها، فمن بين

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Souheila kian, Écritures et Transgressions d'AssiaDjebar et Leila Sebar (la traversée des frontières) op.cit., p : 25.

كل الكتاب الجزائريين، هما وحدهما الأقل معرفة بوطنهما، الشيء الذي يدفعهما إلى التغطية على الواقع الجزائري بشيء من اللمسة الشعرية التي هي في حد ذاتها لا طعم لها من وجهة النظر الروائية..."[1]

"... Il faut démystifier, dit-il, Malek Haddad, Assia Djebar sont des écrivains qui n'ont jamais saisie nos problèmes, même les plus généraux. De tous les écrivains Algériens, se sont eux qui connaissent le moins bien leur pays, ce qui les poussent à escamoter les réalités Algériennes sous une couette poétique, elle sans originalité du point de vue du roman ..."[2]

دام هذا التوقف عن الكتابة أزيد من عشر سنوات، عادت بعدها إلى ميدان الثقافة والفن من جديد، لكن هذه المرة اختارت مجالا آخرا، هو مجال السينما والعمل الصحفي (تحقيقات ميدانية)، فأنتجت فيلما وثائقيا "نوبة نساء جبل شنوة" La nouba des femmes du mont chenoua سنة 1977، أجرت فيه تحقيقات و مقابلات مع النساء اللواتي شاركن في ثورة التحرير، لتوظف بعد ذلك هذه الشهادات في روايتها المعروفة بإسم " الحب والفنتازيا ".

1-2-3. المرحلة الثالثة 1980/2015.

إنها مرحلة رفع التحدي من خلال العودة إلى الكتابة الروائية لكن هذه المرة برؤية أكثر وضوحا و نضوجا، بعد أن كانت انتقادات "مصطفى لشرف" قد أتت بثمارها، ويظهر ذلك بوضوح في تحول كتاباتها إلى الرواية التاريخية، محاولة منها لإزالة سوء الفهم الذي وقع بينها وبين نقادها ومتلقيها، كما كان لممارستها

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Jean Déjeux, littérature maghrébine de langues française, opcit, p : 248

السينماتوغرافية دور مهم في هذا التحول من خلال الأفلام والتحقيقات الميدانية التي أنجزتها مع بعض المجاهدات، فكانت البداية مع رواية " الحب والفنتازيا " سنة 1985 التي كرست مرحلة النضج الذي وصلت إليه الكتابة الروائية لدى آسيا جبار "... حاولت آسيا جبار عند كتابتها الحب والفنتازيا، رفع التحدي الذي واجهها من قبل بعض قرائها الذين كانوا يطالبون الكاتبة المؤرخة بالإسهام بقدر كافي في كتابة تاريخ الجزائر ..."[1]

"...Lorsque Assia Djebar entreprend l'écriture de l'amour et la fantasia، c'est sans doute pour relever le défi qui n'a cessé de lui lancer une partie de son publique qui réclame de l'écrivaine – historienne une contribution plus soutenue à l'écriture de l'histoire de l'Algérie..."[2]

أضحت الكتابة عند "آسيا جبار" في هذه المرحلة مقاومة والتزام، مقاومة لكل أشكال الاستلاب و التسلط والهيمنة المزدوجة : استدمارية وذكورية، والتزام بموضوع المرأة تاريخا وهوية وحرية.

1-3. آسيا جبار أم فاطمة الزهراء املاين ؟

يتجه بعض الأدباء في ظروف ربما تكون استثنائية إلى التخفي وراء أسماء مستعارة des noms d'emprunt حتى لا ينكشف أمرهم، ويكونون عرضة لأخطار وشيكة، و قد راجت هذه السلوكات في ظل الأنظمة الشمولية القمعية التي لا تسمح بالرأي الآخر، وبالحق في حرية التعبير، وأحيانا أخرى في ظل بعض النظم الاجتماعية الذكورية التي تهمش المرأة و تخنق صوتها، فتضطر هذه المسكينة لتلبس حجاب

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Beida Chikhi, les romans d'Assia Djebar, entre histoire et fantaisies, opu, Alger, Algérie, 2000, p : 21

الاستعارة لتنزع عنها حجاب الخوف والهيمنة والتسلط الذكوري، يقول "مارسو لوا "Marsault loi عن أسباب توظيف الأسماء المستعارة عند المرأة الكاتبة : "... إن استعمال الاسم المستعار كان منتشرا عند النساء الكاتبات في الماضي، وفي القرن التاسع عشر تحديدا، الذي غلب عليه الطابع الذكوري، وكل امرأة تحاول تجاوز هذا الواقع يشكك في هويتها، لهذا أعتبر الاسم المستعار القناع الواقي ..."[1]

"... L'utilisation des pseudonymes très largement répandu chez les écrivaines femmes du passé, et particulièrement au 19e siècle socialement masculin, et la femme qui l'ose, risque du même coup encore de son identité, c'est pourquoi le pseudonyme peut présenter l'écran protecteur[2]..."

وهذا ما دعا كاتبتنا إلى اللجوء إلى الاسم المستعار منذ روايتها الأولى " العطش "، خوفا من أن يطلع والدها على ما تكتب، خاصة وأن بعض أعمالها عبارة عن سيرة ذاتيه، وقد لازمها هذا الاسم المستعار حتى آخر أيامها، وعن الدواعي الأخرى لاستخدام الأسماء المستعارة يقول "جرار جينات" Gérard Genette : "... في كل الحالات، الاسم المستعار فيه من الشعرية الإبداع، فإذا كنت تحسن تغيير الاسم فأنت تحسن الكتابة ..." [3]

"... De toute évidence le pseudonyme est déjà une activité poétique et quelque chose comme une œuvre, si vous savez changer de nom, vous savez écrire..."[4]

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Marsault–Loi Elisabeth, Ecrits de Femmes, Messidor, Paris, France, 1986, p : 8/9

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Genette Gérard, Seuils, Seuil, Paris, France, 1987, p : 52/53

إن توظيف الاسم المستعار عند " جرار جينات " هو فن، ومن يحسن تغيير اسمه هو بالضرورة فنان، فتغيير الاسم عند المبدعين يفترض ضمنيا القدرة على الخلق والإبداع.

1-4 ثيمات روايات آسيا جبار : (المرأة – الهوية – التاريخ)

استغرقت تيمة المرأة اعمال آسيا جبار من ألفها حتى يائها، فكانت البؤرة المركزية التي تدور حولها جميع موضوعاتها، لقد كرست آسيا جبار حياتها وأدبها وفنها وكل ابداعاتها للمرأة، فمنذ رواياتها الأولى أو روايات الشباب كما تسميها هي (العطش، المستعجلون، أطفال العالم الجديد و القبرات الساذجة) كانت المرأة والتعبير عنها ونقل انشغالاتها وهواجسها، هو الشغل الشاغل لها، فكان اكتشافها لجسدها والاحتفاء بأنوثتها وعلاقتها بالآخر (الذكر) هو ديدنها.

كما وظفت "آسيا جبار"تيمة التاريخ في أكثر من موضع، فاستدعت مثلا أحداث ثورة التحرير في بعض رواياتها خاصه منها رواية " الحب و الفنتازيا " في تناغم وانسجام مع ما كان سائدا في تلك المرحلة من انشغالات واهتمامات، وربما توبة وأوبة منها بعد خروج كتاباتها السابقة عن الوضع العام الذي عاشته الجزائر في تلك الفترة، والذي تسبب لها في متاعب كثيرة، جعلها تنقطع عن الكتابة لأكثر من عشر سنوات، كما استدعت أيضا الروائية التاريخ ، لكنه تاريخ بعيد هذه المرة، فعادت بنا الى زمن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لتحاول أن تنفض الغبار عن أسماء نسائية كثيرة (نساء النبي – ص –، بناته، مدعيات النبوة ، ملكات ...) وتعيد قراءته، ومن ثم تعيد كتابته من زاويه أنثوية صرفة، لأنها رأت أن التاريخ الذي كتبه الرجال، تاريخ مزيف، كرس مركزية الرجل وهمش المرأة .

وكان لتيمة التاريخ أيضا نصيب آخر من الاهتمام والتوظيف، فقد اختارت هذه المرة آسيا جبار تكريس الأصل البربري للجزائر من خلال حديثها عن ملكة قبائل التوارق " تينهينان "[1] ودورها في الحفاظ على الكتابة الشمال إفريقية: "... شاركت "تينهينان" في الحفاظ على الكتابات النسوية بقدر ما ساهمت في نقل الكتابة الشمال الافريقية التي ظهرت على أيدي رواد الفكر الجزائري القديم ك : ماسينيسا، يوغرطة، أبولي، فرانتان و اغوستين تاغاست...."[2]

"... Tin Hinan participe autant à la chaîne salvatrice de l'écriture féminine qu'à la transmission d'une écriture Nord-africaine, ouverte dès l'Antiquité par d'illustre ancêtre précurseur d'une pensée Algérienne comme : Massinissa, Jugurtha, Apulée, Frontin, Augustin de Taghaste... "[3]

لقد كانت هذه الملكة مصدر إلهام للروائية :"... كم أحلم بتلك الهارية" تين هنان"، الملكة التي وصلت الى قلب صحراء الصحاري ..."[4]

"... Que je rêve de la fugitive Tin Hinan, la reine cesse qui ça avance jusqu'au cœur du désert des déserts... "[5]

[1] – تين هينان: ملكة قبائل التوارق، حكمت في القرن الرابع ميلادي و إليها يستند التوارق في تنظيمهم الاجتماعي الذي يستمد السلطة من حكمة المرأة – أهقار و هو ابن الملكة تين هينان و إليه تنسب الأساطير اللثام الذي يلبسه سكان تمنراست في وقتنا الحالي.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Beida Chikhi, littérature algérienne : désire d'histoire et esthétique, l'harmattan, paris, France, 1997, p : 229.

[4] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[5] – Assia Djebar, vaste est la prison, Albin Michel, paris, France, 1995, p : 161.

إن اهتمام آسيا جبار بالتاريخ واستدعائه في أغلب أعمالها، جعل تيمة أخرى تفرض نفسها في رواياتها المختلفة، إنها تيمة الهوية، فقد سعت الروائية الى أن ينال كل عنصر من عناصر الهوية الجزائرية حقه فكانت كتابتها لرواية" الحب والفنتازيا " وامرأة من دون قبر " وبدرجة اقل رواية "أطفال العالم الجديد " تعبيرا عن الهوية العربية والوطنية، فيما سعت في رواية" بعيدا عن المدينة "استحضار الهوية الإسلامية للمرأة، أما رواية "واسع هو السجن" فمن خلالها كانت العودة الى الأصل، الى الهوية الأولى للمرأة الجزائرية الهوية البربرية ، وهذه الهويات المجتمعة إنما هي تعبير وتكريس لهوية واحدة هي الهوية الأنثوية.

1-5. المرأة في روايات اسيا جبار: الوعي بالذات وتأصيل الهوية.

1-5-1. رواية " العطش " La soif أو التغريد خارج السرب.

طغى الظهور النسوي على جميع الفضاءات الروائية الجبارية، و شغل الحيز التخييلي بشكل يكاد يكون كلي، فهيمنت الأنثى على المتن الروائي من أوله إلى آخره ، فكانت هي صانعة الأحداث وهي محركها، فجاءت صورتها في أنماط متعددة ومتنوعة، فمن المرأة المسلمة إلى المرأة الكافرة، ومن المرأة المتمردة الثائرة إلى المرأة الخاضعة الخانعة ... فنجد النساء في الداخل كما تريد ذلك التقاليد وتبتغيه، كما نجدهن في الخارج يتحركن غدوا و رواحا تماما مثل الرجل، ويعشن حياتهن كما يرغبن، في ظل هامش الحرية الذي أتيح لهن، و في هذا السياق تأتي رواية "العطش" لتحكي لنا قصه البطلة نادية التي تلتقي بصديقة طفولتها جدلة المتزوجة من الصحفي علي، يسعى حسين صديق البطلة ناديه لمغازلة جدلة، وحتى تثير نادية الغيرة في نفس حسين، تغازل بدورها علي، و نظرا للظروف النفسية الصعبة التي تمر بها جدلة، تقرر هي بنفسها التخلي عن زوجها لنادية، و تسر لها بكونها حامل وهي غير راغبة في ذلك، فتقرر الإجهاض لتموت بعد ذلك ، تحس نادية بالندم و بالمسؤولية عن وفاة جدلة، لكن علي يخبرها بأن له ولد من ممثلة فرنسية مقيمة في باريس قبل زواجه من جدلة، فتسعى هذه الأخيرة الى أن تأتي بهذا الولد لأنها

كانت تظن نفسها عاقرا، و أنها سترزق بولد في سن متأخرة، و بالرغم من هذه المبررات لم تستطع نادية (التي تزوجت من حسين فيما بعد) التخلص من تأنيب الضمير.

تعرضت رواية العطش إثر صدورها الى العديد من الانتقادات إن على المستوى الفني (وجود أربع شخصيات فقط، اهتمامات ثلاثة منهم ذاتية صرفة بالرغم من الحالة الاجتماعية والسياسية الصعبة في المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه)، أو على المستوى الموضوعاتي، وقد شبه الباحث و الأكاديمي" جان ديجو" jean Déjeux هذه الرواية برواية " صباح الخير يا حزن Bonjour tristesse، سنة 1954، للروائية الفرنسية " فرانسواز ساغان " Françoise Sagan

1-5-2. رواية الحب والفنتازيا L'Amour et la fantasia

يتشكل معمار رواية " الحب والفنتازيا " من ثلاثة أجزاء تفاوتت من حيث الطول، وهو عمل أسس لكتابة روائية أكثر نضجا واحترافية، وظفت فيها آسيا جبار كل المعلومات والشهادات التي حصلت عليها من أفواه نسوة جبل شنوة في أثناء إنجازها لفيلم " نوبة نساء جبل شنوة "، تقول آسيا جبار عن هذه الرواية:

"... باعتبار رواية "الحب والفنتازيا" الأولى ضمن سلسلة روائية، فقد تم توظيف التاريخ لا للبحث عن هوية المرأة فقط، وإنما عن هويه الوطن ككل ..."[1]

"... l'amour et la fantasia étant la première d'une série romanesque, l'histoire est utilisée dans ce roman comme quête de l'identité non seulement des femmes mais de tout le pays ..."[2]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Mortimer Mildred, entretien avec Assia Djebar, écrivain algérien, http://www.jstor.org le 24/05/2019 à 17h.33mn.

إن التاريخ عند آسيا جبار هو الأداة المثلى لتكريس الهوية الأنثوية للمرأة الجزائرية، والوسيلة التي بواسطتها تستعيد المرأة حقوقها المسلوبة، وتحصل على حريتها كامله غير منقوصة.

لقد حرصت آسيا جبار في هذا العمل، خاصة في جزئه الأخير الموسوم بالأصوات المقبورة voix ensevelies، أن تبث الحياة من جديد في أولئك النسوة اللائي ساهمن في ثوره التحرير المباركة بطرق مختلفة، و اللائي لم ينصفهن التاريخ، ومن بينهن " لالا الزهرة "التي كانت تفتخر بدورها في دعم الثورة و الثوار من خلال خياطتها لبدل المجاهدين، "... كم كنت فخورة بالملابس التي كنت أخيطها، و من دون مبالغة، بدلاتي أنا كانت هي الأحسن، فبمجرد فتحها تستقيم، و بصعوبة تكتشف بأن مصدرها ليست المحلات ..."[1]

"... Comme j'étais fière des uniformes que je confectionnais ! Sans vanité, les miens étaient les mieux coupés, tu en dépliait un, tu le suspendais : tu arrivais à peine à croire qu'il n'était pas acheté du magasin ..."[2]

لم تقتصر مشاركه المرأة الجزائرية في الثورة على هذا الجانب اللوجيستي فحسب، فقد أشارت الساردة الى أن هؤلاء النسوة تحدين جلادهن، و صرخن في وجهه غير عابئات بمصيرهن بعد ذلك، وقد روت الساردة عن " الكونت ديكاستيلان " le comte De Castellane " "... كانت النساء الجزائريات يلطخن أوجههن بالأوحال والفضلات عند نقلهن إلى مواكب المنتصر، فكن يخفين أوجههن بما توفر لهن، بل و حتى بالدم إن لزم الأمر ..."[3]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, l'amour et la fantasia, opcit, p : 80.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"… les algériennes s'enduisent le visage de boue et d'excréments, quand on les conduit dans le cortège du vainqueur, elles se masquent toutes comme elles peuvent, et elles le feraient avec leur sang, si besoin était …"[1]

1-5-3 رواية أطفال العالم الجديد Les enfants du nouveau monde وتنوع الأدوار.

تملأ النسوة الفضاءات السردية المتنوعة في هذه الرواية بعد أن سمحت لهن الروائية بأن يعبرن من خلال هذه المساحات على همومهن وآمالهن، وعناوين الفصول الأربعة الأولى من أصل الفصول التسعة دالة على ذلك (شريفة، ليلى، سليمة وطومة) و حسيبة في الفصل السادس بعد حكيم في الفصل الخامس وخالد وأيوب وعلي في الفصول السابع، والثامن والتاسع.

أ -شريفة المتحررة والاكراهات الاجتماعية :

تقدم الروائية شريفة على أنها امرأة أمية من الطبقة المتوسطة، متزوجة ترفض الإنجاب لأنها لا تحب زوجها، في تحدي صارخ لهذا الأخير والتقاليد المجتمعية برمتها، معلنة عن ذاتها و مدافعة عن قناعاتها و مواقفها في مجتمع كرس خضوع المرأة و دونيتها، كما كرس حرية تصرف الذكر في حياتها و مصيرها.

لم تكتفي شريفة برفضها للإنجاب، بل قررت الانفصال عن زوجها الأول لأنها لا تتحمل الكذب عليه، وهي تعلم مسبقا أن دون هذه المواقف ضريبة وجب تسديدها، و ضريبة الحرية غالية لا يقوى أي كان على تحملها، لكنها فعلت ودفعت ثمن ذلك غاليا (الطلاق).

تخرج مرة أخرى شريفة على تقاليد المجتمع حينما تسير في شوارع المدينة متحدية مفاهيمها وقوانينها "… قاصدة مكان عمل زوجها يوسف (يجب أن أحذر يوسف من الخطر … و هي المرة الأولى التي

[1] - Assia Djebar, l'amour et la fantasia, opcit, p : 83.

تخرج فيها من بيتها بمفردها و تقصد وسط المدينة) ..."[1] إن تمرد شريفة و ثورتها على تقاليد المجتمع هو انبثاق لوعيها ، وعي بمدى أهمية انخراط المرأة في العمل الوطني التحرري، وأن هذا العمل ليس مهمة ذكورية فقط، بل هي قضية تهم المرأة بقدر ما تهم الرجل سواء بسواء.

ب – ليلى و الأب المتفرد.

لا يمكننا الحديث عن ليلى دون الحديث عن والدها رشيد لما لهذا الأخير من دور و تأثير في صقل هذه الشخصية (ليلى)، لقد إنماز رشيد عن غالبية الآباء في تلك المرحلة التاريخية، محدثا ثورة حقيقية في مجتمعه الذكوري الذي يتحكم بشكل مطلق في تفاصيل حياة المرأة، و من مظاهر هذه الثورة هو بحث ليلى بنفسها عن شقة للسكن في حضرة والدها، مع كون هذه المهمة في مجتمعنا هي مهمه ذكورية، كما نجدها تأخذ مكان الساردة في الرواية لتحكي بنفسها عكس باقي الشخصيات النسوية الأخرى في هذا العمل.

كرست ليلى شخصية المرأة المتحررة بالمعنى الذي نعرفه اليوم عن مسألة التحرر، وهي تقر بنفسها أنها مدينة في ذلك لوالدها رشيد الذي شجعها على حرية الفكر وحرية الفعل والحركة والشعور والإحساس، فليلى أحبت علي زميلها في الدراسة قبل أن تتزوج، لكن هذا الأخير كان محافظا وأقل تحررا في انسجام مع القيم الناظمة لحياة مجتمعه، و هذا ما جعله يسعى دائما إلى ترويض زوجته ليلى لتسير وفق قناعته هو، و بعد أن علمت أن زوجها منخرط في "... النشاط الثوري و لا يطلعها على أي شيء مما يقوم به، مع أنها كانت زميلة له في الجامعة، بالإضافة الى كونها زوجته ..."[2]و قد طلبت منه المشاركة في هذا العمل الوطني

[1] – سامية داودي، أطفال العالم الجديد لآسيا جبار، ملتقى آسيا جبار بين اكراهات الكتابة بلغة الآخر وسلطان الذاكرة والتاريخ، جامعة مولود معمري تيزي وزو، 2013، ص 112.

[2] – أحمد منور، الادب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص341.

المقدس قائله : "... لقد قمنا بكل شيء معا، لما لا آتي معك، ما تفعله سأفعله معك ..."[1] من دون أن تحصل على الرد، وكانت قد طابت منه من قبل أن يعدل عن قرار صعوده للجبل.

إن غياب الانسجام النفسي وأحيانا الفكري بين علي المحافظ و زوجته ليلى ذات العقلية المتحررة، جعلها تشعر بالملل و الرتابة في حياتها، و فقدان الزمن لمعناه، تقول عنها آسيا جبار:"... منذ متى تعيش ليلى في الطابق الأخير من هذه البناية الشاغرة على حافة الطريق؟ لم تستطع ليلى الإجابة، و لم تكن تتساءل : لماذا أعد أنا الايام ..."[2]

"... Depuis quand vivait-elle là au dernier étage de cet immeuble vide au bord de la route ? Lila n'aurait su le dire, elle ne s'interrogeait pas pour quoi compterait-elle les jours ..."[3]

عاشت ليلى منطوية على نفسها وعن العالم الجديد الذي تروم دخوله، أسيره لذكرياتها "... و في ليلة استضافت قريبها بشير الذي التقت به صدفة في الشارع، أثناء عودته من مهمه حرق مزرعة فرنسي، لتجد نفسها في اليوم التالي في السجن، و أخيرا تخرج من منطقه الظلام و تدخل الى منطقه التحقق الفعلي، لقد اهتدت الى طريق الكفاح في السجن ..."[4]

---

[1] – أحمد منور، الادب الجزائري باللسان الفرنسي المرجع السابق، ص341.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Assia Djebar, les enfants du Nouveau Monde, Julliard, paris, France, p : 37.

[4] – ساميه داودي، ملتقى آسيا جبار بين اكراهات الكتابة بلغه الاخر وسلطان الذاكرة والتاريخ، المرجع السابق، ص: 116.

حاولت آسيا جبار أن تحدث تحولا في كتابتها الروائية من خلال هذا العمل لكن، محاولتها هذه لم تكلل بالنجاح لأن هذا التحول في أسلوب الكتابة و حتى في موضوعاتها جاء بعد رواية القبرات الساذجة، لكن ومع هذا فثمة سعي لإقحام الواقع المعيش البائس و اليائس في عملها، لكن بأسلوب كلاسيكي من دون أن تحدث أي صدمه أو خلخلة لدى المتلقي الذي يحصل لديه الانطباع – وهو يقرأ هذا العمل – بأن الروائية تسعى الى أن تنأ عن كل المواقع و المواضع التي يمكن أن تثير الاحساس بالرغبة في العنف و من ثم الثورة و التمرد عليها، وهذا راجع في تقديرنا الى أن هذا العمل وغيره من أعمال آسيا جبار في هذه المرحلة من حياتها الأدبية، موجه بالأساس الى الوعي الأوروبي و المتروبوليتاني تحديدا.

إن هذه الرواية لا تشير من قريب و لا من بعيد لجيش التحرير ولا جبهة التحرير بالرغم من أنها كتبت في مرحلة حساسة و مفصليه من تاريخ الثورة (نهاية خمسينيات القرن الماضي) ولا حتى لبعض زعامات الحركة الوطنية، فيما تمت الإشارة فقط الى الأحداث الدموية للثامن من ماي من سنه 1954، بإعتبارها إرهاصا لما سيأتي من أحداث، إن غياب بعض التفاصيل التاريخية يجعل من هذه الرواية عملا أدبيا أكثر منه وثيقة تاريخية.

ج – سليمة المناضلة العصامية.

إذا كانت بطلتنا السابقة قد حصلت على حريتها، فلأنها كانت محظوظة بوجود أب متعلم (في غياب أمها المتوفية) مؤمن بتسلح المرأة بالتعليم، وهي نفسها تقر بأنها إذا كانت تعيش الآن من دون أي ضغوطات أو إكراهات أسرية أو مجتمعية عليها، فالفضل في ذلك يرجع إالى والدها ، أما فيما يتعلق بالبطلة " سليمة " فقد كانت تكافح و تناضل وحدها لا ولي ولا قريب يسندها، إنها فتاة عصامية متعلمة، آمنت بمبادئ الثورة إيمانا عميقا فالتحقت بها، تعرضت للاعتقال والسجن في زنزانة لا تتوفر على أبسط شروط الإنسانية، هناك تستعيد سليمة ذكريات طفولتها وكذا بعض"... التفاصيل عن ذلك اللقاء الذي جمعها بمحمود قبل القبض عليها ، و كانت تحس نحو محمود بإحساس غامض لا تتجرأ حتى أن تصارح به

نفسها و تسميه حبا، لأنه كان متزوجا، و لكنه على أي حال كان نوعا من الإعجاب به، بررته على نحو غامض أيضا بصلة القرابة التي كانت تربطها به ..."[1]

تعرضت "سليمة" لأنواع شتى من التعذيب، الجسدي منه والنفسي، لكنها ثبتت و صمدت متسلحة بإيمانها بعدالة قضيتها، و خوفا منها على مصير أخواتها و إخوانها في الكفاح، فيما إذا ضعفت و تراجعت، و هو الجانب الذي حاولت الراوية وضعه في الظل في أثناء تفسيرها لصمود البطلة، مركزة على البعد النفسي لهذا الصمود (قوة الشخصية و العناد)

د – طومة و المصير المحتوم.

على عكس الأدوار الإيجابية التي حظيت بها كل بطلات هذه الرواية ، أوكلت الروائية لشخصية "طومة" دورا سلبيا من خلال ظهورها بمظهر الفتاة المنحطة والمستهترة بقيم المجتمع وتقاليده وأخلاقه، الشيء الذي عرضها أكثر من مرة للسب والشتم من بعض المارة، عند مرورها أمامهم بطريقة مستفزة برفقة أصدقائها الفرنسيين، وهي تعلم جيدا أن مثل هذه السلوكات تثير غرائز الجزائريين، لأنها مرتبطة بمسألة مقدسة عندهم هي الشرف، و هو ما دفع بأخيها الى قتلها دفاعا عن شرف الوطن أولا، ثم شرف العائلة والمجتمع ثانيا، والملفت للانتباه هنا، هو أن الروائية نظرت إلى عملية القتل هذه بمنظور وطني بحت، معتزة بقيم الثورة فيما كان بإمكانها أن تصور هذه العملية كتكريس لتسلط الذكر وقهره للمرأة، وصولا إلى وضع حد لحياتها، في سلوك بربري متوحش، كما تدعي ذلك النسويات الحديثة، لكنها لم تفعل.

هـ – حسيبة الثائرة الملتزمة.

التحقت حسيبة بالثورة بسبب ما تعرضت له عائلتها من مآسي و ملمات، على عكس "سليمة" التي انخرطت فيها لأسباب فكرية وأيديولوجية محضة، وعندما يسألها "يوسف" المناضل في جبهة التحرير عن

[1] – أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 347/346.

سبب التزامها بقضية الثورة، تجيب بأنها ترى أنه من الواجب عليها الدفاع عن أهلها وأرضها وعرضها بعدما عاث المستدمر فيها فسادا .

1-5-4. رواية امرأة من دون قبر La femme sans sépulture:

انخرط في سنة 1957 العديد من الجزائريين بالثورة التحريرية، ومن بين هؤلاء امرأة استثنائية تدعى "زوليخة"، تخلت عن بيتها وأولادها من أجل التفرغ لقضيتها الوطنية، لتختفي بعد سنتين من القبض عليها من طرف شرطة الإحتلال، تحاول آسيا جبار فك هذا اللغز أدبيا، معتبرة ذلك مسؤولية واقعة على عاتقها كمؤرخة وأديبة أولا، ثم كمسؤولية أخلاقية تجاه ابنة مدينتها (شرشال).

"... تبدأ الرواية في الاشتغال كلغز بوليسي في البداية، من خلال تتبع خطوات زوليخة بطلة مدينة شرشال "سيزاري" موطن طفولة آسيا جبار، وقد تم إنجاز مسار هذه البطلة بحسب شهادات الأقارب و الأصدقاء، والتي تعاطت معها الروائية من خلال عمل تخييلي في حدود ما يسمح به هذا الآخير ..."[1]

"...Le roman se met au travail dans un premier temps à la manière d'une énigme policière, reprendre le chemin de Zoulikha Héroïne de Cherchell (Césarée) ville d'enfance d'Assia Djebar (...), le cheminement est recomposé suivant les témoignages des proches, famille et amis, traité ici avec l'imagination et les variations que permet la fiction..."[2]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Beida Chikhi, les romans d'Assia Djebar, entre histoire et fantaisies, opcit, p: 143.

وتوضح آسيا جبار منذ البداية في تصديرها للرواية أن أحداث هذه القصة حقيقية وتقول: "... لقد حرصت في هذه الرواية أن تكون كل الأحداث والتفاصيل –حول حياة و وفاة زوليخة بطلة مدينة طفولتي أثناء الحرب التحريرية – وفية للتاريخ، أو أنها جاءت، بمعنى آخر، وفق مقاربة توثيقية ..."[1]

"... Dans ce roman tous les faits et détails de la vie et de la mort de Zoulikha, héroïne de ma ville d'enfance pendant la guerre de l'indépendance de l'Algérie, sont rapportés avec un souci de fidélité historique، ou dirais–je selon une approche documentaire..."[2]

تبرز الروائية في هذا العمل دور النساء المحوري – بعد ذهاب الرجال للجبال لمقاومة و مقارعة الاحتلال – في حفظ التراث والتقاليد والدين وترسيخه في أذهان الناشئة، من خلال جلساتهن وحكايتهن وسهرهن، ولعل شخصية " لالة بية Dame Lionne " صديقة "زوليخة" تعد أنموذجا في هذا المجال، بما تمثله من حكمة وتجربة ومعرفة بالعادات والتقاليد والمحافظة على الذاكرة.

لم ترزق "لالة بية" بأطفال، فعمدت الى تبني ولدا، فيما وهبت "زهرة عدى" صديقة "لالة بية" نفسها لتربية أحفادها رغم تقدمها في السن، بعد أن صارت أرملة، إثر مقتل زوجها وأولادها، وهو نفس السلوك الذي لجأت إليه "صفية" ابنة "زوليخة" الكبرى عندما قررت تربية إخوتها (مينة و لحبيب) بعد التحاق والدتها بالثورة.

[1] – الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – AssiaDjebar, la Femme sans Sépulture, Albin Michel, Paris, France, 2002, p : 09.

عملت آسيا جبار في هذه الرواية على إبراز الحياة الصعبة والظروف القاسية التي تحيط بشخصيات هذا العمل، فمن الأوضاع المادية المزرية إلى الترمل والتيتم وإلى تسلط الإحتلال... كل هاته الكروب أثقلت كاهلن، لكنها لم تمنعهن بالمقابل من أن يتحدن لمواجهتها، فيبرز مظهر التعاون بينهن لتربية الأطفال وتنشئتهم تنشئة سوية من الناحية النفسية والعاطفية، بربطهم بوطنهم وأرضهم و حفظهم للذاكرة، ولعل ذاكرة المكان في هذه الرواية (شرشال) نالت حظا كبيرا من الاهتمام.

ولأن قبر "زوليخة" ظل مجهولا، فإن سعي آسيا جبار للبحث عنه سيظل هو الآخر يمر عبر عمليات التخييل في محاولة لترميم هذه الحادثة التاريخية وملء الفراغات المحيطة بها، إن ظل "زوليخة" سيظل يحوم حول مدينة شرشال ولن ينقطع عنها: "... و كأن زوليخة التي ظلت من دون قبر تطفو غير مرئية و لا محسوسة في سماء المدينة الحميراء..."[1]

"... Comme si Zoulikha, restée sans sépulture, flottait invisible, perceptible au-dessus de la cité rousse..."[2]

1-5-5 رواية ظل السلطانة Ombre sultane.

تفتتح الراوية السرد في هذه الرواية بإطلاق صرخة فيها الكثير من الشعرية قائلة: "... الظل والسلطانة، الظل خلف السلطانة..."[3]

"... Ombre et sultane, Ombre derrière la sultane..."[4]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, la Femme sans Sépulture, opcit. p : 17.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Assia Djebar, Ombre Sultane, Albin Michel, Paris, France, 2006, p : 09

إنها صوره المرأة المستلبة المقهورة المتماهية مع صورة المرأة في حكايات "ألف ليلة وليلة"، التي كانت مصدرا ملهما لآسيا جبار عند كتابتها لهذه الرواية.

لكن المرأة التي أريد لها أن تظل أمية سجينة، لا دور لها في هذه الحياة سوى الاستجابة لرغبات سجانها ونزواته، ستتمكن يوما ما من إزاحة هذا الثقل من على كاهلها، وتزول هذه الغمة من أفقها، إن زمن الإيماء والجواري ولى وإلى غير رجعة، و على المرأة أن تناضل من أجل أن تنال حقوقها مثلها مثل الرجل الذي كرسته التقاليد و العادات ملكا، لا بل ربا لا يحاسب على أفعاله:"... إن الرجل الثمل له الحق في الانحراف، لكن المرأة التي تخرج من غير حجاب و دون علم سيدها، ستكون عرضة لعقاب شديد من قبل حراس القانون الإلهي غير المكتوب ..."[1]

"... Un homme ivre a le droit de dévier، mais une femme qui va nue sans que son maître le sache, quel châtiment les transmetteurs de la loi révélée non écrite lui réserveront-ils[2]..."

لكن السلطانة ستثبت وستقاوم كل أشكال العنف المسلط عليها و ستتحرر و تأخذ مصيرها بيدها، لتعيش حياتها بشكل كامل، وفي الحمام وحده تستطيع المرأة في الوقت الحاضر أن تعيش شيئا من حريتها المسلوبة، "...إن الحمام هو وحده الملجأ من هذه الرتابة، حتى أن فكرة الفضاء المغلق أو السجن لا يعود لها معنى (...)الحمام هو متنفس النساء (...) ففيه تتخلص المرأة من ضيق سجنها، إنه البديل عن الشرنقة الرحمية..."[3]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Ombre Sultane, Albin Michel, Paris, France, 2006, p : 132

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... Hamam, refuge de temps immobilisé. L'idée même d'air close et donc de prison, se dissout (...) Hamam seule rémission du Harem (...) dissoudre la touffeur de la claustration grâce à ce succédané du cocon maternel..."[1].

سعت آسيا جبار من وراء هذه الرواية أن ترسم مسارا قد يساهم في تحرير بعض السجينات ك: حجيلة و أسماء أخرى، وتستطرد آسيا جبار قائلة في آخر هذا العمل: "... بتتبع خطوات كل امرأة في الشارع، أزعم أنه بإمكاني معرفة تاريخها، مدته، جينيالوجيته، وأن أعرف أيضا ما إذا كانت تمشي هنا منذ ثلاثة قرون أو ثلاثة أيام ..."[2]

"... A la démarche de chaque femme dans la rue, je peux dire désormais son histoire, sa durée, sa généalogie, dire si elle circule depuis trois siècles ou depuis trois jours ..." [3]

تنهي آسيا جبار عملها هذا بشكل دراماتيكي وشعري في آن واحد بقولها: حتى هذه الحرية ستكون قاسية لأنها ستبقى مرتبطة بذكريات أليمة في نفوسنا.

لقد نذرت آسيا جبار نفسها للمرأة، تكتب لها وتكتب عنها، متخذة من التاريخ متنفسا ومنبعا ومعينا تعود إليه لترتوي منه، تواصل مسيرها الصعب، المليء بالأشواك والعقبات الكأداء، التي وإن كانت تعوق تقدمها بعض الشيء، إلا أنها لن تثني من عزيمتها ولا من إرادتها لتصويب البوصلة، من خلال إعادة قراءة تاريخ المرأة، ومن ثمة إعادة كتابته من وجهة نظر نسوية بحتة، ومن دون مقص أي رقيب، وفي هذا السياق تأتي رواية "بعيدا عن المدينة" لتكرس هذا التوجه، الذي من خلاله تحاول آسيا جبار رفع الغبن والحيف الظلم

[1] – Assia Djebar, Ombre Sultane, p : 217/218

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] –Ibid, p : 217/218.

التاريخي الذي وقع على المرأة، و تصحيح المسار عن طريق إعادة قراءة التاريخ في فترة زمنية معينة، من منظور نسوي صرف، وبناء على هذه القراءة، يصار إلى إعادة الكتابة التاريخية بالرغم من كون هذا المسعى – الكتابة حول هذه التيمة التاريخية والدينية – ليس بالأمر الهين ولا باليسير لكون مثل هذه التيمات – الدينية تحديدا – بعيدة عن مجال الاهتمامات المعرفية للروائية ، وهو ما جعل بعض النقاد يكيلون لها الكثير من الانتقادات : "... يرتبط – في بعيدا عن المدينة، الرواية التي عرضت آسيا جبار للكثير من العتاب، بدعوى أن المرأة غير مؤهلة للكتابة عن حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – الشخصية الأولى في الإسلام – حكي الساردة المؤلفة بمجموعة من النساء لعل أبرزهم : فاطمة الابنة الثائرة التي قالت "لا" في المدينة، عائشة زوجته، إضافة إلى الثماني زوجات الأخريات ..."[1]

"... Dans loin de Médine, ce roman que certains semblent avoir reproché à Assia Djebar, en prétendant qu'une femme est mal placée pour écrire sur la vie du prophète, la figure de premier homme de l'islam, se rattache dans le récit de la narratrice auteur à une filiation féminine dont les protagonistes sont sa fille Fatima, la rebelle qui dit non à Médine, sa femme Aicha et ses huit coépouses ..."[2]

1-5-6 بعيدا عن المدينة Loin de Médine: الهوية في قلب التاريخ والتاريخ في قلب التخييل.

شكلت الأحداث الدامية التي شهدتها الجزائر في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي (مظاهرات الخامس من شهر أكتوبر من سنة 1988) و ما أفرزته من واقع جديد، كان للتيار الإسلامي فيه الغلبة، وخشية

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Fatima Ahnouch, Littérature Francophone du Maghreb, imaginaire et représentations socioculturelles, l'Harmattan, Paris, France, 2015, p : 96.

من أن يتفرد الإسلاميون بالمشهد السياسي والاجتماعي والإعلامي وحدهم، وأن يضعوا أيديهم على دوائر صنع القرارات في البلد، خاصة بعد اكتساحهم للانتخابات التشريعية سنة 1991، انقطعت " آسيا جبار" عن كتابة رباعيتها، بعد أن كانت على وشك انهائها، و شرعت في كتابة " بعيدا عن المدينة " عسى أن تقنع متلقيها بنظرتها هي للإسلام، في خطاب مضاد لما يطرحه الإسلاميون في تلك المرحلة الحساسة من تاريخ الجزائر.

1-5-6-1. عتبات الرواية

أ – **.هندسه العنوان** : يقول المثل الفرنسي الشائع :" le beau titre est le vrai proxénète " d'un livre. (العنوان الجيد هو السمسار الحقيقي لأي كتاب)، فالعنوان هو مسوق جيد للعمل الأدبي، و هو الدال عليه، فبالإضافة إلى دوره الشعري الجمالي، فإنه يضطلح بدور تسويقي يدفع فضول المتلقي الى الإقبال عليه، لمعرفة ما يمكن أن يكتنزه من أسرار.

جاء عنوان هذه الرواية "بعيدا عن المدينة Loin de Médine" في إطار يقل ببعض المليمترات عن إطار اسم المؤلف ومباشره تحت هذا الأخير، وقد اختار الناشر أن يكتب العنوان بخط أسود داكن ضمن إطار قشدي اللون أقرب إلى البيج (Beige) في إيحاءة، في تقديرنا، إلى جغرافية المدينة المنورة الصحراوية.

أما صياغة العنوان فقد جاءت مكونه من :

1- ظرف Loin (Adverbe)

2- حرف جر De (préposition-article)

3- اسم) Médine (Nom)

والمدينة هنا ليست أي مدينة، إنها مدينة حب الله و صفيه، النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إنها يثرب.

ب–قراءة في أبعاد العنوان:

مقاربة دينية : تعتبر المدينة المنورة ثاني مدينة من حيث القدسية الدينية عند المسلمين، كانت – قبل الإسلام – تسمى "يثرب" و قد ورد اسمها في القرآن الكريم في قوله تعالى :" وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا و يستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة و ما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا " الأحزاب، الآية 12

يوجد بالمدينة المنورة ثاني حرم وهو الحرم المدني، مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، ثاني أقدس المساجد عند المسلمين بعد الحرم المكي، الذي قال في شأنه الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام و مسجدي هذا و المسجد الأقصى " في الحديث الذي ورد في صحيح بخاري و مسلم ، إضافة الى مسجد القبلتين ومسجد قبا، وتستمد المدينة المنورة قدسيتها من كونها المدينة التي اختار الرسول صلى الله عليه وسلم أن يهاجر إليها بعدما اشتد عليه الوطء، و ضاقت به السبل، فكانت ملاذه الآمن ومستقره الدائم، ولأهمية هذه المدينة من الناحية الدينية، سميت السور التي نزلت فيها بالسور المدنية بالإضافة إلى احتضانها لمقابر الصحابة رضوان الله عليهم (مقبرة البقيع)، وكونها أيضا كانت مسرحا لواقعة أحد.

والمدينة المنورة هي عاصمه المسلمين الأولى، فإليها هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم وفيها عاش ومات ودفن، وبها قبره صلى الله عليه وسلم في الروضة الشريفة، ومنها يبعث يوم القيامة، و"بعيدا عن المدينة" جاء هنا ليعني بعيدا عن كل هذا الإرث الديني الكبير، بعيدا عن القيم الإسلامية السامية وهو المعنى الذي ذهبت اليه الروائية في تصديرها للرواية بقولها :

"...Loin de Médine c'est-à-dire en dehors, géographiquement ou symboliquement, d'un lieu de pouvoir temporel qui s'carte irréversiblement de sa lumière originelle..."[1]

يجمع المؤرخون على أن المدينة المنورة تأسست حوالي 1600 سنه قبل الهجرة، سكنها العماليق[2] و اليهود "... على إثر طرد الرومان لمن كان منهم في بلاد الشام ..."[3] ممثلين في قبيلتي بني قريظة و بني قينقاع، بالإضافة إلى قبيلتي الأوس والخزرج وهما قبيلتان قحطانيتان.

ظهر الإسلام في المدينة في القرن السابع ميلادي ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فانتشرت الدعوة بسرعة في الجزيرة العربية ثم انتقلت منها الى باقي اصقاع العالم.

عاشت المدينة المنورة عصورها الذهبية في الفترة الراشدية مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلى، و في عهد هذا الأخير عاشت المدينة اضطرابات سياسية كان سببها الرئيس اختلاف الصحابة حول مسألة الخلافة، حتى تطور الموقف الى المواجهات العسكرية، مما اضطر أمير المؤمنين يهم بالمغادرة "... و بخروج الخليفة علي ابن ابي طالب رضي الله عنه من المدينة (مستهل خلافته) لم يعد إليها ثانيه، فقد إتخذ من الكوفة عاصمه للدولة، و بذلك فقدت المدينة مكانتها السياسية عاصمه للدولة، بل إن الحجاز بصورة عامة تراجع عن مركز الصدارة الإدارية والسياسية ..."[4]

---

[1] – Assia Djebar, Loin de Médine, Albin Michel, Paris, France, 1991, p : 5.

[2] – العماليق: اسم يطلقه العرب على قبائل الكنعانيين والاموريين الذين كانوا من أقدم سكان الجزيرة العربية ثم تفرقوا بعد ذلك في البلدان وحكموا مدنا كثيره مثل: نجد، عمان، اليمن، سوريا، العراق.

[3] – عدنان علي الفراجي الحياة الفكرية في المدينة المنورة في القرنين الاول والثاني للهجرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،2006، ص20.

[4] – المرجع نفسه، ص 38/ 39.

لقد كان القرنان الأولان للهجرة فترة حبلى بالإنجازات في شتى الميادين في المدينة المنورة، فقد كانت بحق نهضه في مختلف مجالات العلوم و المعارف، جعلت من مدينه النبي صلى الله عليه وسلم منارة حضارية، ومركز ثقل علمي و فكري، شد انتباه أعرق الامم و الحضارات في تلك المرحلة التاريخية الى أن شرع نجمها في الأفول، بعد أن تحول مركز قياده الأمة منها في العصور اللاحقة بإتجاه الكوفة فدمشق ثم بغداد فإسطنبول.

أخذت المدينة في الإبتعاد عن دورها الريادي والحضاري والتاريخي الذي تقمصته وأدته ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم، و من هنا أيضا يمكن القول أن "بعيدا عن المدينة" إنما يعني هذا الابتعاد عن تاريخ المدينة وحضارتها وكل ما يرمزان إليه.

أما الشق الثاني من العنوان " بنات إسماعيل Filles d' Ismaël " الوارد في الصفحة الخامسة من الرواية في سابقه في الكتابة الروائية، ربما أرادت آسيا جبار أن تشد إليها أنظار المتلقين و تغريهم من خلال اقتصار عنوانها في الصفحة الأولى على عبارة " بعيدا عن المدينة" فقط، لأن العناوين المقتضبة والقصيرة التي تعتمد على ما يسمى ب "اقتصاد اللغة" Economie de la langue كثيرا ما تكون جذابهة، فالوظيفة الإغرائية للعنوان ترغم القارئ على الدخول إلى دهاليز النص "... رغبه في التواصل والاستكشاف ..."[1] بعد أن كان قد تعرض لاستفزاز العنونة، إن بناء العناوين بأشكال غريبه و مستفزة أحيانا يجعل المتلقي يقبل على قراءة العمل حتى و إن لم تكن له الرغبة في ذلك.

وبالعودة الى الشطر الثاني من عنوان مدونتنا " بنات إسماعيل " فربما كان هذا من أجل التحديد والتوضيح للقارئ – بعد ما كانت قد أغرته بالدخول الى عالم الرواية بعنوانها المقتضب في الصفحة الأولى

[1] – بسام قطوس، سيمياء العنوان، ط1، وزاره الثقافة، عمان، الاردن، 2001، ص60.

– بأن النساء اللواتي سيأتي ذكرهن في المتن الروائي هن بنات إسماعيل ولد هاجر، يعني النساء العربيات في المدينة المنورة و ليس غيرهن من ساكنات المدينة.

ج– اسم المؤلف :

أول عتبة تستدعي انتباه المتلقي في هذه الرواية هي اسم المؤلف الذي جاء متصدرا الغلاف باللون الأبيض الذي يرمز للصفاء والنقاء، كما يرمز ايضا إلى "... "نعم" مقابل "لا" لأنه الصفحة التي ستكتب عليها القصة، إنه أحد الطرفين المتقابلين، إنه يمثل البداية في مقابل النهاية والألف في مقابل الياء ..."[1]داخل إطار أزرق يشد الانتباه لفرط زرقته، و كأن آسيا جبار تشير إلى زرقة البحر وهي المغرمة بمدينة شرشال الساحلية مسقط رأسها و مقر مثواها الأخير، بعد أن أوصت هي بذلك –كما أن ظهور اسم المؤلف في المستوى الأول للغلاف يدل بطريقة ضمنية على ملكية هذا العمل أو نسبته إلى صاحبه "... لذلك يعلو المؤلف إذن عن أن يكون مجرد اسم علم يحيل على شخص بإتجاه تركيب وظيفة بنيوية، قائمة في جزء منها على فرضية إنجازه لوظيفة وصفية متعاضدة مع فرضية إحالته على مبدأ وحدة كتابية، من هذا المكان التحليلي بالتحديد، يمكن لاسم المؤلف أن ينهض بوظيفته كنص مواز ..."[2]

إن هذه العتبة، " اسم المؤلف "، تساعد في توجيه القارئ و إضاءة الطريق من أجل هضم النص الروائي، و من ثمة محاولة تأويله، ومن هنا يأتي اسم " آسيا جبار " ليس كإسم دال فقط، وإنما أيضا كفكر و رؤى وتصورات وأيديولوجيا تتخلل العملية السردية.

إن دار " ألبان ميشال " التي نشرت هذا العمل، إضافة الى غالبية أعمال آسيا جبار، أرادت الترويج لإصداراتها، معتمدة بالأساس على سمعة المؤلف من خلال وضع اسمه في أعلى الغلاف، و جعله طاغيا على باقي الأيقونات والعتبات الأخرى، و في هذا ترويج للمؤلف أكثر منه ترويج للعمل الأدبي، على اعتبار

[1] – أحمد مختار عمر، اللغة واللون، ط2، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ،1998، ص 193.

[2] – نبيل منصر، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، ط1، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب ،2007، ص 38.

البعد العالمي لاسم " آسيا جبار " الذي سيشد الأنظار إليه أكثر من عنوان الرواية، وبالتالي كسب أكبر عدد من المتلقين، و هو ما سيعود على دار النشر بالفوائد الجمة حال زيادة نسبة مبيعاتها، فأصحاب دور النشر لا ينظرون إلى الإبداعات الأدبية من زاوية قيمتها الفنية والجمالية والموضوعاتية، وإنما من زاوية ما تدره عليهم من أرباح مادية .

د – رمزية صورة الغلاف:

لقد باتت صورة الغلاف ضرورة من ضرورات النص الروائي مثلها مثل عملية التحكم في العملية التخييلية والسيطرة على ناصية اللغة سردا ووصفا وحوارا.

جاءت صورة غلاف رواية " بعيدا عن المدينة " حاملة للأيقونات التالية :

د/1 – صورة المسجد :

عكست صورة المسجد (بمأذنته وقبته وأبوابه المقوسة) هوية تيمة المدونة، بما تمثله من وعاء لمعتقدات الأمة وثقافتها وتاريخها وتراثها وفنونها، وقد أتت مئذنة الجامع لتشعرك بالسمو والارتقاء نحو السماء من خلال ارتفاعها و كذلك من خلال نداء المؤذن و دعوته الناس للفريضة، كما جاءت صورة القبة ملازمة لصورة المئذنة و محاذية لها، مشكلة صورة جمالية غاية في الروعة، تضفي على المسجد توازن في الشكل يريح الناظرين، و يكسر جمود الكتل الحجرية والاسمنتية للبناء.

إن صوره الجامع بجميع عناصرها المعمارية (المئذنة، القبة، والأبواب المقوسة) فيها من الرمزية و التجريد ما يعبر بشكل جلي على موضوع هذه المدونة محل الدراسة والبحث.

د/2 – صورة الإمرأتين :

مثلت صورة الامرأتين التي توسطت صورة الغلاف مركزية المرأة في هذه الرواية بعد تقويضها للمركزية الذكورية المهيمنة، هذه المركزية التي كرست استعلاء الذكر و فوقيته في مقابل تواضع المرأة و دونيتها، وقد وجد الرجل نفسه في هذا السرد مستبعدا عن المركز، ومنفيا عنه بعدما كان قد تعود أن يسرد

"... أحداث التاريخ (...) من وجهة نظر ذكورية بحتة، و يستبعد الإناث تماما، و من ثم يرى دعاة ما بعد الحداثة و التمركز حول الأنثى ضرورة وضع نهاية لهذا التاريخ و تفكيك هذا العالم الذكوري..."[1] لقد احتل الذكر هذا المركز عنوة في الأزمنة المتعاقبة، و من غير وجه حق، وقد آن الاوان لتعيد المرأة بنفسها الحق الى أصحابه.

د/3– صورة النخلة :

النخلة هي شجرة الله المقدسة منذ الأزل وعبر العصور، الشيء الذي أكسبها عبق قدسي مبارك، و قد اقترن اسم المدينة المنورة بها، إنها رمز الهوية والانتماء لكل ما هو عربي إسلامي، كما أنها تجسد أيضا صورة المرأة بعطائها اللامحدود، المرأة هبة الحياة ومصدر الدفء والحنان، و صانعة التاريخ و رمز الأنوثة و الجمال.

د/4– صورة الديك :

للديك رمزية خاصة في المخزون الثقافي في المنطقة العربية، دالة على الإنذار بالخطر من خلال الصياح أن أفيقوا واستيقظوا، ربما أرادت الروائية دعوة المرأة بشكل ضمني إلى أن تستفيق من إغفاءتها، وأن تنفض عن نفسها غبار الخضوع و الخنوع و السلبية، كما يمكن أن يحمل دلالة الغرور والكبرياء.

[1] – عبد الوهاب المسيري، قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الانثى، ط2، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2010، ص 21 / 22.

1-5-6-2. الخطاب المقدماتي :

أ- الاستفتاح (Avant Propos) :

دأبت آسيا جبار على بداية رواياتها باستفتاحات من شأنها أن تساعد المتلقي على الغور في أعماق العمل الأدبي من أجل فهمه وفك شفراته، وتعتبر الاستفتاحات من "... أعقد وأصعب المكونات المتعلقة بالنص الإبداعي، حيث من خلال إحكامها وضبط صياغتها كرؤية لمحتوى العمل بكامله، يجد المتبقى من الأحداث طريقه الى ذهنية القارئ المتعامل مع النص ..."[1]

أشارت آسيا جبار منذ البداية في هذا الاستفتاح الى مسألة التجنيس في الأدب، مصنفة عملها هذا ضمن ما يصطلح عليه بالرواية قائلة :"... أسميت "رواية" هذه المجموعة من الحكايات و المشاهد و الرؤى أحيانا، التي غذتها بداخلي قراءاتي لبعض المؤرخين في القرنين أو الثلاثة قرون الأولى للإسلام (ابن هشام، ابن سعد والطبري) ..."[2]

"... j'ai appelé "roman" cet ensemble de récits de scène، de vision parfois qu'a nourri en moi la lecture de quelques historiens des deux ou trois premiers siècles de l'Islam (Ibn Hicham، Ibn Saad et Tabari)[3]..."

[1] – نور الدين صدوق، البداية في النص الروائي، دار الحوار للنشر، سوريا، 1994، ص 17.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – AssiaDjebar, loin de Médine, Albin Michel, 1991, p : 5.

وهذا سيلقي بظلاله بالتأكيد على المتلقي من خلال توجيهه منذ البداية إلى وجهة محددة، لأننا أصبحنا نعيش في ظروف ألغيت فيه الحدود بين الأجناس، و صارت الإبداعات الأدبية تتجاوز تلك التصنيفات والأنماط التقليدية الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ الأدبي.

وقد كان للطبري النصيب الأكبر من التعاطي معه، فقد تمت الإشارة إليه ثلاثا و عشرين مرة(23)، فيما تم العبور على طبقات ابن سعد و سيرة ابن هشام بشكل سريع لا يكاد يذكر، كما تعرضت مرويات الطبري للكثير من النقد، والطبري نفسه يذكر في مقدمه مؤلفه "... أن ما سيرويه في تاريخه لن يكون خلو من إمكانيه ضعفه أو الشك فيه، بسبب تسريب اللامعقول أو الاسطوري إليه ..."[1]

كما أشارت أيضا آسيا جبار في هذا الاستفتاح إلى محاولتها، من خلال هذا العمل، إعادة الحياة إلى نساء صنعن التاريخ، لكن هذا التاريخ نفسه لم ينصفهن، التاريخ الذي كتبه الرجال تحديدا، متخذة من فضاءات بوح هؤلاء النسوة مطية لملء الفراغات، التي سكت عنها المؤرخون عن قصد، عن طريق التخييل، من أجل كتابة تاريخ جديد، ينصف المرأة و يرفع عنها الضيم والظلم، متوسلة تقنية الجرح و التعديل إذا ما صح هذا الاقتباس من لغة الفقهاء.

توجه آسيا جبار في آخر هذا الاستفتاح شكرها و امتنانها للشاعر المغربي نور الدين الأنصاري لمساعدتها في مواجهة تعقيدات اللغة التي بها كتب هؤلاء المؤرخون كتبهم، لأنها لم تكن تجيد العربية الفصحى، الشيء الذي دفعها إلى مغادرة الجزائر بإتجاه فرنسا في نهاية السبعينات، بعد أن تم اعتماد سياسة التعريب من طرف الحكومة الجزائرية آنذاك، و يؤكد الباحث " بريشي بوسعد" في كتابه " تمازغا الفرنكوفونية

[1] – عبد الله عبد اللاوي، حفريات الخطاب العربي التاريخي: المعرفة، السلطة، التمثلات، المرجع السابق، ص 130.

المؤنثة Tamazgha : Francophone Féminine " من جهته، أن آسيا جبار لم يكن بمقدورها دراسة النصوص العربية الكلاسيكية لكونها تعتمد فقط على اللهجة العربية الجزائرية الشفوية، يقول :

"... Cependant, l'oralité de l'arabe dialectal ne lui permet pas d'accéder auxtextes d'arabe classique..."[1]

إن اكتفاء الروائية آسيا جبار بشكر "نور الدين الأنصاري" لكونه الوحيد الذي اعتمدت عليه في هذه المواجهة الصعبة والمعقدة والخطيرة، صعبة من حيث كونها مواجهة تقتضي صلاح اللغة الجيدة وهي لا تمتلك هذا السلاح أو تملكه بالوكالة، ثم معقدة لأنها مواجهة يختلط فيها التاريخ بالدين وبالسياسة، وأخيرا خطيرة لأنها مرتبطة بالمقدس، و بفترات دقيقة في حياة الأمة كفترة الخلافة وفترة الفتنة الكبرى بين الصحابة، و من هنا باتت أسئلة كثيرة تفرض نفسها من قبيل : إلى أي مدى كانت آسيا جبار مؤهلة لخوض غمار مواجهة ثلاثية الأبعاد : دينية وتاريخية وسياسية ؟ و ما دور الترجمة الفرنسية عن النسخة الفارسية لكتاب الطبري التي قام بها المستشرق الفرنسي ذو الأصول الألمانية هرمان زوتمبرغ Herman Zotemberg ؟

تجيب الباحثة " فاطمة الزهراء شيعلى" عن هذه التساؤلات بقولها:"... لكن وفي الوقت الذي تدين فيه آسيا جبار تزوير التاريخ من قبل المؤرخين باختراعها لتاريخ أنثوي، فإنها ستقع هي نفسها في تزوير التاريخ عندما تقترح قراءة النسخة المترجمة من قبل هرمان زوتمبرغ لنص الطبري كنسخة لهذا الأخير، ويكفي مقارنة النصين لنكتشف أن نسخة المترجم هي عبارة عن قراءة أو تأويل لنص المؤرخ لا ترجمة له ..."[2]

[1] – Boussad Berrichi, Tamazgha : Francophone au Féminin, opcit, p : 89.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... Mais au même temps qu'Assia Djebar dénonce la falsification de l'histoire par les historiens، en réinventant une histoire au féminin، elle va la falsifier à son tour lorsqu'elle propose à lire la version traduite par H Zotemberg du texte de Tabari comme le sien, en effet, il suffit de comparer les deux textes pour s'apercevoir que la version du traducteur est une lecture، une interprétation de l'œuvre de l'historien et non sa traduction..."[1]

وتستطرد فاطمة الزهراء شيعلى عطفا عن هذا الكلام قائلة "... يقترح زوتمبرغ على القارئ زبدة خلاصته الشخصية لكتابات الطبري، و يمرر عبر خلاصته هذه وبطريقة ضمنية آرائه واختياراته ..."[2]

"... Zotemberg propose au lecteur une synthèse personnelle des écrits de Tabari, il glisse discrètement ses opinions et ses préférences ..."[3]

وتخلص "فاطمة الزهراء شيعلي" إلى أن "... تذكر آسيا جبار الطبري برجوعها إلى زوتمبرغ، فيما الاقتباسات التي تنسبها إلى الطبري هي تلك الموجودة في النص المترجم والتي لا نجدها بالضرورة في النص المصدر للطبري ..."[4]

---

[1] - Fatima Zohra Chiali, l'histoire au féminin selon AssiaDjebar à travers une étude sémiotique de loin de Médine, http://ouvrages.crasc.dz/2010/-écriture féminine-fr.chiali, p : 92/93. Le 22/06/2020 à 14h 55mn.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Ibid, p : 93.

[4] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"… Assia Djebar va citer Tabari en se référant à Zotemberg, les citations qu'elle octroie à l'historien sont celles qui se trouvent dans le texte traduit et qu'on ne retrouve pas nécessairement dans le texte source de Tabari …"[1]

إن هذا التعاطي غير المعلن مع التاريخ، وعدم الإشارة لا من قريب ولا من بعيد إلى هذه المصادربحسب الباحثة فاطمة الزهراء شيعلي، التي من الأرجح والموضوعي أن تكون قد عادت إليها في عمل مرهق وشاق و مميز كهذا، يضرب في صدقية الروائية التي هي نفسها من أعلنت الحرب عن مثل هذه السلوكات.

كما أشارت آسيا جبار في هذا الاستنتاج إلى أن محاولتها هذه ما هي إلا ضرب من ضروب الاجتهاد الذي ولدته فيها هذه النصوص التاريخية.

"… En un mot sa poésie, seul vrai reflet d'une époque à éperonné ma volonté D'ijtihad …"[2]

لكن هل كانت آسيا جبار مؤهلة موضوعيا وعلميا لهذه المهمة الصعبة يقول شارل سان برو"… إن الاجتهاد يتطلب دقة كاملة و قدرات علمية خاصة (…) و موضوعية …"[3]، و هو الشئ الذي يمكن أن تؤتى منه الروائية، خاصة ما تعلق منه بمسألة التخصص.

[1] – Fatima Zohra Chiali, l'histoire au féminin selon AssiaDjebar à travers une étude sémiotique de loin de Médine, opcit, p : 93.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 06.

[3] – شارل سان برو، حركة الإصلاح في التراث الإسلامي، تر: أسامة نبيل، الدار المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، 2013، ص 09.

ب- التصدير préface :

يرمي التصدير إلى التأثير على أفق توقع المتلقي كما ينبغي له أن : "... يصعد الحساسية و الانفعال لدى القارئ ..."[1].

إن التصدير باعتباره استشهاد لتوضيح قول ما وتعزيزه، يعمل على تحديد معاني النصوص ودلالاتها ولا يتضح معناه إلا بعد إتمام قراءة هذه النصوص، لأنه عادة ما يحمل بين طياته الكثير من الرموز والاستعارات.

جاء تصدير رواية بعيدا عن المدينة حاملا لمقولتين الأولى للشاعر الفارسي الفردوسي[2] صاحب ملحمة الشهنامة، و الثانية للمؤرخ الفرنسي جون ميشلي[3]، يقول الفردوسي:"... كل ما سأحكيه الكل حكاه، فالكل طاف ببستان المعرفة، و مع ذلك فأنا لا أقوى على تبوء مكانة عالية في الشجرة المليئة بالثمار، لأن قواي تخونني، و بالرغم من ذلك فالذي يجلس تحت نخلة سيحميه ظلها، لعلني أجد لي مكانا تحت جذع شجرة السرو هذه، التي ترمي بظلالها من بعيد ..."[4]

"... Tout ce que je dirai, tous l'ont déjà conté, tous ont déjà parcouru le jardin du savoir. Quand même je ne pourrai atteindre une place élevée dans l'arbre chargé de fruits, parce que mes forces n'y suffisent pas. Toutefois celui qui se

[1] – نبيل منصر، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 2007، ص 61.

[2] – الفردوسي: هو أبو القاسم الفردوسي (935 – 1020) من خراسان، عاش في زمن الخلافة العباسية، أشهر مؤلفاته الرواية الملحمية: الشهنامة.

[3] – جول ميشلي (1798 – 1874)، مؤرخ فرنسي، من مؤرخي القرن التاسع عشر، من أشهر أعماله: تاريخ فرنسا، تاريخ الثورة.

[4] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

tient sous un palmier puissant sera Garanti du mal par son ombre. Peut-être pourrai-je trouver une place sur une branche inférieure de ce cyprès Qui jette son ombre au loin ..."[1]

وكأني بآسيا جبار تقول إن الموضوع الذي سأخوض فيه قد خاض فيه نفر من منتسبي الفن والتاريخ والأدب، وما أنا إلا وافدة جديدة على هذا المجال البحثي الذي أطمع أن يغمرني بظلاله المعرفية وأن يضمن لي منزلة في ثناياه.

أما " ميشلي " فيقول :"... حصل إذا حوار بيني وبينه ، بيني أنا باعثه، و بين الزمن البعيد الذي أعيد بعثه ..."[2]

"... ET il y Alors un étrange dialogue entre lui et moi, entre moi Son ressusciteur, et le vieux temps remis debout ..."[3]

تلخص مقولة "ميشلي" هذه فلسفة آسيا جبار في الكتابة الروائية بإعتبارها محاولة لبعث الماضي من جديد برؤية مغايرة، تطبعها اللمسة الأنثوية التي لطالما غيبها التاريخ جاعلا منها مجرد "... أنوثة مزعومة ليست غالبا شيئا آخرا سوى شكل من المجاملة إزاء انتظارات ذكورية في شأن تضخيم الأناEgo، و بالنتيجة فإن علاقة التبعية إزاء الآخرين (و ليس الرجال فقط) تنحو لأن تصبح مكونة لكيانهن ..."[4]

---

[1] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 07.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Ibid, p : 07.

[4] – بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ط1، تر: سلمان قعفراني، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، لبنان،2009، ص103.

ج-المقدمة prologue :

تفتتح آسيا جبار هذا السرد بوضع القارئ في الصورة الزمنية للعمل بإشارتها منذ البداية إلى تاريخ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم :

"...A Médine ce lundi 23 rabi 1er au 11 de l'hégire (8 juin 632)..."[1]

فيما لم يجمع أهل السير في تاريخ وفاته صلى الله عليه وسلم، فابن سعد في الطبقات في المجلد الثاني و في باب وفاة المصطفى صلى الله عليه و آله و سلم يقول إن وفاته كانت في ثاني ربيع الأول.

أما ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري فقال : و أما وفاته صلى الله عليه و آله و سلم فكانت في الثاني من ربيع الأول و هذا هو أصح الأقوال في تقديره.

أما الإمام السهيلي صاحب أكبر كتاب في السير "روض الأنف" يشرح فيه سيرة ابن هشام، فقال بأن كل التواريخ محتملة لوفاته 2, 3, 4, 5....9 إلا يوم الثاني عشر مستندا الى تاريخ حجة الوداع.

ثم انتقلت للحديث عن مسألة احتضار النبي صلى الله عليه وسلم في حجر عائشة و وفاته ثم دفنه في غرفة عائشة، كما كان للكلام عن خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم – نصيب في هذه المقدمة بإشاراتها إلى الخلافات التي دبت بين الصحابة حول هذا الأمر "... أفضت مشكلة الخلافة إلى نزاعات وإلى خطابات عنيفة بل حتى إلى خصومات ..."[2]

[1] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 09.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... le problème de la succession donne lieu à des querelles, à des discours véhéments, Peut-être même à des violences ..."[1]

لا نزال نعيش تبعاتها وتداعياتها حتى يومنا هذا، ولعل هذه التجربة المريرة "... هي في خلاصتها دعوة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بمنهج جديد، يمنح قدسية المبادئ على مكانة الأشخاص مع الاعتراف بفضل السابقين ومكانتهم في حدود ما تسمح به المبادئ التي يستمد منها ذلك الفضل و تلك المكانة ..."[2]

إن تغييبنا للعقلية الناقدة هو سبب المآسي التي نحياها اليوم، فترسيخ النزعة النقدية في مجتمعاتنا اليوم أصبح أكثر من ضرورة، إن إعمال العقول و إثارة الأسئلة حتى تلك المستفزة منها، هو المدخل الذي منه نلج الى عالم الحداثة الحقيقية ف "... الشلل في ذاكرتنا التاريخية و الخلل في موازيننا العلمية و الانحراف في معاييرنا الأخلاقية من ضمن الأسباب التي جعلت أمتنا تساس بالهمجية و القهر، بعد أن أصبحت جل أمم الأرض تساس بالحرية والعدل ..."[3]

1-5-6-3- معمارية المتن الروائي

يتشكل المتن الروائي في رواية بعيدا عن المدينة من أربعة فصول مصدرة بمقدمة ومذيلة بخاتمة، يحتوي كل فصل من هاته الفصول على مجموعة من العناوين الجزئية، يحكي كل واحد منها قصة بطلة من بطلات هذا العمل و يأتي في آخر المثبت بأسماء الشخصيات التي جاء ذكرها في هذه الرواية.

---

[1] - AssiaDjebar, Loin de Médine, opcit, p : 11.

[2] - محمد بن المختار الشنقيطي، الخلافات السياسية بين الصحابة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان،2013، ص 55.

[3] - المرجع نفسه، ص54.

أ- الحرية و التحدي

أ/1.الملكة اليمنية و جوديت اللاهوتية

اجتهدت الروائية آسيا جبار في ترجمة ما كتبه المؤرخون حول المرحلة التاريخية محل البحث، بقدر ما اجتهدت في نسخ الحكايات الشفوية النسائية معتمدة أحيانا على ما تم نقله من نصوص، و أحيانا أخرى على عمليه التخييل التي تسمح للروائية بأن تتقمص شخصية هؤلاء النسوة و أن تعيش حياتهن بكل تفاصيلها و جزئياتها، و أن تستشرف مستقبلهن من وجهة نظرها هي، في مختبرها الذي أعدته خصيصا لهذا الغرض، قبل أن تشرع في هذا العمل الذي حوى العديد من الوثائق التاريخية و الحوارات و الكتب الدينية : "... ذلك أنها تريد أن تجعل من الخطاب الروائي أداة لرسم فضاء مخصوص نطل منه، و نعيد به بناء ماض مؤلم، بيد أننا ننتسب إليه، فهو جزء من ذاكرتنا، ومكون من مكونات هويتنا. والرواية بهذا الطرح هي رواية التزام (roman d'engagement) تحمل في ثناياها أطروحة (thèse) فكرية جديرة بالاهتمام مفادها : لنقرأ ماضينا قراءة واعية، حتى نبني حاضرنا و نحفظ مستقبلنا. لا قدسية للماضي دينيا كان أم تاريخيا ..."[1]

وفي هذا السياق تحاول آسيا جبار أن تعطي قراءة أخرى لزواج الملكة اليمنية المسلمة التي لم يأتي كتاب الطبري على ذكر اسمها بحسب آسيا جبار:

"... L'histoire ne nous a pas laissé le prénom de la reine ..."[2]

بمدعي النبوة الأسود العنسي، بعد أن كان قد قضى على "شهر ابن باذان" و جيشه الذي كان يضم الصحابي معاذ بن جبل بين صفوفه، بأن تقول : "... لما يتزوجها أسود ؟ هل لأنها جزء من الغنيمة فقط،

[1] – حسان راشدي، إعادة كتابة التاريخ في رواية " بعيدا عن المدينة" لآسيا جبار، أشغال الملتقى العالمي حول تجربة الكتابة عند آسيا جبار، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2013، ص14.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 17.

وأنها بدت له و هو البدوي الأغبر – الزوجة الأصغر والأجمل ببريقها الملكي الشاب – فريسة رائعة ؟ لكن كان بمقدوره أخذها دون زواج ، ربما لأنها لم تبد مقاومة قوية بعد تفكير أو فضول، أو كما يدعي الطبري – المستعجل في تبرير موقفها – بعد خوف، هذا الخوف الذي تنحى عنها بسرعة ..."[1]

"... Pourquoi Aswad l'épouse ? Seulement parce qu'elle fait partie du butin et qu'elle a dû lui paraître– lui le bédouin couvert encore de sa poussière, elle la plus jeune ou la plus belle des épouses, dans son éclat juvénile et royal– une proie fascinante ? Mais il pouvait la prendre sans l' épouser, peut–être ne manifesta – t–elle pas un excès de résistance par calcul, par curiosité, ou comme le suppose Tabari si hâtif à l'excuser, par crainte. Crainte qui l'a quitté vite ..."[2]

ترفض آسيا جبار المسوغ الذي ساقه الطبري في زواج الملكة اليمنية بمدعي النبوة " الأسود العنسي " من خلال اعتبارها بأن الطبري كان متسرعا ومستعجلا في تفهم موقف الملكة اليمنية بقبولها الزواج خوفا على حياتها باستعمالها لعبارة : Si hâtif

كما أن قول آسيا جبار أن أسود العنسي كان في مقدوره معاشرتها دون زواج (Mais il pouvait la prendre sans l'épouser)، قول فيه شطط ، لأن ساعد أسود العنسي اشتد، و شوكته قويت، فصار يهيمن على أرض واسعة تمتد من حضرموت حتى الطائف، بالإضافة إلى ادعائه النبوة، ثم إن التقاليد

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 18.

العربية في تلك المنطقة لا تسمح لشخص بهذه الصفات – صفات القيادة و الزعامة – أن يعاشر امرأة من دون زواج، فالوضع الاجتماعي والسياسي لهذا القائد لا يسمح له بذلك.

فيما تذهب الروائية إلى تقديم رواية أخرى مغايرة تماما لما ذهب إليه الطبري: "... هل كانت اليمنية ضحية خاضعة أم فريسة كاذبة وراضية ؟ ظهر أسود الزنجي، المنتصر إضافة إلى ادعائه النبوة، أمامها فلقبه كما انتصاراته يجملانه أمام عيني أرملة تغمرها الدموع، وجدت نفسها سيدة مرة أخرى، هل كانت زيجتها الثانية مجرد خضوع لجلادها أم أنها هي من سعى إلى تحقيق ذلك؟ ..."

"... la Yéménite Est-elle victime soumise ou fausse proie consentante ? Aswad le noir victorieux et de surcroît se voulant prophète, est apparu devant elle. Son surnom autant que sa victoire l'embellissent à la veuve aux yeux vite tarés de larmes. Elle se retrouve deuxième fois souveraine. Comment savoir si pour ces secondes noces elle fait plus que se soumettre, les auraient-elles pas provoquées..."[1]

ففيما يرى الطبري أنه لم يكن أمام الملكة اليمنية سوى الخضوع والقبول بهذه الزيجة خشية على حياتها من سطوة هذا الطاغية المتجبر، ترى آسيا جبار عكس ذلك فهي تعتقد أن اليمنية كانت معجبة بأسود العنسي وانتصاراته وسلطانه، من خلال تساؤلها الذي يعلن أكثر مما يبطن، أنها هي من رتب هذه الزيجة، وهي من سيرتب في مرحلة لاحقة مقتل هذا الزنديق : "... يقتضي التخييل تصور هذه المرأة داهية لأن أسلحة الأنوثة لم تبق في مثل هذه الظروف الوحيدة غير الموظفة ..."[2]

---

1 – Assia Djebar, loin de Médine, opcit, p : 18/19.

2 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

بل وتذهب أبعد من ذلك في التنويه بقوة هذه المرأة وحنكتها لا بل ودهائها، هذا الدهاء الذي يفتقده الكثير من الرجال: "... كان فيروز يتمنى أن يجد حليفا في تلك التي كانت في البداية زوجة الملك الشرعي، لكنه وجد أكثر من ذلك : مدبرة مكيدة قتل ..."[1]

"... Ferouz qui espérait trouver une alliée dans celle qui fût d'abord femme du roi légitime، rencontra plus, une créatrice du scénario meurtrier ..."[2]

يفترض هذا السيناريو أن يأتي فيروز ليلا إلى القصر، وأن تجعل اليمنية زوجها العنسي يسكر حتى الثمالة، ثم يحدث الفيروز خرقا في حائط الغرفة، يلج من خلاله، لكن من دون سيف في البداية، حتى يرى وضعية نوم العنسي، ليقرر بعد ذلك كيف يقضي عليه، وهنا تطرح آسيا جبار مجموعة تساؤلات بعيدة تماما عما رواه الطبري قائلة : "... ألا يعد دخول الفيروز من هذه الفجوة ومن دون سلاح، كدخول عاشق متسلل، ولمالا كقريب مغرم، ويكمل الطبري روايته برباطة جأش ..."[3]

"... entrer désarmé par cette brèche beauté n'est-ce pas se présenter en amoureux, pourquoi pas en cousin aimant, or Tabari continue sa relation imperturbablement..."[4]

تواصل آسيا جبار عملها التخييلي فيما تعلق بهذه الليلة، وما دار فيها بين الملكة اليمنية وقريبها الفيروز الديلمي الذي أتى لأجل غاية واحدة وهي قتل أسود العنسي مدعي النبوة، وتتساءل مرة أخرى : "... ألم

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 19.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Ibid, p: 22.

تكن فاتحة هذا اللقاء الليلي بين الفيروز والملكة اليمنية كزفاف ثالث : زواج اليمنية بالمنتصر التالي، الثالث، لتطمئن على ما هو آت في قادم أيامها ؟ ملكة غامضة تهب نفسها لكل منتصر مقبل عليها، لتهيمن عليه فيما بعد وترهقه ..."[1]

"... Dans ce préambule de tête-à-tête nocturne de Ferouz et de la reine، y Est-il comme des troisièmes noces، union de la Yéménite avec le futur troisième triomphateur pour sceller d'avantage l'avenir ? Mystérieuse souveraine qui se donnerait à chaque vainqueur approchant, qu'elle domine après coup pour s'en lasser finalement ..."[2].

حاولت آسيا جبار أن تظهر الملكة اليمنية في هذا السرد بمظهر القوة والشجاعة والدهاء والسيطرة على مجريات الأمور كلها، تماما كسيطرة "بلقيس" ملكة سبأ على الأوضاع في مملكتها، و إحاطتها علما بكل شاردة و واردة، والتي ورد ذكرها في روايات جلها توراتي والبعض الآخر في القرآن الكريم "**... إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ...**" **سورة النمل، الآية 23** ، و في هذا دلالة واضحة على إحكام الهيمنة و السيطرة و كمال التمكين للملكة على جميع مفاصل المملكة، فقوله تعالى "**... و أوتيت من كل شيء ...**" ، هو وصف لم تحض به أي من النساء اللواتي جاء ذكرهن في القرآن الكريم، ومن المواقف التي سجلها لها التاريخ، أنها استطاعت أن تدير أزمتها مع النبي سليمان

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 23.

بحكمة كبيرة وفطنة غير مسبوقة ودهاء لا نظير له، فحافظت على مملكتها بتجنبها لمواجهة غير متكافئة مع النبي سليمان، بدلا من الهلاك المحقق، و انتهى بها الأمر إلى الاهتداء بنور الحق المبين.

إن الملكة اليمنية هي، بصورة ما، تجسيد للملكة بلقيس ملكة سبأ، اليمنيتان اللتان عاشتا في نفس الجغرافيا وأظهرتا نفس القوة والبأس والشجاعة والشموخ، ومن جهة أخرى ترى الروائية أنه بالرغم من الحقد الذي كان يسكن الشخصية اليمنية تجاه جلادها "أسود العنسي"، الذي فصل الفيروز رأسه عن جسده أمام عينيها في تلك الليلة الليلاء، " ... لن تكون جوديت[1] عربية تحمل معها رأس هولوفرن جديد..."[2]

"... Elle ne sera pas une Judith arabe ramenant la tête d'un nouvel Holopherne ..."[3]

---

[1] **جوديت** " **Judith** : أتى ذكر انتصارات "جوديت" أرملة "ماناسي" Manassé في الكتاب المقدس (العهد القديم). استطاعت هذه البطلة الثوراتية القضاء على الخطر البابلي Assyrien الذي كان يتهدد Béthulie (مدينة فلسطينية) و قد قاد الجيش البابلي في هذه الواقعة "هولوفرن Holopherne" .

قدمت البطلة اليهودية الشابة إلى مقر القائد هولوفرن برفقة خادمتها الامينة "ابرا" Abra، استطاعت جوديت بما أوتيت من جمال وتواضع وحسن كلام أن تقنع القائد هولوفرن بأن يقبلها عنده كلاجئة هاربة من سخط الإله على بني إسرائيل .

اقام هولوفرن حفلا على شرفها، وفي ختام السهرة طلب الغلام (Bogoa(Eunuque من الحاضرين الانصراف ليخلو هولوفرن بجوديت، لكن ولفرط سكره ، وبعد أن صار ثملا راح يغط في نوم عميق ، فاستغلت جوديت هذه الفرصة السانحة مستلة سيف هولوفرن من غمده، ومجهزة عليه فاصلة رأسه عن جسده، لافة إياه بإزار ومعطية إياه خادمتها "إبرا" .

عادت جوديت إلى Béthulie، فاستقبلها الأهالي استقبال الأبطال، معتبرين أن قدرة الله قد تجلت عبر سواعد هذه البطلة التي إستعادت الأمن لبني جلدتها ولأمد بعيد .

صارت جوديت بطلة قومية، وعلما للحرية، وقد اعتبرها "دانتي اليجيري" Danté Alighieri رمزا للتواضع فيما اعتبر هولوفرن رمزا للتجبر، بوضعه في الدائرة الأولى للمتكبرين في مطهره، في مؤلفه "الكوميديا الإلهية" La Comédie Dévine.

[2] ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 26.

تشرع بعد ذلك آسيا جبار في تبرير هذا الاختلاف بقولها : "... ليس لهذه الشخصية، لا نفس المحفزات، و لا نفس المحيط. ليس لليمنية أن تنتقم لشعب برمته، ليس لها إلا أن تنجو بنفسها (...) إنها مغامرة صغيرة في المجال العسكري، فهي لا تملك حزم ولا شغف جوديت الوطنية ..."[1]

"... Ce personnage n'a ni les mêmes motivations, ni le même environnement, la Yéménite n'a pas à venger tout un peuple, elle n'a qu'à se sauver (...) petite aventurière perdue dans la fresque guerrière. Elle n'a pas l'intransigence, La passion formidable d'une Judith nationale ..."[2]

تحتفي آسيا جبار في الأخير بهذه البطلة اليهودية وتعتبر قطعها بنفسها لرأس هولوفرن فعل وطني جبار، أدخلها التاريخ و حرر شعبها "... في اللحظة التي يتقرر فيها مصير شعب، تفتح جوديت – بقطعها بنفسها لرأس هولوفرن – طريقا للمستقبل ..."[3]

"... À l'instant où ce joue la survie d'un peuple, Judith tranchant elle-même la tête d'Holopherne ouvre l'avenir ..."[4]

وفي هذا السياق من المشروع أن يتساءل المرء، ماذا لو أن الملكة اليمنية هي من فعل ذلك ؟ هل كانت ستكون نفس الإشادة من قبل آسيا جبار بهذه الفعلة ونفس الاحتفاء بهكذا صنيع ؟ أو أن زاوية النظر

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 26.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Ibid, p : 26.

ستختلف، ولربما سيصار إلى الحديث عن فظاعة الفعل وبربريته، كما هو الحال عند صدور مثل هذه الأفعال من لدن المستضعفين والمضطهدين فوق هذه الأرض.

إن لجوء الروائية لتوظيف حكايات الكتاب المقدس وتحديدا العهد القديم ممثلا في "كتاب جوديت" هو استحضار بشكل ضمني لبطولات وانتصارات ماضية، وسعي لخلق عالم جديد، يكون طوق نجاة، وفضاء للبوح، لقد جسد " كتاب جوديت Livre De Judith" الصراع الأنثوي الذكوري في أعتى صوره، منظرا ومؤسسا له، فسار الكثير من الفلاسفة و المفكرين في هذا الإتجاه، مكرسين و منظرين لهذا التوجه الصراعي بين الرجل والمرأة فكانت :"... فلسفة السياسية عند ماكيافيلي[1] هي القوة و المجد للأقوياء المتصارعين لتحقيق السلطة القوية والاحتقار للأخلاق المسيحية، لأنها أخلاق الضعفاء العبيد (...) و الفيلسوف الإنجليزي هوبز[2] هو صاحب شعار الإنسان ذئب الانسان (...) و داروين[3] الذي أراد أن يبرهن على أن

[1] – نيكولا مكيافيليNicolas Machiavelli (1469 –1527) : فيلسوف ايطالي من عصر النهضة، من أشهر كتبه على الاطلاق كتاب الأمير، الذي طرح في فكرة أن كل ما هو مفيد فهو ضروري، مؤسسا بذلك لما بات يعرف بالنفعية والواقعية السياسية.

[2] – توماس هوبزThomas Hobbes (1588 –1679) : فيلسوف و عالم رياضيات انجليزي، تأثر في حياته العلمية بأفلاطون، أرسطو، نيكولا مكيافيلي، و روني ديكارت، من أهم مؤلفاته كتابه "اللفياثان" Léviathan الصادر سنة 1651، عرض فيه الاساس لمعظم الفلسفة السياسية الغربية من منظور نظريه العقد الاجتماعي.

[3] – شارل داروين Charles Albert Darwin (1809 –1882) : عالم تاريخ طبيعي، و جيولوجي انجليزي اكتسب شهرته بإعتباره مؤسسا لنظرية التطور، من أشهر مؤلفاته كتاب "أصل الأنواع".

الحياة هي ثمرة للصراع الدائم بين الأحياء ..."[1]، و هي نفس الأفكار والفلسفات التي يتبناها فلاسفة الغرب ومفكروه اليوم ، "... و هو ذاته الفكر الصراعي الذي تبنته الحركة الأنثوية الغربية المتطرفة ..."[2]

وبعد أن استقر الوضع في صنعاء، و بسط الفيروز الديلمي سلطته، لم يعد للملكة اليمنية أي ذكر بالرغم من الدور المهم الذي لعبته في القضاء على الأسود العنسي، وعودة الأمن والسكينة لصنعاء :"... انطفأ نورها وأحاط بها الصمت ..."[3]

"... Sa chandelle s'est éteinte : Le silence se referme sur elle ..."[4]

أ/2 النوار أو ظل المحارب :

ادعى "طليحة بن خويلد الأسدي" النبوة تماما كما ادعاها في اليمن في الفترة نفسها تقريبا الأسود العنسي، فبعث في أثره الخليفة أبو بكر الصديق لواء تحت إمرة القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقد انضم إلى طليحة بن خويلد الأسدي مدعي النبوة الكثير من مرتدي قبائل طئ و عبس و ذيبان القريبة من المدينة، فكان من المنطقي أن يبدأ خالد بقتالهم فيما سمي بمعركة البزاخة ف : "... بث طليحة العيون على فجاج الصحراء حتى لا يؤخذ على غرة، وعلم منهم بزحف المسلمين قبل أن يصلوا إلى بزاخة، فعبأ قواته استعدادا للمواجهة، و وضع خطة عسكرية قائمة على الغلبة و الفرار في حال الهزيمة، فعزل معظم

[1] – مثنى أمين الكردستاني، حركات تحرير المرأة من المساواة الى الجندر، ط 1، دار العلم للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2004، ص: 15.

[2] – المرجع نفسه، ص: 16.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 27.

النساء في مكان آمن لئلا يقعن في السبي إذا دارت الدائرة عليه، وأحاط نفسه بأربعين فارسا من أشد فتيان بني أسد ..."[1].

ومن بين النسوة التي كن معه، زوجته "نوار"، على عكس الملكة اليمنية زوج الأسود العنسي، التي لم يأتي كتاب الطبري على ذكر اسمها بحسب الروائية.

ظلت "نوار" ملازمة لزوجها طليحة، المدعي للنبوة والمتمرد على سلطة الخليفة أبي بكر، في الخيمة التي نصبها لنفسه منتظرا نزول جبريل عليه السلام عليه بالوحي قائلا :"... إني أنتظر قدوم جبريل والملائكة كما فعل ذلك مع محمد ..."[2]

"...J'attendrai, dit-il Gabriel viendra avec les anges, comme il est venu pour Mohammed q.l.s.d.d.s.s.l. [3]... "

وفي الوقت الذي اشتدت فيه رحى الحرب بين جيش خالد بن الوليد و جيش طليحة بقيادة "عيينة"، أبرز قواد جيشه، ظل النبي المزعوم ملازما خيمته مترقبا ما ستسفر عنه هذه المواجهة المسلحة :"... أجلس طليحة زوجته نوار إلى جانبه وهيأ نفسيهما – في حال الهزيمة – بإحضار حصان مسرج وملجم وجمل سباق لزوجته ..."[4]

---

[1] – طقوش محمد سهيل، تاريخ الخلفاء الراشدين : الفتوحات والانجازات السياسية، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2002، ص 69/ 70.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 29.

[4] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"...Il a installé son épouse Nawar près de lui, en outre sont prêts – en cas de défaite –un cheval sellé et bridé ainsi qu'un chameaux de course pour la femme[1]..."

وكان "عيينة" كلما اشتد الخطب في المعركة، يذهب بإتجاه خيمة طليحة و يسأله إذا كان جبريل قد أتاه أم لا، فيقول الأخير لا، و بعد سقوط العديد من القتلى في صفوف المرتدين، يقرر عيينة الانسحاب من المعركة والتولي قائلا لمقاتليه "... هيا بنا لن نرى الملك جبرائيل ولا الملك ميكائيل، هذا الرجل ليس بنبي..."[2]

"...Allons – nous – en! Nous ne verrons ni l'archange Gabriel ni l'archange Michel !cet homme n'est pas prophète[3]..."

يفر طليحة بدوره إلى الشام مصطحبا معه زوجته نوار، ويقرر الإقامة في مكان لا يعرفهما فيه أحد" ... يلجأ وزوجه إلى سوريا ويختار فيها مكانا لا يعرفهما فيه أحد ..."[4]

"...Il se réfugie en Syrie avec sa femme، il y choisit une ville où personne ne les connaît... "[5]

جاء حضور "نوار" في هذه القصة حضورا باهتا سلبيا، لم يكن لها دور مهم، اقتصر حضورها في انتظارها نزول جبريل بالوحي على زوجها طليحة بن خويلد الأسدي، علها تنال بعد ذلك شرف بيت النبوة

---

1. – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 30 .

2 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

3. – Ibid, p : 26.

4 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

5. – Ibid, p : 26.

كما نالته نساء النبي محمد صلى الله عليه و سلم من قبل، و تضع لنفسها مجدا يدخلها التاريخ من بابه الواسع، لكن قصة هذه "النوار" توقفت في إحدى الفيافي التي نزلت بها في الشام، بعد هروبها و طليحة، فيما تحكي كتب التاريخ أن هذا الأخير ، عاد من الشام و أسلم فيما بقي الغموض يلف مصير "نوار"، لكن الروائية آسيا جبار لا تقف عند ما وقف عنده المؤرخون و كتب السير، بل تحاول أن ترسم لنا نهاية تليق بهذه المتمردة التي تجاهلها التاريخ والمؤرخون، بأن تجعلها جالسة في مكان ما من الشام تنتظر نزول الوحي عليها "... و إذا كانت نوار لا تزال تنتظر قدوم جبريل هناك، هذه البدوية المحصنة في مدينة من المدن السورية ..."[1]

"...Et si Nawar "la fleur" attendait toujours Gabriel là bas, béduine crénée dans une ville de Syrie ... "[2]

إنها محاولة تخييلية من آسيا جبار لسحب هذه المرأة من غياهب النسيان، و بعث الروح فيها من جديد، بإعطائها دورا لطالما اعتبر حصرا على الرجال، وهي أيضا محاولة لتكريس هوية الأنثى التي غيبها التاريخ عامدا متعمدا.

أ/3. سلمى المتمردة :

تواصل آسيا جبار نفض الغبار عن الكثير من الشخصيات النسوية اللاتي تركن بصمة جلية في التاريخ الإسلامي، محاولة لاستجلاء كل الحقائق عنهن، وإعادة بناء الوقائع بعيدا عن الذاتية والتحيز.

تنقلنا الروائية إلى الحديث عن واحدة من اللواتي حاربن المسلمين ببسالة قل نظيرها، إنها "سلمى بنت مالك" الفزارية ابنة عم "عيينة بن حصن"، اعتقتها عائشة بعد أن كانت سبية.

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit p : 32.

تذكر آسيا جبار أن الرسول صلى الله عليه وسلم همس في أذن عائشة قائلا:"... ومن بين هؤلاء النسوة امرأة تنبحها كلاب حوأب ... "[1]

"...Parmi ces femmes، il y en a une autre contre laquelle aboieront les chiens de Haouab...[2]"

عادت سلمى إلى ذويها إثر مقتل أبيها "مالك" بعد أن لقيت كل المساعدة من عائشة، فعزمت على إدخال قومها في الإسلام، وهي بنت مالك زعيم بني غطفان وأم قرفة فاطمة بنت ربيعة صاحبة الجاه، وأخت "حكمة" القائد العسكري الذي لقي حتفه في إحدى المعارك مع المسلمين على يد "أبي قتادة" فألتف بنو غطفان حول "سلمى" للانتقام لمقتل "حكمة"، أخو"سلمى" الوحيد، بعد أن صارت زعيمة لقبيلتهم.

وفي مسعى من آسيا جبار لتبرير الموقف الذي أعلنته سلمى، وهو الانتقام لمقتل أخيها بإعلان الحرب على المسلمين، تحاول الروائية أن تعطي قراءة أخرى للأحداث، فيما لو عاد حكمة إلى قومه منهزما غير مقتول، والحال هذه فإن "سلمى" كانت ستبقي على أحلامها و ستحاول الدفع بقومها لاعتناق الدين الجديد كما كانت ستبقي على تلك العلاقة الحميمية مع عائشة زوج النبي صلى الله عليه و سلم، وفي هذه الرؤية ضرب من ضروب التبرير المبطن لتمرد "سلمى" فيما بعد، لكن الواقع الآن ليس بهذه المثالية، فالمتمردون على سلطة أبي بكر، يأتون من كل حدب وصوب، ملتفين حول "سلمى" قائدة هذه الثورة على سلطان الخليفة والحالمة بالانتصار عليه، ودخول المدينة منتصرة منتشية بغلبتها، لا سبية تستجدي حريتها من غيرها، فتدين لها كل النسوة، اللاتي عرفنها في ضيافة عائشة، بالولاء.

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, op.cit, p : 33.

إنها المرة الأولى التي تقف فيها امرأة لتقود معركة عسكرية أمام قائد عسكري فذ إسمه "خالد بن الوليد"، سيف الله المسلول، الذي انتصر في كل المعارك التي خاضها ضد الإمبراطورية الرومانية والبيزنطية والفارسية ومن الذين :"... أسسوا مجد العرب، وخلدوا في التاريخ ذكرا لا ينمحي على كر الدهور ..."[1] ، و لعل من المواقف التي تشهد بعبقرية الرجل وحسن تدبيره وقيادته للمعارك هو موقفه:"... لما انسحب من معركة مؤتة بثلاثة آلاف كانوا وسط مئة و خمسين ألف من الأعداء، لو أطبقوا عليهم لسحقوهم سحقا، ولكن هذا القائد العبقري استطاع أن يسلهم من وسط المعركة سلا ..."[2]

تقف إذا سلمى الفزارية أمام هذا القائد الكبير في موقف قلما قرأنا عنه في كتب التاريخ، التي لا تذكر لنا إلا النزر القليل من النساء اللواتي وقفن مثل هذه المواقف العظيمة، وهذا ما حذى بآسيا جبار بأن تستدعي شخصية نسوية، أبلت البلاء الحسن في هذا المجال، إنها البطلة البربرية "ديهيا" المعروفة ب"الكاهنة"، الملكة البربرية، والقائدة العسكرية التي خلفت الملك "اوكسيل"[3] في حكم البربر في شمال إفريقيا بصفة عامة، متخذة من مدينة "ماسكولا" (خنشلة و باغاي تحديدا) بالأوراس عاصمة لها، قتلت "ديهيا" وهي تدافع عن أرضها و أهلها وهويتها، فيما تعتقد أن تلك هي رسالتها، و لا تزال بلا قبر حتى يومنا هذا مثلها مثل بطلة أخرى من بطلات الثورة التحريرية المباركة، " زوليخة " التي التحقت بها في ربيع 1957

[1] – أحمد بك اللحام، عبقرية خالد بن الوليد العسكرية، ط1، دار المنارة، جدة، المملكة العربية السعودية، 1986، ص19.

[2] – المرجع نفسه، ص 10.

[3] – اوكسيل: (ت 71 هو) زعيم قبائل أزربة وصنهاجة الأمازيغية زمن الفتح الإسلامي للمغرب، وحاكم إفريقيا لبضع سنوات، كان من السباقين إلى إعلان إسلامه إبان حملة أبو مهاجر دينار الذي عامل اوكسيل معاملة حسنة ولينة ومرنة ومع البربر عموما، هذه المعاملة أدت إلى تراجع الغنائم والجباية مما لم يعجب الأمويين، فقرروا تنحية أبو مهاجر دينار وتولية عقبة بن نافع على مدينة القيروان، فكان أول ما فعله أن أمر بالقبض على أبو مهاجر دينار كما أساء معاملة أوكسيل مما أدى بالأخير إلى قتله.

بعد أن تم أسرها من قبل قوات الاحتلال سنة 1959، لم يسمع عنها أي خبر وظلت هي الأخرى بلا قبر حتى يومنا هذا، فكانت موضوعا لرواية من روايات آسيا جبار التاريخية موسومة ب " المرأة من دون قبر".

ولأن التاريخ يكتبه المنتصرون في نهاية المطاف، فلا القائد العسكري البربري "اوكسل" ولا الملكة البربرية " ديهيا" نصفهما هذا التاريخ، وهما أصحاب الأرض الأصليون، فيما حضي عقبة بن نافع الفهري – أحد أبرز قادة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، في ظل الخلافة الراشدة – بالذكر الكثير، والاهتمام الكبير، و لعل وجود مدينة تحمل إسمه "سيدي عقبة " ببسكرة لدليل على المنزلة التي خصه بها المؤرخون.

كانت "الكاهنة" قارئة مستشفة للمستقبل، ومحاربة شرسة، وشخصية قيادية ذات نزعة إنسانية، تحسن المعاملة حتى مع أسراها "... و كل من ينظر للتاريخ بعين الحقيقة يراها درة في جيد تاريخ المرأة، لما كانت عليه من حسن التدبير، و شدة البأس، و صدق الدفاع عن الوطن، و الثبات على المبدأ ..."[1]

وفي عشية الواقعة بين جيش خالد بن الوليد و جيش "سلمى الفزارية"، يورد الطبري بعض التفاصيل، ففي أثناء تفقدها لجيشها و وقوفها على مدى استعداده وجاهزيته لخوض هذه المعركة، تقرر "سلمى الفزارية" استقرار جيشها بالقرب من بئر يسمى "حوأب" وهو الاسم الذي همس به النبي محمد صلى الله عليه وسلم ذات ليلة في أذن عائشة، و تعلق آسيا جبار على إيراد الطبري لهذه التفصيلة بقولها :"... هناك تفصيلة أوردها المؤلف، من دون شك من أجل نفي خطورة العلاقة بين الأنوثة والتمرد المسلح ..."[2]

"...Un détail est rapporté par la chronique، sans doute pour conjurer le lien dangereusement troublant de la féminité avec la rebellion armée[3]..."

[1] – مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص33.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 37.

ثم تتساءل "... هل سينبح كلاب الحوأب عشية هذه المعركة ؟ اكتفى الطبري بالإشارة إلى مصادفة ذكر إسم العلم حوأب ..."[1]

"...Les chiens de Haouab aboyèrent-ils en cet veille de bataille ? Tabari s'est contenté de relever la coïncidence du nom propre[2] ..."

ترى آسيا جبار أن أطروحات الطبري هذه، إمعان في حشر المرأة في دائرة التهميش والغياب والنفي، لهذا رأت أنه من واجبها إعادة قراءة هذه النصوص، بل التراث برمته وتفكيكه ومن ثم إعادة بنائه من جديد، وفق الأسس و التصورات التي تراها ملائمة لذلك، لقد سعت الروائية من خلال هذه القناة الحوارية التي فتحتها مع أصحاب النصوص التأسيسية التي اعتمدتها في عملها هذا (الطبري، ابن هشام و ابن سعد) إلى الزج بالمرأة إلى المركز، و وضعها تحت الأضواء الكاشفة، والتأكيد على فاعليتها وحضورها القوي على مسرح الأحداث والكشف عن هويتها.

وبعد أن قضى خالد بن الوليد على سلمى الفزارية، وانتصاره في هاته المعركة التي أبلت فيها سلمى البلاء الحسن، بشحذها همم مقاتليها والرفع من عزائمهم من على هودجها، والدفع بهم إلى القتال إلى آخر رمق، سعت الروائية لوضع عدة سيناريوهات لمقتل هذه البطلة بعيدا عما ذكره الطبري، قائلة :"... قتل خالد سلمى، لكن ماذا إذا وقعت المسؤولية هذه المرة على عاتق الضحية ؟ يمكن أن تكون- و هي واقعة على الأرض- رافضة الاستسلام و الخنوع - يمكن أن تكون – و هي تنتفض كالنمرة وسلاحها بيدها، أو حتى

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 37/38.

من دون سلاح جلي – قد استفزت بنظرات عينيها أو بنظرتها الساخرة لقاتلها قائلة " أقتلني "، وخالد المفتتن بهذا الموقف لم يكن أمامه سوى تلبية رغبتها ..."[1]

"...Khalid tue Selma – mais si cette fois la responsabilité en incombait à la victime ? Ce pourrait être elle qui, a terre, refuse l'agenouillement, elle peut-être qui bondit comme une panthère, une arme dans la main, ou même sans arme visible, elle a pu, de ses yeux, de son rire provoquer : " tue-moi" et Khalid fasciné n'a pu cette fois qu'obéir[2]"...

إن قتل خالد بن الوليد لسلمى الفزارية، وفقا لهذه الرؤية الجبارية، يقلب الموازين و يعكس المواقع ليصير المهيمن خاضعا والخاضع مهيمنا، لقد أرادت آسيا جبار أن تقول، إن استجابة خالد بن الوليد لرغبة سلمى بقتلها، قد صار خاضعا لها، في الوقت نفسه الذي كان يجهز فيه عليها، إنه تمظهر من تمظرات قوة الأنثى التي تنتصر وهي قاب قوسين من الهزيمة.

أ/4. سجاح التميمية مدعية النبوة :

قلائل من النساء اللواتي سجلن عبورا مميزا في التاريخ الإسلامي، وتركن بصمات واضحة لم تقو السنون على محوها، وسجاح التميمية واحدة منهن.

عادت آسيا جبار إلى مرحلة صدر الإسلام للإشتغال عليها، وهي المرحلة نفسها التي اختارتها العالمة الإجتماعية المغربية "فاطمة المرنيسي"، و إن كانت الباحثة الأولى قد قاربت هذه المرحلة من زاوية تخييلية تاريخية، فإن مقاربة الباحثة الثانية كانت تاريخية صرفة "... و في هذا المستوى تبقى الخطوة التي اتبعتها

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 39.

(فاطمة المرنيسي) ليست مختلفة عن تلك التي اتبعتها آسيا جبار، اللهم لجوء الثانية إلى التخييل فيما تبقى الأولى بجانب الحقائق التاريخية ..."[1]

"...À ce niveau, sa démarche n'est pas différente de celle d'Assia Djebar, la différence est le recours à la fiction pour la seconde, la première reste du côté de la vérité[2]..."

تطرقت فيها إلى مسائل كثيرا ما عدت من الطابوهات والمحظورات، من قبيل الحديث الذي يتكلم عن إمامة المرأة، تقول فاطمة المرنيسي في هذا الشأن : "... وجدت نفسي و أنا في حالة من الدهشة والانهزام و الغضب، أحوج ما أكون إلى أن أبحث و أستقصي عن هذا الحديث، وكذا المراجع التي جاء فيها ذكره، لأعرف سر تأثيره العجيب على عامة الناس في الدول الثيوقراطية الحديثة ..."[3]

"...À la fois ébahie, vaincue et furieuse, je ressenti tout à coup la nécessité impérieuse de me documenter sur ce Hadith, de rechercher les textes où il est mentionné, de mieux comprendre son étonnant pouvoir sur les modestes citoyens d'un État théocratique moderne[4]... "

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Najib Redouane, et Yvette Benayoun – Szmidt, AssiaDjebar, op.cit, p : 200

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Fatima Mernissi, le harem politique, le Prophète et les femmes, Albin Michel, paris, France, 1987, p : 08.

وبعودة الروائية آسيا جبار إلى هذه المرحلة الحساسة من تاريخ المسلمين، كانت تحاول في كل مرة أن تكشف حقيقة ما تعرضت له المرأة من تهميش وإمعان في التغييب، ومن هنا يأتي تركيزها على إبراز الوجه الآخر لهذه المسألة.

في الوقت الذي شهدت فيه الدولة الإسلامية الناشئة بعض الإستقرار، يظهر فيه من جهة العراق وجه آخر من أدعياء النبوة : إنها سجاح التميمية التي جهزت جيشها قاصدة غزو المدينة المنورة، و بعد فشلها في التوفيق بين بطون بني تميم المتحالفة معها، وعلى رأسهم" مالك بن نويرة" قررت تغيير وجهتها نحو اليمامة لمحاربة جيش المسلمين.

مرة أخرى تقف امرأة محاطة بجيش عرمرم في شموخ وإباء، تعلن أمام الملأ أنها هي الأخرى يأتيها الوحي من السماء، مثلها مثل "محمد ابن عبد الله" صلى الله عليه وآله وسلم، إنها الندية التي تبحث عنها "سجاح"، لما لا وهي التي أوتيت من الكلم أعذبه، ومن الجمال أحسنه وأروعه، ولأن "محمد" صلى الله عليه وسلم قد أفضى إلى ربه، فإن سجاح تتجه بنظرها صوب مسيلمة الذي حاول أن يكون ندا للنبي صلى الله عليه وسلم بادعائه النبوة "... فاستأمنها فأمنته و تزوجها و بقيت عنده ثلاثة أيام ثم رجعت إلى أرض قومها ..."[1]

وعن دواعي هذه الزيجة بين أدعياء النبوة، مسيلمة وسجاح، تذهب آسيا جبار عكس ما ذهب إليه الطبري من أن مسيلمة هو من رغب في الزواج منها، بقولها :"... الشيء المؤكد بالنسبة لنا هو أن مسيلمة كان شابا مغريا، فيما هي تتذوق الرغبات التي تغمرها، والأرجح أنها هي – على عكس ما يرويه الطبري باحتشام

[1] – محمود شاكر، التاريخ الإسلامي – الخلفاء الراشدون، ج3، ط7، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان،1991، ص75.

– من أحس برغبات مشتعلة، و أن مسيلمة ككل الرجال – لما لا – أحس بالرغبة فيها تحت تأثير قريحتها الشعرية ..."[1]

"... Lui, dont on est sûr qu'il est un homme jeune et séduisant, elle, pleine de désirs et qui s'en repaît...vraisemblablement, c'est elle au contraire du récit de Tabari pudibond, qui dû sentir ses désirs allumés, et Mosailama pourquoi pas, subjugué comme les autres hommes par sa verve poétique, a pu concevoir de l'amour ..."[2]

إن هذه القراءة الجبارية لزواج مسيلمة من سجاح قراءة ليس لها سند، و لا يمكنها الصمود أمام الوقائع التاريخية التي تدفع بإتجاه الإعتقاد بأن وضع مسيلمة الهش والحرج، والخشية من انشغاله بقتال سجاح وجيشها عن مقاتلة جيش أبي بكر، جعله يعرض عليها التحالف لأن العدو واحد، و طلبه الزواج منها كان بغرض التقارب من خلال التصاهر، و دمج جيشهما للسيطرة على أرض مهبط الوحي، ثم إن آسيا جبار نفسها تقر بأن مسيلمة هو من طلب سجاح للزواج و لم تكن هي المبادرة :"... أنا نبي، وأنت نبية أيضا، ما الذي يمنع من أن أتزوجك ... "[3]

"... je suis prophète et tu es toi aussi prophétesse, Qu'est-ce qui empêche que je t'épouse ..."[4]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – AssiaDjebar, Loin de Médine, opcit, p : 48.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Ibid, p : 48.

وقد جاء طلبه لهذا الأمر من جبريل بحسب زعمه، يدعوه فيه للزواج منها:"... حاول أيضا أن يحاكي تدخلا مفاجئا لجبريل الذي أمر قائلا: هيا تزوجا ... "[1]

"... Aussi dit-il simuler une intervention soudaine de Gabriel qui avait ordonné : "Allons ! Unissez-vous ..."[2]

وبعد إقامة قصيرة مع مسيلمة الكذاب لم تتجاوز الثلاثة أيام "... عادت بعدها إلى قومها (...) وأقبلت في غضون ذلك الجيوش الإسلامية فاجتاحت اليمامة و قتلت مسيلمة ..."[3]

تقول آسيا جبار أن بني تميم ظلوا – بحسب ما جاء به الطبري – يقولون ويؤكدون أننا التقينا حول امرأة نبيئة، فيما التف غيرنا من الرجال حول نبئ ذكر، الشيء الذي جعلهم يتخلون عنها:"... يقول الطبري أن أتباعها تخلوا عنها عندما أحسوا أنه جيء بهم لأجل موعد غرامي، كما انفض من حولها أيضا باقي العرب الذين اتبعوها فيما مضى ..."[4]

"... Ils la quittèrent puisque explique Tabari, Ils se sentirent honteux d'avoir été amenés jusque-là pour un rendez-vous d'amour !les autres arabes qui avaient suivi Sajah Se dispersent à leur tour ..."[5]

عادت سجاح إلى الموصل وسط بني تغلب، قوم أمها في العراق، وظلت هناك حتى استقر حالها وأسلمت.

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – AssiaDjebar, Loin de Médine, opcit, p : 49.

[3] – محمد سهيل طقوس، تاريخ الخلفاء الراشدين، الفتوحات والإنجازات السياسية، المرجع السابق، ص58.

[4] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[5] – Ibid, p : 51.

أ/5. المرأة الراوية خزان الذاكرة :

برز على مر التاريخ الكثير من الأسماء لنساء كان لهن أدوار مفصلية في الدعوة لدين الله والتمكين له كما في محاربته والكيد له، فقد لعبت المرأة الراوية دورا غاية في الأهمية فيما تعلق بحفظ الموروث الديني، خاصة إذا علمنا أن تدوين الأحداث و الوقائع الخاصة بحياة النبي صلى الله عليه و سلم، لم يتم إلا بين سنتي 130هـ و140هـ أي بعد ما يناهز القرن و نصف القرن من الوقائع المؤسسة لهذا التاريخ، هذه الوقائع التي سجلوها عن النبي صلى الله عليه و سلم، سواء أكانت أقوالا أو أفعالا أو أحوالا، و هو المبلغ عن ربه والمبين والداعي لشرعه والمنزه عن الزيغ :"... **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى ..." سورة النجم، الآية 4.**

ومن هذه الأسماء النسوية التي اضطلعت بهذا الدور، "أسماء" ذات النطاقين، بنت أبي بكر الصديق والأخت الكبرى لأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، و زوج الزبير بن العوام، ربطتها عدة مواقف بالنبي صلى الله عليه وسلم، مما جعلها من أشهر رواة الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (أكثر من 50 حديثا) هاجرت مع زوجها و هي حامل بابنها عبد الله، فكان أول مولود للمهاجرين في المدينة، استبشر به المسلمون خيرا:"... عمت الفرحة في السنوات الأولى للمهاجرين و الأنصار في المدينة ..."[1]

"... La joie éclate parmi le premier noyau de Mohadjirs, ainsi que les Ançars Médinois ..."[2]

كانت "أسماء" من أبرز النساء اللواتي روين الحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم، منذ الوهلة الأولى لنزول الوحي بحكم الصلة التي تربطها بالنبي صلى الله عليه و سلم، فهي ابنة صاحبه الصديق، وأخت

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 52.

زوجه عائشة "... ومنذ ذلك الحين كان للنساء دور بارز في سماع الحديث، ثم في روايته و تبليغه، و لم يخل بعد ذلك عصر من وجود الراويات المسندات. و المطلع على كتب رواة الحديث و كتب التراجم، يجد فيها عددا – لا بأس – من المحدثات اللواتي سمعن الحديث و روينه، وأخذ عنهن كبار الحفاظ و المسندين ..."[1]

ومن اللاتي روين الحديث في هاته المرحلة المؤسسة للعهد الجديد، أم المؤمنين "سودة بن زمعة" التي تزوجها الرسول صلى الله عليه و سلم بعد وفاة خديجة رضي الله عنها و هي في سن السادسة و الستين، خوفا من أن يفتنها قومها عن دينها الجديد بعد عودتها إلى قريش بعد وفاة زوجها.

شهدت "سودة بن زمعة" معركة بدر في السابع عشر من شهر رمضان من العام الثاني للهجرة، التي انتصر فيها المسلمون و التي تواجه فيها و تقاتل أبناء العمومة و الإخوة، لا بل و حتى الابن مع أبيه.

فقدت "سودة" أباها "زمعة" و اثنين من أعمامها كانوا يقاتلون في صفوف المشركين، فآلمها ذلك كثيرا وتستطرد آسيا جبار– فيما دار من حديث بين سودة وبعض أسرى المشركين –قائلة : "... اعتبرت من العار أنهم لم يقاتلوا حتى الموت كما فعل المسلمون، طلقها الرسول بعد سماعه لهذا الكلام، فهل رابطة العائلة أقوى من رابطة العقيدة ..."[2]

"... Elle leur fait honte de ne pas avoir, eux aussi, combattu jusqu'à la mort, combattu contre les Musulmans ! Mohammed qui entre, l'entend et la répudie : la solidarité familiale serait-elle soudain plus vive en elle que sa foi ..."[3]

[1] – صالح يوسف معتوق، جهود المرأة في رواية الحديث، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 1997، ص78.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 53.

إن هذه الرواية التي أوردتها آسيا جبار و التي توحي بأن "أم المؤمنين سودة بنت زمعة" لا زال فيها شيء من الجاهلية بتعاطفها مع المشركين في موقعة أسماها الله تعالى في عليائه بالفرقان ، لا تتلاءم لا مع قيم و أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، و لا مع أخلاق السيدة "سودة بن زمعة" وهي من تحمل شرف و مقام لقب أم المؤمنين، و هي كذلك التي تخلت عن ليلتها لصالح عائشة من أجل إسعاد النبي وإدخال الفرحة إلى قلبه الطاهر:"... عائشة التي وعدت أن تهب لها ليلتها ... فهي لا تريد سوى الابقاء على شرف كونها زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم ..."[1]

"...Aïcha à laquelle elle a promis de céder sa part de nuit conjugale (...) elle ne veut garder dit-elle que l'honneur d'être épouse de messager[2]..."

وممن اضطلعت أيضا بهذا الدور "أم سلمة"، (هند بنت أبي أمية) أم المؤمنين التي "... أحدث دخولها ضجة في دور النبي صلى الله عليه وسلم و أشاع قلق الزوجتين السابقتين عائشة وحفصة ابنتي أبي بكر وعمر، ، إنها ضرة جديدة، عزيزة، عريقة المنبت، ذات جمال وإباء و فطنة ..."[3] وكانت قد رفضت من قبل عرض أبي بكر للزواج منها، ثم عرض عمر بن الخطاب كذلك بعد وفاة زوجها متأثرا بجراح أصيب بها في معركة ضد المشركين، " ... و تكلفت عائشة و حفصة ما اطاقتا من شجاعة، لتستقبلا الزوجة الجديدة بشيء من المجاملة، لكن عائشة لم تطق صبرا على هذا التكلف، فكشفت لحفصة عما تطوي من ألم و غيرة، في طبقات ابن سعد عن الواقدي حديث عائشة رضي الله عنها(لما تزوج رسول الله صلى الله

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 54.

[3] – عائشة عيد الرحمان، نساء النبي – ص –، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،1979، ص 138.

عليه و سلم أم سلمة حزنت حزنا شديدا لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفت حتى رأيتها، فرأيت والله أضعاف ما وصفت به) ..."[1]

لقد جبلت المرأة على الغيرة ، وقد وجه الرسول صلى الله عليه و سلم المسلمين إلى مراعاة هذه الحالة كطبيعة من طبائع الأنثى، وفي إشارة إلى هذه الطبيعة تقول آسيا جبار أنه بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم تقلصت هذه الغيرة عند نساء النبي، متسائلة في الوقت نفسه عن سبب حرص بعض المؤرخين عن نقل بعض مظاهر هذه الغيرة بشكل فيه الكثير من التفصيل "... بوفاة النبي صلى الله عليه و سلم انتهت ظاهرة الغيرة بين نسائه، هذه الغيرة التي يحرص المؤرخون على نقلها تماما كحرص كتاب الضبط، فصرن يعرفن بالأخوات بحسب قول عائشة نفسها، الزوجة الأصغر والتي تظهر أحيانا بشكل حاد هذه الغيرة ..."[2]

"...Le prophète mort، c'en est fini des jalousies entre coépouses, (jalousie que les chroniqueurs rapportent avec une minutie de greffiers scrupuleux) désormais et selon le mot même de Aïcha، la plus jeune, elle qui manifeste parfois de manière acerbe sa propre jalousie, voici que toutes ces femmes s'appellent "seurs[3]" ... "

تريد آسيا جبار أن تؤكد من خلال هذا القول، أن حرص هؤلاء المؤرخين على نقل هذه الوقائع بهكذا تفاصيل وهكذا دقة، إنما مرده إلى إظهار رغبة مبطنة في المرأة، و هي مظهر السلبية والدونية، فظاهرة الغيرة مرتبطة في الوعي الاجتماعي، وبشكل أساسي، بالأطفال والنساء، وكأني بآسيا جبار تقول لكتبة

[1] – عائشة عيد الرحمان، نساء النبي – ص –، المرجع السابق، ص143.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 56.

التاريخ، لما لا تحرصون بهذا القدر على ما من شأنه إخراج المرأة من الهامش الذي وضعت فيه بالقسر، و من الغياب الذي طالها عن سبق إصرار؟

كان لأمي سلمة حضور مميز في الحياة السياسية في عهد النبي صلى الله عليه و سلم، فقد أخذ برأيها في صلح الحديبية، في موقف سجله لها التاريخ، عندما أشارت على النبي صلى الله عليه و سلم بأن "... أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمه حتى تنحر بدنتك و تدعو خالقك فيحلقك ..."فأصغى صلى الله عليه وسلم إلى مشورتها، فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر وحلق، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا و جعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما و ندما ..."[1] بعد أن كانوا رفضوا فيما سبق الانصياع لأوامر الرسول صلى الله عليه و سلم بالنحر والحلق.

كما كان لها موقف مشرف في موقعة الجمل، بأن انحازت إلى صف على ابن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه و سلم و زوج ابنته الزهراء أم الحسن والحسين، فقد"... مضت إلى عائشة فقالت لها في عنف و إنكار: أي خروج هذا الذي تخرجين ؟ ... الله من وراء هذه الأمة ... لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي : ادخلي الفردوس، لأستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجاجا قد ضربه على ..."[2]

تعتبر أم سلمة ثاني راوية للحديث بعد أم المؤمنين عائشة، بروايتها ما يقارب الأربع مئة حديث، اتفق لها البخاري و مسلم على ثلاثة عشر حديثا، و لعل تأخر وفاتهما هو ما جعلها قبلة للمسلمين، يقصدونها للتفقه في الدين أخذ العلم عنها.

تأتي آسيا جبار كذلك على ذكر قامة أخرى من القامات النسائية في صدر الإسلام، كانت هي الأخرى ممن روى عن النبي صلى الله عليه و سلم العديد من الأحاديث إنها أم الفضل، لبابة بنت الحارث زوج

[1] – عائشة عيد الرحمان، نساء النبي – ص –، المرجع السابق، ص 149.

[2] – المرجع نفسه، ص 157.

العباس، ابن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه و سلم، ثاني امرأة آمنت برسالة محمد صلى الله عليه و سلم بعد خديجة، لكنها تأخرت في اللحاق بالنبي صلى الله عليه و سلم في المدينة لأسباب عزتها آسيا جبار لزوجها العباس، الذي بالرغم من قرابته للنبي محمد صل الله عليه و سلم، إلا أنه ظل في مكة محافظا على تجارته و أمواله، وعلى الحياة الرغدة التي يحياها هناك، تقول آسيا جبار : "... العقبة بالنسبة لها كانت زوجها العباس الذي، و بالرغم من العلاقة الطيبة التي تربطه بحفيده الموحى إليه، إلا أنه لم يقو على التخلي عن وضعيته المريحة كتاجر غني، و اللحاق بالمهاجرين و ما يعانونه من فقر وريبة ..."[1]

"...Car son entrave à elle fût son mari, Abbas qui, malgré ses liens étroits avec son neveu inspiré, n'a pas eu le courage de quitter sa confortable position de riche commençant, pour rejoindre, dans la pauvreté et l'incertitude, les Migrants ..."[2]

لكن هذا التأخر في اللحاق بالمهاجرين في المدينة، يعزوه المؤرخون إلى كونه لم يعلن إسلامه بعد، فالروايات تكاد تجمع أنه أسلم في بيعة العقبة، حين بايع الأنصار النبي صلى الله عليه وسلم، ويعتقد البعض الآخر أن مقام العباس في مكة كان فيه خير للنبي صلى الله عليه وسلم، لربما نصرته له في مكة أفضل من نصرته له في المدينة، ولربما كان له عينا هناك، تحرسه من بعيد، وتدفع عنه الاذى.

كان النبي صلى الله عليه وسلم كثير التردد على بيت أم الفضل، كيف لا وهي زوج عمه العباس وأخت زوجته ميمونة "... إن أم الفضل التي حرص ولدها البكر الفضل على دفن النبي صلى الله عليه وسلم

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 56/57.

مستعينا بعلي والعباس، والتي أصبح ولدها الآخر عبد الله من أكبر مفسري القرآن، أحست أنها صارت شيئا فشيئا المحضن الأول لذاكرة المسلمين ..."[1]

"...Oum Fadl dont le premier fils, Fadl s'est occupé de l'ensevelissement du prophète avec Ali et Abbas, dont le second deviendra plus tard un des plus célèbres commentateurs du Coran, Oum Fadl se sent peu à peu comme une première mémoire pour les Musulmans[2]..."

إنها الذاكرة التي حافظ عليها هؤلاء النسوة عبر الأجيال، من خلال فعل الحكي والمشافهة من جهة، ثم من خلال عملية التدوين والكتابة في مرحلة لاحقة، من جهة ثانية.

ب/ محتجات وثائرات.

ب/1. فاطمة الزهراء أو المرأة الثائرة :

فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، إنها نموذج القدوة في الخلق السوي والسلوك الحسن و القيادة الحكيمة، إنها بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنها المرأة التي وقفت أمام خليفة المسلمين أبو بكر الصديق مطالبة بحقها في ميراث أبيها في أرض فدك، ففيما يرى أهل السنة والجماعة أن فاطمة لم تطلب هذه الأرض على سبيل الميراث "... و إنما لتتولى ما كان يتولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم و لتأخذ حقها منه، وسألت الصديق ذلك فذكرها بقول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا نورث ما تركناه صدقة) ثم

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 56/57.

قسمها كما كان يقسمها صلى الله عليه وسلم، و رضيت فاطمة رضي الله عنها وقبلت من أبي بكر رضي الله عنه أن يفعل في ذلك ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ..."[1]

أما الشيعة فيرون أن أبا بكر صادر في البداية أرض فدك، بناء على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ما لبث وأن كتب لها كتاب يرد لها فيه هذه الأرض لكن سيدنا عمر بحسب هذه الرواية الشيعية أخذ منها هذا الكتاب ومزقه، وهو ما أثار غضبها وسخطها، فخطبت في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أمام جموع المسلمين لتقيم الحجة على معارضيها، وتبين خطورة الأمر، وهي تقريبا نفس الرؤية التي تبنتها الروائية آسيا جبار، الشئ الذي يزيد من قناعتنا بأن هذه الأخيرة اعتمدت بشكل غير علني على الترجمة للنسخة الفارسية لكتاب الطبري، لا على النسخة العربية، تقول آسيا جبار "... تقول البنت المحبوبة لا، لا للخليفة الأول نظير تأويله الحرفي لحديث النبي ..."[2]

"...Ainsi elle dit non , la fille aimée, non au premier Calif pour son interprétation littérale du dit du prophète[3]..."

وتعلق آسيا جبار على ذلك قائلة :"... ربما يجدر بنا، من هنا فصاعدا، تسميتها المحرومة من الميراث بدل البنت المحبوبة ..."[4]

"...Peut être que dorénavant, au lieu de la surnommer la fille aimée, il faudrait l'évoquer sous le vocable de la "déshéritée[5] ..."

[1] – إبراهيم محمد محسن الحمل، أبناء الرسول –ص– البنون و البنات و أمهاتهم رضي الله عنهم أجمعين ، دار الفضلية للنشر و التوزيع و التصدير، القاهرة، مصر ، ص 155/154.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – AssiaDjebar, Loin de Médine, opcit, p : 92.

[4] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[5] –Ibid, p : 92.

إن هذا الكلام يجعل الروائية تنخرط في الرؤية الشيعية لهذه الحادثة، فبعد وفاة النبي أرادت زوجاته أن يسألن عن ميراثهن من النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت عائشة في حديث صحيح ورد في صحيح مسلم قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا نورث ما تركناه صدقة " و هذا ما يجعلنا نتساءل مرة أخرى عن المصادر التي عادت إليها الروائية لكتابة هذا العمل ولم تعلن عنها .

ترى آسيا جبار أن فاطمة ثارت على وضع رأت أنه خروج عن التعاليم التي أرساها صلى الله عليه وسلم، وتوسل الروائية عنصر التخييل للحديث عن هذه المسألة يتيح لها التحرر من الاغلال والقيود التي كبلتها بها السلطة البطريركية الذكورية"... استحال التخييل في بعض النصوص السردية إلى نوع من التنفيس عن القهر ومخرج لعبور مناطق أكثر اتساع، وهذا يعني أن الأنثى تنتج خيوطها السلبية من ثنائية لها طرفان، الحقيقي والمتخيل يجمع بينهما علاقة جذرية يمدنا فيها الأول بمعاني المحدودية، بين ما يمدنا الطرف الثاني الآخر بمعاني الاتساع ..."[1] فتقول : "... "لا"، تقول فاطمة ... إنكم ترفضون منحي حقي كبنت ... كان بإمكانها أن تذهب بعيدا فتقول لقد كانت الثورة التي أحدثها الإسلام لأجل إعطاء حق المرأة في الميراث أولا، و أن ترث من أبيها ما يحق لها، إن هذه سابقة في تاريخ العرب، جاءت بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم، و أنتم تنزعون هذا الحق من بنت محمد بعد وفاته، البنت الوحيدة الحية للرسول نفسه ..."[2]

"...Non accuse Fatima vous prétendez me refuser mon droit de fille ! elle pourrait aller plus loin encore, elle pourrait dire : la révolution de l'Islam pour les filles, pour les femmes a été d'abord de les faire hériter, de lui donner la part qui leur

[1] – رشا ناصر العلي، الأبعاد الثقافية للسرديات النسوية المعاصرة 1990-2005 ، أطروحة دكتوراة في الآداب، جامعة عين شمس، مصر، 2009 ، ص 96 .

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

revient de leur père, ça a été instauré la première fois dans l'histoire des arabes par l'intermédiaire de Mohammed Q.S.D.S.S.L ! or Mohamed est est-il à peine mort que vous osez déshériter d'abord sa propre fille, sa seule fille vivante du prophète lui-même[1]..."

وعودا على بدء، فقد كانت حياة "فاطمة الزهراء" رضي الله عنها، حياة حبلى بالمواقف المشرفة التي سجلها لها التاريخ بأحرف من نور، لقد دافعت عن حقها بكل قوة، وتمردت، و قالت "لا" للأوضاع التي رأت فيها بعض الانحراف عن خط رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن الإنسان المتمرد بحسب ألبير كامو "... إنسان يقول لا فما فحوى هذه ال "لا"، إنها تعني مثلا أن الأمور استمرت أكثر مما يجب، إنها مقبولة حتى هذا الحد و مرفوضة بعده، وأنك غاليت في تصرفك ... و خلاصة القول أن هذه ال "لا" تؤكد وجود حد ..."[2] و هذا الإنسان بحسب ألبير كامو أيضا "... هو الكائن الوحيد الذي يرفض أن يكون على ما هو عليه أو بمعنى آخر هو الكائن الذي لا يرضى أبدا عن كيانه فهو دائم السعي إلى تغييره و العلو عليه، فالتمرد بهذا المعنى هو موجود في كل تجربة إنسانية جديرة بهذا الاسم، تحتوي على نوع من الرفض للواقع كما هو عليه ..."[3]

إن مرد هذه ال "لا" ومبعثها هو رغبة علي رضي الله عنه إتخاذ "جوهرية" بنت أبي جهل زوجة ثانية بعد أن كانت قد أسلمت و حسن إسلامها، فلما علمت فاطمة الزهراء رضي الله عنها بذلك ذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والدها، تشكو بثها و حزنها : "... فلا غرابة أن يأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

[1] - Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 85/86.

[2] – ألبير كامو، الانسان المتمرد، ط3 ، تر : نهاد رضا ، منشورات عويدات، بيروت، لبنان ، 1953 ، ص 18 .

[3] – مكاوي عبد الغفار، ألبير كامو، محاولة لدراسة فكره الفلسفي، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1964 ، ص 111-112.

ذلك، وأن يشتد غضبه على ابن عمه، وأن يظهر هذا الغضب في خطبته في أصحابه، فيصعد على منبر المسجد النبوي ويقول "... إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم على ابن أبي طالب، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم، اللهم إلا أن يحب ابن ابي طالب أن يطلق ابنتي و أن ينكح ابنتهم، فإن ابنتي بضعة مني يريبني ما أرابها، و يؤذيني ما أذاها، و إني أتخوف أن تفتن في دينها ..."[1]

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من صرح بهذا أمام الملأ :"... قال الاب "لا"، و الكل فسر هذه ال "لا" بهذا المعنى : لا لأجل ابنتي ..."[2]

"...le père a dit non, et tous sur le champ expliquèrent ce non ainsi : Non pour ma fille[3]..."

ليبرر بعد ذلك صلى الله عليه وسلم هذه ال " لا" بقوله :"...إن ابنتي بضعة مني، ما يؤذيها يؤذيني، و ما يريبها يريبني..."[4]

"...Ma fille est une partie de moi, ce qui lui fait mal me fait mal ,ce qui la bouleverse me bouleverse[5]..."

إن هذا الموقف من النبي صلى الله عليه وسلم، موقف تطبعه الإنسانية بكل أبعادها، فقد أدرك وهو الأب الرحيم، أن زواج ابن عمه علي على فاطمة، سيدخل عليها الحزن والهم، لا بل و قد يفتنها في دينها، لذلك حرص صلى الله عليه وسلم بأن يؤكد أنه لا يحل حراما قد حرمه الله، و لا يحرم حلالا قد أحله الله

---

[1] – إبراهيم محمد محسن الحمل، أبناء الرسول –ص– البنون و البنات و أمهاتهم رضي الله عنهم أجمعين ، المرجع السابق، ص 147.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 72.

[4] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[5] –Ibid, p : 72 .

: "... أيها المسلمون أنا لا أحرم ما أحله الله و لا أحل ما حرمه الله، لكني لن أسمح أبدا أن تجتمع في مكان واحد ابنة نبي الله وابنة عدو الله ..."[1]

"...Ô Musulmans je ne vous interdit pas ce que dieu vous a permis, et je ne vous permets pas ce que dieu vous a interdit...mais que dans un même lieu se trouve réunis la fille de l'envoyé de dieu avec la fille de l'ennemi de dieu cela je ne le permettrai jamais[2]..."

إن السؤال الذي كان يفترض أن تسأله الروائية آسيا جبار من خلال سعيها لتفكيك البنى الناظمة للتاريخ الذي كتبه الرجال عن النساء، و كذا محاولاتها إعادة كتابة هذا التاريخ من وجهة نظر أنثوية صرفة، تعيد للمرأة المستلبة هويتها الحقيقية، هو لماذا رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تدخل ابنة أبي جاهل ضرة على ابنته فاطمة رضي الله عنها، زوج علي رضي الله عنه، وهي المسلمه التي أسلمت و حسن إسلامها ؟ ما ذنب "جوهرية" في أن كان أبوها ألد اعداء المسلمين، و ما لاقوه على يده من عذاب وتنكيل، ثم ما موقع قوله تعالى "**... كل نفس بما كسبت رهينة ...**" **سورة المدثر، الآية 38**، من هذه الحادثة، ثم ألا يشكل زواج علي رضي الله عنه من " جوهرية " تشويها لتلك الصورة المثالية لهذا الزوج، تتساءل آسيا جبار :"...ألا تشوه مسألة تعدد الزوجات الصورة المثالية لهذا الزوج (علي وفاطمة)، يروى عن كثير من المشاحنات بينهما، كان الرسول – ص– يلعب دور المصلح بينهما..."[3]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 80.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"...Ce désir de polygamie n'altère t-il pas l'image tellement idéalisé du couple de Fatima et de Ali ,il ne manque pas d'anecdotes sur leur querelles conjugales le plus souvent le prophète joue le rôle de réconciliateur[1]... "

إن مسألة تعدد الزوجات ليس بالأمر الواجب، جاءت به الشريعة السمحة من باب الاباحة ليس إلا، فيما العديد من أدعياء الدين و حراس العقيدة الجدد في عالمنا المعاصر، تراهم يلوون أعناق النصوص الشرعية ليا، لتنسجم مع رغباتهم وشهواتهم، بالرغم من أن السياق الذي جاءت فيه الآية التي تتحدث عن التعدد يدل على الإباحة حتى و لو جاء الفعل بصيغة الأمر "**... فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث و رباع ..." سورة النساء، الآية 3.**

ثم إن من حق المرأة أن تعترض على وضعها كضرة، و أن تطلب الطلاق إن لم ترض بزواج بعلها عليها مخافة دنك العيش بعد ذلك.

لقد عاشت "فاطمة الزهراء" حياة صعبة، و لم تكن بالحياة المثالية كما يحلو للبعض أن يصورها، صحيح أن عشرتها للإمام علي – كرم الله وجهه – كانت تملؤها المودة و الرحمة و لكن "...أحيانا يقع بين فاطمة وعلي رضي الله عنهما شيء من الخلاف، وكثيرا ما يكون سببه علي رضي الله عنه فقد قالوا عنه : (كان فيه شدة أقرب أن تكون صرامة ، و خشونة توشك أن تشتبه بالغلظة، و حزما يكاد يكون صلابة..)"[2] إن هذه الصفات التي يذكرها المؤرخون و أصحاب السير، و ينسبونها لعلي – رضي الله عنه – هي تاج

[1] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 73.

[2] – إبراهيم محمد محسن الجمل، أبناء الرسول – ص – البنون والبنات و أمهاتهم رضي الله عنهم أجمعين ، المرجع السابق، ص 144.

فوق رأسه، إنها رمز للقوة والبطولة والرجولة ، أما أمر الخلافات الزوجية التي قد يحدث و أن تعكر صفو الحيا، فهي من الأمور الطبيعية في حياة البشر جميعا .

ب/2 . فاطمة وأنتيجونة صورتان لقضية واحدة : الرفض والاحتجاج.

إن توظيف الأسطورة في المتون الحكائية، من شأنه أن يضفي على السرديات شيء من الانجذاب والمتعة لدى المتلقي من جهة، ويعمل على مواجهة الواقع بكل أبعاده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من جهة ثانية.

إن الميثولوجيا –خاصة الإغريقية منها– التي استدعتها الروائية آسيا جبار بحكم مرجعيتها الفكرية والثقافية، و نقصد بذلك اسطورة "انتجونة"، كانت مصدرا ملهما للكثير من القامات الأدبية العالمية، فقد كانت موضوعا لقطع مسرحية تحمل الإسم ذاته "أنتجونة"[1] للمسرحيين الفرنسيين "جون كوكتو" Jean

[1]– "أنتجونة" Antigone : في الميثولوجيا الإغريقية وتحديدا في مسرحية "سوفوكليس" Sophocle، تقدم أنتجونة Antigone كإبنة ل "أوديب" Oedipe ملك "طيبة" Thèbes والملكة "جوكاست" Jocaste.

تسمع صرخة "انتيجونة"، يعاقب أوديب بالإبعاد من طيبة لفترة نفي طويلة بفقأ عينه بعد أن كان قتل والده وتزوج أمه، التحقت انتجونة بوالدها بمنفاه وهي صاحبة 14 سنة، ولم تعد إلى طيبة إلا بعد وفاته لتعيش مأساة أخرى عندما تقاتل اخويها "إيتيوكل" Etiocle و بولينيسPolynice فيما يعرف بحرب القواعد السبعة، الأول حارب في صفوف جيش طيبة اما الثاني فحارب في صف الجيش المعادي و لقي الإثنان حتفهما في هذه المعركة، فعمد الملك "كريون" Créon أخ "جوكاست" والدة انتيجونة إلى إقامة مراسم دفن عظيمة ل "إتيوكل" فيما رفض دفن "بولينيس" بإعتباره خائن لوطنه، و أمر بترك جثته في المكان الذي سقط فيه قتيلا. بادرت "انتيجونة" في هذه الأثناء العصيبة إلى دفن أخيها لاعتقادها بأن القوانين الإلهية يجب أن تكون لها الغلبة، فعدم دفن الموتى خطيئة تحرمها العقيدة القديمة، حتى و لو كان من جيش الأعداء، لقد جسدت انتجونة

(1922) Cocteau، و"جان أنويي" Jean Anouillé(1944)، و المسرحي الألماني "برتولد بريخت" Bertold Brecht (1947)، وكذا المسرحي الإسباني "سلفادور إسبريو" Selvador Espriu (1939)، طرحوا فيها مسألة الإحتلال النازي والمقاومة في القرن العشرين.

إن ربط آسيا جبار لثورة "فاطمة الزهراء" رضي الله عنها بثورة "أنتيجونة"، له ما يبرره من الناحية التاريخية فالاثنتين ثارتا ضد نظام الحكم القائم، ففيما ثارت فاطمة رضي الله عنها ضد حرمانها من ميراث أبيها في أرض فدك، في موقف سياسي لافت، كانت فيه قدوة لغيرها من النساء، ومنارة هداية لبني الإنسان على مر التاريخ، مما ينم عن قدرة المرأة وأهليتها لبلوغ أعلى درجات الكمال تماما مثل الرجل، ثارت من جهتها أيضا أنتجونة، وتمردت ضد نظام الحكم المستبد للملك "كريون" Créon خالها، الذي رفض دفن أخيها "بولينيس"Polynice، لأنه خان وطنه، فلا يستحق إذن أن يعامل بكرامة ويدفن، فيما سمح بدفن أخيه الآخر "إتيوكل" Etiocle في المعركة نفسها، من أجل الظفر بحكم "طيبة" Thèbes،لأنه يمثل الخير بحسب زعم الملك "كريون".

إن مسيرة" فاطمة الزهراء" رضي الله عنها تتقاطع في كثير من الأماكن مع مسيرة "أنتجونة"، فمن التقاطع في الوجع، إلى التقاطع في البطولة، إلى التقاطع في البلاغة و القول الجميل، إنهما صورتان لقضية واحدة، قضية الثورة في وجه الأنظمة الحاكمة التي تغالي في إستعمال سلطتها و سطوتها، بحسب رؤية الروائية.

ف "أنتجونة" ترفض الانصياع لأوامر الملك "كريون"، التي تقضي بترك الجثة حيث سقطت ميتا و عدم اكرامها ودفنها، فتعمد إلى فعل ذلك بالرغم من تبعات هذا الموقف الجسيم، في تحد واضح لنظام الحكم

بهذا الموقف صورة المرأة المقاومة بوقوفها في وجه قوانين النظام الحاكم، فقرر "كريون" سجنها في مرقد أجدادها، أين وضعت حدا لحياتها فانتحرت .

القائم، تقول أنتجونة في مواجهة هذه الملك "كريون" :"... كل ما أقوله مقيت بالنسبة لي، تمنيت لو كان غير ذلك، فليس بداخلي ما يمكن أن يجرحك، هل سأحصل بالفعل على مزيد من الشرف بعد دفن أخي، لأنه من بين مزايا الطغيان أن تقول أو تفعل ما تشاء ... "[1]

"...Tout ce que je dis m'est odieux je m'en voudrais du contraire – et il n'est rien en moi Qui ne te blesse – pouvais – je m'acquérir plus d'honneur qu'on mettant mon frère au tombeau ? Car La tyrannie entre autres privilèges, peut faire et dire ce qu'il lui plaît..."[2]

وبعد هذه المواجهة الساخنة مع "كريون" والجرأة الكبيرة والشجاعة الفذة التي أبدتها أانتجونة" في وجه هذا الحاكم المستبد، حكم هذا الأخير عليها بالسجن والعزل ثم دفنها حية، تصف" أنتيجونة" حالها فتقول : "... قبري يا غرفة زفافي،... يا سجني الأبدي تحت الأرض،... سألقى فيك أحبتي وسيحدوني الأمل في أن يكون قدومي هناك، مسرة لوالدي ولكي أيضا أمي الغالية، وأنت كذلك أخي العزيز، لقد غسلتكم بيدي عند وفاتكم، وزينتكم بعد الفراق، و وضعت فوق قبوركم العطايا ..."[3]

"... Tombeau ma chambre nuptiale, mon éternel présent dans la terre ! Je vais y trouver les miens (...) je nourris l'espoir que ma venue sera chère à mon père et à toi aussi mère chérie et à toi frère bien aimé, quand vous êtes mort je

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Souames Amira, Croisement des Cultures Croisement des Destins, deux figures de la contestation : Fatima dans loin de Médine d'Assia Djebar et Antigone de Sophocle, Synergies, n = 7, Algerie ,2009 , p : 70 .

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

vous ai lavés de mes mains, je vous ai parés j'ai versé sur votre tombe les libations…[1]"

إنها الفرحة بزوال الظلمة ولقاء الأحبة بعد الفراق، و ككل بطل يقدم حياته قربانا للوطن على مذبح الحرية والانعتاق، تواصل "أنتجونة" مسيرتها البطولية، فبعد أن صدحت بالكلمة السواء أمام هذا الحاكم الجائر، وبعد أن تحدته ودفنت أخيها" بولينيس"، ها هي أنتجونة " تفصح عن الوجه الآخر من أوجه البطولة الكامنة التي تختزنها في أعماقها، بإبعادها الخطر عن حياة أختها " " إسمان " Ismen التي اتهمها بكونها شريكة لأنتجونة في جرمها، موصية إياها بقولها : "... لا تكترثي لأجلي، أمني حياتكي، لا،... لن اجعلكي تشاركيني الموت، لا تأخذي ما ليس لكي، إن موتي يشرفني ..."[2]

"...Ne te mets pas en peine de moi, assure ta vie, moi je ne partagerai pas ma mort avec toi. Ne t'approprie pas un ouvrage auquel tu n'as pas travaillé, que je meure moi, ce sera bien[3]..."

ففيما اختار صغار النفوس وضعافها دفع ضريبة الذل والمهانة، لاعتقادهم أن ضريبة الكرامة غالية، اختارت في مقابل ذلك "أنتجونة" ضريبة الحرية لقاء نجاتها من الطغيان والاستبداد بدفعها حياتها ثمن لذلك.

تعيد آسيا جبار رسم هذه الصورة بالقوة و الشجاعة و الإلتزام نفسه، لكن هذه المرة مع " الزهراء فاطمة" بنت محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، التي كرست في أكثر من موقف، هذه القيم و المبادئ التي تعلمتها من معلم البشرية الأول، النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تصف آسيا جبار التقاطع و التشابه

[1] – Souames Amira, Croisement des Cultures Croisement des Destins, deux figures de la contestation : Fatima dans loin de Médine d'Assia Djebar et Antigone de Sophocle, opcit, p : 68 .

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Ibid, p : 68 .

والالتقاء بين هاتين الصورتين بقولها :"... تظهر فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، على مسرح الأحداث فجأة ك: "أنتجونة" حقيقية، معبرة عن ألمها وغضبها ومرارتها واحتجاجها الشديد، ومن وراء ذلك احتجاج كل النساء ..."[1]

"... Irruption sur l'avant-scène de Fatima , fille du prophète en véritable Antigone, avec sa voix de la douleur, de la colère lucide et amère , de la protestation véhémente de toutes les femmes à travers elle ..."[2]

نعم لقد وقفت فاطمة رضي الله عنها شامخة في المدينة، قائلة "لا" إلى أن لاقت ربها :"... قالت البنت المحبوبة "لا"، "لا" لأهل المدينة، "لا" طوال الوقت، "لا" طيلة ستة أشهر و حتى آخر رمق من حياتها ..."[3]

"... La fille bien aimée dira Non, Non au gens de Médine , Non tout le temps, Non six mois durant , au point d'en mourir ..."[4]

فمن قولها "لا" لزواج "علي" عليها بعد أن كان والدها رسول صلى الله عليه وسلم السباق في قولها أمام الملأ من فوق منبره، إلى قولها "لا" كذلك ردا على عمر رضي الله عنه، عندما جاء دارها لإستقدام من كان بها من المتخلفين عن بيعة أبي بكر إلى الخليفة لمبايعته، فردت عليه قائلة بحسب ما أوردته آسيا جبار : "... تركتم رسول الله جنازة بين أيدينا، و قطعتم أمركم بينكم ولم تطلبوا مشورتنا و لم تهتموا لحقوقنا ..."[5]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 71.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Ibid, p : 71 .

[5] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"… Vous avez laissez le cadavre du prrophète entre nos mains, tandis que vous vous êtes occupé de tout régler entre vous seuls ! vous n'avez pas attendu notre avis, et vous ne vous êtes pas souciés de nos droits…"[1]

وهو كلام تقول به الكثير من المراجع الشيعية، فيما تنفيه الكثير من المراجع السنية، و من هؤلاء محمود شاكر في مؤلفه " التاريخ الإسلامي : الخلفاء الراشدون"، وإن كان يقر بالخلاف الذي وقع بين فاطمة الزهراء رضي الله عنها و خليفة المسلمين ابو بكر رضي الله عنه، فإنه ينفي بشكل قاطع تخلفها وعلي في مبايعة الخليفة الجديد : "... و لم يتخلف عن البيعة إلا الذين كانوا مشغولين بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انتهوا من ذلك بايعوا ..."[2]

وهذا هو اعتقاد أهل السنة في أن فاطمة قد تصالحت مع أبي بكر ورضيت به كخليفة للمسلمين، في حين يعتقد الشيعة بشكل عام أن غضبها من خليفة المسلمين أبي بكر لازمها حتى وفاتها رضي الله عنه.

قالت فاطمة رضي الله عنها "لا" أيضا حين رفض الخليفة الصديق إعطائها حقها من أرض فدك، و قد سبق وأن أشرنا إلى هذه المسألة في هذا الفصل، وهي الحادثة التي أجمعت حولها المصادر الشيعية و السنية على السواء، الشيء الذي تسبب في بروز شيء من الجفاء في العلاقة بين علي وأبي بكر رضي الله عنهما، يقول محمود شاكر تعليقا على هذه المسألة : "... إلا أنه قد حدث شيء من الجفوة بين الامامين الجليلين والصحابيين الكريمين، ولكن ليس بسبب الخلاف وإنما بسبب الإرث، إذ اطلبت فاطمة رضي الله عنها من أبي بكر حقها بإرث أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من فدك وسهمه في خيبر ..."[3]

---

1. – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 83 .

2 – محمود شاكر، التاريخ الإسلامي : الخلفاء الراشدون، المرجع السابق ، ص 57 .

3 – المرجع نفسه ، ص 58 .

لقد أضحت سيرة الزهراء رضي الله عنها نبراس ينير درب السالكين ومنارة لهداية العالمين، وقد جسدت بمواقفها هذه، هي وأنتجونة الإغريقية، قدرة المرأة على المواجهة التحدي والقيادة، وقد دفعت في مقابل ذلك ضريبة باهظة، إنها ضريبة الحرية، وبالرغم من ذلك فضريبة الذل أشد من ضريبة الكرامة، وتكاليف العبودية أكبر من تكاليف الحرية .

ج/ خاضعات وغير خاضعات :

اشتمل الجزء الثاني من المتن الروائي ل : بعيدا عن المدينة نماذج نسائية متباينة، إن لم نقل متناقضة، تنتقل بنا فيه آسيا جبار من صورة المرأة الخاضعة والخانعة والمستلبة الى المرأة المتحدية، لا بل والمحاربة والمقاومة بلسانها و كلماتها .

تضرب لنا الروائية مثلا ب:" أم تميم " كنموذج للصنف الأول تحت عنوان " المرأة التي يتزوج بها بعد المعركة " Celle qu'on épouse après la bataille.

تعرض لنا آسيا جبار قضية قتل خالد بن الوليد لمالك بن نويرة، وزواجه بأرملته أم تميم التي اختلفت حولها الروايات والمصادر، فتورد سبب القتل إلى الكلام الذي قاله مالك بن نويرة ردا عن سؤال لخالد بن الوليد واصفا فيه النبي صلى الله عليه وسلم قائلا :" سيدك (صاحبك) قال مالك، مما جعل خالد ينفجر غضبا : اعلم أنك مرتد أيها الكلب، أنت من أتى بسجاح إلى الجزيرة العربية ..."[1]

"... Votre maitre... dit il , Khaled bondit : Chien ! je sais que tu es incrédule !... c'est toi qui a amené Sajah en arabie ..."[2]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 110.

وقد كان مالك بن نويرة قد أعلن توبته، و رجع للإسلام عندما علم بزحف خالد بن الوليد بإتجاه البطاح و "... قد تكون هذه الرواية أقرب للقبول لأنها تذكر سبب ردة مالك بن نويرة ومن إتبعه من قومه، وهي امتناعه عن دفع الزكاة لأبي بكر، كما أن كلامه بحق النبي لا يصدر عن شخص مخلص في اسلامه (...) ومع ذلك فقد تضمن الاستجواب إشارتين إلى إسلام مالك وهما القول بأنه على استعداد لإقامة الصلاة، وقوله لخالد : أتقتلني وأنا مسلم أصلي إلى القبلة ..."[1]

تكاد تجمع المصادر التاريخية على أن خالد بن الوليد تزوج أرملة مالك بن نويرة "... هل تزوجها في اليوم نفسه أم أيام بعد ذلك، لقد شهد مالك مصرعه في موقع البطاح، أغار خالد في حينها – و دم مالك لم يبرد بعد– على مواقع أخرى وسبى نسائها ..."[2]

"... Est–ce ce jour même , est – ce quelques jours après que Khalid Ibn El Walid épousa la veuve ? la mort de Malik eut lieu au campement de Bitah .Khalid , Malik ainsi exécuté à chaud , se hâte d'aller rassier les territoires et d'emmener les femmes captives ..."[3]

ثم تتساءل آسيا جبار بطريقة توحي بعدم اقتناعها بما أورده الطبري في مؤلفه " تاريخ الرسل والملوك" الجزء الثالث، قائلة "... من يقول ما إذا أم تميم وجدت في زواجها من خالد مواساة لها في محنتها (بحكم وجودها في خيمة أكبر قادة جيش المسلمين) أم أنها لا تزال تبكي زوجها ..."[4]

[1] – محمد سهيل طقوش، تاريخ الخلفاء الراشدين : الفتوحات و الإنجازات السياسية، المرجع السابق ، ص 76 .

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 110.

[4] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... Qui dira si " Oum Tamim " fut consolée de son veuvage par sa nouvelle promotion (se trouver sous la tente du premier soldat de l'islam) , ou si au contraire elle ne peut que pleurer d'avantage Malik ..."[1]

إن هذه الرؤية التخييلية للأحداث، التي تأتي كخطاب مضاد ومناقض لما جاء به الخطاب الرسمي الذكوري، ممثلا بمرويات الطبري، تحاول دائما إضفاء الإيجابية والفعالية لحضور على مواقف هؤلاء النسوة. وجعلهن فواعل في الواقع الذي يعايشنه لا مفعول بهن.

شهدت أم تميم ذلك الاختلاف الحاد الذي دب بين أكبر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم " ... خلافا حادا في الرأي بين أبي بكر وعمر في تقييم ما صنع خالد ..."[2]، فتجري بعض الروايات أنه :"... لما بلغ خبر مقتل مالك وأصحابه عمر، قال إن في سيف خالد رهقا، فأجابه ابو بكر: هيه يا عمر، تأول فأخطأ، فأرفع لسانك عن خالد وأضاف : لم أكن لأشيم سيفا سله الله على الكافرين ..."[3]

كان لهذه الأزمة التي كادت أن تنخر جسم الكيان الاسلامي الناشئ، تداعيات على أم تميم زوج خالد بن الوليد، جعلتها منهكة خائرة القوى،"... لقد صارت هذه المرأة مفصلا رخوا في قلب هذا الانقسام الذي بدأ يتمدد، ممهدا الى انقسامات أخرى أكثر ضراوة، إن أم تميم ابنه المنهال ذات جمال أخاذ ..."[4]

---

1. Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 111 .

2 – محمد سهيل طقوش، تاريخ الخلفاء الراشدين، المرجع السابق ، ص 78 .

3 – المرجع نفسه، ص88 .

4 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... Cette femme devient fragile cornière au cœur de cette division qui s'elargira , qui en annonce d'autres tout aussi graves . Elle , Oum Tamim, fille de Minhal et d'une grande beauté ..."[1]

وفي إشارة آسيا جبار في آخر هذا الحديث إلى جمال أم تميم الأخاذ، محاولة لتمرير فكرة معينة، مؤداها أن خالد بن الوليد إنما تزوج ام تميم لفرط جمالها .

أما المثل الثاني الذي تقدمه آسيا جبار على هذا النموذج من النساء فهي " إبنة مجاعة "، كان والدها مجاعة حليفا لمسيلمة الكذاب، لكنه وقع في الأسر بعد أن قضى خالد على جيشه، فوجد نفسه في الخيمة التي تأوي أم تميم بحكم القرابة التي تربطه بها، وعند تقدم جيش مسيلمة في المعركة و وصوله الى الخيمة التي يقبع فيها مجاعة مع أم تميم زوج خالد بن الوليد، حرر مجاعة وأراد قتل أم تميم، لكن مجاعة نهاهم عن ذلك، وحال دون قتلها، لأنها هي من أنقذ حياته، فضلا عن كونها أحد أقربائه .

تحاول آسيا جبار أن تملأ الفراغات التي تركتها المرويات التاريخية من خلال العملية التخييلية"... لأن وظيفة التخييل هنا تكتسب خصوصية دلالية بما تضفيه على الأحداث والوقائع من دلالات ضمنية بعيدة عن دلالتها الطبيعية، والتي تستخلص من خلال السياق العام الذي أنتج فيه النص ..."[2]

وضمن هذه السيرورة التخييلية تطرح آسيا جبار جملة من التساؤلات حول ما دار من حوار بين مجاعة وقريبته أم تميم في الفترة التي قضياها معا فتقول : ... هل اعترفت لمجاعة بحنينها لمالك ؟ هل أقرت بأن

[1] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 114.

[2] – سعيد جبار، من السردية إلى التخييلية، المرجع السابق ،ص 63 .

زفافها لم يكن إلا ضربا من ضروب العبودية ؟ أم أنها تصرفت كزوج قائد كبير منتصر، له تأثير كبير عليها ؟ ..."[1]

"... Celle-ci a – t-elle avoué sa nostalgie de Malik ? a – t-elle convenu que ces noces présentes n'étaient que servitude ? Ou s'est-elle contenté d'agir en femme de général victorieux , confirmant sur celle-ci son influence ..."[2]

بعد أن انتهت المعركة "... واطمأن خالد إلى النصر وأتم الصلح وتسلم زمام الأمر طلب من مجاعة أن يزوجه ابنته، فوافق بعد تردد، وتعرض خالد للنقد من جانب الخليفة، لكنه دافع عن نفسه وبين وجهة نظره في هذا الزواج ..."[3]

كان مجاعة قد طلب صداقا كبيرا نظير هذا الزواج، فاستجاب خالد بن الوليد ما جعله يتعرض لسيل من اللوم والإنتقادات من قبل الكثير من المسلمين، وصولا إلى أعلى هرم السلطة في تلك المرحلة، الخليفة أبو بكر الصديق.

لم يكن لهذه الزوجة الثالثة لخالد بن الوليد أي حضور يذكر، بل إن حضور مجاعة الوالد (الحضور الذكوري) هو الذي طغى على هذا المشهد في صور متعددة، انتقل فيها من صورة المتحالف مع مسيلمة الكذاب، والمحارب لجيش المسلمين، إلى حليف لخالد ورسول منه إلى من تبقى من جيش مسيلمة، داعيا إياهم إلى وضع السلاح والاستسلام، تقول آسيا جبار : "... لن نعرف أبدا اسم الزوجة الثالثة لخالد، لقد لفها النسيان، لم نعرف عنها سوى أنها إبنة مجاعة الداهية ..."[4]

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – AssiaDjebar, Loin de Médine, op.cit, p : 115.

[3] – محمد سهيل طقوش، تاريخ الخلفاء الراشدين، المرجع السابق ، ص 83 .

[4] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"... On ne saura jamais le prénom de cette deuxième coépouse de Khalid , elle s'enfonce dans l'oubli (...) Elle est seulement fille de Medjaa le rusé ..."[1]

إن وصف آسيا جبار لمجاعة بالداهية، جاء ربما بسبب الخدعة التي قام بها هذا الأخير إثر انتهاء المعركة مع جيش خالد، فظنا منه أنه لربما ينجح في إنقاذ ما تبقى من قبيلته " بني حنيفة "، جعل النساء والذراري والعبيد يحملون السلاح لإيهام جيش خالد بأنهم كثر.

ج/1 مغنية الأهجيات" الكافرة " أو المرأة المتحدية.

تنقلنا الروائية من صور المرأة الخاضعة والمستسلمة لمصيرها المحتوم، إلى صور أخرى أكثر حركة وديناميةوإيجابية، إنه عالم الصمود والتصدي، عالم الرفض والإحتجاج، لا بل وعالم التمرد والثورة ، فتورد لنا آسيا جبار أمثلة وصورا ناصعة عن ذلك، لعل أبرزها صورة مغنية الأهجيات la Chanteuse de Satirs ، هذه المرأة الشاعرة من قبيلة "بني كندة" التي "... كانت أيضا مشهورة، إنها الشاعرة التي لم يأتي الطبري على ذكر إسمها ..."[2]

"... Une autre femme était célèbre : une poètesse ; Tabari ne livre pas son nom ..."[3]

[1] – AssiaDjebar, Loin de Médine, opcit, p : 120.

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] – Ibid, p : 131.

كان لسانها سليطا على أعدائها، مما جعلهم يخشونها أكثر من خشيتهم من السيوف والرماح، لقد كانت كلماتها سيفا مسلطا على رقاب الخصوم والأعداء، وكانت أيضا "... قريحتها ساخرة، وأبياتها المقطعة والموزونة، تصف لنا التفاصيل المميزة وحتى السخيفة بشكل منقطع النظير ..."[1]

"... Sa verve devait être moqueuse : ses vers lacéraient , tallaient en pièces , ils faisaient ressortir le détail saillant ou ridicule, en des vers qui ne s'oubliaient pas ..."[2]

إن اختيار آسيا جبار لهذه الشخصية لم يأتي بشكل إعتباطي غير مدروس، بل كان عن وعي ودراية ودراسة، فالمبدع الحقيقي وهو يحدد شخصياته، هو من "... ينتقي ملامحها وسماتها ، ويحدد لها موضعا معينا من عالم المغامرة ، ويربطها بجملة من العلاقات المختلفة يختارها، و يبني هذا كله في خطاب معين على نحو مخصوص ووفق أساليب وطرائق ورؤى متباينة ..."[3] وعلى هذا الأساس يختار الروائي شخصياته، وفي مختبره السردي يحول هذه النماذج الواقعية الحية إلى شخصيات ذات طابع خيالي، وقد يكون مرجع هذه الشخصيات احيانا ذات المبدع نفسه، من دون أن تكون المعادل الفني والمعرفي لهذه الذات نفسها، والقرائن تشير الى أن شخصية مغنية الأهجيات تحاكي وتتماهى إلى حد كبير مع شخصية الروائية "... وهي الشاعرة والمؤرخة التي جعلت هي الأخرى من قلمها سلاحا في وجه الاستبداد والطغيان في عصرها، فما أشبه شاعرة الأمس بشاعرة اليوم، أو ما أشبه صوت الأمس بصوت اليوم ..."[4]

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 131.

[3] – الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، تونس، 2000، ص 102/101.

[4] – حسان راشدي ، إعادة كتابة التاريخ في رواية " بعيدا عن المدينة ، اشغال الملتقى العالمي حول تجربة الكتابة لدى أسيا جبار، المرجع السابق ، ص 41 .

أضحت مغنية الأهجيات شاعرة يحتفى بها، فهي حامية الحمى، ورافعة الرايات ومخلدة المآثر، وبكلمة واحدة منها تضرب الخيام وتحل، لقد"... أصبحت مغنية الأهجيات شيء من روح المقاومة عند قومها، أكثر من دور أي مقاتل شجاع، فإذا كان المقاتلون يعدون بعدد من الشباب الشجعان، فإن الشعراء والشاعرات قلائل ..."[1]

"...La chanteuse de satires devenait une part de l'âme de résistance des siens, plus que le guerrier le plus brave, le poète, à plus forte raison la poétesse arabe, jouit de prestiges et d'honneurs . Les guerriers se comptent en nombre de jeunes vigoureux, les poètes et poétesses sont au plus quelques- uns[2]..."

وقعت مغنية الأهجيات في الأسر، بعد أن كانت قد تعرضت للرسول، صلى الله عليه وسلم بالكثير من الهجاء، وبعد رفضها التحول عن عقيدته الأولى، ما جعل قائد جيش المسلمين يشدد الحراسة عليها "... ثم عزلها مباشرة عن باقي الأسرى. اعتبر قائد الجيش أن مغنية الأهجيات هي من يجب أن يعاقب، لأنها مست بالدين، و هاجمت النبي، صلى الله عليه وسلم و هي المرأة، لذلك وجب أن تحصل على عقاب خاص ..."[3]

"...Elle fut aussitôt séparée du groupe des victimes, pour le chef militaire c'était immanquablement la désigner à la vindicte : ainsi blasphématrice , ayant osé

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, op.cit, p : 131.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

s'attaquer au Prophète lui-même , elle, une femme ! ... Un châtiment peu ordinaire s'imposait[1]..."

تعرضت مغنية الأهجيات لأبشع أنواع التعذيب، لكنها صمدت وصبرت وأبدت رباطة جأش كبيرة، فلم تتراجع ولم تجبن :"... و لم الخوف ؟ لمالا هجاء هذا القائد العسكري القادم من المدينة، صاحب محمد، أكثر مخلوق تعرض لهجائها وحظي بإحترامها، أما القائد المتعجرف فأخذ يتقدم منها ليقطع رأسها، إنه ..."[2]

"...Que craindre ? improviser la dernière satire, contre ce chef guerrier venu de Médine, ce compagnon de Mohammed, lui qu'elle a le plus attaqué, mais toujours respecté. Le général, quand à lui , plastronne ! il s'approche d'elle. Il va lui trancher la tête, il[3]..."

وفي حوار السجينة مع السجان، أظهرت مغنية الأهجيات صلابة في مواقفها، فلم تضعف ولم تستسلم، بل ثبتت وتحدت سجانها قائلة : "... سيبقى شعري وصوتي عندما تصير أنت ترابا ..."[4]

"...Mon éloquence, ma voix , seront là encore , quand tu seras poussière[5]..."

فيرد عليها مهاجر بن أمية قائلا : "... صوتك ! يردد مهاجر بن أمية، فعلا لن آخذ منك حياتك بل صوتك ..."[6]

1- Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 133.

2 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

3- Ibid, p : 134.

4 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

5- Ibid, p : 134.

6 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"...Ta voix ! répliqué t-il , justement je ne retirerai pas la vie , mais la voix[1]..."

لتبدأ بعد ذلك رحلة هذه الجندية المجهولة مع الألم والعذاب، فيعمد أحد الجند بأمر من مهاجر بن أمية الى نزع سنين من أسنانها الأمامية ف "... بحركتين يسحب رأسها إلى الخلف ويفتح فمها كفتحة منخنق، ثم ينزع سنها الأمامي الأول، فالثاني ..."[2]

"...En deux mouvements, lui tirant la tête en arrière, lui ouvrant la bouche comme un trou d'asphyxiée, il lui enlève une première dent, une deuxième dent de devant[3]..."

أحست مغنية الأهجيات بعد مرور بعض الوقت أن صوتها لم يعد يقوعلى التغني بما تفيض به قريحتها، فأدركت الهدف من قلع أسنانها.

فيما يختار جندي ثان نوعا آخر من التعذيب والتنكيل، فيعمد إلى قطع يديها أمام مرأى من الناس :"... وهم ينظرون : لقد قطعوا أيدي الشاعرة (...) لينطلق الجند مع قائدهم فيما بعد ممتطين صهوة جيادهم، ويختفون ..."[4]

"...Et ils regardent : la poétesse a eu les mains coupées (...) plus loin les soldats et leurs chef se sont élancés sur leurs chevaux et disparaissent[5]..."

---

1 – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 135.

2 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

3 – Ibid, p : 135.

4 – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

5 – Ibid, p : 136.

و بالرغم من هذه الوحشية في التنكيل والتعذيب، أنشدت المغنية وبصوت خافت لا يكاد يسمع : "... سأغني بيدي (...)، سألعنهم بيدي المقطوعتين هاتين، ستبقى أنشودتي صعبة المنال، كصقر يطير في السماء ..." [1]

"...Je chanterai avec mes mains (...) je les maudirai avec mes mains , mains coupées ! Mon chant leur restera insaisissable, tel l'épervier qu'ils n'atteignent pas[2]..."

استشاط الخليفة أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، غضبا عندما علم بصنيع "مهاجر ابن أمية" وجيشه بهذه المرأة التي لا حول لها ولا قوة، عدا كلماتها :"... كان أبو بكر حتما ثائرا لتعرض امرأة لهكذا تنكيل بجسدها، عقوبتها الوحيدة كانت أن تعامل كأمة، وهو حال نساء الجيوش المنهزمة (...) توقف حيث يجب أن تتوقف، فليس لديك الحق أن تفعل مثل هذا الصنيع، يقول أبو بكر متهما ..."[3]

"...Abou Bakr dût être révolté qu' une femme puisse subir ainsi des atrocités dans son corps, la servitude est la seule peine imposée aux femmes des vaincus, abstients – toi – là ou il faut s'abstenir ! tu n'as pas le droit d'agir ainsi ! accuse le Calif[4]..."

لقد تألقت مغنية الأهجيات في آفاق البطولة النسائية عبر التاريخ، وكتبت تاريخا بأحرف من دم قان، فخلدت اسمها بمواقفها هذه، دفاعا عما تعتقده وتؤمن به.

---

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] – Assia Djebar, Loin de Médine, opcit, p : 136.

[3] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] – Ibid, p : 136/137.

إن مغنية الأهجيات – و إن لم تسلم – إلا إنها ضربت مثلا ناصعا في دفاعها عن حريتها وعن إيمانها بفكرتها، فلو أنها أسلمت لكانت إضافة فعالة و إيجابية للمسلمين في تلك المرحلة، فلكم دعا النبي، صلى الله عليه و سلم ربه بأن يعز الإسلام بأحد العمرين : عمر بن الخطاب أو عمر بن هشام، يقول الصحابي " خباب بن الأرت " محفزا عمر بن الخطاب على إعلان اسلامه : "...والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس و هو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام او بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر، فقال له عند ذلك عمر : فدلني يا " خباب " على " محمد "، صلى الله عليه و سلم، حتى آتيه فأسلم..."[1]، و كم قويت شوكة المسلمين بإسلامه، و كم كانت فتوحاته عظيمة وكم عم العدل وشاع في ظلال خلافته، فالقوي في جاهليته قوي في إسلامه.

اجتهدت " آسيا جبار" من خلال رواية " بعيدا عن المدينة " في أن تعيد قراءة تاريخ المرأة في صدر الإسلام الأول، ومن ثم تعيد كتابة هذا التاريخ، مصوبة بعض ما جاء فيه أحيانا، وسادة الفراغات، ومستنطقة القضايا المسكوت عنها أحيانا اخرى،

طرحت " آسيا جبار " في هذا المتن الروائي العديد من الأسئلة التي تكون قد رمت من ورائها إلى استفزاز عقل المتلقي، لجعله ينخرط بشكل فعال في مسعاها الرامي إلى إعادة كتابة تاريخ المرأة من منطلق أنثوي.

إن " آسيا جبار " و إن لم تتوفر لديها الأهلية الكافية للإجتهاد بالمعنى الشرعي، والمعرفة الوافية بالتاريخ الإسلامي، خاصة ما تعلق منه بالمرحلة الأولى منه تحديدا، إلا أنها نجحت في خلخلة وتقويض تلك الأحكام الجاهزة التي اعتقد أصحابها بأن لا احكام تعلوها.

[1] – محمود شاكر، التاريخ الإسلامي : الخلفاء الراشدون (3)، المرجع السابق، ص122.

لقد كرست رواية " بعيدا عن المدينة "، ومن منظور أنثوي صرف، هوية المرأة المسلمة في الصدر الأول من الإسلام، من خلال ما أتاحته من إعادة نظر في ما كتبه الذكور عن المرأة، في مراحل تاريخية كانت كرامتها فيها ممتهنة، وحقوقها مستلبة، وحريتها منتهكة.

البــاب الثانـي

الفصــل الثانـي

روايـة " الحريـق " أو المقاومـة بالكتابـة

1 – الحياة القلمية لمحمد ذيب

2 – محطات الكتابة الروائية الذيبية

3 – الحريق، رواية صنعت التاريخ

3 – 1 – الكتابة الملتزمة كشف للواقع البائس

3 – 2 – الكتابة الملتزمة انبثاق للوعي

3 – 3 – الكتابة الملتزمة دعوة مضمرة للثورة

3 – 4 – الكتابة الملتزمة موقف وفعل

روايه الحريق أو المقاومه بالكتابة:

تروم هذه الدراسه من خلال هذا الفصل تناول ملامح الالتزام في رواية الحريق، رواية لقامة أدبية جزائرية تعد من المؤسسين الاوائل للأدب الجزائري الحديث والمعاصر عموما، والأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية تحديدا، قامة أدبية عاشت في صوت ورحلت عنا في صمت، قامة أدبيه تربعت على عرش الكتابة الأدبية باللغة الفرنسية و حازت على أكبر الجوائز الادبية (جائزة " فينيون " Prix Fénéon سنة 1953 عن رواية " الدار الكبيرة "، و جائزة " روني لابورت " René Laporte سنه 1962 عن ديوانه الشعري " ظل الحارسة" Ombre gardienne، جائزة جمعيه كتاب اللغه الفرنسيه سنه 1977 عن روايه " هابيل" Habel، وفي سنه 1994 حصل محمد ذيب على الجائزه الكبيره للفرانكفونية، تسلمها من الأكاديمية الفرنسية وهو أول كاتب مغاربي يحصل عليها، كما تحصل سنه 1998 على جائزة " ملارمي" Mallarméعن ديوان شعر موسوم ب : طفل الجاز L'enfant Jazz الجائزة الكبيرة للرواية لمدينه باريس عن مجمل أعماله الروائيه، وفي سنه 2001 تحصل على جائزة مكتشفي مدينه بولون عن مجمل أعماله الشعرية)، ونالت الكثير من التقدير والاعتراف والإشادة، لعلى من أهمها وصف الشاعر الفرنسي " لويس أراجون "[1] Louis Aragon لمحمد ذيب بقوله " ...بمجرد صدور روايتي " الدار الكبيرة " و" الحريق " نعت لويس أراجون محمد ذيب ب : جون كريستوف[2] الجزائري..."[3]

---

[1] - لويس اراجون Louis Aragon : (1897 – 1992) شاعر ة روائي و صحفي فرنسي من مؤسسي الحركة الدادائية إضافة الى " آندري بروتون "André Breton، " كريستيان تزارا " Tristian Tzara، " بول إليار Paul Eluard، من اشهر اعماله : مغامرات تلماك Les aventures de Télémaque، و صهر السيد دوفال Le neuveux de Mr Duval.

[2] - جون كريستوف Jean Christophe : هو عنوان رواية من عشرة أجزاء للروائي " رومان رولان " Romain Roland نشرت أول مرة على شكل مسلسل ما بين سنتي 1904 و 1912 في المجلة الأدبية : كراسات نصف شهرية، و قد كان لجمهور القراء دور كبير في شهرة هذه الرواية و رواجها أكثر من الدور الذي لعبه النقاد و الدارسين، كما كان لهذه الرواية كبير الأثر في حصول الكاتب على جائزة " نوبل " للآداب سنة 1915.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

La grande maison et l'incendie étaient à peine parus qu' Aragon qualifiait Dib de"... Jean Christophe Algérien..."[1]

كما عده محمد الغربي، ممثل الجزائر في الندوة الدولية لكتاب آسيا وافريقيا المنعقدة في اكتوبر من سنة 1958 بتشقند، استثناء ضمن ما بات يعرف بمدرسه شمال افريقيا الأدبية، يقول محمد الغربي : "... لقد انقطع الكتاب الجزائريون المنظوين تحت ما يعرف بفرنسا ب " مدرسة شمال إفريقيا الأدبية " عن شعبهم إذا ما استثنينا محمد ذيب وقلة قليلة معه، فهم يتعاطون مع الواقع الدموي اليومي باحتشام، إنهم في الغالب برجوازيون صغار تلقوا تربية فرنسية خاصة، جعلت منهم مذبذبين بين الوفاء للثقافه التي نشؤوا عليها أو الوفاء لوطنهم المغمور..."[2]

"...Les écrivains Algériens de ce que l'on nomme en France l'école Nord Africaine sont, hormis Med Dib et quelques rares autres , coupés de leur peuple, et réagissent timidement devant la sanglante réalité quotidienne. Il s'agit souvent de petits bourjeois ayant reçu une éducation spécifiquement Française...qui a fait d'eux des hommes partagés entre la fidèlité à une culture et la fidèlité à une patrie anonyme..."[3]

تميز محمد ذيب عن الكثير من أدباء عصره، فإن كان البعض من هؤلاء قد كتب ليعبر عن منطقته، عن عاداتها وتقاليدها، عن مشاكل أهلها وتطلعاتهم، عن أعمالهم و اهتماماتهم، في قالب شهادات عن العصر الذي عاشوا فيه، فإن محمد ذيب تجاوز كل هذا، منطلقا نحو فضاءات أرحب وآفاق أوسع، ف"...بينما

1 - Jean Déjeux, Littérature Maghrébine de langue Française, op.cit, p : 144.

2 - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

3 - Ibid, p : 143/144 .

اعتبر فرعون نفسه شاهدا عن مجتمعه و عن عصره، بين ذيب في سنة 1958، أن التعبير عن المجتمع الذي نعيش فيه أكبر من مجرد تقديم شهادات، لأننا نعيش المأساة نفسها..."[1]

" ...Tandis que Feraoun se posait en témoin de sa société et de son temps,Dib expliquait en 1958 que, pour lui, traduire la société qui l'entourait constituait plus qu'un témoingnage, car nous vivons le drame commun..."[2]

ارتبطت الكتابه الذيبية عبر الكثير من النصوص التي شهدتها بالواقع الحي والملموس الذي يحياه الإنسان بشكل عام و الجزائري تحديدا فجاءت هذه الكتابة ذات حمولة مجتمعية وتاريخية وجمالية، لقد كان محمد ذيب بحق من أفضل من كتب عن المقهورين والمسحوقين والمعذبين في الأرض، يصول ويجول بحثا عنهم في كل البقاع والأزقة التي تشهد على عذاباتهم ومآسيهم، على أفراحهم أيضا وأمانيهم، وقد وفق في ذلك إلى حد كبير.

لقد كان " محمد ذيب " روائيا وشاعرا وقصاصا ومسرحيا مخضرما، عاش فترات تاريخية مختلفة ومتنوعة، أغنت تجربته الأدبية وأثرتها، فلم ينقطع عن الكتابة منذ سن الخامسة عشر، بداية قرضه للشعر.

أثرى محمد ذيب المكتبة الجزائرية المغاربية والعالمية بعدد هائل من الروايات والقصص والاشعار، متأقلما مع مختلف التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية، مجددا ومتجددا حتى وافته المنية في ربيع 2003 (2 ماي).

[1] - ترجمة الباحث ، تدقيق المشرف.

[2] - Jean Déjeux, Littérature Maghrébine de langue Française, op.cit, p : 147.

1/ **الحياه القلمية لمحمد ذيب**

ولد محمد ذيب بتلمسان في1920/07/21 وهو من أبرز مؤسسي الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، تنقل محمد ذيب في مشوار حياته، كما والده، بين العديد من المهن، من التجارة إلى النجارة، ومن المحاسبة الى الترجمة وإلى صناعة السجاد.

بدأ حياته الأدبية بنشره قصيدته الأولى بعنوان " صيف" Eté في مجلة الأداب في جنيف أثناء الحرب العالميه الثانيه، ثم قصيدته الثانيه الموسومة ب : فيغا Véga سنة 1947 بمجلة " فورج Forge" التي كان يديرها " إيمانويل روبلس Emmanuel Roblès أحد رموز مدرسه الجزائر الأادبيه إلى جانب " ألبير كامو" Albert Camus .

تأثر محمد ذيب في بداية حياته الأدبية بالكتابات الكلاسيكية الفرنسية، و كان " شارل بودلار Charles Baudlaire، و " غيوم أبولينار " Guillaume Apollinaire، إضافة الى الشاعر الذي عاصره " لويس أراجون " Louis Aragon، من الشعراء الذين تركوا بصمات واضحة في حياة محمد ذيب الشعرية، أما في مجال الرواية فقد تأثر محمد ذيب كثيرا بالروائيين الأمريكيين، فقد "... اكتشف النقاد الفرنسيون والروائيون الجمهور، في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، أو أعادوا اكتشاف الرواية الأمريكية، وعلى رأس هؤلاء، " كامو" و " سارتر "، و الأخير من خلال المقالات التي عنيت في الفترة ما بعد 1939/1938، ب " فولكنر"، " دوس باسوس "..."[1]

"... C'est l'époque à l'issue de la seconde guerre mondiale, ou la critique Française, les romanciers et le public, découvrent ou redécouvrent le roman

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

Américain,Camus et Sartre en tète, de celui-ci notamment les essais consacrés dès 1938/1939, à Faulkner et Dos Passos..."[1]

ترى "جاكلين آرنو" أن سبب تأثر "محمد ذيب" بالروائيين الأمريكيين مرده إلى أن هذا الأخير وجد عند هؤلاء " ...نقاء الصورة، و المشاعر المتحررة من التفكير الموغل في المنطقية، هذا ما جعله ينبهر ب " فرجينيا وولف (على اعتبار أن الرواية الأنجلوسكسونية كانت مطبوعة بما يعرف بتيار الوعي، المستمد من "جويس" بشكل كبير..."[2]

"... Dib retrouve chez les romanciers Américains l'atomisme de l'image, et la sensation libérée du raisonnement logique, qui l'avait fasciné chez Virginia Woolf (le roman anglo-saxon étant marqué alors par le procédé du " courant de conscience", issu en gros de joyce..."[3]

كان محمد ذيب كثير التردد على لقاءات سيدي مدني سنة 1948، وهناك تعرف على ثلة من رموز الحركة الأدبية لفرنسيي الجزائر Les Français d'Algérie من بينهم "جون كريول " Jean Crayol " لويس غيو" Louis Guillou إيمانويل روبلس Emmanuel Roblès " جون سيناك" Jean Sénac و" ألبير كامو" Albert Camus.

اشتغل محمد ذيب أيضا لفترة قصيرة بالصحافة في جريدة الجزائر الجمهورية Alger républicain القريبة من الحزب الشيوعي الجزائري، في هذه الأثناء نشر بعض القصائد والمجموعات القصصيه في المجلات التي كان يشرف عليها " إيمانويل روبلس " و" جون سيناك ".

[1] - Jacqueline Arnaud, la littérature Maghrébine de Langue Française, op.cit, p : 164.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Ibid, p : 164.

1.1/ محطات الكتابة الروائية الذيبية :

1.1.1/ المحطة الواقعية (1952 – 1959).

بدأت الحياة الأدبية الحقيقية لمحمد ذيب بنشره سنة 1952 لرواية " الدار الكبيرة" وهي الجزء الأول لما بات يطلق عليه من بعد بثلاثية الجزائر[1]، لتتبعها بعد ذلك رواية" الحريق" سنة 1954، إحدى مدونتي بحثنا هذا، ثم رواية النول سنه 1957 ليختتم بها محمد ذيب ثلاثيته، وأثناء هذه الفترة نشر محمد ذيب مجموعته القصصي " في المقهى " Au café، وقبل استقلال الجزائر بثلاث سنوات(1959) نشر محمد ذيب روايته الرابعة الموسومة ب : صيف إفريقي Un été Africain المعاصره لأحداث ثوره التحرير الكبرى، والتي غلبت عليها هي الأخرى، النزعة الواقعية، لكنها كانت تحمل في أحشائها بذور التحول في الكتابة الذيبية من الواقعية الاشتراكية، التي طبعت الثلاثية إلى الرمزية، كما أن إعراض محمد ذيب عن توظيف شخصية محورية مهيمنة تستغرق العمل من ألفه إلى يائه كما في الثلاثية، وحرصه بمقابل ذلك على توظيف مجموعة من الشخصيات حاملة لرؤى وتصورات متباينة، جعل من هذا العمل يتميز عما سبقه من أعمال.

لقد رسمت ثلاثية الجزائر جدارية تحمل كل تفاصيل حياة الشعب الجزائري في فترة زمنية محددة، في ظل الهيمنة الاستدمارية، فالجزء الأول من الثلاثية (الدار الكبيرة) خصه الروائي لحياة عائلة جزائرية في مدينة " تلمسان " متخذا من " دار سبيطار" فضاء لأحداث هذا العمل، أما الجزء الثاني (الحريق) فقد أفرده الكاتب لحيز جغرافي آخر هو الريف، فكانت قرية " بني بوبلان " بتلمسان منطلقا، وملاذا لأحداث الرواية، ويذيل محمد ذيب هذه الثلاثية بالحديث عن أوضاع العمال المزرية في مصنع النسيج (النول) بعد أن كان من قبل، قد خص أهل المدينة ثم أهل الريف بالحديث.

[1] - Jean Déjeux, Littérature Maghrébine de la Langue Française, op.cit, p: 144-145 : ينظر

صور محمد ذيب – بشكل مغرق في الواقعية – حياة الأهالي بمختلف أعمارهم وأوضاعهم، فأتى تصويره دقيقا وصادقا ومعبرا عن حقيقة الوضع الذي يعيشه هؤلاء، من فقر، وقهر، وبؤس، ومهانة . لقد كانت شخصيات الثلاثية موجودات بلا وجود، لقد حرمهم المستدمر من أبسط الحقوق كالحق في العيش الكريم، والحق في الكرامة، والحق في الحياة.

لقد كانت ثلاثية الجزائر مرافعة قوية ضد قوى الاستدمار، وإن لم يسمه محمد ذيب بشكل صريح، كاشفة ظلمه وتسلطه وزيف دعواه، لا بل ومستشرفة مستقبلا واعدا من خلال كونها – وفي جزئها الثاني تحديدا الحريق – دعوة ضمنية للتمرد وللثورة، وهو ما حصل بالفعل، فما كاد حريق " بني بوبلان " ينطفئ في صيف 1954 حتى اشتعلت ثورة الشعب الجزائري في خريف 1954، والتي لم تنطفئ حتى صيف 1962 بإستعادة الشعب الجزائري حريته ونيل الجزائر استقلالها.

2.1.1/ المحطة الرمزية (1962 – 1973).

شهدت الكتابة الذيبية تحولا انتقل بها من الواقعيه إلى الرمزيه وصولا أحيانا إلى الفنتاستيكية (من يتذكر البحر؟ Qui se souvient de la mer ? سنة 1962، طاليسمان Talisman سنة 1966 والليلة المتوحشه La nuit sauvage (1965).

تقول " نجاة خدا " عن هذا التحول :" ...بنشره لرواية " من يتذكر البحر " دخل محمد ذيب بكل قوة في الإشكالات الحديثه للكتابه الأدبية، أين تم تجاوز الوصف الواقعي للاشياء لصالح أطر دالة تبحث تبحث على التأكيد على الواقعي بعيدا عن المحتمل..." [1]

"... Avec qui se souvient de la mer, Med dib entre résolument dans une problèmatique moderne de l'écriture ou l'effet de ressemblance avec le réel est

[1] - ترجمة الباحث ، تدقيق المشرف.

abondonnée au profit d'une organisation signifiante qui cherche à render compte du réel en faisant fi du vraissemblable...".[1]

وتواصل " نجاة خدا " حديثها عن التحول الذي عرفته الكتابة الذيبية غداة الاستقلال قائلة "... لم تشهد الرواية الذيبية تحولا بسيطا في الشكل عند إعراضها عن الجماليه الواقعيه، بل رفضت أن تظل أداة للمعرفة، لتصير عبارة عن جملة من التساؤلات عن كينونة الإنسان وتعبيرا عن مكابدة الوجود في عالم عدائي..." [2]

"...En abondonnant l'esthétique réaliste, le roman Dibien n'opère pas un simple changement de forme, il renonce à être un instrument de connaissance pour devenir une interrogation sur l'homme et expression de la dificulté d'être dans un monde hostile..." [3]

إن اختلاف الظروف وتغير الواقع يحتم على الأديب أن يغير في اسلوبه وفي موضوعاته، لا بل وحتى اللغة التي يستعملها أحيانا. إن التجديد في الكتابه الأدبية لابد أن يتفاعل ايجابيا مع هذه المتغيرات إذا ما أريد لهذه الكتابة أن تعيش وتتطور، وتتجنب الضمور والفناء، لقد إنتبه محمد ذيب إلى هذه المسألة المهمة الشيء الذي جعله يتميز على باقي أقرنائه من جيل خمسينيات القرن الماضي، هذا الجيل الذي منه من توقف عن الكتابه بشكل نهائي بسبب اللغة كمالك حداد، ومنهم من انصرف إلى مجالات أخرى بعيدة عن الإبداع الأدبي والكتابة الروائية كمجال الأنتروبولوجيا اللغه الامازيغيه كمولود معمري، وطرف ثالث آثر التركيز على مجال فني واحد هو المسرح ككاتب ياسين، وعن هذا التحول في الكتابه الذيبية يقول " جون ديجو " ... تم التطرق لحرب الجزائر في " من يتذكر البحر 1962 " لا بأسلوب واقعي، وإنما بطريقه

[1] - Nadjet Khadda, Mohammed Dib, cette étempestive voix recluse, édiSud France, 2003, p : 51.

[2] - ترجمة الباحث ، تدقيق المشرف.

[3] - Ibid, p : 51 .

رمزية وتخييلية، حاول فيها محمد ذيب أن يفعل كبيكاسو في " غارنيكا "[1] أي أن يكون مولدا للأحلام، فلا دماء ولا جثث في لوحة بيكاسو بالرغم من الرعب ومن الكوابيس..." [2]

"... La guerre d'Algérie est abordé dans " qui se souvient de la mer (1962) non plus avec un style réaliste, mais sous un mode allégorique et onirique. Med Dib a tenté ici d'en faire comme pour Guernica, c'est-à-dire d'être un accoucheur des rèves, ni sang ni cadavres, dans le tableau de Picasso, mais pourtant l'horreur et les cauchemars..."[3]

إن روايه " من يتذكر البحر" مثلت القطيعة مع الكتابه الواقعيه الملتزمة التي صبغت كتابات محمد ذيب السابقة، وإن لم تكن قطيعة بشكل سافر ونهائي، وإنما مرحلة فرضتها سياقات تاريخيه واجتماعيه وثقافيه معينة، إن رواية " من يتذكر البحر" كانت بحسب الباحثة " نجاة خدة " " ... مخبرا لتحول كتابة – في قطيعة مع كل ما هو عقلي – من أجل سبر أغوار الأشياء و انتاج رؤية مروعة للحرب " [4].

"... Qui se souvient de la mer se présente donc comme le laboratoire de la métamorphose d'une écriture en rupture avec le rationnel pour explorer le versant caché des choses et produire une vision apocalyptique de la guerre ..."[5]

[1] - غارنيكا Guernica ل بيكاسو : هي لوحة جدارية للفنان بابو بيكاسو ، استوحاها من قصف غارنيكا الباسك ، حيث قامت طائرات حربية ألمانية و إيطالية مساندة لقوات القوميين الإسبان بقصف المينة في 26 أفريل 1937 خلال ح .ع .2 .

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Jean Déjeux, Littérature Maghrébine de la Langue Française, opcit, p : 152 .

[4] - ترجمة الباحث ، تدقيق المشرف.

[5] - Nadjet Khadda, Mohammed Dib, cette étempestive voix recluse, édiSud France, 2003, p : 51 .

إن هذا التحول في الكتابة الأدبية عند محمد ذيب ليس مؤشرا على نقص في النشاط وعدم القدرة على الإبداع أو ضعف أو وهن، لكنها ضرورة أملتها حتمية التجديد، و وجوب مسايرة المستجدات الثقافية والاجتماعيه و السياسيه الراهنة، "... لقد وظف ذيب خصائص جديده في كتاباته، فهو لم يعد يستند على العامل الآيديولوجي كما في السابق، بل على جملة من التساؤلات التي على القارئ أن يواجهها، لكن الكاتب لا يطلب من هذا الأخير ايجاد أجوبة على الأسئلة المطروحة، لكنه يدعوه لأن يتساءل عن العالم الذي يحيا فيه، إن الكتابة الذيبية تقترح علينا قراءه متعددة المعاني لأعمال الروائي المصنفة في خانة الكتابات الجديدة..."[1]

"... Dib donne une nouvelle caractéristique à ses écrits, il ne suppose plus comme au début de sa carrière d'écrivain un idéal auquel il se réfère, mais d'une suite d'interrogations que le lecteur se doit d'affronter, chercher des réponses ce n'est pas ce qui nous propose l'écrivain en ponctuant ses textes avec une suite incessante de questions, il invite le lecteur à s'interroger sur le monde, l'écriture de Med Dib nous propose une lecture polysémique de ses œuvres, dans ses écrits dits de la nouvelle écriture..." [2]

يرى البعض من الباحثين في الشأن الذيبي بأن الكتابات الجديدة التي ظهرت على الساحة الأدبية الجزائرية للروائي " محمد ذيب " لم تكن في قطيعة مع كتاباته الواقعيه السابقة، وإنما هي عباره عن كتابة واقعية جديده وإن لم تعد ملتزمة بالنهج السارتري المعروف في الالتزام،" ... لقد أصبح ذيب يهتم بأساليب وأدوات الكتابه الأدبية الفنية أكثر من اهتمامه بما يكتب، لأنه تجاوز المفهوم التقليدي للالتزام الأدبي، وعليه

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Zohra Chahrazade Lahcene et Faudel Dahou , l'écriture de l'exil chez Dib, cas du roman Habel 1977 .24/23 مجلة الأثر، العدد 19، جانفي 2014، ص

أن يهتم بهموم الكتابة، بوصفه كاتبا، وأن يطرق الموضوعات الأقل استغلالا وأن يذهب بعيدا نحو ذات الإنسان، والبحث في أعماق النفس البشرية، فجاء التحول في الكتابة على مستوى الموضوعات أو على مستوى القوالب الأدبية التي صيغت فيها هذه الاهتمامات..."[1]

نشرت " دار قاليمار " Gallimard أول ديوان شعري لمحمد ذيب سنة 1961 بعنوان " حارسة الظل" Ombre Gardienne فيه الكثير من التناص مع رواية " الدار الكبيره " و" روايه صيف إفريقي "و كان محمد ذيب قد نشر قبل ذلك، سنة 1959، حكاية للاطفال تحت عنوان " بابا فركان" Baba Ferkane.

ابتعدت الكتابة الأدبية الذيبية عن بعدها التوثيقي بعد أن استقر المقام بالروائي في فرنسا بشكل قسري، لتتجه نحو فضاءات أوسع وأرحب، متناولة مسائل متعدده ذات طبيعة أدبيه وفكرية بحتة (الوجود، الانسان، الموت، الحياة، الأمل، الهوية...) فكانت روايات : جري حول الضفه المتوحشه سنه Cours sur la rive sauvage 1964 رقصة الملك سنه La danse du roi 1968 إله وسط الهمجيه سنة Dieu en Barbarie 1970 و رواية سيد القنص سنه Le maitre de la chasse 1973.

كان الوضع الذي عاشه الشعب الجزائري غداة الاستقلال وما تمخض عنه من إحساس بالإحباط لدى البعض، وتحطم للآمال بالنسبة للبعض الآخر، بسبب سوء التسيير لنظام الحكم القائم، والصراعات عن السلطة، لقد جاءت رواية المؤذن Le Muezzin سنه 1968 لمراد بوريون ورواية التطليق La répudiation لرشيد بوجدرة سنه 1969 لتعبران بشكل صريح وراديكالي عن هذا الوضع، فيما عبر محمد ذيب عن ذلك بشكل هادئ لكنه أقوى وأبلغ من الأعمال السالفة الذكر.

[1] – نسيمة يعقوبي، تحولات الكتابة الأدبية عند محمد ذيب من خلال رواية السيمورغ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 11، العدد.21، ص269.

واصل محمد ذيب في هذه الأثناء عطاءاته الشعرية بنشره لديوان شعري سنة 1970 وسمه ب: صيغ Formulaires، أعقبه بقصة صغيرة بعنوان : حكايه القط الغاضب سنة 1974 L'histoire du chat qui boude يتحدث فيها عن الأدب الشعبي في بلاد المغرب العربي في جانبه الشفهي.

يعزو " محمد ذيب " هذا التحول إلى الرمزية بقوله :"... تماما مثل الجزائر التي تمر من إطار الدولة تحت الوصاية إلى إطار الدولة الراشدة والسيدة، يتعين على الأديب أن يستشعر رشده ويتحمل مسؤولية قضاياه، فلم يعد مطلوب منا أن نرافع من أجل قضية ما، سنحاول، أو سأحاول – من جهتي أنا – اكتشاف فضاءات جديدة تكون موضوعات لأعمال أدبية حقيقية..."[1]

"... Comme l'Algérie elle même, qui passe maintenant de l'état de tutelle à l'état adulte, l'écrivain Algérien se sent lui aussi devenir une sorte d'adulte qui doit prendre la respensabilité de ses problèmes. N'ayant plus à nous faire l'avocat d'une cause, nous essayons, j'essaye pour ma part, d'aller à présent vers des régions moins explorées, de faire œuvres d'écrivain dans le sens le plus plein du terme..."[2]

1.1. 3 ./ محطة الاغتراب (1977 – 1994).

عرفت الكتابة الذيبية في سنه 1977 تحولا آخرا قادها بإتجاه تيمة الاغتراب بكل تمظهراته، افتتح الروائي هذه المرحلة في مشواره الروائي بعمل وسمه ب : " هابيل " Habel، حيث " ... نقل محمد ذيب بطل روايته إلى المنفى، إلى الغربة، إلى باريس و من ثم إلى أراضي الشمال البعيدة ..."[3]

[1] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Jacqueline Arnaud, la littérature Maghrébine de Langue Française, op.cit, p : 197.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

" … Dib transporte son héros romanesque dans un exil , une émigration , à Paris (Habel), puis plus loin dans les terres nordiques…"[1]

يصور هذا العمل الإنسان (هابيل) الممزق والمسحوق من قبل آلة المدنية الحديثة ، والتي لا تحتكم لا لقيم ولا لأخلاق ولا لإنسانية، بعد أن تخلى عنه أخوه الانسان (قايين) ورمى به إلى هذه الآلة التي لا ترحم، لكنه سرعان ما استعاد بعض الاستقرار لحياته متجاوزا هذه المحنة عندما عاش تجربة حب مزدوجة مع كل من " صابين " Sabine و" ليلي " Lily، التي أصيبت بالجنون بسبب حبها لهابيل، لقد كانت " ليلي بالنسبة لهابيل " … ذلك الغياب الذي يجمع، وتلك الجاذبية التي تقضي على الاغتراب والافتراق…"[2]

"… Lily est, au contraire, l'absence qui rassenble, la fascination qui annule l'exil et la séparation…"[3]

استغرقت تيمة الاغتراب في بعدها الحسي والروحي هذا العمل من البداية وحتى النهاية، اغتراب تسبب فيه نفي البطل " هابيل " من مدينته إلى عالم مجهول لا يعرف عنه أي شيء، إلى "باريس" الجميلة والمتوحشة التي لا ترحم.

تقول الباحثة الجزائرية في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، " بيضاء شيخي " : " … إن الافتراق هو افتراق " هابيل " عن بلده الأصلي، في فضاء مدينة غريبة، ينتظر فيها حتفه في مفترق طرق يفضي إلى فضاء آخر، لكنه أيضا افتراق في الكلمات التي تكرس هذا المعنى.."[4]

[1] - Naget Khadda, Mohammed Dib, cette intempestive voix recluse, op.cit, p : 18.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Charles Bonn, le Roman Algérien de langue Française, op.cit, p : 307.

[4] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

"… La séparation est celle de Habel d'avec son pays natal, dans l'espace d'une ville étrangère ou il attend sa mort à un carrefour ouvrant lui même sur un espace autre. Mais elle est également dans la parole qui dit cette séparation… "[1]

تأتي رواية " الأميرة المريسكية " L'infante Maure لتكرس هذا التوجه في الكتابة لدى محمد ذيب على لسان بطلة هذه الرواية " ليلي بال " Lylli Belle، هذه الطفلة التي كانت ثمرة لإلتقاء ديانتين ولغتين وثقافتين مختلفتين، جعلوا منها تعيش الإغتراب بالرغم عنها، " ... إن " الأميرة الموريسكسة " رواية تواجه فيها طفلة صغيرة نشطة، ذات خيال واسع المشاكل الصعبة للاغتراب والغياب، إنها مشكلة مادية بقدر ما هي مشكلة روحية، أتت في سياق حكاية شمالية وشرقية، إنها حكاية معرفة العالم، وبشكل أدق معرفة معنى الوجود.. "[2]

"… L'infante Maure confronte une petite fille active très imaginative, au douleureux problème de l'exil et de l'absence, il s'agit d'une histoire aussi physique que spirituelle, baignée dans une atmosphère de conte, conte nordique, conte oriental, c'est le récit de l'apprentissage du monde, plus précisément du sens de l'existence…"[3]

سعى " محمد ذيب " اعتمادا على بطلة رواية " الأميرة الموريسكية "، وريثة الصحاري القاحلة ورمالها ، والبدو وقطعانها والخيام واوتادها، من جهة، والخضرة وجمالها، والأنهار وصفائها، والثلوج و بياضها من جهة أخرى، أن يقرب مفهوم الاغتراب من ذهن المتلقي، فهو يقرن هذا الأخير بالترحال والسفر، وقد حاول

[1] - Charles Bonn, Le roman Algérien de Langue Française, op.cit, p : 302.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Naget Khadda, Mohammed Dib, cette étempestive voix recluse, op.cit, p : 110.

" ... عبر شخصية " ليلي بال " أن يحدد لنا مفهوم الاغتراب بقوله متحدثا على لسان بطلة هذا العمل (إني أتفهم أبي حين يرحل ثم يعود ثم يرحل من جديد، من دون كلل أو ملل، سينتهي به الأمر أن يدرك عند غيره، أنه أكثرهم اغترابا في هذا البلد، وفي هذا البيت معنا. إني أشعر أنني عندما أصير راشدة سأجعل من نفسي أنا الأخرى غريبة...)"[1]

"... Dib à travers la parole de Lilly Belle nous définit le champ de la notion de l'exil... (Papa qui s'en va puis revient, puis de nouveau s'en va sans se fatiguer, je le comprends. Il doit finir par trouver à un autre qu'il est ce qu'il y a de plus étranger ici, dans ce pays, dans cette maison avec nous, une fois grande, je sens que moi aussi je me ferai étrangère [2])..."

تأتي ثلاثية الشمال (سطوح اورسول، Les Terrasses d'Orsol, غفوة حواء Le sommeil d'Eve و ثلوج من رخام Neige de Marbre التي نشرت ما بين سنتي (1985- 1990) لتكرس هذا التوجه في الكتابة الذيبية، "... تجسد رواية " سطوح اورسول " هذه المغامرة الاغترابية في ملامحها الأساسية، التي تسجل انتقالا جغرافيا واجتماعيا..."[3]

"... Cette aventure de l'exil se confirme dans ces traits fondamentaux dans les Terrasses d'Orsol, qui enregistre un déplacement du cadre géographique et social..." [4]

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Belmokhtar Hichem, universalité de voix Dibienne entre métadiscours, représentations et quête du sens à travers : Tlemcen ou les lieux de l'écriture, l'aube Ismael, l'Arbre à dires, Simorgh et Laèzza, Thèse de doctorat, univ de Tlemcen,2016/2017, p : 64/65.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] - Naget Khadda, Mohammed Dib, cette étempestive voix recluse, opcit, p : 100.

تحكي هذه الرواية قصة " عيد " الأستاذ الجامعي، بطل هذا العمل، الذي يعيش حياة يلفها الإحساس بالوحدة والاغتراب في مجتمع يطبعه البذخ والفردانية وغياب القيم الإنسانية، فيضطر هذا البطل إلى الانطواء على نفسه بعد أن اصطدم بهذا المجتمع المادي الذي لا يرحم، وبخاصة بعد أن تجاهله هذا الأخير عندما أعلن فيه " عيد " عن تلك المغارة العجيبة التي اكتشفها ، والتي يعيش فيها أناس على هامش الحياة بحسبه، أو ربما يكون ذلك من وحي خياله فقط، تقول " جاكلين آرنو " تعليقا على هذه الجزئية "... اكتشف " عيد" وهو يتجول على الشاطئ، مغارة مملؤة بكائنات محتشدة، ولربما كان هذا مجرد سراب نتيجة تخيلات سقيمة، أو قد تكون فعلا حقيقة يعمل الآخرون على إخفائها، أخذ "عيد " يتقدم شيئا فشيئا في عمق الشمال، بإتجاه جزر الليالي البيضاء، متتبعا أثر امرأة تدعى "آييل" لكنه فقدها في الأخير كما فقد ذاكرته وهويته..."[1].

"... A partir du moment oû, se promenant devant la mer, il découvre une fosse remplie d'être grouillants qui sont peut ètre les hallucinations d'une imagination malade, mais peut ètre au contraire une réalité que les autres se cachent...il va s'enfoncer de plus en plus profondément dans le nord vers les iles et la nuit blanche, à la suite d'une fille " Aelle ", qu'il va perdre, comme il perd toute mémoire et toute identité..."[2]

قبل "عيد" المهمة إلتي أوكلت إليه، وهي القيام بعمليات تجسس في مدينة " جربير " Jarbher تاركا وراءه زوجته وابته، وقد حرص " عيد " على إرسال تقارير منتظمة عن مدينة " أورسول " لمسؤوليه، لكنه لم يحظ بأي رد من طرفهم، الشئ الذي جعل علاقته بوطنه تضمر، تماما كما ضمرت علاقته العابرة مع

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Jacqueline Arnaud, Llittérature maghrébine de langue Française, op.cit, p : 246/247.

" آييل " Aelle خلال الرحلة البحرية، وقد انتهى به الأمر إلى أن نسي كل شيء تقريبا، فصار من دون ذاكرة ولا هوية.

أما رواية " إغفاءة حواء "، فهي تحكي قصة حب بين "... " فاينا "، فتاة الشمال، وصلح ابن الجنوب، القادمين من آفاق جغرافية وثقافية متناقضة، والحاملين لتجارب مختلفة والمتقاسمين لحب كبير، ومؤلم وغير مكتمل، يتداولان على الكلام ليعبرا عن ارتباطهما العميق، وليواصلا البحث عن الذات في الآخر..."[1]

"... Faina est fille du nord, Solh fils du sud, venus d'horizons géculturels opposés, ils sont porteurs d'expériences différentes, et partagent un amour profond, douleureux, inachevé, ils prennent à tour de role la parole pour dire leurs attachement indissoluble liun à l'autre, et poursuivre la quète de soi dans l'autre..."[2]

تناول محمد ذيب تيمة الاغتراب في هذه الرواية من خلال تجربتي الموت والانتحار اللتين لطالما أرقتا "فاينا"، فقد كانت حاملا بطفل من زوجها " أولاج " Oleg، الشئ الذي جعلها تفكر في الهروب أو الإجهاض، بل وحتى الانتحار" ... فكثيرا ما كانت تغمرها الرغبة في الانتحار، وتغزوها الصور الغريبة... استسلمت " فاينا " للقلق الشديد الذي عانت منه بسبب حملها، بعد أن غمرتها الرغبة الشديدة في الهرب أو الإجهاض ..." [3]

"... Mais souvent des envies suicidaires l'envahissent, les images les plus excentriques l'assaillent... Faina succombe à une angoisse accrue par son état

[1] ـ ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Naget Khadda, Mohammed Dib, cette étempestive voix recluse, op.cit, p : 106.

[3] ـ ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

de grossesse. Aussi la tentative dévorante de fuir, de ne pas mettre cet enfant au monde..."[1]

لكنها كانت تعدل عن هذه الوساوس في آخر المطاف، لتقرر بعد ذلك العودة إلى موطنها الأصلي حتى تضع مولودها " ألكسيس " Alexis ، وبسبب بعدها عن " صلح " أصيبت " فاينا " بإكتئاب شديد أدخلت على إثره لمستشفى الأمراض العقلية، لكن وبمجرد خروجها منه، عادت إلى باريس لملاقاة " صلح " الذي ساعدها على تجاوز هذه المحنة الكبيرة التي مرت بها.

وفي الجزء الثالث من هذه الثلاثية الموسوم ب : ثلوج من رخام، تتمركز الأحداث حول شخصية " ليل " Lyyl، ثمرة الزواج المختلط بين مثقف جزائري مغترب بفرنسا، وامرأة فنلندية من أصول روسية، كانت "ليل" مشبعة بثقافة مزدوجة ورثتها من احتكاكها بوالديها، عاشت " ليل " طفولتها تحت رعاية أمها في مسقط رأسها بفنلندا الغريبة بالنسبة لوالدها، الذي عاش ممزقا لإحساسه بالاغتراب المكاني والاجتماعي وحتى المعرفي، فهو يحس باغترابه حتى مع ابنته " ليل " بسبب الهوة التي أحدثتها اللغة، وبعودته لفرنسا يكون قد ضاعف من وقع هذا الاغتراب، "...إن المحنة التي عاشها الأب الجزائري وابنته (التي تعيش مع أمها الفنلندية في بلد الثلوج) بسبب الافتراق والبعاد بفعل اللغة، تم تجاوزه من خلال شفرة تواصل أساسية، إنها لغة القلوب. رسمت " ليل ألياس " بطلة هذه العوالم، وبطريقة شاعرية، فجوة كبيرة وجريئة بين اللغات جعلتها تقف في قلب الاغتراب..."[2]

"... Le malheur du père Algérien et de sa fille (vivant avec sa mère Finlandaise au pays des neiges) d'être séparé par le mur de la langue est surmonté par un code de communication essentiel le langage du cœur, Lyyl Alias ... l'héroine de

[1] - Naget Khadda, Mohammed Dib, cette étempestive voix recluse, op.cit, p : 107.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

ces univers fait avec poèsie un audacieux grand écart entre les langues qui la place au cœur de l'exil..."[1]

إن المتأمل في أجزاء هذا العمل الثلاث، يدرك أن ثمة ارتباط وثيق بين عناوين هذه الأجزاء ومتونها، وبين هذه المتون بعضها مع بعض، وأن لا سبيل لفهم جيد لهذه الثلاثية دون ادراك لطبيعة العلاقة التي تربط بينها، فقد عمل " محمد ذيب " على "... إعادة تجسيد شخصية " ليلي" في رواية هابيل، التي دخلت في مرحلة جنون، في شخصية " ليل " في رواية ثلوج من رخام، و من قبل في شخصية " آييل " في رواية سطوح أورسول و شخصية " فاينا " في رواية إغفاءة حواء..."[2].

"... Or Lily, entrée en folie dans Habel, va se réincarner en Lyyl dans Neige de marbre après avoir été tour à tour Aèlle dans les terrasses d'Orsol, puis Faina dans le sommeil d' Eve..."[3]

تخلل هذه المراحل من الكتابة الروائية نظم الشاعر محمد ذيب لبعض القصائد الشعرية، وقد صدرت في سبع دواوين : ظل الحارسة Ombre gardienne سنة 1961، صيغ Formulaires سنة 1975، أومنيروس Omneros سنة 1975، نار، ما أجملها من نار Feu beau feu سنة 1979، آه لتكن الحياة Ô vive سنة 1985، فجر إسماعيل L'aube d'Ismaèl سنة 1997، طفل الجاز L'enfant djazz سنة 1999، و القلب الزاهد Le cœur insulaire سنة 2000.

[1] - Naget Khadda, Mohammed Dib, cette étempestive voix recluse, op.cit, p : 110.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Beida Chikhi, Littérature Algérienne, désir d'histoire et esthétique, op.cit, p : 109.

كما مست إبداعات " محمد ذيب " في هذه المرحلة أيضا اجناسا أدبية أخرى، من بينها المسرح بتأليفه لمسرحيتين : مخطوبات الربيع Les fiancées du printemps سنة 1963، وألف مرحى بمومس Mille hourras d'une gueuse سنة 1979.

2 – الحريق رواية تصنع التاريخ

تصدرت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية المشهد الأدبي انطلاقا من عشرينيات القرن الماضي، ليشتد عودها في فترة الخمسينيات، فهي وإن كانت قد أخذت الكثير من الرواية الأمريكية (جون دوس باسوس John Dos Passos، آرسكاين كولدوال Erskine Caldwell، هنري ميلر Henry Miller، هنرست هيمنغواي Ernest Himingway) ومن الرواية الكولونيالية الفرنسية (جون بيليجري Jean Péligré ، إيمانويل روبلس Emmanuel Roblès، ألبير كامو Albert Camus...) إلا أنها استطاعت أن تتميز عنهم، وتضع لنفسها موطأ قدم في الساحة الأدبية آنذاك، ولعل ما جعلها تتميز وتتفرد هو واقعيتها، فإذا كان التاريخ قد صنع كثيرا من الروايات، فإن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ورواية الحريق تحديدا هي من صنع التاريخ ، إنها نبوءة "محمد ذيب" وقدراته الاستشرافية الهائلة، فما هي إلا شهور، بل أيام قلائل أعقبت صدور هذه الرواية المتمردة والثائرة على الوضع القائم، حتى اندلعت ثورة التحرير الكبرى...، نعم لقد تحققت نبوءة " محمد ذيب " الروائية على أرض الواقع، فبمجرد اشتعال حريق " بني بوبلان " في ضواحي تلمسان، حتى اشتعل بعده ببضعة أشهر حريق الثورة ، وإن كان حريق "بني بوبلان" قد إنطفأ، فإن حريق الثورة لم ينطفىء حتى عادت الحقوق الى أصحابها .

إن رواية الحريق رواية واقعية بإمتياز، يقول عنها "جون ديجو" Jean déjeux " ... إن محمد ذيب يكون قد تأثر بكتابات بعض الأدباء الإيطاليين في كتابته لرواية الحريق بناء على دراسة قام بها الباحث

الفرنسي ف. دوسبلانك F.Desplanque [1] موسومة ب " أصول الحريق " يقول جان ديجو "... قام دوسبلانك بمقارنات مهمة بين رواية الحريق وروايات بعض الروائيين الإيطاليين مثل روايات كارلو ليفي (توقف المسيح في إيبولي) ، إجنازيو سيلوني (فونتامرا)، إيليو فيتوريني (محادثة في صقلية)، وقد أوضح "فرونسوا دوسبلانك" في دراسته "في اصول الحريق" كيف أن ذيب تفاجأ بقربه من هؤلاء الكتاب، لقد تعرف على أقرباء، لا بل إخوة، كما اكتشف أيضا مشاكل شبيهة بتلك التي يعاني منها مواطنوه... "[2]

" ... F.Desplanque a pu faire d'intéressantes comparaisons entre l'incendie et des romans italiens tels que ceux de Carlo Lévi (le Christ s'est arrêté à Eboli), Egnazio Silone (Fantamara), Elio Vitorini (conversation en sicile)..., F.Desplanque montre dans son étude " aux sources de l'incendie " comment Dib a été frappé par la proximité de ces écrivains, il découvre des cousins, presque des frères, il retrouvait en outre des problèmes semblables à ceux des Algériens..."[3]

ويصف "جون ديجو"Jean Déjeux في ما يرويه عنه" شارل بون" Charles Bonn في مقال خص به مجلة "الحضور الفرانكوفوني"Présence francophone الصادرة في ربيع1975، موضحا بأن رواية : " ... الحريق مأخوذة من أحداث واقعية، ومن إضراب في عين طاية تحديدا، قام هو بتغطية تفاصيله لصالح جريدة "الجزائر الجمهورية"، اليومية الشيوعية... "[4]

[1] - فرونسوا داسبلانك François Desplanque : آكاديمي و باحث فرنسي، أستاذ بجامعة قسنطينة سابقا.
[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.
[3] - Jean Déjeux, la littérature Algérienne contemporaine, opcit, p : 150.
[4] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

" … L'incendie est en grande partie issue de faits réel, et principalement d'une grève à Ain Taya, dont Dib a rendu compte en 1951 dans Alger républicain, le quotidien communiste…"[1]

وفي موضع ثالث يرى "جان ديجو" أن الأحداث الأليمة التي ألمت بسكان قرية عين شرشار "Auribeau" – بعد أن اتهمت قوى الاستدمار الكثير من ساكنيها بإشعالهم النيران في الكثير من المنازل،هذه الأحداث التي رافع "ألبير كامو"فيها لصالح الفلاحين والعمال المقهورين والمظلومين ودافع، حتى تم إنصافهم وإخلاء سبلهم – كانت من بين مما اعتمد عليه محمد ذيب في كتابته لرواية الحريق، وهي نفس الروح التي كتب بها " كامو "مقاله الشهير في صيف 1939 " بؤس في منطقة القبائل" Misère en Kabylie تحدث فيه عن تلك الظروف القاسية التي يحياها الجزائريون بشكل مستمر، ولعل ما شد انتباهه أثناء إجراءئه لهذا التحقيق في مدينة تيزي وزو، هو تنازع أطفال المدينة الحفاة العراة والجوعى وكذا كلابها على محتوى أكياس القمامة ، وعن هذا الموضوع يقول جان ديجو: " …ومع هذا فنحن ندرك التزام " كامو" السياسي ومقالاته حول بؤس منطقة القبائل 1939 ومرافعته عن قضية مشعلي نيران عين شرشار في جريدة الجزائر الجمهورية 1939 (هذه القضية التي كانت ضمن مراجع محمد ذيب في كتابته لرواية الحريق …"[2]

" … Et pourtant on connait l'engagement politique de Camus, ses articles sur la misère en Kbylie (1939), ses plaidoyers pour les incendiaires d'Auribeau dans "Alger républicain" en 1939 (affaire qui fera partie du dossier documentaire de Mohammed Dib pour écrire l'incendie…"[3]

[1] - Charles Bonn, le roman Algérien de langue française, opcit, p : 29

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Jean Déjeux, la littérature Algérienne contemporaine, opcit, p : 41.

إن هذه الأحداث التي عدها "جان ديجو" متكأ استند عليه "محمد ذيب" في كتابة لروايته، لا تتناقض فيما بينها، وإن اختلفت وتعددت، بل قد تكون مجتمعة هي من أوحى إلى الروائي بالكتابة في هذه التيمة، فثمة وحدة موضوعية تربط بين هذه الأحداث جميعا، تجعلها تتكامل فيما بينها ولا تتناقض، إنه موضوع الظلم بكل تبعاته ومسؤولية الوقوف في وجهه، و وضع حد له بواسطة الكلمة الهادفة والكتابة الملتزمة .

إن الكتابة الملتزمة في رواية الحريق تجلت فيها الكثير من ملامح الإلتزام التي استغرقت هذا العمل طولا وعرضا .

2 – 1 –الكتابة الأدبية الملتزمة كشف للواقع البائس

ينقل الروائي "محمد ذيب" بطله عمر من "دار سبيطار"، من ضيق المدينة وضوضائها، إلى "بني بوبلان"، إلى فسحة الريف وهدوئه، هدوء يخيم على هذا الريف في ظاهر الأمر، لكن ثمة نفس ثوري بدأ في التشكل، فمن الجدير بالملاحظة "... أنه ومنذ القراءة الأولى نجد أن الوصف الذي خصت به منطقه غارقة في الكآبة، وقابعة تحت المطر في الغرب الجزائري، كما هو حال الريف الإنجليزي، لا ينسجم أبدا مع تلك الصور النمطية للجغرافيا المغاربية بإعتبارها أرض الشمس والواحات، ورجال ينعمون بالراحة تحت ظل النخيل ..."[1]

" ... On constate dès la première lecture que cette description d'une région de l'ouest Algérien,noyé dans la grisaille et sous une bruine comme on en attend davantage dans la compagne Anglaise, va à l'encontre de toute idée reçue

[1]- ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

d'un Maghreb terre de soleil et d'oassis, avec arabes se reposant à l'ombre d'un palmier..."[1]

إن رواية الحريق كما سبق وأن أشرنا، مستوحاة من أحداث حقيقية عاشتها الجزائر في الحقبة الكولونيالية، وفي النصف الأول من القرن الماضي تحديدا، ضمنها "محمد ذيب" مضمونا عميقا، و وظف فيها لغة صريحة لا تداهن، ولا تجامل .

يفتتح الراوي السرد بحديثه عن العذابات التي يكابدها سكان "بني بوبلن" بداية بجغرافيا القرية، فحتى هذه لم ترحمهم، يقول محمد ذيب مفتتحا السرد "... عند وصولنا لبيت النور شرعنا في صعود المرتفعات الحجرية التي سوتها الرياح، تصطدم الأرجل وتتزحلق على أعشاب الديس والقضوم، هذه هي الطريق التي يسلكها بنو ورنيد وأحمرتهم الصغيرة ..."

" ... En arrivant devant la maison de la lumière on cmmence à gravire des pentes rocailleuses battues par les vents. Le pied bute et glisse sur une végétation ligneuse de diss et de lentisques... voici le rude chemin qu'emprunte les beni ournidet leurs petits ànes..."[2]

الحياة في بني بوبلن شاقة ومضنية، فجل فلاحي القرية يعملون كخدم عند الكولون بمبالغ زهيدة لا تسد رمقهم، إنهم بالكاد يحصلون على ما يقيم صلبهم ويبقيهم على قيد الحياة، ف"... الفلاحين كثيرا ما

[1] - Guy Dugas, du réalisme descriptif au synbolisme romanesque, étude d'un fraguement de l'incendie, itinéraires et contact de cultures, volumes 21/22,1er et 2ème semestre 1995, p : 39.
[2] - Mohmmed dib, l'incendie, le seuil, France, 2002, p : 7.

يكونون ضحايا للمجاعة وعرضة لعوي بني آوى للموت أثناء تجوالها في الليل، عندما تغرق أكواخ القرية في الظلام ...".[1]

" ... Les fellahs sont souvent en ptoie à la famine, la nuit quand les masures s'enfoncent dans les ténèbres, les chacals errent et hurlent à la mort..."[2]

إنهم يعيشون على هامش الحياة، وكأن "... الحضارة لم تعرف لهم سبيل، إنها مجرد سراب بالنسبة لهم،و وهذا العالم ليس إلا خلاصة للبؤس ..."[3]

" ... La civilisation n'a jamais existé, ce qu'on prend pour la civilisation n'est qu'un leurre. Sur ces sommets, le destin du monde se réduit à la misère..."[4]

دأب الاستدمار الفرنسي منذ غزوه للجزائر على تبني سياسة التجهيل و التفقير، فساءت أحوال السكان الأصليين للبلاد، فانتشر الجهل والفقر، خاصة بعد إستيلاء الكولون على أجود الأراضي التي يمتلكها الأهالي، فصاروا تبعا لذلك يعملون كخماسين وأرقاء، محرومين من أبسط الحقوق الإنسانية، وعرضة لكل عوامل المسخ والفسخ، أما عمر الذي كان يتألم في المدينة من فرط البؤس الذي تعيشه عائلته، والفقر المدقع والجوع، فقد رأى في ريف "بني بوبلن" من هو أسوء منه حالا وأكثر منه فقرا وجوعا فقد "... التقى عمر أطفالا أكثر بؤسا منه، أطفالا بدوا وكأنهم جراد من فرط هزالهم وانفعالهم، ملابسهم رثة، ينتعلون نعالا من جلود الخرفان، يربطونها بخيوط من الحلفاء، وغالبا ما تراهم يركضون وأقدامهم حافية ..."[5]

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohmmed dib, l'incendie, opcit, p: 8.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] - Ibid, p : 8.

[5] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف .

" … Omar avait rencontré des enfants plus misèrables que lui, des enfants qui avaient l'air de sauterelles tant ils paraissaient malingres et nerveux, leurs nippes n'étaient qu'un assemblage de haillons, ils se protégeaient les pieds avec des chausses en peau de mouton attachées avec des cordelettes en alfa, le plus souvent ils couraient sans rien aux pieds…"[1]

هذه هي الحضارة التي أراد الاستدمار وأزلامه تسويقها للشعوب المضطهدة، حضارة لم يسلم من بطشها لا الرجال، ولا النساء ولا حتى الأطفال الذين حرموا من أن يعيشوا طفولتهم، فجعلتهم يكبرون ويرشدون قبل الأوان، ويتحملون المسؤوليات الجسام، وهو الشيء الذي جعل عمر يبدو وكأنه طفل صغير أمامهم فقد كانوا "… يتكلمون بشكل مختلف عن كلام أقربائهم في المدرسة، وحازمين جدا، وهي خصيصة عند الفلاحين، لقد أحس عمر وكأنه طفل أمامهم …"[2]

Mais eux parlait avec des expressions, un ton qu'on ne trouvait pas à cet âge chez les garçons de la ville, ils étaient obstinement sérieeux, une pondération propre aux paysans. Omar, devant eux, se sentait un gamin…"[1]

وهو الذي كان يظن أن هؤلاء الأطفال جهلة لا يفقهون شيئا، فعمد إلى تعليمهم الحساب وتلقينهم دروسا حول المطر وكيف يتشكل، لكن هؤلاء الأطفال الراشدين قبل الأوان، رأوا فيه هم كذلك الجهل، لأنه لا يعرف شيئا عن النباتات والأشجار والحيوانات وعن فلاحة الأرض، وفي مدرسة الحياة هذه، بدأت تتشكل

[1] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 8.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[1] - Ibid, p : 9.

رؤية جديدة للعالم عند عمر، خاصة بعد أن التقى بالعجوز كوماندار" ، الشيخ المقعد الذي قطعت ساقاه أثناء الحرب، وبعد هذه الحادثة الأليمة أطلق عليه فلاحو " بني بوبلن " لقب كوماندار.

عانت المرأة هي الأخرى من ويلات الاستدمار وعجرفة الكولون، فهؤلاء لم يستثنوا شيخا ولا طفلا ولا امرأة، لقد عاثوا في الأرض نهبا وسلبا و دمارا، زارعين الجهل والمرض والجوع الذي ألفهم وألفوه، وقد تركت هذه الممارسات آثارا سيئة على نسوة بني بوبلن "... اللواتي أضحت أجسادهن كأنهن أجساد حمالين، أما أرجلهن اللاتي تدسن بها على الأرض، فقد شوهتها صدوع عميقة، حتى أن ضلوع البعض من هؤلاء النسوة صارت بارزة للعيان من شدة الهزال، لقد توارت أناقتهن في لمح البصر بطريقة أو بأخرى ..." [2]

" ... Elles acquièrent des corps de portefaix, et leurs pieds qui foulent la terre portent de profondes crevasses, certaines trainent des corps maigres qui laissent saillir les côtes. D'une manière ou d'une autre, leur grâce se fane en un clein d'œil...".[1].

2-1-1 الأرض والعرض والهوية :

أضحى أهل قرية بني بوبلن غرباء فوق أرضهم وتحت سمائهم بفعل عمليات السلب والنهب التي تعرضوا لها من قبل قوات الإستدمار، وقد عايش "... ساكنة بني بوبلن العالي التحولات التي شهدتها سهولهم وكأنها لا تعنيهم، فقد أضحت آلاف الهكتارات ملك لمستدمر واحد في هدوء وصمت، كان قد وصل الى بلادنا وهو ينتعل حذاء مقطع من أسفل، إن هذا لا يزال عالقا في ذاكرتنا، وهو الآن يملك من الأراضي مالا يعد ولا يحصى ..."[2]

[2] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف

[1] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 28.

- ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.[2]

" … Bni boublen le haut assistait aux transformations de la plaine comme si elles ne les concernaient pas, on les voyait imperturbables et silencieux, des hectars par milliers devenaient la propriété d'un seu colon…ils étaient arrivés dans le pays avec des chausses trouéés aux pieds, on s'en souvenait encore par là. Ils possédaient à présent des étendues incalculables de terre…"[1]

إنها صورة المستدمر البشعة، إنها صورة الغازي، صورة اللص الذي يسرق منك كل شيء، يسرق منك مالك وأرضك وكل مقدراتك، لا بل ويسرق منك حتى أحلامك لتعيش بلا أفق، وقد أحسن العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي حيث وصف هذا الوضع بقوله"... لقد تركتم فقراء تلتمسون قوت اليوم فلا تجدونه أم تخافون على الأرض وخيراتها ؟ وقد أصبحتم فيها غرباء حفاة عراة جياعا، أسعدكم من يعمل فيها رقيقا زراعيا، يباع معها ويشترى، وحظكم من خيرات بلادكم النظر بالعين والحسرة في النفس ..."[2]

إن هذا الوضع لا يترك للمستدمر مجالا كثيرا للمناورات في نظر الباحث التونسي الأصل الفرنسي الجنسية "ألبير ميمي ، الذي اشتهر بأبحاثه ودراساته الرائدة حول الاستدمار، والذي كان ملهما أيضا للباحث الفرنسي جان ديجو "... إذ ليس بمقدور هذا الاستدمار إلا أن يشوه صورة المستدمِر لأنه يضعه أمام خيار من بين جملة مخارج كارثية أيضا، أي بين تقبل الظلم اليومي لصالحه، أو التضحية بالذات كضرورة لا يمكن تنفيذها، هذه هي وضعية المستدمر الذي إن تقبلها فسد وإن رفضها تبدد ..."[3]

وبمقابل صورة المستدمر المغتصب، يرسم "محمد ذيب" صورة حزينة للمستدمر، وعن الوضع الإجتماعي المزري والصعب للفلاحين يقول السارد "... بذل ساكنة بني بوبلن عرقا ودما من جيل إلى جيل من أجل

[1] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 31.

[2] - أحمد طالب الابراهيمي، آثار محمد البشير الابراهيمي، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997، ص34.

[3] - ألبير ميمي، صورة المستعمر، تر : ميشال سطوف، المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 2007، ص148/147.

فلاحة قطع أرضية محدودة، ولم يكونوا يملكون سوى حمارا أو حمارين، وكذا بغل أو بقرة أو إثنتين .... ولا أحد في بني بوبلن كان يتصور أن هذه الحياة ستتغير ..."[1]

" ... Les gens de Bni boublen, de génération en génération, suaient pendant ce temps là sang et eau pour cultiver un minuscule lopin, ils avaient qui un àne ou deux, et parfois aussi un mulet, qui une vache ou deux…personne à Bni boublen le haut n'avait idée que cette vie dût changer..."[2]

يمعن محمد ذيب في وصف حياة أهالي بني بوبلن البائسة، وفي الوقت نفسه في كشف سلوكات المستدمر المستفزة، والتي ستقود حتما إلى التوجه تدريجيا إلى اعتماد خيار المواجهة معه، يقول محمد ذيب على لسان أحد شخصياته "... كان بن يوب في أحد الايام يتأمل عمق السهول البعيدة، فازداد يقينا بأن الثروة كلها تقع بين أيدي الكولون، في حين أن أرضه هو، كما أراضي ساكنة "بني بوبلن" الأخرين تقع في زوايا سفوح الجبال، صحيح أن هذه الأراضي تنتج، لكنها بمستوى إنتاج نسوة هذه المرتفعات المسنات، اللواتي نادرا ما يدررن الحليب ..."[3]

" ... Benyoub contemplait longuement, certains jours, les lointains profonds de la plaine, il se rendait à l'évidence : la véritable richesse était rassemblée entre les mains des colons. Lui, sa terre ne commençait, comme celle des autres cultivateurs de Bni boublen, que sur les flancs anguleux de la montagne.Cette

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 31.

[3] - ترجمة الباحث، يدقيق المشرف.

terre produisait, mais, comme les femmes de ces hauteurs, toutes en gros os, elle donnait un lait rare..."[1]

تكرس رواية الحريق فكرة التشبث بألأرض ومقارعة مغتصبيها، فالتمسك بالأرض هو تمسك بالهوية، والحفاظ عليها والذود عنها يعد من أقدس الواجبات الأخلاقية والدينية والوطنية، وأن الاستدمار مهما طال الزمن أو قصر، فهو إلى زوال .

إن الحفاظ على الأرض هو حفاظ على العرض، والأرض في المتخيل الجمعي الشرقي رديف للعرض "... حقيقة إن الأرض بما تحويه من نبات وحيوان، هذه الأرض الشاسعة، ملك لله يهبها لمن يشاء، لكن من يملك قطعه ترابية هو شخص محظوظ، لأنه يملك الرخاء والحرية ففي هذا الحيز يجد استقلاليته الحقيقية ..."[2]

" ... Certes la terre avec ses plantes et ses bètes, la vaste terre appartient à Dieu, qui en donne la jouissance à qui lui plait, mais celui qui en détient une parcelle est béni par le ciel, il détient aisance et liberté, c'est là qu'il trouve la vraie indépendance..."[3]

صار ديدن فلاحي " بني بوبلان " الحديث عن الإضراب بعد أن عمدت قوى الإحتلال إلى توقيف اثنين من ذويهم وسجنهم، وفي تجمع لساكنة القرية، أخذ المدعو " محمد الهادي " الكلمة ليدعو الأهالي إلى التروي والتعقل، وأن يحصروا تفكيرهم فقط في كيفية تأمين خبز يومهم ولقمة عيشهم، وأن ينصرفوا عن التفكير في الغد، و ما سيؤول إليه، كما انصرف أجدادهم عن مثل هذا التفكير من قبل، إن كلام " محمد

[1] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 31.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Ibid, p : 32.

الهادي " هذا هو ضرب من ضروب الجبن والخسة والعمالة، إنه تسويق لمقولات الاحتلال ومنطقه، إن هذا الخطاب المتواطئ مع المستدمر جعل " سيد علي " يأسف لأن يجد من بني جلدته من يتكلم بهذه الشاكلة، ويحس بالحسرة الكبيرة، لكنه سرعان ما أخذ الكلمة هو الاخر، متوجها بالحديث إلى "محمد الهادي" بعد أن كان قد عدل عن فكرة توبيخه أمام الملا سائلا إياه " ...ماذا لو كنت لا تملك قطعة خبز في البيت ؟ هل سعيك للحصول عليها من السياسة في شيء ؟ ماذا تعني قطعة خبز ؟ ليست بالأمر الجلل، ومع أنها كذلك إلا أنها تعني لنا الشئ الكثير، عندما تقول الخبز، ألا يعني هذا الحياة..."[1]

" ... Et quand, à la maison, tu n'a pas un bout de pain, c'est faire de la politique que de le réclamer ? un morceau de pain qu'est ce que c'est ? ce n'est pas beaucoup. Pourtant ce qui n'est pas grand-chose, c'est tout pour nous. Quand tu dis le pain : est – ce – que cela ne veut pas dire la vie ? ..."[2]

وبالرغم من هذا الرد القوي ل "سيد علي"، إلا أن " محمد الهادي " لم يستح من خذلانه لبني جلدته، بتسويقه لأفكار المحتل ومقولاته، فراح يجاهر بذلته وخسته وعبوديته للمستدمر قائلا " ...إذا ابتغيت الحياة فقط، طأطأ رأسك واعمل، هذا كل ما في الأمر، فليس هناك من سبيل آخر..."[3]

" ... Si tu veux vivre seulement, rétorqua Maamar, baisse la tète et travaille, c'est tout, il n'y a pas d'autre moyen..."[4]

لكن سرعان ما جاء الرد على هذا الكلام الموغل في الانهزامية والانبطاح أمام إرادة العدو، من قبل " علي برابح "، أحد الفلاحين الغيورين على أرضه وعرضه ووطنه، قائلا له " ...اسمح لي أن أقول لك،

---

1 - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

2 - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p: 33.

3 - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

4 - Ibid, p : 33.

إنك مخطئ، إن عشيرتنا وأهلنا مخلوقون من معدن ثمين، إن قلوبهم نقية لا يخالطها درن، والبؤس والمصائب الذين عرفناهما، لم يؤثرا علينا في شيء، فلن نطأطأ اليوم الؤوس..."[1]

" ... Tu m'excuse, lança Ali Bèr Rabah, mais je crois devoir te dire que je ne suis pas d'accord avec tes paroles. Les gens chez nous, sont faits d'un minerai de haute teneur, le cœur est intact et sans mélange. Toute la misère et tout le malheur que nous avons connu ne nous en pas encore entamés, ce n'est pas aujourd'hui que nous allons commencer à baisser la tète..."[2]

إن الإنسان مجبول على حب أرضه، وحبه لها وتعلقه بها أمر من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، إن الوفاء لها والذود عنها إذا ما أصابها مكروه، من الأمور العظيمة ذات الشأن في حياة البشر جميعا، لأنها مرتع الصبى، وأحلام الشباب، إنها جوهرة نفيسة ولؤلؤة غالية تستحق التضحية من أجلها.

إن رد "علي برابح" على "كلام "محمد الهادي" ينم عن حس وطني عميق، والتزام بالدفاع عنه، ونشدان انعتاقه وتحرره، لقد أثلج هذا الرد صدر "با ددوش"، فأخذ يتمتم قائلا " ... باركك الله، قالها با ددوش العجوز متمتما..." [3]

"...Dieu te bénisse, marmotta Ba Dedouche le viejo..."[4]

من الشخصيات التي اضطلعت بدور العمالة للاحتلال، والتخابر معه أيضا شخصية " علي قارة " الذي لم يعجبه تأثر ساكنة "بني بوبلان" بسجن عنصرين منهم، كما لم يعجبه أيضا سعي فلاحي القرية

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 33.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] - Ibid, p : 33.

لمطالبة الكولون بتحسين أوضاعهم الاجتماعية المزرية، وضاق ذرعا بالدور التوعوي الذي كان يؤديه " حميد سراج " المناضل اليساري في أوساط ساكنة " بني بوبلان".

إن شخصية "علي قارة" التي صورها "محمد ذيب" في روايته هذه، هي شخصية تمثل ذلك الصنف من الجزائريين الذين تواطؤا مع قوى الاحتلال، لا بل وتجسسوا على إخوة لهم الوطن والدين، ووشوا بهم الى المحتل، إن هذا الصنف من الناس لا يحظى بالاحترام عند فلاحي "بني بوبلان"، إن الخائن لوطنه لا يحظى حتى بإحترام من وظفه في هذه المهمة القذرة، فهو يستعمله حتى إذا ما قضى منه حاجته رماه، إن هذا الصنف من البشر يعشق الخيانة والغدر، ويكره الشرف والوفاء، هكذا هي جبلتهم.

سعى "علي قارة" بكل ما أوتي من قوة الوقوف في وجه فلاحي "بني بوبلان"، محاولا ثنيهم عن الاجتماع مع "حميد سراج" الذي كان يبث فيهم الوعي بمسألة المطالبة بضروة تحسين أجورهم عند الكولون، يقول "علي قارة" متحدثا عن هذه المسألة " ... إنهم يقولون بأن أجورهم زهيدة، لنفترض ذلك، بل وأنا موافق على ذلك، ومستعد للاعتراف به، شرط أن يكف هذا المدعو"حميد سراج" عن الاجتماع بالفلاحين، فهنا مكمن الخطر، لماذا اتفق الجميع ؟ إن مطلب تحسين أجورهم أمر مشروع، لكن ما يدعو إلى التفكير مليا هو أن يجتمعوا، وأن يتحدوا ، هذا هو الأهم لا المطالبة بزيادة فرنك أو فرنكين..." [1]

"... Ils disent qu'ils ne sont pas suffisamment payés, admettons, moi je serai d'accord, je serai près à le reconnaitre si...cet ennemi de Dieu qui s'appelle Hamid Séraj n'entrainent pas avec lui l'ensemble de nos Fellahs, c'est cela qui est grave. Pourquoi se mettent – ils tous d'accord ? s'ils demandent simplement à ètre payés un peu plus, ça pourrait paraitre juste, il n'y aurait pas grand mal,

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

mais s'ils se regroupent, s'ils se liguent ? C'est à ça qu'il faut réflichir, c'est là l'important, et non pas qu'ils réclament un ou deux Francs de plus...".[1]

إنه الخوف من التمرد على الظلم والثورة عليه، لهذا ترى قوى الاحتلال وزبانيته يسعون جاهدين من أجل وأد هذه الثورة في مهدها، موظفين جميع الأسلحة المتاحة الظاهرة منها والباطنة، ما علم منها وما لم يعلم، ولعل ما خفي منها أعظم وأخطر، ربما لأنها ناعمة غير تقليدية، لا تثير ضجيجا ولا صخبا، إنها أسلحة بث الاشاعة زرع الفرقة وإحداث الفتنة بين مختلف مكونات المجتمع، والنبش في مواطن الاختلاف وتعظيمها تجسيدا لمقولة فرق تسد الاستدمارية.

إن "علي قارة" ومن لف لفه، هم أحد أدوات الاحتلال التي أوكلت إليها مهمة تشويه صورة "حميد سراج"، في محاولة لكفه عن سعيه للم شمل الفلاحين، وتوحيد كلمتهم، وبث روح الوعي فيهم، " ... إنه حميد سراج الذي غرس في عقولهم فكرة الاجتماع، إنهم لم يكونوا ليفكروا فيها بمفردهم، ولا أن تخطر ببالهم، فلولاه ما كانوا ليصبحوا ما هم عليه الآن، كلهم يد واحة، لكن ما الذي يأملونه ؟ ..."[2]

" ... Or c'est Hamid Séraj qui leur a mis en tète l'idée de se grouper, ils n'y auraient jamais pensé d'eux mèmes, l'idée ne leurs en serait même pas venue, sans lui, ils ne seraient pas comme ils sont à l'heure actuelle, tous unis, mais qu'espèrent – ils ? ..."[3]

حاول "بن يوب" بطريقة ذكية الانتصار لحميد سراج ولدوره الوطني النبيل، أثناء رده على كلام "علي قارة"، مستوضحا من هذا الأخير " ... اسمح لي سيد قارة أن أقطع كلامك، أقطع العسل في فمك، أريد أن

[1] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 40/41.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Ibid, p : 41.

أقول كلمة واحدة، بما أن العمال يريدون رفع أجورهم، ألا يعني ذلك اتحادهم بشكل طبيعي ؟ ويضيف بوشناق : أين هي المشكلة في ذلك ؟ ..."[1]

" ... Pardonne moi Kara, fit Ben youb, je te coupe la parole, je couperai du miel dans ta bouche, je voudrais dire un mot, un seul. Bon, puisque les ouvriers demandent une augmentation, n'est – il pas naturel qu'ils s'unissent ? Bon, alors, ou est le mal ? questionna Bochnak..."[2]

فيرد عليهم "قارة" بعد أن كان قد تردد أكثر من مرة في الرد تحت Yالحاح أسئلة "بن يوب" و"بوشناق" عن مكمن المشكلة " ...المشكلة ؟ وبصعوبة يقول : ربما هذا السلوك لا يروق للسلطات ..."[3]

"... Le mal ? finit – il par articuler, c'est que ça ne plaira pas aux autorités..."[4]

إن سعي "علي قارة" الدؤوب للحيلولة دون انبثاق وعي جمعي لفلاحي بني بوبلان، لم يكلل بالنجاح لسوء حظه، لأن زمن الخضوع والخنوع و الاستسلام آيل الى زوال، فلم يعد "حميد سراج وحده من يضطلع بهذا الدور المهم والخطير، فثمة أناس كثر من ساكنة ريف "بني بوبلان" ممن وعوا كلام "حميد سراج" وخطبه وتوجيهاته، فانخرطوا هم بدورهم في هذا المسعى، من خلال كشفهم لكل عورات الاستدمار وتعرية جرائمه وفظائعه، أملا في بزوغ فجر جديد تلوح فيه تباشير الحرية والكرامة.

ومن بين الشخصيات التي تمثلت هذا الدور التنويري التوعوي، شخصية "كومندار" الذي عمل على كشف أكاذيب الاستدمار وأباطيله حيثما حل، و بث الأمل في نفوس الفلاحين، يقول "كومندار" : "...

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 41.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف

[4] - Ibid, p : 41.

سيخبرك كبار رجال القرية أنهم استقروا هنا الواحد تلو الآخر، لكن في السابق كان هؤلاء يملكون أراض للشعير وأخرى لأشجار الزيتون والتين والذرى، وأخرى للخضروات، لكنها نزعت منهم عنوة، واتهموا الفلاحين بعد ذلك بالكسل..."[1]

" ...Les anciens du village te diront qu'ils sont venus s'installer un à un, mais avant les fellahs ont eu des terres à orge, à figuiers, à mais, à légumes et à oliviers, et elles leurs furent enlevées. A partir de ce temps là, il fut reconnu que le fellah est paresseux..."[2]

كان عمر من بين الحاضرين لخطاب " كومندار " ولقد لاحظ ذلك الاهتمام الكبير الذي أولاه له، وذلك الجو الأخوي الذي خيم عليه، ف " ... بجانب كومندار عاش هؤلاء الأمل الذي أضحى يأتيهم من كل حدب وصوب ..."[3]

" ... Autour de comandar ces hommes vivaient l'espoir les pressait de toutes parts..."[4]

نعم، إنه الأمل الذي بدأ يشق طريقه في مختلف الآفاق، وعند كل الفئات، إنه الوعي الذي انبثق وشرع في التشكل عند ساكنة بني بوبلان رجالا ونساء وأطفالا.

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 64.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] - Ibid, p : 66.

2-2 – إنبثاق الوعي :

إن فعل الكتابة الملتزمة فعل يبعث على الوعي، إنه فعل محرر، طارد لهاجس الخوف، وهو في الوقت نفسه فعل حافظ للذاكرة وحاجز ضد النسيان، يعمل عبر العملية السردية على تكريس وجود الذات وكينونتها ومقاومتها لمختلف عوامل الغزو والمحو والاستيلاب، لقد " ... عاين محمد ذيب في أولى أعماله حالة الشعب الجزائري وسجل نبضه وضغطه، داعيا أيانا لتتبع عملية انبثاق الوعي الجمعي التي تشكلت تبعا للاضطهاد الذي تعرض له مجموع الشعب، وللقناعة التي نجمت عنه، فلا يمكن لشخص بمفرده أن يغير الواقع من حوله، لهذا فنحن جميعا أعضاء للشجرة نفسها وأصابع اليد ذاتها ..."[1]

" ... Dib dans ses premières œuvres, ausculte le peuple, enregistre ses pulsions et ses tensions et nous fait assister à la montée d'une conscience , forgée par une oppression subie en commun et la conviction qui en découle, aucun de nous n'est capable tout seul de changer ce qui est, c'est donc que nous sommes les branches d'un même arbre, et les doigts d'une même main..."[2]

جسدت رواية الحريق لمحمد ذيب هذه المعاني بكل تفاصيلها وجزئياتها، وأسهمت بشكل كبير في بعث الوعي لدى ساكنة قرية "بني بوبلان"، فكان هذا الوعي نقطة الانطلاق في عملية استعادة الحقوق واسترجاع الكرامة، فمنذ بداية السرد، تتضح الصورة لدى الطفل عمر صاحب الإثني عشر عاما، فيبدأ في فهم الواقع الذي يعيشه من منظور إنسان راشد، يقول السارد متحدثا عن هذا الأمر" ... لقد علم الآن من أين تكون

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - El nouty Hassan, l'enracinement arabe dans la littérature maghrébine de langue Française, in revue de l'occident musulman et de la méditérranée,n : 22, 1976,p : 201.

الانطلاقة الحقيقية للأمر، والحدود التي لا نشعر بداخلها بالجوع، والتي من دونها تصير دماؤنا تغلي، وما يصحب هذا الغليان من عنف..."[1]

" ... Il savait maintenant oû se faisait le juste départ des choses, par oû passait la ligne en dela de laquelle on ressent cette brûlure dans le sang et la violence qui l'accompagne..."[2]

رأى عمر بأم عينيه كيف بدأت تجري في شرايين فلاحي "بني بوبلان" دماء جديدة، وكيف بدأ وعيهم في التشكل شيئا فشيئا، فصاروا يلتقون ويجتمعون، يتحدثون عن أحوالهم البائسة ويتناقشون، يتساءلون عن ما يجب فعله ويستفهمون، ومن هنا اعتقد عمر أن نقطة البدء محطته انطلاق مسيرة استعادة الحقوق قد تكون من الريف مع الفلاحين المرتبطين بأرضهم، والمتشبثين بعاداتهم وتقاليدهم، ولربما كان هذا الارتباط بالأرض هو الذي ميزهم من ساكنة المدن.

نلمح كذلك ميلاد هذا الوعي عند السيدة خضرة التي كانت – في حضرة عمر – تنشد وتغني وهي تدير الرحى، وابنها سعيد باسط جسمه على ظهرها، ومحكم الإمساك برقبتها، وتقول :"...

في حديقة

زرعت حبات اليانسون

فأتت الطير

منجذبة من فرط جمالها

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 23.

فطاردتها بالحجارة

إن الطيور الحمراء الحزينة

لن تهاجم أبدا طفلي"[1]

" ... Dans un jardin,

J'ai semé des grains d'Anis

Attirés par leur douceur,

Les oiseaux sont venus

Je les ai chassés,

Avec des paraboles

Les oiseaux rouges et tristes,

N'assailliront plus mon enfant ..."[2]

إن حبات اليانسون ترمز إلى الأرض وما تحويه من خيرات ومقدرات، إنها هوية الإنسان وانتمائه وثقافته، إنها مصدر رزقه الذي لا ينضب، إنها مدار حياة الفلاح وجوهرها، والتي من دونها حياته عدم، ولفرط خيرها وجمالها صارت هدفا للطامعين، لكن وعي أصحابها ودفاعهم عنها سيجبر هؤلاء القتلة الدمويون (الطيور الحمراء الحزينة) إلى العودة، خائبين خاسرين، من حيث أتوا.

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 25.

وفي تطور ملفت لوعي فلاحي "بني بوبلان"، صار هؤلاء يتحدثون أينما التقوا عن أوضاعهم الاجتماعية، وعن الأجور الزهيدة التي يتقاضونها من عند الكولون، والتي لم تعد تسد حتى رمق أطفالهم الجوعى، يقول السارد :" ... لكنهم بدأوا يتحدثون عن حجم الظلم الذي يتعرضون له، وعن الأجور البائسة التي يتلقونها من الكولون، يتحدثون عن كل هذا أثناء العمل، والراحة على السواء، عندما يلتقون في الشوارع، أو عند رجوعهم إلى أكواخهم لملاقاة أطنالهم... أضحى الريف يعيش وضعا لا يوحي بأي تفاؤل، حتى أن هناك من يحلف بأغلظ الايمان أن الحياة في السجن أفضل من هذا الوجود..."[1]

" ... Mais ils ont commencé à parler du poids des injustices, à comprendre que les salaires offerts par les colons sont une misère, ils parlent à toutes les occasions, pendant le travail et à la pause de midi, quand ils se rencontrent dans un chemin et le soir dans la cabane oû ils retrouvent leurs petits, il y en a qui jurent que la prison vaut mieux que cette existence là..."[2]

لقد سعى محمد ذيب من خلال الحوارات التي دارت بين شخصيات هذا العمل، إلى إبراز كيف بدأ وعي فلاحي "بني بوبلان" بالتشكل، وعن هذا الموضوع يقول شارل بون Charles Bonn :" ... أوضح لنا محمد ذيب، دون الكثير من الإسهاب، ومن خلال حديث الفلاحين بعضهم مع بعض، كيفيات تشكل الوعي الذي اقترن بشروعهم في الكلام عن أوضاعهم، وصولا الى أن تصير الكلمة فعل..."[3]

" ... C'est d'une conversation de paysan à l'autre, que Dib nous montre, sans presque les expliquer, les mécanismes de la prise de conscience qui

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 30.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

va de pair avec la prise de parole, jusqu'au moment oû la parole va se faire, va être action..."[1]

إن تحول الكلمات إلى أفعال تمشي على الأرض، إلى نضال وكفاح من أجل تجسيدها، هو لعمري أولى بشائر النصر، إنه منطلق مشوار حياة الكرامة الإنسانية، الذي يبدأ بدموع تطفح بالحزن المرارة لتتحول في نهاية الأمر إلى دموع الغبطة والفرح والابتهاج، إن سبيل الحرية والعيش الكريم شائك وصعب، ومحفوف بالمخاطر، لكنه جدير بأن يسلك وينتهج، لأن غايته عظيمة، أما الركون إلى الدنيا، والقبول بالدونية يجعل صاحبه يموت آلاف المرات قبل موتته الحقيقية، إن هذه الروح هي التي جعلت "بن يوب" يحذر مستمعيه من مغبة السكوت عن الظلم، وعن المطالبة بالحقوق المشروعة قائلا لهم :" ... طغت رؤية مرعبة على روح العجوز الذي قال بعد تأمل : إذا تركتم اراضيكم، سيطلب منكم أبناؤكم وأاحفادكم وأبناء أحفادكم كشف حساب، فأنتم لستم أهلا لهم، ولا لوطنكم ولا للمستقبل... "[2]

" ... Une vision d'horreur parrut accabler l'ame du vieillard qui médita. Si vous abondonnez votre terre…vos enfants, vos petits enfants et arrières petits enfants vous demanderont des comptes, vous n'aurez point mérité d'eux, de votre pays, de l'avenir..."[3]

لم يغفل محمد ذيب – بالرغم من السياقات التاريخية المعروفة المحيطة بهذا العمل– عن الدور المهم الذي لعبته المرأة من خلال تلك الصور النمطية للمرأة التقليدية، المرأة المطيعة لزوجها، والأم المنهكة والمتعبة، التي أعيتها مكابدة الحياة، والفتاة الحالمة بعيشة هنيئة.

[1] - Charles Bonn, lecture présente de Mohammed Dib, Enal, Algérie, p : 35.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 45.

2-2-1 "ماما" أو أنموذج انبثاق الوعي الأنثوي.

إذا كانت رواية "الدار الكبيرة" قد كانت فضاء نسويا بامتياز، فإن رواية "الحريق" لم تخلو هي الأخرى من الوجود الأنثوي وإن لم يكن بنفس ذلك الزخم الموجود في "الدار الكبيرة"، ولعل شخصية "ماما" – زوجة العميل "علي قارة" المتخابر مع قوى الاحتلال – أحسن من مثل هذا الدور، دور المرأة التي بدأت تستوعب ما يدور حولها، وتفقه كنه المشكلات التي يحياها أبناء جلدتها، وبالرغم من محاولات زوجها صرفها عن تلك المواضيع التي يرى أنها غير مؤهلة للخوض فيها، إلا أنها أصرت وأخذت تحاور زوجها بمنطق كانت له الغلبة في الأخير، يقول علي قارة متوجها بكلامه لزوجته ماما : " ... أكرر لكي أن هذه الموضوعات تتجاوزكي، الله وحده يعملها، إن هذه الأمور أكبر من أن نحيط بها ... "[1]

" ... Je te répète que ces choses te dépassent, Dieu seul a la pleine connaissance, c'est quelques choses de plus grand que nous..."[2]

فترد عليه ماما بقولها : " ... الله لم يقل اقتلوا بعضكم البعض ...انظر، ربما الله لم يقل هذا، لكن ثمة رجال يحكموننا، وهم يعرفون ما يفعلون...إن من يحكموننا ليسوا عدولا... "[3]

"...Dieu n'a pas dit : tuez vous lesuns, les autres! Regarde Dieun'a pas dit ça, mais il y a des hommes qui nous gouvernent, ils savent ce qu'ils font. Ceux qui nous gouvernent ne sont pas justes..."[4]

يعلق " علي قارة "، ساخرا من كلام "ماما"، قائلا :" ... سنجعلكي مكانهم، وعندئذ قولي للناس ما "[5] عليهم فعله..."

---

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 103.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] - Ibid, p : 103

[5] – ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

" ... Il ricana, on te mettra à leur place, et tu diras au gens ce qu'il faut faire..."[1]

ترد ماما على هذه السخرية والاستهزاء بقولها :"... أنا لست إلا امرأة ضعيفة، ولا أطمح في أخذ مكان أي أحد، لكني أقول أن السلطة التي تتعامل بهذه الطريقة، سلطة غير عادلة، وأنتم الرجال، أنتم من عليه أن يستحي من قبول هذا، إذا كان لديكم قليل من الشرف..."[2]

" ... Je ne suis qu'une faible femme, je n'ai pas la prétention de prendre la place de qui que ce soit, mais je dis que l'autorité qui agit ainsi, n'est pas juste, et c'est vous les hommes qui devriez avoir honte…si vous avez un brin d'honneur…d'accepter ça…"[3]

إن موقف "ماما" هذا موقف يسجله لها التاريخ، لأنه جاء في جو اشتد فيه الصراع بين الظلمة والمظلومين، فقد تسلط هؤلاء على أولئك، وحشدوا حشودهم، واستنفروا جميع قواهم بهدف إضعاف عزائمهم، وجعل قواهم تخور، إنه موقف صدر من نفس ذلك البيت، ونفس تلك الجدران التي صدر منها موقف الذلة والعمالة والخيانة، موقف زوجها "علي قارة"، الذي لم يحركه موقف زوجته "ماما" هذا قيد أنملة، بل راح يواصل في غيه وخذلانه لقضيته، متهكما وساخرا من كلامها.

ومع بداية انبثاق بشائر الوعي، عملت قوى الاحتلال على وأدها في مهدها، في محاولة بائسة ويائسة في حجب نور الشمس عن فضاء المضطهدين والمقهورين، موظفة في سبيل ذلك شتى أنواع التسلط والقهر، بدء بالقتل والتصفية الجسدية، فإن لم تأت هذه أكلها، استعملوا سلاح التعذيب، من ضرب مبرح وصعق بالكهرباء والقيام بأفعال مخلة و غيرها، فإن لم يفلحوا، وظفوا سلاح الجوع و التضييق المادي

[1] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 103.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Ibid, p : 103.

على الناس أملا في ردع هؤلاء جعلهم ينصرفون عن التفكير في عظائم الأمور، ليبقى شغلهم الشاغل توفير لقمة العيش، وملء البطون الجوعى.

يسأل الطفل عمر كومندار بعدما رأى قوى الاحتلال تقتاد مجموعة من الأهالي الى مقارها قائلا:"...كومندار، لماذا أوقفوا هؤلاء ..."[1]

" ... Commandar, pourquoi ont – ils arrêté ces hommes..."[2]

فيرد عليه كومندار:"...لأننا يا عزيزي مذنبون في نظرهم... "[3]

" ... Parce que chèr enfant, nous sommes coupables à leurs yeux..."[4]

و يسأله عمر من جديد : "... لكن ليس دائما ... ليعاقبوا المذنبين لا أولئك الذين لم يفعلوا شيئا ..."[5]

"...Mais pas toujours, qu'ils punissent les coupables, et non ceux qui ne le sont pas..."[6]، وهنا يأتي رد كومندار موضحا ومبينا طبيعة الاحتلال وسياساته ووسائله، فيقول ردا على سؤال عمر :"...لكننا يا ولدي كلنا مذنبون، كلنا كما نحن، لهذا فهم يعاقبون البعض بالقتل، والبعض الآخر بالضرب والسجن وآخر بالإهانة ورابع بالتجويع، إنهم يقتلوننا بكل واحد من هذه الأفعال ..." [7]

" ... Mais fils, nous sommes tous coupables, tous autant que nous sommes. Alors ils punissent les uns avec les balles, les autres avec les coups ou la prison,

1 - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

2 - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 142.

3 - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

4 - Ibid, p : 142.

5 - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

6 - Ibid, p : 142.

7 - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

les uns avec les mots, les autres avec la faim, ils tuent à chaque geste qu'ils font..."[1]

لم يهضم عمر هذا الوضع الذي أصبحت فيه اليد الطولى للمستدمر، يرتع في البلاد كما يشاء، يقتل ويبيد، يضرب ويهين من دون رقيب ولا حسيب، وبمنطق طفولي بريء، قال عمر لكومندار:"... لكننا نحن الأكثر عددا ..."[2]

" ... Mais nous sommes le plus grand nombre..."[3]

فيأتي الرد من كومندار:"... من الطبيعي أننا الأكثر عددا، فمن بيننا النحيف والسمين، الصغير والكبير، الخجول والجريء، حقيقة عددنا كبير، لكن يلزم رجالنا بعض الصبر استعدادا للإقدام عل هذه الخطوة الأولى..."[4]

" ... Il va de soi que nous sommes le plus grand nombre, en font partie les maigres et les gros, les petits et les grands, les timides et les hardis...notre nombre et si grand, mais il faut une grande patience à nos hommes de cœur qui se préparent à franchir ce premier pas..."[5]

[1] – Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 142/143.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Ibid, p : 143.

[4] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[5] - Ibid, p : 143.

إن الخطوة الأولى لا تعدو أن تكون سوى الثورة على هذا الظلم المستشري، والآخذ في التمدد شمالا و جنوبا، شرقا وغربا، نعم، إنها الثورة التي لطالما حلم بها أمثال عمر وكومندار، لكنهم لم يستطيعوا البوح بها، ولأن لكل قدر كتاب، فإن قدر الثورة على بزوغ، ولن تقف أمامه أي قوة مهما كان جبروتها.

2-3 - الدعوة المضمرة للثورة :

يكاد يجمع النقاد والباحثون على أن رواية الحريق كانت استشراقا وارهاصا حقيقيا لثورة التحرير الوطنية، ودعوة مضمرة للنهوض ومقارعة الاحتلال، لقد ألهبت رواية الحريق الراهن الأدبي الجزائري، و رفعت السقف عاليا بموضوعها الإنساني، ولغتها الواقعية، مما حذا بالشاعر الفرنسي" لويس أراجون" وصف محمد ذيب بـ: بلزاك الجزائر.

تعج رواية الحريق بالكثير من المقاطع السردية التي توحي أحيانا بشكل صريح، وأحيانا أخرى من وراء حجب، بالدعوة إلى التمرد والثورة على ظلم وطغيان قوى الاحتلال، فمنذ الصفحات الأولى للسرد، حاول محمد ذيب تمرير رسائل مشفرة عبر شخصية العجوز المقعد كومندار، أو شخصية المناضل اليساري حميد سراح، أو عبر شخصية الفلاح بن يوب وغيرهم، توحي كلها بالدعوة إلى الثورة على المحتل، يقول كومندار:"... يعتقد الكولون أنه يملك جهد الفلاح وعمله، بل ويريد حتى إمتلاكه شخصيا ... لكن يبقى الفلاح هو سيد هذه الأرض الخصبة... إن الأرض هي المرأة، فسر الخصوبة يزدهر في آخاديد الأرض، وفي رحم المرأة، والقدرة التي تجعلها منتجة للفاكهة وللسنابل هي بيد الفلاح ... لهذا كان لزاما عليه أن يكون قويا وشديدا ليحمي بالسلاح بيته وحقله يوما ما..."[1]

" ... Le colon considère que le travail du fellah comme totalement sien,il veut de plus que les gens lui appratiennent...le fellah est pourtant le maitre de la terre

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

fertile…la terre est femme, le même mystère de fécondité, s'épanouit dans les sillons et dans le ventre maternel, la puissance qui fait jaillir d'elle des fruits et des épis, est entre les mains du fellah…puissant et redoutable, il doit être, il lui faudrait un jour protéger, par les armes, son foyer et ses champs…"[1]

وفي موضع آخر، وبعد أن استلقى"عمر" على الأرض مفترشا نباتها، وآخذا في النوم، همس كومندار في أذنه قائلا :"... ومن ذلك الحين، ينهض كل ليلة أولئك الذين يبحثون عن أرضهم، يريدون أن يتحرروا ويحرروا أرضهم – ويلقون السمع، لقد أخذ جنون الحرية يسري في عقولهم، من سيعتقكي يا جزائر..."[2]

" … Et depuis, ceux qui cherchent une issue à leurs sort, ceux qui, en hésitant, cherche leurs terre, qui veulent s'affranchir et franchir leur sol, se réveillent chaque nuit et tendent l'oreille. La folie de la liberté leur est montée au cerveau, qui te délivrera Algérie ?..."[3]

أسهمت سلوكات الاحتلال العدوانية والظالمة والمهينة للشعب الجزائري في نشوء جو من الغليان في الأوساط الشعبية، وقد وظفت النخبة الجزائرية، بالرغم من تواضع عدتها وعديدها، هذا الشعور باليأس والبؤس، والإحساس بالظلم والحيف، إلى أداة فعالة لاستنهاض همم الجزائريين، وإيقاظ الوعي فيهم، وصولا الى إقناعهم بوجوب التمرد على هذا الوضع، والثورة عليه، لقد كانت الفجوة عميقة جدا، والهوة غائرة وسحيقة بين فئة قليلة مهيمنة ومتسلطة، وممعنة في إذلال صاحب الأرض، وفئة كثيرة مستضعفة، محرومة ومغلوبة على أمرها.

[1] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 27.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف

[3] - Ibid, p : 26.

إن اتساع هذه الفجوة هو الذي عجل ببروز هذا الغليان الشعبي، الذي مهد بدوره لاندلاع الثورة، لقد كانت الثورة الجزائرية، ثورة حقيقية وليست مجرد ثورة غوغاء، لا مرجعية ولا فكر ولا قيم لها، إنها ثورة استندت على إيمان عميق بالقيم الإنسانية، وبأفكار الحرية والعدالة والانعتاق، وقد آمن بهذه الأفكار والقيم، طليعة من الجزائريين، عملوا على غرسها في نفوس وعقول مواطنيهم، وتحملوا في سبيل ذلك أشد أنواع التعذيب وأعتي أشكال التنكيل، ضاربين بذلك أبهى نماذج التضحية والوفاء، وقد نجحت هذه النخبة من أبناء المجتمع الجزائري ممثلة في هذه الرواية بشخصية "حميد سراج"، في تشكيل وعي جمعي لدى أفراد الشعب، جعلهم سدا منيعا غير قابل للاختراق، وحاضنة شعبية واعية، ومدركة ومبصرة، و ليست مجرد قطيع يتم سوق من دون وعي منه.

ومن بين العناصر التي عملت على تسويق أفكار"حميد سراج"، نجد "علي برابح" الذي لم يسمع كلام معمر الهادي حين رد على سيد علي قائلا:"...إذا أردت أن تعيش فقط، فما عليك إلا أن تطأطأ رأسك وتعمل، هذا كل ما في الأمر، فليس هناك من سبيل آخر..."[1]

" ... Si tu veux vivre seulement, baisse ta tête et travaille, c'est tout, il n'y a pas d'autres moyens..."[2]

يقول علي برابح تعليقا على كلام معمر الهادي هذا :"...معذرة، لكني أرى أنه من واجبي أن أقول أني لست متفقا مع ما تقول، إن أهلنا هنا مصنوعون من معدن ثمين، إن قلوبهم نقية من دون درن، وكل البؤس وكل المصائب التي عشناها لم تؤثر فينا البتة، فليس الآن زمن طأطأة الرؤوس، إن كل رجل تراه أمامك هو عبارة عن برميل بارود ينتظر أي شرارة تسقط عليه..."[3]

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 33.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

" … Tu m'excuse…mais je crois devoir te dire que je ne suis pas d'accord avec tes paroles, Les hommes chez nous sont fait d'un minerai de haute teneur, le cœur est intact et sans mélange, toute la misère et tout le malheur que nous avons connu, nous ne ont pasentamés. Ce n'est pas aujourd'hui que nous allons commencé à baisser la tête. Chaque homme que tu voix autour de toi est une poudrière, il suffit maintenant qu'une étincelle tombe dessus…"[1]

إن شعور هؤلاء الفلاحين المغلوبين على أمرهم بالعنف وبالظلم وإحساسهم بأنهم أصبحوا غرباء فوق أرضهم وتحت سمائهم، ولد فيهم الرغبة الجامحة في تغيير هذا الوضع المزري، فكثيرا ما كان الفلاح" بن يوب" يتساءل أمام جيرانه وأبناء قريته : "...ألم نعد غرباء في بلدنا ؟ قولوا لي، بالله عليكم يا جيراني، إني أقول ما يجول في خاطري بكل صدق، لقد أصبحنا وكأننا نحن الغرباء، وأن الغرباء الحقيقيين هم أصحاب الأرض...ألا تظنون أننا صرنا وكأننا محبوسين داخل سجن لا نقوى على التنفس، نكاد نختنق، لم نعد نحتمل يا إخوان..."[2]

" … Ne sommes – nous pas comme des étrangers dans notre pays, par Dieu mes voisins, je vous dis les choses comme je les pense, on croirait que c'est nous les étrangers, et les étrangers les vrais gens d'ici. Ne croyez – vous pas qu'on tous encagés comme dans une prison pris à la gorge ? on ne peut plus respirer frères, on ne peut plus…"[3]

[1] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 33.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Ibid, p : 46.

لقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان، وفضله على سائر مخلوقاته قائلا في محكم تنزيله: " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضلا..." الإسراء، الآية :70.

إن الكرامة الإنسانية شيء مقدس عند البشر جميعا، وأن المس بها هو اعتداء على الإنسان وإهانة له، لقد أمعن الاستدمار في إذلال الأهالي الذين لا حول لهم ولا قوة، من خلال تجريدهم من أعز ما يملكون، من الحرية ومن العدالة ومن الكرامة، لكن فشل مسعاه وخاب مبتغاه، أمام الوعي المتدفق الذي بدأ يسري بين الأهالي، نظير الجهد الجبار الذي اضطلع به فلاحو " بني بوبلان " والذي مفاده أن لاخضوع ولاخنوع بعد اليوم، يقول بن يوب مخاطبا جموع فلاحي قريته : "...إنهم يقتلوننا على نار هادئة، رويدا رويدا، يا جيراني، لأن تموتوا وأنتم تكدحون، خير من أن تتنازلوا عن أرضكم أو تتخلوا عنها، إن الموت خير من التفريط في إنش واحد منها، إنكم إذا فرطتم في أرضكم ستفرط فيكم هي الأخرى، وستعيشون أنتم وأبنائكم بؤساء ما حييتم..."[1]

" .... Il nous font mourir à petit feu, veine par veine, Mes voisins tuez – vous à la tâche, plutôt que de de céder vos terres, de les abondonner, mourez plutôt que d'en lâcher un seul pouce, si vous abondonnez votre terre, elle vous abondonnera, vous resterez, vous et vos enfants misèrables toute votre vie..."[2]

وعلى أمل أن ينبثق من هذه الظلمة فجر جديد، يحمل معه بشائر النصر، كان لزاما على ساكنة بني بوبلان أن يكدحوا ويكدوا كي لا ينقطع المسير، يقول بن يوب مخاطبا الفلاحين : "...إننا نعيش ونعمل

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 47.

فقط لفرط الحاجة، ولأن لا نجعل الشمعة تنطفىء بإنتظار أيام أفضل، ستعود الحياة ببريقها عندما نكتشف أن لدينا أعمالا أخرى نقوم بها..."[1]

" ... Nous vivons et agissons uniquement par nécéssité, pour ne pas laisser la flamme s'eteindre, et en attendant des jours meilleurs, la vie reviendra avec joie, quand nous auront découvert de nouveaux travauxà accomplir..."[2]

ربما كان " بن يوب " يقصد بهذه الاعمال والمهام الجديدة التي تنتظرهم، اندلاع الثورة على المحتل الذي لن يكف عن جرائمه وظلمه ولن يرتدع إلا بالحديث معه بلغة الحديد والنار، لقد حان الوقت لوضع حد لقرن ونيف من الظلم والاستبداد، فلم يعد مسموحا السكوت عن هذه السلوكات، فلقد دقت ساعة الحرية واستعادة الكرامة الوطنية فـ" ... يجب القضاء على هذه التجاوزات، لا بل ودفنها، لأنها لو لم تكن موجودة، فما كان ليوجد من سبب للشعور بالخجل Hامام الأحياء وهؤلاء الأموات..."[3]

" ... Il faut détruire les abus, les enterrer...s'ils n'existaient pas, il n'y aurait pas plus de raison d'avoir honte devant les vivants que devant ces morts..."[4]

2-4- الكتابة الملتزمة موقف:

حرص "جون بول سارتر" على أن يكون مفهوم الالتزام لديه مرتبط بمسألة الموقف، أي أن يتخذ الأديب الملتزم موقفا مما يدور حوله، ينسجم مع مرجعيته وقناعته، وقد جسد هو نفسه هذه الأفكار بأن كتب عن الحرية والالتزام، وحول هذا الكلام إلى مواقف في الواقع، فقد ناصر الثورة الجزائرية بشكل صريح، فاضحا

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 48.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] - Ibid, p : 143.

بني جلدته من المحتلين، كما ناصر كذلك الثورة الفنزويلية، لهذا كان : "... الوعي السارتري يتصف بالالتزام، فهو ليس مجرد خيال حر، وعندما تتحول الحرية التي يسعى إليها إلى شيء ملموس، يصبح الالتزام سياسيا أكثر فأكثر..."[1]، لكنه أخفق في مناصرة القضية الفلسطينية، وعندها عبر عن يأسه من مسألة الأدب الملتزم، معتبرا تقديم العون للجوعى أفضل من كتابة مقال أدبي.

لن يكون للكلمات أي أثر إن لم تتجسد في مواقف يلمسها الناس في واقعهم، فقوة الكلمات تأتي من قوة المواقف التي تبنى عليها، و لقد جسد " حميد سراج " هذا الدور بشكل رائع، فقد اضطلع بدور بقدر ما كان مهما، كان خطيرا، إنه العمل على بث الوعي في نفوس الناس، في ظل واقع يطبعه الظلم والاستبداد وتكميم الأفواه، إن الأمر لم يكن متاحا لأي كان، فعلى من تبوأ هذا المقام أن يستعد لتبعاته الجسام.

تعرض حميد سراج، بعد أن كانت قوات الاحتلال قد ألقت القبض عليه، لشتى أنواع التعذيب والتنكيل، النفسي منه الجسدي، ولما حاول الاستفسار عن سبب تعذيبهم له تعرض: " ...لوابل من الركلات جعلته يفقد توازنه يلقى جانبا، وملامح الغضب تعلو محياه..."[2]

"... Les coups plurent sur lui, il chancela projeté de côté, son visage redevint livide..." [3]

بعد أن نعته أحد زبانيته "بالوسخ" "saleté"، وبعد أن اشتد عليه الألم ولم يعد يستطيع الوقوف على رجليه " ... يسقط على الأرض غير مبال بلكماتهم وركلاتهم، محاولا ضمان عدم إيذائه بشكل كبير، كانت ضرباتهم تسفر في رأسه وفي جسده، والعياء يتملكه، لم يعد يشعر بأنفه ولا بعينيه، أما أذنيه فكانتا تحرقانه، و دمه الدافئ والساخن يسيل..." [4]

---

[1] - آرفلين توماس، الجودية، تر : مروة عبد السلام، المرجع السابق، ص106.

[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 108.

[4] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

" … Il s'affalait par terre, il les laissa frapper essayant seulement de se garantir pour qu'ils n'abiment pas tout à fait. Les coups sonnaient dans sa tête, dans son corps, l'engourdissement l'envahissait, il ne sentait plus son nez, ses yeux, mais les oreilles lui brulaient. Humide et chaud, son sang ruisselait…"[1]

إن دماء حميد سراج هذه، هي ضريبة الحرية، وثمن الانعتاق من ربقة الاحتلال، لقد انتصرت هذه الدماء الزكية على سيوف الجلادين، راسمة طريق الحرية والكرامة والخلود للأجيال القادمة، لقد أضحى حميد سراج "رمزا" لمقاومة الظلم والاستبداد والطغيان، غير آبه بكل أنواع التعذيب والإهانة التي تعرض لها، سوء المعاملة : "… أخذ أحد زبانيته يبصق عليه، وأما الآخر فكان ينعته بالنذل ابن الفاجرة…"[2]

" … D'un jet, le chiffre lui envoya un crachat, un autre lança : saligaud, espèce d'enfant de pute…"[3]

ومع اشتداد التعذيب الجسدي (الضرب والسحل)، "… لم يعد حميد سراج يفكر إلا في أمر واحد، فكرة واحدة ظلت واضحة في ذهنه، أن لا يتركهم يدمرونه، أن يحيا…" [4]

" … hamid ne concevait plus q'une chose, une seule idée restait claire …" dans son esprit, ne pas se laisser détruire ? vivre…"[5]

لجأ فلاحو "بني بوبلان" لما اشتدت عليهم الفاقة، وضاقت بهم السبل إلى التوقف عن العمل والدخول في إضراب، عسى ولعل به يضغطون على الكولون ليحصلوا على بعض حقوقهم، فلولا جهد هؤلاء، ما

1 - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 108.

2 - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

3 - Ibid, p : 109.

4 - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

5 - Ibid, p : 109.

استطاع المستدمرون مضاعفة أرباحهم، وتكوين الثروات وجني الثمرات، وقد "... ذاع أمر الإضراب بسرعة بين الأهالي في الريف، المنصورة، الصفاف، إماما... و في كل المنطقة، لقد قرر الفلاحون التوقف عن العمل، فصار هذا هو حديث الناس..."[1]

"...L' ordre de grève vola à travers la compagne, Mansourah, Ymana, Safsaf, et dans toute la région. Les ouvriers agricoles avaient décidé d'arrêter le travail, de place en place des groupes discutaient..."[2]

رد الاحتلال بعنف على هذا الإضراب، من خلال توقيف العديد من الفلاحين المضربين، وأنزل أشد أنواع التعذيب بهم، تخويفا وترهيبا حتى لا يعودوا لهذا الفعل، وقد "... تعرض الشاب شارف محمد للضرب بالهراوة في مزرعة السيد ماركوس، فقد شجوا رأسه الشيء، الذي جعل الدماء تسيل بغزارة على ملابسه، و وبسرعة تم إخفاؤه في أكواخ الفلاحين... "[3]

" ... le jeune Charef Mohammed fut matraqué à la ferme Marcous, le crane ouvert, du sang répondu sur le visage et les habits, il fut rapidement transporté et caché dans une cabane de fellah..."[4]

لكن هذه الوحشية التي ردت بها قوى الاحتلال على الفلاحين، لم تثن هؤلاء على مواصلة مسيرة الحرية، لا بل زادتهم عزيمة على عزيمتهم، وإصرار على اصراهم بمواصلة الإضراب والصمود أمام آلة التخويف والترهيب الاستدمارية " ... ففي نهاية اليوم الأول للإضراب، وفي حدود الساعة الخامسة بعد الظهر، اجتمع

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 125.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[4] - Ibid, p : 125.

أكثر من خمسمائة فلاح على جانب الطريق الوطني، تحدث الكثير منهم، وأجمعوا على مواصلة الإضراب..."[1]

" ... A la fin de la première journée, vers cinq heures de l' après midi, une grande assemblée se tint en bordure de la route nationale, plus de cinq cents fellahs étaient présents, plusieurs d'entre eux prirent la parole et affirmèrent avec l'approbation de tous qu'ils continuèrent la grève..."[2]

إن هذا التطواف مع السرد الذيبي عبر رواية الحريق، جعلنا نجزم بوجود ملامح الكتابة الملتزمة من وجهة النظر السارترية التي أشار إليها " جون كلود مولتلار"Jean Claude Muhlethaler، والتي سبق وأن أشرنا إليها في مطلع هذا الفصل، لقد أوضح " جان كلود مولتلار" من خلال الدراسة التي خص بها الكتابة الأدبية في العصور الوسطى، أن هذه الأخيرة نادرة من جهة، وثرية من جهة أخرى، نادرة لأنه ليس من حق أي كان أن يقتحم هذا المجال، فالكنيسة في هذه المرحلة من تاريخ أوروبا، وفرنسا بالتحديد، كانت تهيمن على جميع مفاصل الدولة، ولا تسمح من الكتابة إلا بما يرضي مزاجها، وثرية بالنسبة لمجموعة محدودة من المثقفين يعلمون تحت سلطة الكنيسة، ومعروفين بإسم " كليرك " "clerc "، يعملون على تنمية الجانب الروحي والحفاظ على العقيدة المسيحية، أما فيما يتعلق بالالتزام في كتاباتهم، فإن "الكلارك" لم يكن معنيا بهذه المسألة، فنقده للوضع القائم :"... كان نقدا أخلاقيا بالأساس، فهو لا يتطرق لبنيات النظام، إنه يرفض الانحراف، ويبين مكامن الفوضى كملاحظ لأزمة لا تعنيه شخصيا، إن " الكليرك " لا يشعر أبدا أنه ملتزم..."[3]

[1] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[2] - Mohammed Dib, l'incendie, opcit, p : 125.

[3] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

" … La critique reste essentiellement d' ordre moral, et quand le Clerc appelle de ses vœux une reformatio regni, il ne met jamais en question les structures du pouvoir. Il dénonce les déviances, montre du doigt les éléments du désordre . observateur d'une crise qui ne l'implique pas personnellement, le clerc ne se sent guère embarqué…"[1]

وهذا بالرغم من أن فرنسا في هذه المرحلة الحساسة من تاريخها في ظل حكم شارل السادس، كانت تقبع تحت وطأة الاحتلال الإنجليزي، وتعيش في واحدة من أحلك مراحل حياتها، ولأن الأزمة تلد الهمة، فقد انبثق عن هذه الضائقة وعي لدى النخبة بضرورة الانخراط في المسألة السياسية، لقد " .... أيقضت هذه المحنة المثقفين الذين أصبحوا أكثر اهتماما بالقضايا السياسية من خلال كتابات أرسطو التي أضحت متاحة في ظل حكم شارل الخامس، وجعلتهم يوظفون أحلامهم، منادين بالوحدة الوطنية، ومقاومة العدو. لقد دقت ساعة ميلاد الالتزام الأدبي في فرنسا…"[2]

"…Interpellés par le désastre, rendus sensibles à la question politique par la vulgarisation des écrits d'Aristote sous charlesV, des intellectuels ont pris la plume pour appeler à l'unité nationale et à la résistance contre l'ennemi, l'heure de la naissence de l'engagement littéraire a sonné…"[3]

كانت هذه البداية الحقيقية لميلاد الأدب الملتزم بالمعنى السارتري، وقد كان للشاعر والكاتب الفرنسي "آلان شارتييه" Alain chartier، وكذا الشاعرة والفيلسوفة الفرنسية "كريستين دو بيزان" christine de

[1] - Jean Claude Muhlethaler, formes de l'engagement littéraire au xv – xxi siècle, opcit, p : 16.
[2] - ترجمة الباحث، تدقيق المشرف.

[3] - Ibid, p : 18.

pizan شرف السبق في مجال الكتابة الأدبية الملتزمة، كتابة تلتقي في كثير من تفاصيلها وملامحها مع المفهوم السارتري للالتزام، الذي اجتهدنا في إسقاطه على هذه المدونة في بحثنا هذا.

الخاتمة

الخاتمة :

بعد هذا التطواف في آفاق المتن " **الذيبي الجباري** " الرحب، والذي حاولنا من خلاله الوقوف على مكامن تمثل الهوية والالتزام، وتتويجا لهذه الرحلة البحثية المتواضعة في تاريخ الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، اهتدينا إلى بعض الخلاصات والنتائج التي نحسب أنها نتائج حقيقية للبحث، لم يتم حشرها عنوة، استقيناها من الجانب التطبيقي، الذي كان بمثابة مخبرا لبحثنا هذا، وبدرجة أقل الجانب النظري فيه، بالرغم من أننا لا نزعم أبدا أننا قد أتينا على كل ما يفترض أن يؤتى عليه في هذا البحث، ويمكننا أن نجمل هذه النتائج في النقاط التالية :

1- وفقت " آسيا جبار" إلى حد كبير من خلال إعادة قراءتها لتاريخ المرأة في الصدر الاول للإسلام – ومن ثمة إعادة كتابته بحس أنثوي صرف – في تبيان الطبيعة البشرية للسلف، التي حاول بعض المؤرخين سلخهم عنها، والتي إذا فقدها التاريخ صار تاريخا ورديا مقدسا، يعمل مروجوه عبر العمليات التخييلية الطوباوية المتواصلة في المخيلة الجمعية، على إسقاط الكثير من الوقائع التاريخية الثابتة فيه.

2- استطاعت " آسيا جبار" أن تضع الكثير من الصور السلبية، والسوداوية لهذا التاريخ تحت المجهر، مسلطة عليها سهام نقدها، فيما لم ير غيرها- وهم كثر – من هذا التاريخ إلا بطولاته وانتصاراته، مكرسين بذلك ثقافة النرجسية، سبب كل إخفاقات أمتنا وانتكاساتها عبر التاريخ.

3- اعتمدت " **آسيا جبار**" في تفكيكها للبنى الناظمة للمرويات التاريخية على عملية التخييل بشكل أساسي، لتملأ مناطق الصمت، ومواقع الفراغ، كما اعتمدت – وبشكل لافت – على طرح الأسئلة التي تكون قد رمت من ورائها إلى استفزاز عقل المتلقي ووعيه، وجعله ينخرط – من حيث لا يشعر – في مسعاها هذا، تاركة المجال واسعا أمام شتى التأويلات.

4 – إن " آسيا جبار " وإن لم تتوفر لديها الأهلية الكافية للاجتهاد، والمعرفة الوافية بالتاريخ الإسلامي، خاصة ما تعلق منه بالمرحلة الأولى منه تحديدا، إلا أنها نجحت في خلخلة وتقويض تلك الأحكام الجاهزة التي اعتقد أصحابها بأن لا أحكام تعلوها.

5 – بنت آسيا جبار الكثير من تأويلاتها للنصوص الواردة في هذا السرد، متوسلة عملية تخييل روائي محض، كما عملت على إصدار أحكام على مرحلة تاريخية سابقة، اعتمادا على معطيات مرحلة تاريخية تبعدها بأكثر من ألف وأربعمائة سنة، وهذا في تقديرنا خطأ منهجي، فيما بنى الطبري كلامه على الإسناد وعلى النقل الموثق المشفوع بالأدلة والشواهد والبراهين، ومن هنا منشأ الصراع القديم الجديد بين المدرستين النقلية والعقلية في التاريخ الإسلامي، والذي لا يزال يلقي بظلاله على راهن أمتنا.

6 – إن توظيف آسيا جبار للتخييل من أجل إعادة كتابة التاريخ وتشكيل الأحداث والوقائع من جديد، لم يحافظ على أبعاد هذه الأحداث الموضوعية وكذا دلالاتها.

7 – لقد كرست رواية " بعيدا عن المدينة "، ومن منظور أنثوي صرف، هوية المرأة المسلمة في الصدر الأول من الإسلام، من خلال ما أتاحته من إعادة نظر في ما كتبه الذكور عن المرأة، في مراحل تاريخية كانت كرامتها فيها ممتهنة، وحقوقها مستلبة، وحريتها منتهكة.

8 – رواية الحريق رواية لم توظف التاريخ، لا بل هي من صنعت التاريخ، لقد تحققت نبوءة" محمد ذيب الروائية على أرض الواقع، فبمجرد اشتعال حريق قرية " بني بوبلان " حتى اشتعل حريق الثورة بعد أشهر لا تتعدى أصبع اليد الواحدة، فإن كان حريق " بني بوبلان قد انطفأ، فإن حريق الثورة لم ينطفئ حتى عادت الحقوق إلى أصحابها.

9 – رواية الحريق، رواية واقعية أحداثا ومرجعياتا، حرص فيها " محمد ذيب " على تثبيت أرجله على أرض واقع صلب، وعلى عدم التيهان في غياهب التخييل والرمز والأسطورة.

10 – رواية الحريق، رواية ملتزمة بالمفهوم السارتري بامتياز، توفرت فيها كل مظاهر الالتزام وملامحه، من كشف للواقع البائس واليائس الذي يعيشه الجزائري، إلى انبثاق الوعي الفردي والجمعي، بضرورة وضع حد لهذا الواقع الأليم، ومن ثم تحول الكتابة الأدبية من مجرد وسيلة للبوح وللإمتاع، إلى وسيلة لشحذ الهمم وتقوية العزائم واتخاذ المواقف.

11 – توصلنا من خلال بحثنا وتقصينا، أن " محمد ذيب" أثناء كتابته لثلاثية الجزائر، يكون قد تأثر إلى حد كبير بثلاثية أمريكا ل " دوس باسوس " Dos Passos، وثلاثيته الثانية كولومبيا، كما أننا نعتقد أن " محمد ذيب " عند تردده على فنلندا وكتابته لثلاثية الشمال، يمكن أن يكون قد اقتفى أثر " دوس باسوس " عند تردده على كولومبيا وكتابته لثلاثية تحمل نفس الاسم " كولومبيا ".

12 – إن قول أحمد منور" في مؤلفه " الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، وهو أحد المراجع المهمة لبحثنا: " ... **أزعم أنني قد أتيت بجديد لم يسبقني إليه أحد من الباحثين، وينطبق هذا حتى على نصوص الخمسينات** ..." – وقد سبق وأن همشنا لهذا الاقتباس في الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث– عند حديثه عن عن حرص أدباء ما بين الحربين كشكري خوجة، ومحمد بن شريف، وحاج حمو عبد القادر، وسليمان ولد الشيخ على حرية الشعب الجزائري بالرغم من اندماجيتهم التي لم يتمسكوا بها في واقع الآمر إلا حرصا منهم على مسألة المساواة بين المستوطنين والأهالي، قول فيه بعض الشطط، لأن هناك من سبق أحمد منور في الإشارة الواضحة لهذا الموضوع، وقال نفس الكلام الذي قاله أحمد منور، في مؤلفه الذي سبق صدور مؤلف أحمد منور بعشر سنوات ونيف، واقصد بذلك كتاب أحمد لناصري

الموسوم ب : La littératre Algérienne de l'entre deux guerres, genèse et fonctionnement في الصفحات: 257، 258، 259، 286.

13 – إن قول " أحمد منور" كذلك في مقدمه مؤلفه، في أثناء حديثه عن موقف الباحث الفرنسي " جان ديجو" Jean Déjeux من هؤلاء الأدباء، " فقد جردهم من أية مزية فكرية أو فنية " كلام فيه شيء من المبالغة، لأننا اطلعنا على معظم كتابات هذا الباحث في هذا الموضوع إن لم نقل كلها، ولم نجد أثرا لهذا الكلام، قد يكون قلل من شأن أعمالهم من الناحية الفنية والجمالية، وهو ما ذهب إليه أيضا الكثير من نقادنا المعاصرين، لكنه لم ينف عن أعمالهم الجمالية بالمطلق.

نرجو في الأخير أن نكون قد وفقنا في تقديم ولو إضافة بسيطة في بنيان هذه التيمة، التي لا تزال في حاجة بلا أدنى ريب، إلى المزيد من الدراسات والأبحاث العلمية والآكاديمية، ذات الأهمية المعرفية والصرامة المنهجية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

المصادر باللغة الفرنسية :

1 - Assia Djebar, loin de Médine, Albin Michel, Paris, France,1991.

2 – Mohammed Dib, l'incendie, édition du seuil, France, 2002.

المراجع باللغة العربية:

1- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، ج1، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986.

2- إبراهيم عبدالله، السردية العربية الحديثة – تفكيك الخطاب الاستعماري و إعادة تفسير النشأة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، 2013.

3- إبراهيم عبد الله، المحاورات السردية، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2011.

4- الإخناوي كمال محمود ، ما موقع اللغة العربية من الإعراب، دار صفصافة للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر،2016 .

5- الحبابي محمد عزيز، من الحريات إلى التحرر، دار المعارف، مصر، 1972.

6- الكردستاني مثنى أمين، حركات تحرير المرأة – من المساواة إلى الجندر– ط1، دار العلم للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2004.

7- الغذامي عبد الله، المرأة و اللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1997.

8- القرطاجني حازم، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986.

9- النساخ سيد أحمد، في الرمنسية والواقعية، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، 1981.

10- الأسد ناصر الدين، التراث و المجتمع الجديد، مطبعة الهاني، بغداد، العراق، 1996.

11- المسيري عبد الوهاب، قضية المرأة بين التحرير و التمركز حول الانثى، ط2، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2010.

12- الشنقيطي محمد بن المختار، الخلافات السياسية بين الصحابة، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، لبنان، 2013.

13- العروي عبدالله، مفهوم العقل، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،1997.

14- الجابري محمد عابد، التراث و الحداثة، (دراسات و مناقشات)، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1991.

15- الجابري محمد عابد، قضايا في الفكر المعاصر، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1997.

16- النجار عبد المجيد، مقاربات في قراءة التراث، الدار المالكية للطباعة و النشر و التوزيع، تونس.

17- الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

18- الطمار محمد، تاريخ الادب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981.

19- الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

20- السيد محمود، اللغة العربية و تحديات العصر، وزارة الثقافة، سوريا، 2008.

21- الخراشي سليمان بن صالح، العولمة، ط1، دار بلنسة للنشر و التوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1998.

22- الرويلي ميجانو البازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، ط3،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002.

23- التريكي فتحي و التريكي رشيدة، فلسفة الحداثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 1996.

24- المسكيني فتحي، الهوية و الحرية – نحو انوار جديدة –،جداول للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 2011.

25- الجرجاني الشريف بن محمد، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995.

26- اللحام محمد بك، عبقرية خالد بن الوليد العسكرية، ط1، دار المنارة، جدة، المملكة العربية السعودية، 1986.

27- الصباغ رمضان، فلسفة الفن عند سارتر و تأثير الماركسية عليها، ط2، دار الإنماء القومي، القاهرة، مصر، 1988.

28- الفراجي عدنان علي، الحياة الفكرية في المدينة المنورة في القرنين الأول و الثاني للهجرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006.

29- المخلف حسن علي، التراث و السرد، ط1، وزارة الثقافة و الفنون و التراث، الواحة، قطر، 2010.

30- إبراهيم محمد محسن الجمل، أبناء الرسول –ص– البنون و البنات و أمهاتهم رضي الله عنهم أجمعين، دار الفضيلة للنشر و التوزيع و التصدير، القاهرة/ مصر.

31- بعلبكي أحمد، أحمد مفلح و آخرون، الهوية و قضاياها في الوعي العربي المعاصر، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية للنشر، بيروت، لبنان، 2002.

32- بعلبكي رمزي و آخرون، اللغة و الهوية في الوطن العربي (إشكاليات تاريخية و ثقافية و سياسية)، ط1 المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، بيروت، لبنان، 2013.

33- بعلبكي منير، قاموس المورد (انجليزي– عربي)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1994.

34- بلكا الياس و حراز محمد، إشكالية الهوية و التعدد اللغوي في المغرب العربي، المغرب انموذجا، ط1، مركز الامارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية، ابوظبي، الامارات العربية المتحدة، 2014.

35- بن عبد العالي عبد السلام، التراث و الهوية، دراسات في الفكر الفلسفي بالمغرب، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1987.

36- بن قينة محمد، في الادب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.

37- بلخامسة كريمة، تحليل الخطاب الروائي في رواية نجمة، دار الامل، الجزائر، 2016.

38- برهومة عيسى، اللغة و الجنس، حفريات لغوية في الذكورة و الانوثة، دار الشروق، عمان، الأردن، 2002.

39- بن غنيسة نصر الدين، في بعض قضايا الفكر و الادب، جولات في العقلين العربي و الغربي،ط1، دار الامة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر،2002.

40- بدوي أحمد، أسس النقد الادبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة، مصر، 2003.

41- جيدل عمار، أفكار استعمارية، ط1، جسور للنشر و التوزيع، الجزائر، 2008.

42- جبار سعيد، من السردية الى التخيلية، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2013.

43- هلال محمد غنيمي، الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة و النشر، مصر، 2001.

44- هلال محمد غنيمي، النقد الأبي الحديث، دار العودة، بيروت، لبنان، 1982.

45- حرب علي، حديث النهايات، فتوحات العولمة و مآزق الهوية، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2004.

46- طقوس محمد سهيل، تاريخ الخلفاء الراشدين (الفتوحات و الإنجازات السياسية)، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2002.

47- طبانة بدوي، قضايا النقد الأدبي، ط3، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية،1984.

48- لمناصرة عز الدين، المناقصة و النقد المقارن، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، 1996.

49- منور أحمد، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية ، دار السائل للكتاب، الجزائر، 2013.

50- منور أحمد، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته و تطوره و قضاياه، ط1، دار التنوير، الجزائر، 2013.

51- منور أحمد، الجزائر في كتابات الادباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ط1، دار التنوير، الجزائر،2013.

52- مختار عمر أحمد، اللغة و اللون، ط2، عالم الكتب للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 1998.

53- منصر نبيل، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، ط1، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 2007.

54- معتوق صالح يوسف، جهود المرأة في رواية الحديث، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 1997.

55- مكاوي عبد الغفار، البير كامو، محاولة لدراسة فكره الفلسفي، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1964.

56- سعيد محمد رأفت، الالتزام في التصور الإسلامي للأدب، ط1، دار الهدى للنشر و الطباعة و التوزيع، مصر، 1987.

57- عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الهوية (جدليات الوعي ، التفكك و إعادة البناء)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2002.

58- عياشي منذر، الكتابة الثانية و فاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998.

59- عمارة محمد، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 1999.

60- عبد اللاوي عبد الله، حفريات الخطاب التاريخي العربي (المعرفة، السلطة و التمثلات)، ط1، ابن النديم للنشر و التوزيع، الجزائر، 2012.

61- عيد رجاء، فلسفة الالتزام في النقد الأدبي، منشاة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1988.

62- عمراني عبد المجيد، جون بول سارترو الثورة الجزائرية، مكتبة مدبولي، مصر.

63- عبد الرحمن عائشة،نساء النبي– ص –، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،1979.

64- عروي محمد اقبال، جمالية الادب الإسلامي، ط1، المكتبة السلفية، الدار البيضاء، المغرب، 1986.

65- عشري علي زايد، استدعاء الشخصيات التاريخية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر،1997.

66- فضل صلاح، منهج الواقعية في الابداع الأدبي، ط2، دار المعارف، مصر،1989

67- فهيم حسين، قصة الأنثروبولوجيا، ط، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت،1986.

68- صدوق نور الدين، البداية في النص الروائي، دار الحوار للنشر، سوريا،1994.

69- قطوس بسام، سيمياء العنوان،ط1، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 2001.

70- قسومة الصادق، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر،تونس،2000.

71- قطب محمد، منهج الفن الإسلامي، ط4، دار الشروق، مصر، 1989.

72- رسول محمد رسول، محنة الهوية، مسارات البناء و تحولات الرؤية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر،بيروت، لبنان،2002.

73- راتب نجلاء عبد الحميد، الانتماء الاجتماعي للشباب المصري، دراسة سوسيولوجية في حقبة الانفتاح، مركز المحروسة للنشر، القاهرة، مصر،1999.

74- شلش علي، الأدب الافريقي، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1989.

75- شعبان بثينة، مائة عام من الرواية النسوية العربية، ط، دار الآداب، بيروت، لبنان، 1999.

المراجع المترجمة :

1- آرفلين توماس، الوجودية، تر: مروة عبد السلام، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، مصر،2014.

2- ألبير كامو، الانسان المتمرد، ط3، تر: نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، 1953.

3- آنيا لومبا، في نظرية الاستعمار و ما بعد الاستعمار الأدبية، تر: عبد الغني غنوم، ط1، دار الحوار. دمشق، سوريا،2007.

4- إدغار موران، النهج، انسانية البشرية، ط1، تر: هناء صبحي، هيئة ابوظبي للثقافة و التراث، الامارات العربية المتحدة.

5- إدغار موران، ثقافة أوروبا و بربريتها، تر: محمد الهلالي، دار توبقال للنشر، الجزائر،2007.

6- ألبير ميمي، صورة المستعمر، تر:ميشال سطوف، منشوراتANEP الجزائر، 2006.

7- إدوارد سعيد،الاستشراق، تر:محمد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر،2006.

8- إدوارد سعيد، الثقافة و الامبريالية، ط4، تر:كمال أبو ديب، دار الأدب، بيروت، لبنان،2014.

9- إيميه سيزر، خطاب حول الاستدمار، تر: ميشال سطوف ، منشوراتANEP، الجزائر،2006.

10- بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ط1، تر : سلمان قعفراني، ط1، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2009.

11- جون بول سارتر، ما الأدب ؟، تر:محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، مصر،1990.

12- جون بول سارتر، عارنا في الجزائر، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة، مصر.

13- جون بول سارتر، الوجودية منزع انساني، تر: محمد نجيب عبد المولى و زهير المدنيني، ط1، دار محمد علي للنشر، مصر، 2021

14- جون جوزيف، اللغة و الهوية (قومية، إثنية، دينية) تر: خرافي عبد النور، ط1، دار المعرفة، الكويت،2007.

15- ذويندي كيه كولما و فرانسيس بارتكوفيسكي، النظرية النسوية (مقتطفات مختارة)، تر: عماد إبراهيم، ط1، الاهلية للنشر و التوزيع، عمان،الأردن،2010.

16- معلوف امين، الهويات القاتلة، تر: نهلة بيضون، ط3، دار الفرابي، بيروت، لبنان، 2015.

17- شارل سان برو، حركة الإصلاح في التراث الإسلامي ، تر: أسامة نبيل، الدار المصرية للكتاب، القاهرة، مصر،2013.

18- هشام شرابي، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، تر:محمود شريح، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان،1993.

19- سيغموند فريد، الأنا و الهو، تر:نجاتي محمد عثمان، دار الشروق، بيروت، لبنان،1992.

المراجع باللغة الأجنبية :

1- Amina Azza Bekkat, regard sur les littératures d'Afrique, Opu, Algérie, 2006.

2 - Ahmed Lanasri, la littérature Algérienne de l'entre deux guerres, genèse et fonctionemment, publisud, Paris, France,1995.

3 - Ahmed Lanasri, conditions sociolinguistiques et émergence de la littérature Algérienne, Algérie, o.p.u, 1986..

4 - Alain Vircondelet, Albert camus fils d'Alger, fayard, France, 2010.

5 - Alain Calmes, le roman colonial en Algérie avant 1914, l'harmattan, France,1984.

6 - Assia Djebar, vaste est la prison, Albin Michel, Paris,France, 1995.

7 - Assia Djebar, l'amour et la fantasia, Albin Michel, Paris, France,1985.

8 - Assia Djebar,les enfants du nouveau monde, julliard, Paris, France.

9 - Assia Djebar, la femme sans sépulture, Albin Michel, Paris,France,2002.

10 - Assia Djebar, ombre sultane, Albin Michel, Paris, France,2006.

11 - Beida chikhi, littérature Algérienne, désir d'histoire et esthétique, l'harmattan, paris, France, 1997.

12 - Beida chikhi, les romans d'AssiaDjebar entre histoire et fantaisie, opu,Algerie,2000.

13 - Beida chikhi, AssiaDjebar, histoires et fantaisies,pups, Paris, France, 2007.

14 - Boussad Berrichi, Tamazghla(Afrique du nord) francophone au féminin, Séguier, Paris,France.2009

15 - charles André Julien, une pensée anti-coloniale, sindbad, Paris, France,1979.

16 - Charles bonn, le roman Algérien de langue française,l'harmattan, Paris,France,1985.

17 - Charles bonn, littérature francophone, t1 : le roman, hatier, Paris,France, 1997.

18 - Chokri khodja, Mamounl'ébauche d'un idéal, Anep, Algérie, 2010.

19 - Chokri khodja, El'euldj captif desbarbaresqures, Anep, Algérie, 2005.

20 - Chaulet Achour Christiane, noun : Algérienne dans l'écriture, séguier, Paris, France, 1999.

21 - Djeghloul Abdelkader, éléments d'histoire culturelle Algérienne,opu, Algérie, 1981

22 - Elisabeth MudimbéBoi, essais sur les cultures en contact, Afrique, Amérique, Europe, 2ème édition,karthala, Paris, France, 1979.

23 - Eugène Daumas, moeurs et cultures , édition Anep, Algérie, 2012.

24 - Emmanuel Roblès, les hauteurs de la ville, 2ème éd, le seuil, Paris, France, 1960.

25 - Faouzia Bendjelid, le roman Algérien de langue française, chihab édition, Algerie, 2012.

26 - Frantz Fanon, les damnés de la terre, édition anep, Algérie, 2006.

27 - Frantz Fanon, l'an v de la révolution Algérienne, édition Talantikit, Béjaia, Algérie, 2014.

28 - Fatima Mernissi, le harem politique, le prophèteet les femmes, Albin Michel, Paris, France, 1987.

29 - Fatma Ahnouch, littérature francophone du Maghreb, imaginaire et représentations socioculturelles, l'harmattan, Paris, France,2015.

30 - Giuliana Toso Rodinis, Emmanuel Roblès et le grand théatre du monde, traduit de l'italien par Gérard Hug, Paris, France, 1959.

31 - Guétarni Mohamed, littérature de cambat chezdib, kateb, et Ferraoun, dar el gharb, Algérie, 2000.

32 - Génette Gérard, seuils, le seuil, Paris, France, 1987.

33 - Jean Déjeux, la littérature Algérienne contemporaine, 2ème édition, presse universitaire de France, paris, France, 1979.

34 - Jean Déjeux, la littérature maghrébine de langue francaise 3èmeédition, Naaman, Sherbrosk, Quebec, Canada, 1950.

35 - Jean Déjeux, situation de la littérature Maghrébine de langue,opu, Algérie, 1982.

36 - Jean Déjeux, dictionnaire des auteurs Maghrébins de langue Française, karthala, Paris, France, 1984.

37 - Jean Déjeux, Littérature féminine de langue Française au Maghreb, édition karthala, Paris, France, 1994.

38 - Jacqueline Arnaud, la littérature Maghrébine de langue française, t1, publisud, France, 1986.

39 - Jacqueline Arnaud, Kateb Yacine, l'œuvre en fraguements, 2ème édition, sindbad, Paris, France, 1956.

40 - Jean Marc Moura, littérature Francophne et théorie postcoloniale, puf, Paris, France,2013.

41 - Khatibi Abdelkader, le roman Maghrébin, François Maspéro, Paris, France, 1968.

42 - Mohamed Ould Cheikh, Mériam dans les palmes, opu, Algérie,1958.

43 - Mouloud Ferraoun, le fils du pauvre, Enal, Algérie, 1986.

44 - Mouloud Ferraoun, lettres à ses amis, le seuil, Paris, Fance,

45 - Mouloud Mammeri, le sommeil du juste, édition elotmania, Algérie,2005.

46 - Malek Wary, Le grain dans la meule, Buchet, Paris, France, 2000.

47 - Malek Haddad, le quai aux fleurs ne répond plus, julliard, Paris, France, 1961.

48 - Malek Hddad, les zéros tournent en rond, Maspéro, Paris, France, 1961.

49 - Mourad Boureboune, le mont des génets, julliard, Paris, France,1962.

50 - Mourad Boureboune, le Muezzen, Christian Bourgeois, Paris, France, 1968.

51 - Mokthari Rachid, la graphie de l'horreur, essai sur la littérature Algérienne (1990-2000), édition chihab, Algérie, 2002.

52 - Marsault – loi Elisabeth, écrit de femme, Messidor, Paris, France,1986.

53 - Nabil Farès, Mémoire de l'absent, le seuil, Paris, France, 1973.

54 - Nadjib Redouane et yvette benayoun szmidt, AssiaDjebar, l'harmattan, Paris, France, 2008.

55 - Pierre Bourdieu, sociologie de l'Algérie, puf, Paris, France, 1970.

56 - Richard Omgba, la littérature anticolonialiste en France entre 1917-1960, l'harmattan, Paris, France, 2005.

57 - Sakina Messadi, les romancières coloniales et la femme colonisée, entreprise nationale du livre, Algérie, 1989.

58 - Souhila khian, écritures et transgression d'AssiaDjebar et Leila Sebar(les traversées des frontières), l'harmattan, Paris, Fance, 2009.

59 -Tariq Ramadan, mon intime conviction, Archipoche, France, 2011.

60 - Youcef Nacib, Mouloud Ferraoun, édition Mehdi (classiques du monde), Algérie.

القواميس و المعاجم:

1-الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ،ج4 ، ط4 ، دار المأمون للطباعة.

الدوريات والمجلات باللغة العربية :

1- بودربالة الطيب و السعيد جاب الله ، الواقعية في الادب،مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة ، الجزائر، عدد7 ،فيفري 2005.

2- زايد أحمد، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات ، قضايا في الهوية و تصنيف الذات ،مجلة عالم المعرفة ،عدد 326 ، الكويت، افريل 2006.

3- حمود ماجدة ، إشكالية الانا و الاخر، مجلة عالم المعرفة ، عدد 398 ، المجلس الوطني للثقافة و الآداب و الفنون ، مارس 2013.

4- لوكام سليمة ،الأرض و العرق و الدين ، مجلة العربي ، دار السياسة ،عدد5 ، الكويت ، ماي 2012.

5- معطى الله احمد ، رؤية ادوارد سعيد للمثقف العربي بين الالتزام و الأيديولوجيا ، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة العربي بن مهيدي ، ام البواقي ، جوان 2016.

6- سعدي محمد ، الهوية من الوحدة الى التعدد ،مجلة افاق المستقبل ،عدد7 ، أبوظبي ، الامارات العربية المتحدة ، سبتمبر/ أكتوبر، 2010 .

7- علاوي الخامسة ،الالتزام في الادب بين حقيقة الوضع و مجازية الاستعمال ، مجلة جيل للدراسات الأدبية و الفكرية ، عدد12 ، اكتوبر2015 .

8- رونالد اورنسون ،كامي و ساتر، تر: شوقي جلال ، مجلة عالم المعرفة، عدد 334 ، الكويت ، ديسمبر 2006 .

9- ظاهر محسن جاسم، ظاهرة التزام الشاعر في الادب الإسلامي ، مجلة ينابيع ،عدد 25 ، جامعة الكوفة ،العراق، رجب/شعبان 1429 .

الدوريات و المجلات باللغة الفرنسية :

1 – Amira Souames , croisement des cultures , croisement des destins, deux figures de la contestation : Fatima dans loin de médine d'Assia Djebar et Antigone de Sophocle , synergies, N:º 7, Algerie, 2009.

2 – El Nouty Hassan, l'enracinement arabe dans la littérature maghrébine de langue Française, in revue de l'occident musulman et de la méditerranée, n : 22, France, 1976.

الرسائل الجامعية باللغة العربية:

1- رشا ناصر علي ، الابعاد الثقافية للسرديات النسوية المعاصرة (1990-2005) ، أطروحة دكتوراه في الادب ، جامعة عين شمس ، مصر، 2009 .

2- عزوز نواصري ، الجزائر في ادب الرحلة الفرنسي، غي دوموبسان و ايزابيل ابرهارتانموذجا ، مذكرة ماجستير ، جامعة عباس لغرور خنشلة ، الجزائر، 2015.

الرسائل الجامعية باللغة الفرنسية:

1 - Belmokhtar Hichem, universalité de la voix Dibienne entre métadiscours, représentations et quète du sens à travers : Tlemcen ou les lieux de l'écriture, l'aube Ismael, l'Arbre à dires, Simorgh et Laèzza, Thèse de doctorat, univ de Tlemcen,2016/2017.

أشغال الملتقيات Travaux de colloques

1- سامية داودي ، أطفال العالم الجديد لاسيا جبار، ملتقى اسيا جبار بين اكراهات الكتابة بلغة الاخر و سلطان الذاكرة و التاريخ ، جامعة مولود معمري تيزي وزو ، الجزائر، 2013.

2- راشدي حسان ، إعادة كتابة التاريخ في رواية بعيدا عن المدينة لاسيا جبار، اشغال الملتقى العالمي حول تجربة الكتابة عند اسيا جبار ، جامعة مولود معمري تيزي وزو ،الجزائر ،2013 .

المواقع الالكترونية باللغة العربية:

1-بوعزة محمد، تمثلات الهوية النسوية في رواية دنيا لعلوية صبح.http://www.dohainstitut.org

2-ديدوح عمر ، الصراع اللغوي في الجزائر :" تأزيم الهوية " http://www.almarefh.net

المواقع الالكترونية باللغة الفرنسية :

1 - Mortimer Mildred , entretien avec AssiaDjebar , écrivaine Algérienne , http://www.jstor.org

2 - Fatima Zohra Chiali , l'histoire des femmes selon AssiaDjabar à travers une étude sémiotique de loin de médine, http://ouvrages.crasc.dz

3 - Jean Kaempfer, SonyaFlory et Jérome Meizoz, formes de l'engagement littéraire (xvI – xxI), https://www.decitre.fr éditions antipodes, Lausanne, Suisse, 2006

فهرس

الموضوعات

العنوان	الصفحة
مقدمة.....	أ-ط
الباب الأول	
الفصل الأول : الادب الجزائري المكتوب بالفرنسية – مقاربة تاريخية و نقدية	11
1- الأدباء الرحالة.....	17
2- أدب فرنسيي الجزائر.....	22
3 - التيار المتجزئر.....	24
4 - التيار المتوسطي.....	30
5- الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.....	44
5-1 جيل ما بين الحربين.....	44
5-2- 1 الأهلي واللغة المستعارة.....	59
5-3-2 الزواج المختلط وإرادة التحرر.....	78
5-4 جيل خمسينات القرن الماضي.....	83
5-5 – 1 المشروع الروائي لما قبل الثورة.....	84
5-6- 2المشروع الروائي الثوري أو أدب المقاومة.....	92
5-7 جيل ستينيات القرن العشرين أو الجيل الجسر.....	110
5- 8 الأدب الاستعجالي.....	119
5- 9 جيل الألفية الثالثة.....	120
6-جداول و أعمدة بيانية توضيحية	123
الفصل الثاني : في فلسفة الهوية	
1 -**المبحث الأول :** الهوية، مقاربة في المفاهيم.....	137
1-1 مقاربة فلسفية فكرية.....	139
1-2 مقاربة أنثروبولوجية ثقافية.....	140
1-3 مقاربة سيكولوجية سوسيولوجية.....	143
1-4 مقاربة جندرية أنثوية.....	145
2 – **المبحث الثاني :** إشكالية اللغة و الهوية.....	149
2-1 اللغة تكريس لمفهوم الهوية.....	149
2-2 اللغة رمز الانتماء.....	151
2-3 إشكالية التعدد اللغوي.....	153
2-4 اللغة الفرنسية في الجزائر، غنيمة حرب أم استلاب هوية ؟.....	156

3- **المبحث الثالث :** البعد الهوياتي المتعدد أو قهر العولمة.....	160
3-1 العولمة وخطر تشظي الهوية.....	160
3-2 المثاقفة وطمس الهوية.....	163
3-3 الهوية المتعددة والهوية القاتلة.....	164
3-4 الحداثة والهوية أو الموقف من التراث.....	168
الفصل الثالث : الالتزام و الأدب ، أي تعالق ؟	
1- اركيولوجيا الالتزام.....	173
2- الالتزام من منظور التيارات الفكرية المعاصرة.....	182
2-1 الواقعية الاشتراكية منظرا للالتزام.....	185
2-2 الوجودية محضنا للالتزام.....	189
2-2-1 الوجودية السارترية هدفا للانتقادات.....	193
2-3 الالتزام بين الواقعية الاشتراكية والوجودية.....	195
3- الثورة الجزائرية محكا للالتزام.....	196
4 - الالتزام من وجهة نظر إسلامية.....	201
الباب الثاني	
الفصل الأول : رواية "بعيدا عن المدينة" : الهوية في قلب التاريخ، و التاريخ في قلب التخييل	
توطئة : التراث والرواية والهوية.....	208
1- تمظهرات الهوية في روايات آسيا جبار.....	215
1-1 تجلي الأنثى في روايات آسيا جبار.....	215
1-1-1 آسيا جبار : ميلاد انثى.....	215
1-2 مراحل تطور الكتابة عند آسيا جبار.....	221
1-2-1 المرحلة الأولى 1967/1957.....	221
1-2-2 المرحلة الثانية 1977/1967.....	222
1-2-3 المرحلة الثالثة 2015/1980.....	223
1-3 آسيا جبار أم فاطمة الزهراء إملاين ؟.....	224
1-4 تيمات روايات آسيا جبار (المرأة- التاريخ – الهوية).....	226
1- 5 المرأة في روايات آسيا جبار: الوعي بالذات و تأصيل الهوية.....	228
1-5-1 رواية العطش أو التغريد خارج السرب.....	228
1-5-2 رواية الحب و الفنتازيا أو الرؤية الانثوية للاحتلال الفرنسي للجزائر.....	229
1-5-3 رواية أطفال العالم الجديد او بنوراما حياة المرأة الجزائرية.....	231

1-5-4 رواية امرأة من دون قبر : المرأة الاستثنائية.....	236
1-5-5 رواية ظل السلطانة أو المرأة المستلبة.....	238
1-5-6 رواية بعيدا عن المدينة : الهوية في قلب التاريخ، و التاريخ في قلب التخييل.....	241
1-6-5-1 عتبات الرواية.....	242
أ/ هندسة العنوان.....	242
ب/ قراءة في ابعاد العنوان.....	243
ج/ اسم الؤلف.....	246
د/ رمزية صورة الغلاف.....	247
1-6-5-2 الخطاب المقدماتي.....	249
1-6-5-3 معمارية المتن الروائي.....	257
أ / الحرية و التحدي	257
أ/ 1 الملكة اليمنية و جوديت اللاهوتية.....	257
أ/ 2 النوارأو ظل المحارب.....	266
أ/ 3 سلمى المتمردة.....	269
أ/ 4 سجاح التميمية : المسيحية المتنبئة.....	274
أ/ 5 المرأة الراوية، خزان الذاكرة.....	279
ب / محتجات و ثائرات	285
ب/ 1 فاطمة الزهراء والمرأة الثائرة.....	285
ب/ 2 فاطمة وانتجونة ، صورتان لقضية واحدة : الرفض والاحتجاج.....	292
ج/ خاضعات و غير خاضعات	298
ج/ 1 مغنية الأهجيات الكافرة او المرأة المتمردة.....	303
الفصل الثاني : رواية الحريق أو المقاومة بالكتابة	
1 - الحياة القلمية لمحمد ذيب.....	315
2 - محطات الكتابة الروائية الذيبية.....	317
2 – 1- المحطة الواقعية (1952 – 1959).....	317
2 – 2- المحطة الرمزية (1962 – 1973).....	318
2 -3- محطة الاغتراب (1977 – 1994).....	323
الحريق، رواية صنعت التاريخ	331
1 – الكتابة الملتزمة، كشف للواقع البائس.....	334
2 – الكتابة الملتزمة، مصدر لانبثاق الوعي.....	348
3 – الكتابة الملزمة، دعوة مضمرة للتمرد والثورة	357
4 – الكتابة الملتزمة، موقف وفعل.....	362
الخاتمة.....	370

المصادر والمراجع.....	375
فهرس الموضوعات.....	388
الملخص.....	–

ملحق

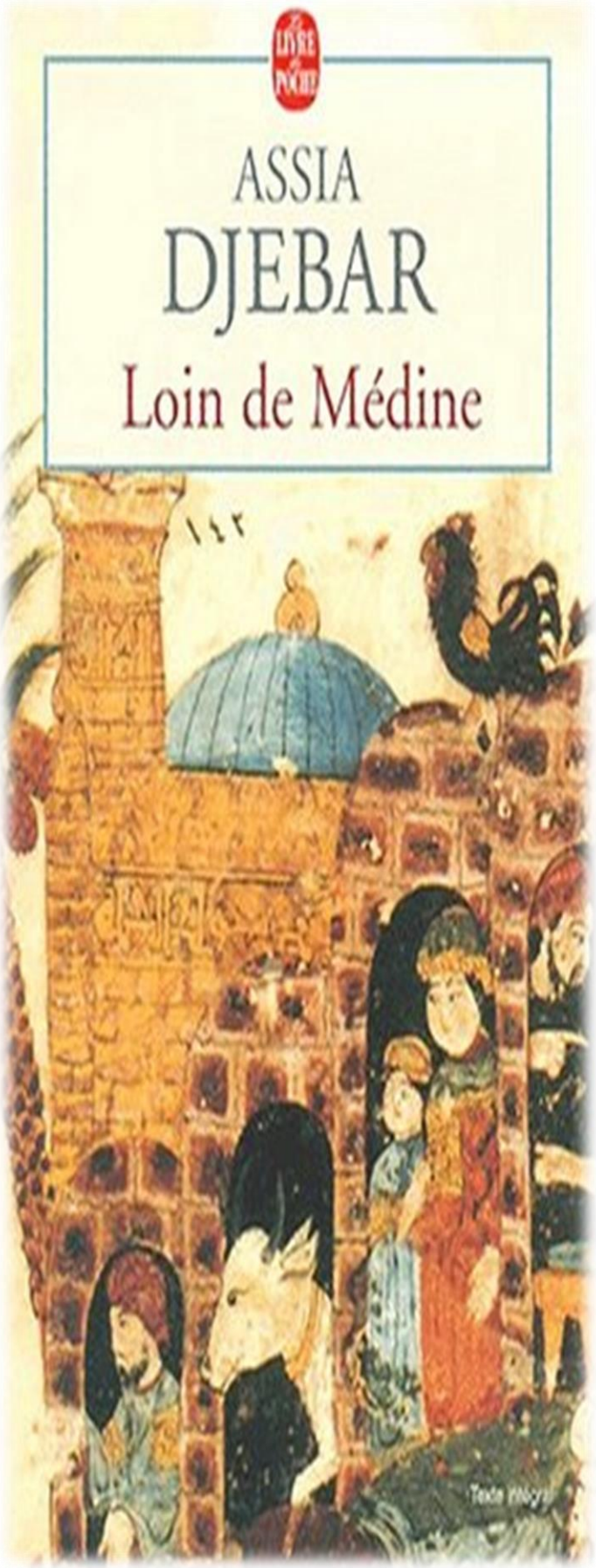
ASSIA
DJEBAR
Loin de Médine

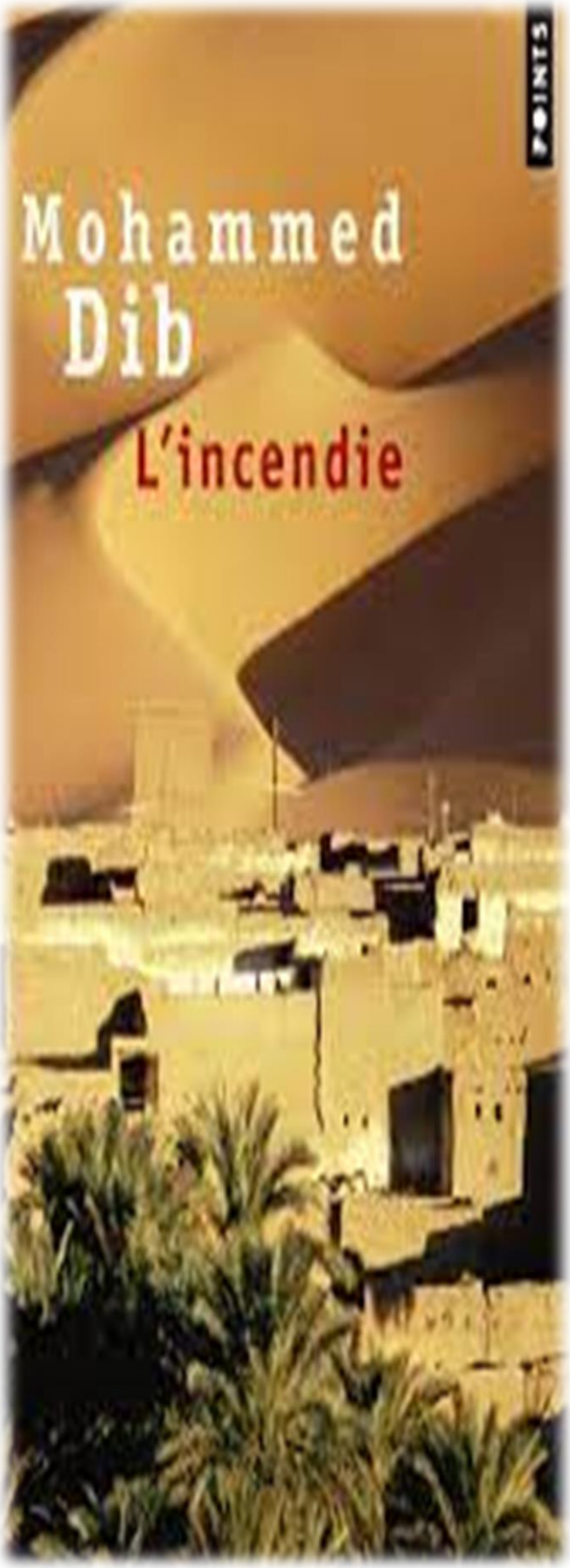
POINTS
Mohammed
Dib
L'incendie

ملخص

مثل الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية فضاء مهما للبحث والتساؤل حول العديد من القضايا الراهنة من قبيل: مسألة انبعاث الوعي، الهوية، الالتزام، الثورة...، وقد اصطفى هذا الأدب إلى جانب المقهورين، ودافع عنهم ببسالة، وقد شهدت الساحة الأدبية الجزائرية منذ الحقبة الاستدمارية حتى بدايات الألفية الثالثة ظهور المئات من المؤلفات وفي جميع الأجناس الأدبية (روايات، قصص، قصائد، قطع مسرحية)، والتي كانت أحسن معبر عن تطلعات الجزائريين في مختلف الحقبات التاريخية.

لقد حاولنا من خلال هذه الدراسة، التي أردناها تاريخة ونقدية، تتبع مسار هذا الأدب منذ النشأة (فترة ما بين الحربين) وحتى يومنا هذا، وقد اتخذنا لبحثنا هذا مدونتين مهمتين، رواية بعيدا عن المدينة لآسيا جبار ورواية الحريق لمحمد ذيب، مركزين على تحديد كل تمظهرات الهوية والالتزام، ومن ثم الشروع في التحليل والنقد.

وقد خلصنا إلى أن اختيارنا لهاتين المدونتين كان اختيارا صائبا، بالنظر إلى كونهما أفضل من مثل هذا الصنف من الأدب، وكذا لكون الأديبين قد أسسا، ولو بدرجات متفاوتة، لما بات يعرف بأدب الرفض والاحتجاج، الذين ساهما في انبثاق وعي جمعي لمواطنيهم، كان بمثابة نقطة انطلاق لثورة أعادت الحقوق إلى أصحابها.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الالتزام، انبعاث الوعي، الثورة، الاستدمار.

Résumé

Née dans un contexte colonial, la littérature Algérienne d'expression Française, constitue un espace de questionnement, oû plusieurs thèmes d'actualité ont été soulevés et abordés, tels que: la prise de conscience, l'identité, l'engagement, la rebellion...

Cette dite littérature avait pris la partie des opprimés, et défendu leur cause, de ce fait la scène littéraire Algérienne de l'époque coloniale et jusqu'à cejour, a vu réssurgir des centaines d'ouvrages tout genre confondu (roman, nouvelle,

poêmes, pièce de théatre) qui n'étaient guerre indifférents aux aspiration des Algériens à travers toutes les époques.

Nous avons tenté, en se basant sur cette étude, retracer le parcours de cette littérature à commencer par la littérature de l'entre deux guerres, et jusqu'à celle du troisième millinaire, en prenant comme corpus d'appui deux romans de renomée, à savoir, loin de médine d'Assia Djebar, et l'incendie de Mohammed Dib, et nous nous sommes beaucoup soucier de procéder au repérage de toutes les représentations de l'identité et de l'engagement dans ces deux romans, et d'en apporter notre conttribution d'analyse et de critique.

Nous avons, enfin, conclu de l'adéquation de notre choix quand aux deux corpus d'appui, qui étaient d'une représentativité marquante, et dont les deux auteurs étaient de vrais détenteurs de messages aussi bien revendicatifs que contestataires, qu'ils essayaient de véhiculer à travers toutes leurs œuvres, pour enfin, déboucher sur une prise de conscience collective de leurs concitoyens, menant vers une rebellion qui rendrait les droits aux ayants droits, une tâche qui a été bien accomplie.

Mots clés : Identité, engagement, prise de conscience, rebellion, colonialisme.

Abstract

The Algerian literature written in French has been an embracing and fertile environment for research and digging for numerous current issues of such : the rebirth of awareness , the identity, commitment, revolution and so on. This type of literature has taken sides with the oppressed and fiercely defend them . The Algerian literature has witnessed from the destructive colonial era up till the beginning of the second millennium , the emergence of hundreds of publications in all sorts of literature genres (novels , stories, poetries, poems, pieces of theatre plays) which were the most expressive way convey the Algerians desires over all historic eras.

Through this study which is intended to be historic and critical. We sought after the dissection of the trial of this type of literature since it came to the surface (between WWI and WWWII) up to this date. For this piece of research , we relied on two invaluable novels: “ Away from the city “ by Assia Djebar and “

The Fire “by Mohamed Dhib. The focus here is on the aspects of identity and commitment. Right up next, comes analysis and critics.

Indeed , these two novels are a fit considering they best represent such type of literature . Furthermore, both have established in uneven degrees what is commonly known as the literature of rejection and protest . These later have contributed to the rebirth of the Algerian mass awareness as it was simultaneously a starting point for a revolution that retrieved rights to the rightful deservers.

Key words : identity , commitment, rebirth of awareness , revolution, destructive colonialism